قام الطالب بتصحيح رسالته كما رأت اللجنة

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الكتاب والسنة

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

في الكتاب والسنة

[دراسة تطبيقية لقول عائشة رضي الله عنها (كان خلقه القرآن)]

رسالة مقدمة لقسم الكتاب والسنة في مرحلة الدكتوراه

أعدها

الطالب / أحمد عبد العزيز قاسم الحداد

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد

١٤١٣هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فإن هذه الرسالة المقدمة في مرحلة الدكتوراة بعنوان(**أخلاق النبي ﷺ في الكتاب والسنة**)"دراسة تطبيقية لقول عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن"، تتكون من مقدمة وستة أبواب وخاتمة؛ تناولَت المقدمةُ الحديث عن سبب اختيار هذا الموضوع، وبيان خطته ومنهجه، كما تناول المدخلُ الحديث عن خمسة مباحث أخلاقية مهمة بين يدي الرسالة .

أما الباب الأول من الرسالة فقد عني ببيان الأخلاق القرآنية الإيمانية من رضا وتوكل وخوف وخشية ورجاء وإخلاص واستقامة وشكر وحمد ومحبة وتوبة وإنابة،والتطبيقات النبوية لكل ذلك .

وعني الباب الثاني بالأخلاق القرآنية التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج وتهجد وذكر والتطبيقات النبوية لها .

أما الباب الثالث فقد عني ببيان الأخلاق القرآنية السلوكية من صدق وصبر وتواضع وحياء وزهد وأمانة ووفاء وحلم ورحمة وكرم، وتمثل تلك الأخلاق في النبي ﷺ .

كما عني الباب الرابع بالأخلاق القرآنية الاجتماعية الأُسرية والاجتماعية العامة والمادية، وتمثلها في المصطفى ﷺ .

وكانت عناية الباب الخامس بالأخلاق القرآنية المتعلقة بالنبوة والإمامة، وانقسم الحديث في هذا الباب إلى خمسة فصول: كان الفصل الأول في الأخلاق الواجبة للنبوة، والثاني في أخلاق البلاغ والدعوة، والثالث في الأخلاق العلمية، والرابع في الأخلاق السياسية، والخامس في الأخلاق القيادية، وبيان تمثل كل ذلك في النبي ﷺ .

أما سادس هذه الأبواب فكان في آثار الأخلاق النبوية في أثناء حياته وبعد مماته ﷺ .

وانتهت الرسالة بخاتمة تضمنت نتائج ومقترحات مهمة. أما النتائج ففي مجالين:

المجال الأخلاقي، والمجال النبوي، أما المجال الأخلاقي فكانت أبرز نتائجه ما يأتي:

١- اهتمام القرآن الكريم بالأخلاق بحيث بلغ العدد الإجمالي لآيات الأخلاق نحو الربع من عدد آي القرآن الكريم .

٢- أن الأخلاق في شريعة الإسلام تُعد أحد أصوله الأربعة وهي على الترتيب: الإيمان، الأخلاق، العبادات، المعاملات .

٣- أن عناية القرآن الكريم بالأخلاق كانت من فجر الرسالة المحمدية .

٤- أن من غايات بعثة محمد ﷺ تزكية أخلاق الأمة .

أما المجال النبوي فكان من أبرز نتائجه ما يأتي:

١- أن عظمة أخلاق رسول الله ﷺ كانت منذ نشأته وريعان شبابه .

٢- أن بعثته ﷺ بالرسالة الخاتمة زادت أخلاقه العظيمة كمالاً ورسوخاً .

٣- أنه ﷺ كان يترجم القرآن العظيم بسلوكه ظاهراً وباطناً، وبأقواله وأفعاله وأحواله .

٤- توازن أخلاقه ﷺ بحيث كانت جميعها كأنها في قالب واحد تتفق ولا تتناقض .

٥- ثبات أخلاقه ﷺ ثباتاً راسخاً مدة حياته بحيث لم يحصل منه ما يناقض أخلاقه العظيمة قط .

٦- عظم الأثر الذي تركته أخلاقه ﷺ في نفوس مشاهديه أو قارئي سيرته من أمته وغير أمته، في حياته وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

وأما المقترحات فكان من أبرزها ما يأتي:

أولاً: دعوة العلماء إلى التركيز في استخراج الأخلاق الإسلامية من منبعها الأصيل الكتاب والسنة بأسلوب يناسب حال العصر .

ثانياً: أن يكون للأخلاق الإسلامية نصيب من العناية في مناهج التعليم .

ثالثاً: أن يوفر مناخ عملي لهذه المادة في التعليم والتطبيق . والله أعلم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
أحمد عبدالعزيز قاسم الحداد	أ.د/عبدالستار فتح الله سعيد	أ.د/علي بن نفيع العلياني

إهـداء

إلى من غرسا في فؤادي محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأخذا بيديَّ إلى الاتباع والاقتفاء ....

إلى والديَّ الحنونين براً وشكراً ووفاء ....

وإلى الأمة المسلمة في كل أرض وتحت كل سماء ....

وإلى الدعاة الصادقين إخلاصاً وتضحيةً ووفاءً ....

إليكم جميعاً أيها الأصفياء أهدي هذا الجهد لتقتبسوا أخلاق المصطفى، فتمثلوها بالجهر والخفاء ....

أحمـد

شكر وتقدير

إن أولى ما لهجت الألسن بذكره، وتحركت به شفتا العاقل في يومه وأمسه، وتشرف اليُراع في سطره ورسمه، شكرُ الله تعالى ذي الآلاء الكريمة، وسوابغ النعم المترادفة العظيمة، وأجلها نعمة الهداية للإسلام، والتوفيق لطلب العلم في بلد الله الحرام، والتشرف في تفيء ظلال الفرقان، وشمائل نبي الإسلام، والتّجوال في رياض سنته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فله سبحانه على ذلك كامل شكري باللسان والجَنان والأركان، وأسأله التوفيق للمزيد من شكره في الغدو والآصال، وعلى كل حال، فإنه بنعمته وفضله تتم الصالحات .

ثم هو بعد ذلك موصول إلى ذوي الفضل من فضله، وأهل البر من خلقه، الذين جعلهم الله من مفاتيح الخير في كونه، وأخص منهم شيخي المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور«عبد الستار فتح الله سعيد»حفظه الله، ذلك الشيخ الذي لولا فضل الله علي وعليه لما غدا هذا البحث أو راح، وإنما يَحمَد القومُ السُّرَى عند الصباح، إذ كان أول من أشار بجمعه، ثم أحاطه بدقيق ملاحظاته، وكامل متابعاته، وجليل تصحيحاته، في مدة جمعه وتحريره، يقرأه المرة تلو الأخرى، ويضفي عليه كمالا وجمالا في الحين بعد الآخر، حتى جاء على هذا النحو الذي هو عليه، والذي أرجو أن يسرَّ قارئيه، ويفيد طالبيه ومبتغيه .

فله مني جزيل الشكر وصالح الدعاء، وجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء .

وكذلك كل من كانت له عليَّ أياد بيضاءفي العون على إنجاز هذه الرسالة فله مني أوفر الشكر وأجزله، وأكمله وأفضله، وإن استطردت لذكر أسمائهم لطال بي المقام، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله، فأخص بالذكر منهم: القائمين على هذه الجامعة المباركة العريقة التي أتاحت لي الفرصة بمواصلة الدراسة العليا، ثم رعتني وزملائي بالرعاية والعناية طيلة فترة انتمائنا إليها،فلمديرها الفاضل الشريف د/راشد الراجح أوفر الشكر وأجزله،ولكليتنا المباركة الموفقة كلية الدعوة وأصول الدين أجمل الشكر وأحسنه،

وأخص بالذكر عميدها الموقر فضيلة الدكتور علي بن نفيع العلياني، ورئيس قسمنا المكرم فضيلة الدكتور أسامة بن عبد الله خياط، ولسائر مشايخنا أعضاء مجلسي القسم والكلية، وأعضاء الهيئة التدريسية،على رعايتهم وحسن معاملتهم لنا في أطوار مراحل الدراسة كلها .

ولا يفوتني أن أنوه بمن بذل معي جهدا في مساعدتي بمقابلة صفحات هذه الرسالة بعد طباعتها وهم: الوالد الفاضل الحبيب السيد عبد العزيز قاسم الحداد، والأخ العزيز ذوالنجدة والشهامة والخلق النبيل طه مصلح، والأخ صالح محمد صغير، وللأخوين الحافظين لكتاب الله تعالى عبد الرؤوف محمد عبد الوهاب، وعبد الرحمن محمد عبد الوهاب اللذين تصفحا الآيات القرآنية وصححا ما ند تصحيحه عليَّ، وكذا الأخ الأستاذ عبد الله بن عمر حاج إبراهيم على ما بذله معي من جهد في طباعة الرسالة، وحرص على إخراجها في أجمل ثوب، لهؤلاء جميعا أزجي خالص شكري وجزيل تقديري، والله يتولى جزاء المحسنين :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه لا يذهب العرف بين الله والناس

أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة

الحمد لله الواحد الخلاق، فاطر السبع الطباق، ومقسم الآداب والأرزاق، الهادي لأحسن الأخلاق .

أحمده على آلائه الكثيرة التي تملأ الآفاق، وأشكره على نعمائه الجزيلة التي تطوق القلوب والأعناق .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرها ليوم المساق، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق، الداعي إلى الله تعالى بأقواله وسلوكه على بصيرة وإرفاق .

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم الذي طابت سريرته، وحمدت سيرته، الذي أنقذ الله به الناس من ضلال الجاهلية، وأظهر به على الدين كله الملة الحنيفية، فكان رحمة للبشرية، وهاديا وبشيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مبينا .

صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، وأزواجه أمهات المؤمنين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن أمر الأخلاق في شرعة الإسلام عظيم شأنه، عالية مكانته ومنزلته، بلغ به الحال في الاهتمام والكمال، أن كان قرين العقائد في تنزل القرآن، وأن كان أحد الأصول الأربعة التي يقوم عليها دين الإسلام التي هي (الإيمان، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات) ولذلك نال العناية الكبرى والحظوة العالية القصوى، في تنزل القرآن الكريم، خاصة في القسم المكي منه بحيث بلغت الآيات في هذا الجانب نحو ألف وخمسمائة، وذلك نحو ربع القرآن الكريم كله، وما ذلك إلا دليل واضح بهي، وبرهان ساطع جلي، على سمو منزلة هذا العلم في هذه الملة الحنيفية المصطفاة المرتضاة .

ولقد بلغت مكانته ذروتها، ووصلت منزلته شأوها وغايتها، يوم أن أخبر الله تعالى أن بعثة نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى والمقتفى، سيدنا محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه أن مهمتها بعد تقرير الوحدانية وترسيخ الجذور الإيمانية كانت لغرض التزكية

الروحية وتهذيب الأنفس البشرية، وإصلاح سلوك الإنسانية، وذلك فيما تحدث به كتابه الكريم في غيرما آية كقوله جل ذكره: ﴿كما أَرسلنا فيكم رسولا منكم يتلُو عليكم آياتِنا ويزكِّيكم ويعلِّمُكم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمُكم ما لم تكونُوا تعلمون﴾[البقرة:١٥١]، وقوله تعالى وتقدس: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفُسِهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضَلال مبين﴾[سورة آل عمران:١٦٤] .

وما أوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طبيعة رسالته وغايتها، وذلك فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١) .

وحيث كانت بعثته صلى الله عليه وسلم مغيَّاة بتقرير الأصول الإيمانية، وتزكية الأنفس البشرية بالمكارم الأخلاقية..، كان لا بدع أن يُعنى القرآن الكريم عناية عظمى بالمبادىء الأخلاقية ، من أول الطريق إرشادا وتربية وتعليما، حيث أنزل الله تعالى سورة المدثر، وأوجب على رسوله صلى الله عليه وسلم القيام بتبليغ رسالة الله تعالى إلى خلقه، وأن يتدرع بمكارم الأخلاق في نفسه، حتى ينهج على منواله، ويقتفي آثاره أتباعُه من بعده، فقال تعالى في مطلع هذه السورة التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبعثة والرسالة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * يا أيُّها المدَّثر * قم فأنذِر * وربَّك فكبِّر * وثيابك فطهِّر * والرُّجز فاهجر * ولا تمْنُنْ تستكثر * ولربِّك فاصبر ...﴾[سورة المدثر:١-٧] .

فترى أن مكارم الأخلاق من الطهارة وترك المنكر، وعدم المن، والتحلي بالصبر، هيمنت على مهمة البعثة بعد توحيد الله تعالى .

وما زال تنزل القرآن الكريم على مثل هذا الحال وبمثل هذا الأسلوب مدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة،ولما انتقل إلى المدينة اتجهَت عناية القرآن الكريم إلى بقية الأحكام التشريعية من عبادات ومعاملات، مع متابعة عنايته بالأصول الأولى

(١) حديث صحيح سيأتي ذكره وتخريجه ص ١٨ .

كالوحدانية والأخلاق كما ستعلمه جليا في منزلة الأخلاق في الإسلام من المدخل الآتي عما قريب إن شاء الله تعالى(١) .

ولما كانت طبيعة هذه الرسالة الخاتمة، وهذا الدين المرتضى كذلك، اقتضى أن يكون حامله والمبعوث به على أوج الكمال الأخلاقي، وأعظم الخلق الإنساني، حتى يكون موائما لما بعث به، ومبينا له بسلوكه وقوله وحاله .

لذلك فطر هذا المبعوث رحمة للعالمين، ـ عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ على ذلك الحال من البلوغ في أوج الكمال الأخلاقي، وعظمة الخلق الإنساني .

فنشأ عظيم الخلق كريم السجايا، زكي الروح، عالي الهمة، شريف النفس، طاهر الأردان(٢)، حميد السيرة، نقي السريرة، متوقِّد البصيرة، شغوفا بمعالي الأمور ومكارمها، بعيدا عن دنايا الأخلاق وسفاسفها، لم تعرف له صبوة، ولم تحفظ له زلة، ولا عثر له على هفوة ...

لمَّا كان على ذلك الحال من الكمال والعظمة الذي فطره الله تعالى عليه ،كان قد ترشح لتلقي الوحي السماوي، والتنزل القرآني، فاصطفاه الله تعالى بذلك ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

كما يشهد لذلك أن الله تعالى شهد له بعظمة الخُلق في أوائل بعثته،حيث لم يكن قد مضى له كبير وقت في الرسالة حتى شهد له الله تعالى بذلك الخلق العظيم، فقال جل شأنه: ﴿ن والقلمِ وما يَسطُرون * ما أنت بنعمةِ ربِّك بمجنون * وإن لك لأجراً غيرَ ممنون * وإنك لَعلى خُلُق عظيم﴾[القلم:١-٤] .

وناهيك بهذه الشهادة عظمة وكمالا، وبهذا الأسلوب بلاغة وتأكيدا على عظمة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكمال مكارمها فيه .

---

(١) انظر ص ١٤ إلى ص٢٧ .

(٢) جمع رُدْن؛ وهو: مقدم كم القميص، ويكنى به عن النزاهة والعفة وصفاء الظاهر والباطن، انظرلسان العرب ١٣/١٧٧ .

ومع ما كان عليه من ذلك الكمال الأخلاقي ، إلا أن القرآن الكريم لم يفتأ مدة تنزله عليه يضفي على كماله الخلقي كمالا، وعلى جميل آدابه جمالا، وعلى زكاء نفسه تزكية ونقاء، وذلك بتوجيهه لكل خير، وإرشاده لكل معروف، ودلالته على كل فضل، وتعليمه ما لم يعلم...،وكان عليه الصلاة والسلام سريع الامتثال لتعاليمه، بدَهيّ التحلي بآدابه والتمثل لأخلاقه، والتطبيق لأحكامه، حتى أضحى يوضح القرآن، ويترجم أخلاقه وأحكامه وتعاليمه كأوفى ما يكون البيان ، بالأقوال والأفعال والجنان، حتى غدا القرآن في شخصه كامنا، وفي ذاته وسلوكه مترجما، كما كان الصحابة رضوان الله عنهم يرونه صلى الله عليه وسلم على ذلك الحال، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابته بقولها: "كان خلقه القرآن"(١)

فدلته على أنه إن أراد أن يعرف أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فما عليه إلا أن يتصفح القرآن، فما وجد فيه من خلق فليعلم أنه كان خلقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحلى به على وجهه الكامل وصورته المثلى، وذلك في كل خلق يجده من غير استثناء .

وهي رضي الله عنها قد قربت له مطلبه العظيم وبغيته الكبيرة التي لا يسهل عليه جمع شتاتها في وقت قصير، لما يحوج إليه الحال من سؤال الصحابة،لاسيما أمهات المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حال من أحواله الدينية والدنيوية، الذاتية والاجتماعية، النبوية والإمامية ... دلته على ما هو أكثر له نفعا، وأقله جهدا، وأوضحه دلالة، وأشمله معرفة، وهو أن يعود إلى القرآن فيدرسه ويتدبره فما وجد فيه من خلق كريم فيعلم أن ذلك الخلق بعينه كان خلقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا ريب أنها إضافة إلى ما قصدته من إفهام سائلها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشارت إلى أن الأخلاق القرآنية تلك لا يمكن أن تُدرك على وجهها أويدرك كيف كمال التحلي بها إلا إذا عُلم كيف كان تحلي رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه مسلم وسيأتي ذكره وتخريجه ص٤٨، ٦٥ .

وسلم لها، وبذلك تكون قد حضت المؤمنين على معرفة هدي نبيهم المصطفى صلى ا لله عليه وسلم وسيرته وسنته، إن هم أرادوا تأويل القرآن وفقهه ومعرفة دلالته وهديه، وذلك لأن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، ولكن أنيط بيانه وتفسيره بمن أنزل عليه وهو المصطفى صلى ا لله عليه وسلم كما قال جل شأنه: ﴿وأنزلنا إليك الذِّكر لتُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفكَّرون﴾[سورة النحل:٤٤] .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يبينه بسلوكه في أقواله وأفعاله وأحواله.

وحيث إن القرآن قد عني عناية كبرى بالأخلاق على ذلك النحو الذي ذكرته، وكان النبي صلى ا لله عليه وسلم قد تمثل عنايته تلك بسلوكه كله، لذا كان لا بد من تتبع واستقراء ذلك التمثل النبوي لكل خلق قرآني، حتى تتم الهداية بالقرآن على النحو الذي يرضي الرحمن جل جلاله .

ولما لم يكن هذا المرادمحققا للأمة الإسلامية؛ دعاتها وطلابها ومثقفيها، على شكل كتاب جامع يحوي أخلاق القرآن وتمثلها وتطبيقها ممن أوكل إليه البيان صلى ا لله عليه وسلم حتى يتم النفع بتلك الأخلاق في كل آن، على وجه يعم نفعه بني الإنسان، حيث إن ما كتب في الأخلاق القرآنية لا يعدوالجمع لجواهر آياته الأخلاقية من غير بيان لها من سلوك المصطفىصلى ا لله عليه وسلم، وذلك كما فعل الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" والشيخ محمد عبد ا لله دراز في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن" .

وما كتب في الأخلاق النبوية لم يُربط بالأخلاق القرآنية والتوجيهات الربانية مع شدة الحاجة إلى الربط بينهما، كالحاجة إلى الربط بين المفسَّر والتفسير؛ لأن الأخلاق القرآنية لا يفسرها على وجهها إلا تمثل النبي صلى ا لله عليه وسلمكما أشار إلى ذلك حديث عائشة رضي ا لله عنها الآنف الذكر .

وحيث لم يكن قد قام بذلك أحد سبق-فيما أعلم-كان علي وأنا أدرس سنته وأنشد هديه، وأقتفي أثره، أن أنتهز فرصة دراستي في جامعة أم القرى العريقة العظيمة - حفظها ا لله وأدام ظلها وارفا في أرجاء العالم-أن أقوم بهذه المهمة فأجمع بين الأصلين المتلازمين، وأجعلهما متجاورين متلاصقين في كتاب واحد يغني عن تشتت الذهن، ويختصر الجهد لدى الباحثين، وهي المهمة التي طالما نشدتُّها وينشدها كل داعية

وطالب ومثقف ومحب للمعرفة، وذلك في إطار(١) دراستي العليا بقسم الكتاب والسنة في مرحلة (الدكتوراة) فتقدمت بإشارة شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد إلى قسم الكتاب والسنة بهذا الموضوع بعنوان "أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة" وذلك لدراسة خطته المقترحة، وإبداء الملاحظات عليها ثم إقرارها إن رأى المشايخ الأفاضل ذلك صالحا ونافعا، مشفوعا بالأسباب الداعية إلى الكتابة فيه وهي الأسباب التالية :

أسباب الكتابة في هذا الموضوع:

السبب الأول: ما تشكله الأخلاق الإسلامية من خطر بالغ وضرورة ملحّة للأمة المسلمة أفرادا وجماعات كما يعلم من مبلغ العناية العظمى التي حظيت بها في القرآن الكريم مما سلفت الإشارة إليه آنفا، ومع أن تلك الأخلاق العظيمة قد احتواها القرآن الكريم وتمثلها النبي صلى الله عليه وسلم أوفى تمثل وأعظمه، وكان كل مسلم معنياً بمعرفة وتطبيق أخلاق الإسلام التي وردت في القرآن الكريم، وتمثلها النبي صلى الله عليه وسلم على وجهها الأكمل، وصورتها المثلى، إلا أن السبيل إلى معرفة تلك الأخلاق غير يسير، لما تستدعيه من استقراء القرآن الكريم لاستنباط أخلاقه، ثم العودة إلى النظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وشمائله ليُدرى كيف يكون التحلي بها على الوجه المراد، وهذا لعمرو الله غير ميسور لكل أحد، بل يضنَى في إدراكه المتخصصون، فكيف بغيرهم من سائر المؤمنين، الذين يحملهم إيمانهم على الاهتداء بالقرآن والسنة والتمسك بهما، ثم لا يجدون ما يشفي غليلهم من كتب السلف أو الخلف على النحو الذي يحقق هذه الرغبة ويقتضيه الالتزام بالإيمان .

السبب الثاني: ما يشكله مثل هذا الكتاب من جدِّية الجمع، وتحقيق الدراسة، وسبك التنسيق، بحيث يشفي العليل، ويروي الغليل عن متفرق الأخلاق القرآنية، والتماس المواقف النبوية في تجلية الآداب الإلهية في صورة واضحة مرضية .

---

(١) الإطار: كل ما أحاط بالشيء من خارج، وجمعه: أُطر، المعجم الوسيط ٢٠/١ .

السبب الثالث: مالا يخفى أمره على الخاص والعام من مسيس الحاجة إلى الإسهام في بحث أصيل في الأخلاق النبوية،في زمن انعكست فيه المفاهيم الأخلاقية، بحيث غدت قاصرة على المصالح المادية المتبادلة، توجد عند وجودها، وتفقد عند فقدها، مع إغفال القيمة الدينية للأخلاق الإسلامية، وأنها شاملة للدين والدنيا، وعامة في جميع الأزمان وعلى كل الأحوال، فكان من المتعين أن يبين للجميع أن الأخلاق الإسلامية المستقاة من الكتاب والسنة لا تقوم على مجرد المصالح المادية المتبادلة، بل هي أصل قائم بذاته، ندب إليها الإسلام مع العدو والصديق، والقريب والبعيد، والكبير والصغير، والإنسان والحيوان، وأن يبين لهم أن الأخلاق ليست قاصرة على سلوك الذات أو الاجتماعيات، بل إنها في العبادات كما هي في المعاملات، فهي في العبادات أصل أصيل تقوم على أساسها وتثمر عند التحلي بها، كما ستراها مبينة في بابها إن شاء الله تعالى، وهي في المعاملات على ذلك النحو كما بينته في بابها أيضا .

ولما كانت هذه الأسباب حقيقة حقا، ووجيهة صدقا، تقدمت بها إلى قسم الكتاب والسنة، ورأى أعضاء المجلسين الموقرين في القسم والكلية أهمية الموضوع، وجدارته بالكتابة فيه في هذه المرحلة، فوافقوا عليه وعلى خطته التالية :

خطة البحث:

تتكون هذه الخطة من مقدمة ومدخل وستة أبواب وخاتمة .

١ ـ المقدمة: وتتضمن ما يأتي:

١ ـ الخطبة والسبب الباعث على الكتابة فيه .

٢ ـ خطة البحث .

٣ ـ منهج البحث.

٢ ـ المدخل: ويحتوي على خمسة مباحث وهي:

١ ـ تعريف الأخلاق وتقسيمها إلى فطرية ومكتسبة..

٢ ـ منزلة الأخلاق في الإسلام وخصائصُها .

٣ ـ مادة الأخلاق وما يقاربها وأنواعها في القرآن الكريم .

٤ ـ مصدر الأخلاق في ضوء القرآن الكريم .

٥ ـ النصوص المنوهة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ الباب الأول: (الأخلاق القرآنية الإيمانية والتطبيقات النبوية لها) وفيه تمهيد وفصلان:

الفصل الأول: في الأخلاق الاعتقادية وفيه أربعة مباحث:

١ ـ الرضا . ٢ ـ التوكل .

٣ ـ الخوف والخشية . ٤ ـ الرجاء .

الفصل الثاني: الأخلاق السلوكية الإيمانية وفيه خمسة مباحث:

١ ـ الإخلاص . ٢ ـ الاستقامة .

٣ ـ الشكر . ٤ ـ المحبة .

٥ ـ التوبة والإنابة .

٤ ـ الباب الثاني: (الأخلاق القرآنية التعبدية والتطبيقات النبوية لها) وفيه فصلان :

الفصل الأول: في الفرائض وفيه تمهيد وأربعة مباحث :

١ ـ الصلاة . ٢ ـ الزكاة .

٣ ـ الصيام . ٤ ـ الحج .

الفصل الثاني: في النوافل وفيه تمهيد ومبحثان :

١ ـ في التهجد والقيام . ٢ ـ في الذكر .

٥ ـ الباب الثالث: (الأخلاق القرآنية السلوكية والتطبيقات النبوية لها) وفيه تمهيد وفصلان :

الفصل الأول: في الأخلاق السلوكية الذاتية وفيه خمسة مباحث:

١ ـ الصدق. ٢ ـ الصبر .

٣ ـ التواضع . ٤- الحياء .

٥ ـ الزهد .

الفصل الثاني: الأخلاق السلوكية المتعدية، وفيه خمسة مباحث:

١ ـ الأمانة . ٢ ـ الوفاء .

٣ ـ الحلم والعفو . ٤ ـ الرحمة .

٥ ـ الكرم .

٦ ـ الباب الرابع: (الأخلاق القرآنية الاجتماعيةوالتطبيقات النبوية لها) وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأخلاق الاجتماعية الأسرية وفيه تمهيد وسبعة مباحث :

١ ـ تحري ذات الدين . ٢ ـ الخطبة . ٣ ـ النكاح .

٤ ـ الصداق ٥ ـ العشرة بالمعروف. ٦ ـ الإنصاف والإحسان عند الاختلاف ٧ـ معاملة ذوي القربىوالأرحام

الفصل الثاني: الأخلاق الاجتماعية العامة، وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

١ ـ التحية بدءا وردا. ٢ ـ الاستئذان وغض البصر

٣ ـ الضيافة . ٤ ـ الإحسان وتحته أربعة مطالب:

١ ـ تعريفه .

٢ ـ الإحسان إلى الجيران .

٣ ـ الإحسان إلى الأيتام والأرامل .

٤ ـ الإحسان إلى الفقراء والمساكين .

الفصل الثالث: الأخلاق الاجتماعية المادية، وفيه تمهيد وستة مباحث :

ـ التمهيد في علاقة المعاملات المادية بالأخلاق .

١ ـ في البيع والشراء ٢ ـ في القرض والقضاء.

٣ ـ في الرهن . ٤ ـ في الإجارة .

٥ ـ في العارية. ٦ ـ في الصلح .

الباب الخامس: (في الأخلاق القرآنية المتعلقة بالنبوة والإمامة، والتطبيقات النبوية لها) وفيه تمهيد وخمسة فصول:

الفصل الأول: في الأخلاق الواجبة للنبوة، وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

١ ـ العصمة. ٢ ـ الصدق.

٣ ـ التبليغ. ٤ ـ الفطانة .

الفصل الثاني: أخلاق البلاغ والدعوة، وفيه ثلاثة مباحث:

١ ـ تلقي الوحي وأنواعه . ٢ ـ الدعوة وأسلوبها .

٣ ـ الحرص على إيمان الناس .

الفصل الثالث: الأخلاق العلمية، وفيه ثلاثة مباحث:

١ ـ فضل العلم وأهله. ٢ ـ أخلاق الطلب .

٣ ـ أخلاق العلماء .

الفصل الرابع: أخلاق الإمام في الجانب السياسي، وفيه تمهيد ومبحثان:

١ ـ الأخلاق الشوروية وتحته مطالب:

١ ـ تعريفها .

٢ ـ مكانة الشورى في الأخلاق السياسية .

٣ ـ ثناء الله تعالى على المتحلين بها .

٤ ـ آثار الاستشارة في الدنيا والآخرة .

٥ ـ الحض على التشاور .

٦ ـ ما يكون فيه التشاور .

٧ ـ صفة المستشار .

٢ ـ الأخلاق التعاملية وتحته مطالب:

١ ـ الرفق واللين .

٢ ـ التبين والتثبت .

٣ ـ الحزم واللين .

٤ ـ العدل والقسط .

الفصل الخامس: الأخلاق القيادية، وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: في تعريف القيادة وبيان علاقة الجهاد بالأخلاق .

١ ـ الأخلاق النفسية وتحته مطلبان:

المطلب الأول وتحته فروع:

١ ـ الإعداد . ٢ ـ الكتمان والسرية .

٣ ـ الاستكشاف. ٤ ـ الحراسة .

المطلب الثاني: الشجاعة والثبات .

٢ ـ الأخلاق التعاملية في الحرب، وتحته مطلبان:

١ ـ معملة الأعداء من معاهدة ومنابذة .

٢ ـ معاملة الأسرى من منٍّ أو فداء أو قتل أو أسر

الباب السادس: (آثار الأخلاق النبوية) وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثارها أثناء حياته صلى الله عليه وسلم، وفيه مبحثان:

١ ـ آثارها في المؤمنين، وتحته مطلبان:

١ ـ حبهم له ٢ ـ اقتداؤهم به

٢ ـ آثارها في غير المؤمنين، وتحته ثلاثة مطالب:

١ ـ في الاستدلال بها على نبوته .

٢ ـ في جذب الناس إلى الإسلام .

٣ ـ في تأليف القلوب عليه .

الفصل الثاني: آثار أخلاقه بعد موته صلى الله عليه وسلم وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: في استمرار آثار أخلاقه صلى الله عليه وسلم في أوساط المجتمعات الإنسانية .

١ ـ آثارها في المسلمين .

٢ ـ آثارها في غير المسلمين .

الخاتمة: وفيها نتائج ومقترحات .

ولقد شمرت عن ساعد الجد مستعينا با لله تعالى، متوكلا عليه، ضارعا إليه في أن يسدد خطاي، ويوفقني لجمعه وإخراجه على النحو الذي يليق بشرف الموضوع،وعظمة القرآن الكريم، وفضل المصطفى صلى ا لله عليه وسلم .

وكان أملي به كبيرا في الاستجابة، وقد تحقق بفضل ا لله وحوله وقوته ما دعوته به، ورجوته منه، وذلك بأن وفقني وله الحمد والمنة إلى إخراجه على هذا النحو، الذي سرت فيه على المنهج التالي:

منهج البحث:

كان المنهح الذي سرت عليه في إعداده هو:

١ ـ الرجوع إلى القرآن الكريم لجمع الآيات الكريمة التي تحدثت عن الخلق صراحة أو إشارة، مستعينا في ذلك بمعاجم القرآن الكريم اللفظيّة والموضوعية، ومن ثم تصنيفها وترتيبها حسب عناصر البحث وفقراته، مع التزامي بعزو الآيات الكريمة التي أُستشهد بها إلى سورها، وبيان أرقامها وضبطها .

٢ ـ عرض ذلك الخلق بعد تعريفه لغة واصطلاحا بأسلوب سهل مع بيان مالا بد من بيانه في تلك الآيات الكريمة .

٣ ـ تجزئة الحديث عن الخلق إلى عناصر وعناوين داخلية بحسب تشعبه وتعلقه،لتيسير الاستفادة منه على النحو المرجو، مع الحرص الكامل على تناسق الحديث عنه وترابط فقراته، ووضوح كلماته .

٤ ـ الرجوع بعد ذلك إلى كتب السنة المشرفة، والشمائل الكريمة، والسيرة العطرة، لمعرفة كيفية تمثل ذلك الخلق في النبي صلى ا لله عليه وسلم، ثم صياغة تمثله فيه عليه الصلاة والسلام بأسلوب متناسق بالأرقام التسلسلية لكل عنصر من عناصر البحث، على ضوء بحثه في القرآن الكريم من صياغة وتجزئة .

٥ ـ التزمت عند استشهادي بالأحاديث والآثار تخريجها وبيان حكمها ؛

أما تخريجها فمن كتب الحديث المشهورة، فإن كان في الصحيحين لم أتجاوزهما إلى

غيرهما غالبا تجنباً للإطالة، وكما هو منهج المحدثين، وكذا إن كـان في صحيح البخـاري فقط أو كان في صحيح مسلم فقط، غير أني هنا غالبا ما أضيـف إليه غـيره مـن الكتـب الستة مصدرا أو مصدرين أو أكثر إن تيسر للإفادة في التخريج .

أما الحكم عليه فإني كنت أنظر فإن رأيت أني قد سبقت إلى الحكم عليه بأن كان قـد حكم عليه أهل العلم بالحديث، واحد أو أكثر، فإن وجدت ذلك اكتفيت به و لم أتعن في دراسته بعده وثوقا به واختصارا للجهد، وروما للإيجاز المتبع في الكتاب كله .

وإن لم أجد من حكم عليه من أهل الحديث في القديم أوالحديث، فـإني كنـت عندئـذ أقوم بدراسة سنده، ثم أذكر الحكم عليه بما آراه موافقا لمعايير المحدثين، وقوانين الرواية .

٦ ـ ما سقته من الأحاديث والآثار والأخـبار في هذه الرسالة ـ والتي تربو على الألـف ـ دائرة بين الصحيح والحسن، فإذا شذ عن ذلـك بعـض الآثـار والأخبـار فـإني أبينهـا في الهامش، وهي مع ذلك قليلة في الجملة،وفي الغالب يكون ذلك قد جاء في تضاعيف نـص نقلته عن غيري،فأبقيته مراعاة لأمانة النقل، أو اشتدت الحاجة إلى ذكره حيث لم أجـد في الباب غيره .

ومع ذلك فقد بينت حكمها وذكرت علتها على قلتها وانحصارها .

٧ ـ وثقت ما استفدته من كلام العلماء في مؤلفاتهم، فإن كان ما استفدته منهم بنصـه جعلته بين علامات التنصيص الاصطلاحية المعروفـة، وإن كـان بمعنـاه، أو تصرفـت فيـه، وضعته بين قوسين كبيرين مع تنبيهي على تصرفي فيه في الحاشية غالبا .

٨ ــ ترجمـت للأعـلام مـن صحابـة وغيرهـم عنـد ورود ذكرهـم أول مـرة في الأعـم الأغلب، و لم أستثن من ذلك إلا من عمت شهرته كالأربعة الخلفـاء اراشـدين رضـي ا لله عنهم، وأمثالهم ممن استفاض تاريخهم، وجعلت التراجم موجزة لحصول الفائدة بما ذكرتـه منها .

٩ ـ شرحـت الكلمات الغريبة في متـون الأحـاديث، أو في سـياق كـلام نقلتـه أوقلتـه، وعرفت بالأماكن والبلدان غالبا، وضبطت ما أشكل من الكلمات غالبا .

١٠ ــ بعـد أن أتممـت الرسـالة أعـددت لهـا فهـارس علميـة تسـهل الرجـوع إليهـا، والاستفادة منها وذلك للآيات الكريمة، والأحـاديث والآثـار، والأشعار المستشـهد بهـا، والأعلام، وقائمة للرماجع والمصادر، وفهارس أخرى للموضوعات .

كان هذا هو المنهج الذي توخَّيته جهدي أثناء إعداد هذه الرسالة وجمعها، حتى تكامل نصابها، واستوفت مباحثها، واكتست حلة تليق بشرف موضوعها، وأرجو من ا لله العلي القدير أن يكون هـذا الجهد خالصا لوجهه الكريم، ونافعا لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى ا لله بقلب سليم .

ويجدر بي في هذا المقام أن أقول: إنني بذلت في جمعها وتحريرها جهدي، وهو جهد العاجز الضعيف، وتوخَّيت فيها السداد طاقتي، وهو توخي الناقص الفقير، فإن كان ما جمعته وحررته صوابا، فذلك من ا لله وحده، وله الفضل والمنة والثناء الحسن، وإن كانت الأخرى فذلك من نقصي وتقصيري، وأتوب إلى ا لله وأستغفره، وحسبي أني بذلت جهدي .

ولا شك "أن المنصف يهب خطأ المخطيء لإصابته، وسيئاته لحسناته، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديدا، وعمله كله صوابا؟ وهل ذلك إلا للمعصوم الذي لاينطق عن الهوى، ونطقه وحي يوحى"(١) .

ورحم ا لله القائل:

إعلم بأنَّ المرء لو بلغ المدى	من العمر لاقَى الموتَ وهو مقصر
فإذا ظفرت بزلَّة فافتح لها	باب التجاوز فالتجاوز أجدر
ومن المحال بأن يُرى أحد حوى	كُنْهُ الجمال وذا هو المتعذِّر
غير الحبيب المصطفى الهادي الذي	يفنى الزمان وفضله لا يحصر(٢)

غير أني أسأل ا لله تعالى أن يقيِّض لي من يقوِّم عملي، ويصلح خللي، ويرشدني في أمري، فيؤجر ويشكر، وأدعو له بظهر الغيب دعوة خير إن شاء ا لله تعالى .

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى ا لله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

حرر في ١٤١٣/٨/٢٧

وكتب أحمد بن عبدالعزيز بن قاسم الحداد

عفا ا لله عنه

---

(١) روضة المحبين لابن القيم ص١٤ .

(٢) تعزى هذه الأبيات للقاسم بن محمد الأندلسي من إنشاده، انظر ذيل نزهة الحفاظ لمحمد عمر الأصبهاني المديني توفي سنة ٥٨١ هـ، ط الأولى سنة ١٤٠٦ هـ .



مباحث أخلاقية مهمة :

المبحث الأول : تعريف الأخلاق وتقسيمها.

المبحث الثاني : منزلة الأخلاق في الإسلام وخصائصها.

المبحث الثالث : الأخلاق وأنواعها في القرآن الكريم.

المبحث الرابع : مصادر الأخلاق على ضوء القرآن الكريم.

المبحث الخامس : النصوص المنوهة بخلق النبي ﷺ.

المبحث الأول

تعريف الأخلاق وتقسيمها إلى فطرية ومكتسبة

أ ـ تعريف الأخلاق :

التعريف اللغوي : الأخلاق جمع خُلُق ، بضم الخاء المعجمة ، وبضم اللام وبسكونها . والخُلُق يطلق في اللغة على معان هي: الدين ، والطبع ، والسجيّة(١) . والمروءة مأخوذة من الخلق وهو التقدير . قال ابن فارس(٢) : "الخاء واللام والقاف: أصلان ، يدل أحدهما على تقدير الشيء والآخر على ملاسته، أما الأول فيقال فيه: خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته ... ومن ذلك: الخُلُق وهي السجية ؛ لأن صاحبها قد قُدِّر عليه، وفلان خليق بكذا، وأخلق به، وما أخلقه! أي هو ممن يُقَدَّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب؛ لأنه قد قُدِّر لكل أحد نصيبه. أما الأصل الثاني فيقال فيه:صخرة خلقاء أي:ملساء...ومن هذا الباب:أخلق الشيء وخلَق وخلِق إذا بلي.."(٣) .

أو هو مأخوذ من الخلْق بمعنى الإبداع من غير أصل ولا احتذاء .

قال الراغب(٤) في "المفردات": "والخلْق يقال في معنى المخلوق، والخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، كالشَّرب ، والشُّرب ، والصَّرم، والصُّرم، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة"(٥) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٨٦/١٠ ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ٢٢٩/٣ كلاهما في مادة (خلق) .

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني من أئمة اللغة والأدب له معجم مقاييس اللغة ، ومجمل اللغة وغيرهما، توفي سنة ٣٩٥هـ، انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ص ١٥٣ ، والأعلام للزركلي ١٩٣/١

(٣) معجم مقاييس اللغة ٢١٣/٢ ـ ٢١٤ .

(٤) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبوالقاسم الأصفهاني، كان أديبا من الحكماء العلماء الأئمة في ذلك،له مؤلفات كثيرة، منها "المفردات" في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، وغيرهما توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر الأعلام للزركلي ٢٥٥/٢ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ١٥٨ .

أصل اشتقاقه :

فهو مأخوذ إما من الخَلْق بمعنى التقدير، لأن الخُلُق في الأصل غريزة مقدرة في كل إنسان على ما سيأتي بيانه(١) ، وهذا ما يفهم من الأصل **الأول** الذي ذكره **ابن فارس**، ويستفاد أيضا من كلام ابن الأثير(٢) في "النهاية" حيث قال:

"وحقيقته ـ أي الخُلُق ـ أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، قال: والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة .."(٣) .

أما الأصل الثاني الذي ذكره ابن فارس وهو الملاسة بمعنى اللين والنعومة، فيتفق مع أحد نوعي الخلق، وهو الخلق الحسن من حيث إن الخلق الحسن قائم على اللين وعدم الخشونة(٤). على أنه يمكن أن يكون من الخلاقة بمعنى الملاسة، فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان فأصبح عادة له فيكون شاملا للخلق بنوعيه: الحسن والقبيح(٥) وا لله أعلم .

التعريف الاصطلاحي :

أما تعريف الأخلاق في الاصطلاح، فهو يختلف باختلاف مشارب المعرفين ونزعاتهم،(٦)

---

(١) ص ٨

(٢) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري المحدث اللغوي الأصولي، صاحب "النهاية في غريب الحديث" و"جامع الأصول" وغيرهما توفي سنة ٦٠٦هـ، وهو غير أخويه: المؤرخ صاحب "الكامل"، والكاتب صاحب "المثل السائر". انظر بغية الوعاة ص ٣٨٥ ، والأعلام ٢٧٢/٤ .

(٣) النهاية لابن الأثير ٧٠/٢ .

(٤) انظر المصباح المنير للفيومي ٢٤٥/٢ .

(٥) انظر اتحاف السادة المتقن شرح إحياء علوم الدين للإمام الزبيدي ٣٢٨/٧ .

(٦) انظر النظام الأخلاقي في الإسلام للدكتور محمد عقله ص ١٣ــ١٩ حيث ذكر جملة كبيرة من تعاريف الأخلاق لكثير من المعرفين الإسلاميين والاجتماعيين والفلاسفة، وقد اخترت أهم التعاريف وأكثرها اتصالا بموضوعنا .

وأول تلك التعاريف، هو ذلك المشهور الذي رسمه ابن مسكويه[١] في كتابه "تهذيب الأخلاق" ونقله عنه غالب من أتى بعده .

فقال ابن مسكويه: "الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة"[٢] وهو بهذا التعريف يعكس نظرية الفلسفة اليونانية التي كان متشبعا بها،وهي غالبة على كتبه وأقواله[٣]، وذلك أنه لم ينظر إلى بواعث العمل التي ينبني عليها القول بأن العمل أخلاقي أو غيره، حيث جعل كل عمل للنفس وحال لها داخلا تحت مسمى "الخلق" بغض النظر عن كونه إراديا أو غير إرادي، مع أن الإرادة ركن أساسي في كون العمل خلقيا أو غيره، ومعلوم (أن للنفس قوىً مختلفة ووظائف متنوعة لا تندرج تحت قانون الأخلاق ألبتة. فهناك ملكات الإدراك والتفكير، والحكم، والتخيل، والتذكر . كما أن لها وجدانات وانفعالات وغرائز ونزعات، وهذه كلها لا تندرج تحت القانون الأخلاقي كما هو معلوم)[٤] وكلها يشملها التعريف الذي ذكره ابن مسكويه .

وقد أكد ابن مسكويه على دخول مثل هذه الأمور في مسمى الخلق بالتقسيم الذي ذكره لحال النفس حيث قال: "وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه الروية والفكر ثم

---

(١) هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ت ٤١٢هـ، وهو من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بفلسفة اليونان كأرسطاطاليس ونحوه، انظر الأعلام ٢١١/١ .

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٥ .

(٣) انظر الاتجاه الأخلاقي في الإسلام لمقداد يالجن ص ٤٣، والأخلاق في الإسلام للدكتور يعقوب المليجي ص ١٠، والأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٨٠ .

(٤) دراسات إسلامية في العلاقة الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبدا لله دراز ص ٧٨-٨٨ بتصرف .

يستمر عليه أولا أولا حتى يصير ملكة وخلقا"(١) .

وقد تبعه على هذا التعريف كثير ممن أتى بعده ومنهم الإمام الغزالي(٢) حيث عرف الخلق بتعريف قريب من ذلك مع شيء من التفصيل فقال: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا، سميت الهيئة تلك: خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر: خلقا سيئا"(٣) .

شرح التعريف :

وقد شرح الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ هذا التعريف وبين محترزاته فقال: "وإنما قلنا إنها ـ أي الأخلاق ـ هيئة راسخة؛ لأن من يصدر عنه بذل المال عن الندور لحاجة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ" قال:

"وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال: خلقه السخاء والحلم. ثم قال:

"وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدين واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء .

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٢٥-٢٦ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بـ"حجة الإسلام" فيلسوف إسلامي متصوف، له كتب جامعة كثيرة بلغت نحو مائتي مؤلف، من أشهرها "إحياء علوم الدين" توفي سنة٥٠٥هـ، انظر طبقات الشافعية للسبكي ١٠١/٤-١٤٥ ط الحسينية، والأعلام ٢٢/٧ .

(٣) إحياء علوم الدين ٤٦/٣ .

وليس عبارة عن المعرفة؛ فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل" قال: "فالخلق إذا عبارة عن هيئة وصورتها الباطنة"(١) .

فنرى أن الغزالي ـ رحمه الله ـ لم يخرج عن فحوى تعريف ابن مسكويه، وإن تغير أسلوبه وأوضح مقصوده، فقد تابعه على أن الخلق هو هيئة النفس وحالها في الجملة .

والحقيقة أن الخلق إذا كان مكتسبا ليس صفة للنفس في جملتها، وإنما في جانب معين من جوانبها، وهو جانب القصد والإرادة، أما ما يصدر عن النفس مما هو غير مقصود ولا مراد، فلا توصف النفس عند صدوره عنها بأنها ذات خلق أو غيره، فتعريف الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ مع جمعه لضروب الأخلاق وأصنافها، جعل ميزان الأخلاق: العقل والشرع، بخلاف تعريف الفلاسفة إلا أنه غير مانع، حيث يدخل فيه ما ليس منه .

لذلك حاول الشيخ محمد عبدالله دراز(٢) أن يتفادى هذا الإيراد، فعرَّف الأخلاق بأنها: "قوة راسخة في النفس تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح إن كان الخلق حميدا، أو إلى اختيار ما هو شر وجور إن كان الخلق ذميما"(٣) .

وبهذا التعريف تتميز الحقيقة الخُلُقية عن غيرها من الصفات النفسية التي لا تمتُّ إلى الخلق بصلة "ألا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها وسلامة الذوق أو سقمه، وبراعة الخيال أو تبذُّله ... لا مدخل لها في موازين الأخلاق، ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه بر أو فاجر، تقي أو آثم ؟ .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤٦/٣ .

(٢) الأزهري المصري كان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر، له مؤلفات عدة منها "النبأ العظيم" و"دستور أخلاق القرآن" و"المدخل إلى القرآن الكريم" ... وغيرها توفي في مدينة لاهور بباكستان سنة ١٣٧٧هـ، انظر الأعلام للزركلي ٢٤٦/٦ .

(٣) دراسات إسلامية د.محمد عبدالله دراز ص ٨٨ ، وانظر الأخلاق الإسلامية للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ١٠/١-١٦ ، وبالأخص ص ١٣-١٤ .

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإرادية نفسها طائفة يستوي فعلها وتركها فتدخل بذلك في نطاق المباحات بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم، ولا يقال لصاحبها إنه أحسن أو أساء، فهي خارجة أيضا عن موضوع البحث .

وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتب عليها مدح أو ذم بمعناهما الأدبي والفني كإجادة البيان وإتقان التصوير أو إساءتهما فهنالك يكون للمدح والإحسان والإساءة أحكام تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية، ولكنها في المعنى ليست منها؛ لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال له إنه آثم أو شرير أو سيء الخلق(١) .

وكل هذه الأمور لا تخرج بالحد الذي وضعه ابن مسكويه أو الغزالي للأخلاق؛ لأنها صادرة عن النفس، ولا يسلم لهم بل لعلهم لا يقولون باندراجها في المعيار الأخلاقي، كما يفهم من شرح الغزالي للتعريف الذي ذكره .

وهي خارجة عن اندراجها في مسمى "الخلق" بهذا التعريف الذي ذكره الشيخ محمد عبدا لله دراز، غير أنه يرد على تعريف الشيخ دراز مع كونه مانعا لما قد يدخل في مسمى الخلق كما علمت، يرد عليه أنه غير جامع؛ لأنه لم يجعل المعيار الأخلاقي شرعيا بل ولا عقليا، كما أن فيه دورا حيث جعل توقف معرفة الخلق على معرفة كون الخلق حميدا أو ذميما، مع أن الخلق لم يتميز بعد .

التعريف المختار :

والتعريف الجامع المانع للأخلاق ـ فيما أرى ـ هو أن يجمع من تعريفي الإمام الغزالي والشيخ دراز ـ رحمهما ا لله ـ تعريفا يسلم إن شاء ا لله تعالى من الإيراد عليه، وذلك بأن يقال في تعريفه بأنه: "قوة في النفس راسخة تنزع بها في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح أو شر وجور، وذلك بمعيار الشرع الإلهي والفطرة السليمة"

فإن كان ذلك الفعل الصادر عن القوة الراسخة في النفس موافقا للشرع الإلهي والفطرة السليمة كان خلقا حسنا، وإن لم يكن كذلك كان خلقا سيئا .

(١) دراسات إسلامية ص ٨٨ .

فهذا التعريف يسلم من الإيراد عليه؛ لجمعه لأفراد المعرف، ومنع غيره من الدخول فيه فهو أسلم التعاريف في نظري وا لله أعلم .

ب ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة :

ليس يخلو المرء عن أن يكون مفطورا على جِبلَّة فطره ا لله تعالى عليها، حميدة كانت أو ذميمة، والناس في تلك الجِبلاَّت متفاوتون في الحظوظ من تلك الأخلاق،قلة وكثرة.

وقد دل على فطرية الناس على الأخلاق ـ حسنها أو قبيحها ـ الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقد دل على ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى في حديثه عن الإنسان: ﴿ إنَّا هديناه السبيلَ إمَّا شاكراً وإما كفُوراً ﴾ [الإنسان:٣] والشكر هو عنوان الأخلاق الحسنة لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها وهو الحق سبحانه وتعالى، والثناء عليه بما هو أهله .

كما أن الكفران عنوان الأخلاق الذميمة، لما فيه من جحود لنعمه،وعدم الاعتراف بالحق لصاحب الحق وهو ا لله عز وجل .

ومنها قوله تعالى: ﴿ ونفسٍ وما سوَّاها * فألهَمَها فُجُورها وتَقواها * قد أفلحَ من زكَّاها * وقد خابَ من دسَّاها ﴾ [الشمس:٧ـ١٠] فأخبر ا لله تعالى أنه ألهم كل نفس الفجور والتقوى، ومعنى ألهمها: عرَّفها ذلك، أو بيَّنه لها(١) والمعنى على كل: أنه سبحانه جعل أنفس البشر على نوعين: قابلة للخير، أو للشر، فالأولى هي التي يصدر عنها مكارم الأخلاق المعنون عليها بالتقوى التي هي جماع المكارم، والثانية هي التي يصدر عنها مساوئها والمعنون عليه بالفجور الذي هو عنوان كل رذيلة .

فدلت الآيتان على أن الإنسان مفطور على معرفة الخير أوالشر، وعلى تمييزه بينهما، وقد أمر بتزكية نفسه والالتزام بكل خلق حسن، ونُهي عن إفساد النفس بتجنب الأخلاق الفاسدة، ولذلك جعل ا لله تعالى الفلاح منوطا بمجاهدة النفس في التزكية، والخسران بإهمالها عن ذلك كما قال سبحانه: ﴿ قد أَفلحَ مَن زكَّاها * وقد خابَ مَن

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٨١/٨ .

دسّاها ﴾ ومعنى دساها: "حال بينها وبين فعل الخير"(١) .

وقد دعم هذه الدلالة القرآنية منطوق السنة النبوية، وذلك في أحاديث كثيرة منها ما يلي:

١ ـ ما رواه أبو هريرة(٢)رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقِهوا"(٣). فقوله: "الناس معادن" دليل على فروق الهبات الفطرية الخُلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خُلُقا"(٤) . "والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك: من كان متصفا بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقيا لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغير ذلك" (٥) .

٢ ـ ما أخرجه أبو داود وغيره في قصة أشجِّ عبدِالقيس(٦) حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم:"إن فيك خَلّتين يحبهما الله:الحلم والأناة(٧) قال: يا رسول الله أنا أتخلق

(١) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ٣٠/٣٧١ .

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، على أصح الأقوال في اسمه واسم أبيه، أكثر المكثرين من رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم سنة سبع وتوفي سنة سبع وقيل: ثمان وقيل: تسع وخمسين، ومناقبه جمة.أنظر الاستيعاب لابن عبدالبر مع الاصابة ٤/٢٠٢ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٥/٣١٥، وتهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ٢/٢٧٠ .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب،باب مناقب قريش ٤/٢١٧،ومسلم في الإمارة باب الناس تبع لقريش برقم ١٨١٨

(٤) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ١/١٧٩ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٤/٨ .

(٦) هو المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث العصري، لقبه النبي صلى الله عليه وسلم "الأشج" فاشتهر به، وينسب إلى عبدالقيس، قبيلته، وهم من البحرين المعروفة الآن بالأحساء، نزل البصرة ومات بها. انظر طبقات ابن سعد ٥/٥٥٧ ، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣/٤٦١ ، والإصابة ٣/٤٦٠ ونحوها .

(٧) رويا مرفوعين ومنصوبين،والحلم بكسر الحاء المراد به هنا: عدم استعجاله وتراخيه حتى ينظر في مصالحه، والأناة على وزن القناة: هي التثبت والوقار.أهـ عون المعبود ١٤/١٣٦ .

بهما، أم ا لله جبلني عليهما؟ قال: بل ا لله جبلك عليهما، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما ا لله ورسوله"(١) .

فالحديث نص صريح على أن ا لله تعالى فطره على خلقين كريمين هما الحلم والأناة، وأن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو كسبي، وأنهما محبوبان لله تعالى، ويلزم من محبته سبحانه لهذين الخُلُقين الكريمين وأمثالهما محبة من يتخلق بهما على وجههما الشرعي؛ لأن ا لله تعالى ما أحبهما إلا ليتحلى بها عباده، كما دلت على ذلك دلائل أخرى سيأتي ذكر بعضها(٢)، وإنما اقتصر هنا عليهما فقط لكونهما السبب في ذكر الحديث .

٣ ـ ما رواه أبو موسى الأشعري(٣) رضي ا لله عنه قال: سمعت النبي صلى ا لله عليه وسلم يقول: "إن ا لله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض،منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،والسهل والحزن،والخبيث والطيب"(٤) .

وهذا الحديث نص صريح في الدلالة على فطر الناس عل السهولة أو الحزونة(٥)، والطيابة أو ضدها، وتلك هي الأخلاق حميدها وذميمها، وأنهم في ذلك مختلفون

---

(١) أبو داود في الأدب، باب في خلة الرجل برقم ٥٢٢٥، وأحمد في المسند ٢٠٦/٤، وإسناده حسن، وأصله في مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان با لله تعالى ... برقم ١٨من غير سؤال الأشج، وإجابة البني له .

(٢) في مبحث منزلة الأخلاق في الإسلام ص١٤ .

(٣) واسمه عبدا لله بن قيس بن حضار بن حرب .. قدم على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مكة قبل هجرته عنها، فأسلم ثم هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة بعد فتح خيبر، فأسهم له النبي صلى ا لله عليه وسلم منها، و لم يسهم لأحد غاب عن خيبر غير أبي موسى وأصحابه، واستعمله النبي صلى ا لله عليه وسلم على زبيد وعدن وساحل اليمن، وولاه عمر البصرة والكوفة، وكان له موقف مشهود يوم صفين، توفي سنة ٥٠هـ، انظر طبقات ابن سعد ٣٤٤/٢، وتهذيب الأسماء ٦٨٢/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة باب في القدر برقم ٤٦٩٣، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة برقم ٢٩٥٥، وأحمد في المسند ٤٠٠/٤-٤٠٦، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٥) الحزونة: هي الخشونة، وأصلها من الأرض الصعبة .

كاختلافهم في الألوان الخِلقية من سواد وبياض .. والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .

إمكان تغير الخلق :

وقد استُدل بتلك الأدلة وغيرها على عدم إمكان تغير الخلق، طالما أنه طبع إلهي، لأن الطباع لا تتغير، ولكن هذا القول باطل، إذ لو كان الأمر كذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات التي وردت في الكتاب والسنة، وهي من الكثرة بمكان، وسيأتي بيان ذلك .

وقد أجاد الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في إبطال هذا القول حيث قال: "وكيف ينكر هذا ـ أي تغير الخلق ـ في حق الآدمي ، وتغير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغير للأخلاق ..."(١) .

وفعل كذلك الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال :

"إن الله تعالى خلق الأشياء على ضربين: أحدهما : بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والأرض والهيئة والشكل. والثاني : خلقه خلقة ما، وجعل فيه قوة ورشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله، وإن لم يرشحه لتغيير ذاته، كالنواة التي فيها قوة النخل، وسهل للإنسان سبيلا إلى أن يزرعه بعون الله تعالى نخلة، أو أن يفسده إفسادا؛ قال : والخلق من الإنسان يجري هذا المجرى في أنه لا سبيل لإنسان إلى تغيير القوة التي هي السجية،وجعل له سبيلا إلى إسلاسها، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد أفلحَ من زكّاها * وقد خابَ من دسّاها ﴾ [الشمس٩، ١٠]

ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي، ولما جوز العقل أن يقال للعبد : لم فعلت ؟ ولم تركت ؟ وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعا وقد وجدناه في بعض البهائم ممكنا؟!فالوحش قد ينقل بالعادة إلى التأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة، قال : لكن الناس في غرائزهم مختلفون، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول، وبعضهم في الوسط، وكل لا ينفك من أثر قبول وإن قل" .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤٨/٣ .

ثم قال ـ رحمه الله ـ: "وأرى أن من منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها، وهذا صحيح، فإن النوى محال أن ينبت الإنسان منه تفاحا .

ومن أجاز تغييره، فإنه اعتبر إمكان ما في القوة إلى الوجود، وإفساده بإهماله كالنوى فإنه يمكن أن يتفقد فيجعل نخلا، وأن يترك مهملا حتى يتعفن ويفسد وهذا صحيح أيضا، فإن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما"(١) .

ويقول الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ :

"فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى"(٢) .

طريقة اكتساب الأخلاق :

إذا تبين أن التسامي بالأخلاق إلى الأحسن أمر ممكن، وأن ذلك هو ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم"فحق الإنسان في كل فضيلة أن يكتسبها خُلقا، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك، سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلا أو لم يمكنه، وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول ...، وإن لم يكن ذا مال يبذله، ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته"(٣) .

ومعنى ذلك : أن يجاهد نفسه ويروِّضها على مكارم الأخلاق وُسعَه، سواء كان متهيئا لأن يظهر أثر تلك المجاهدة حالا بأن كانت أسبابها متوفرة لديه، أو لم يكن متهيئا لعدم توفر أسبابها فليجاهد نفسه وستظهر مآلا .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١١٥-١١٦ .

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤٨ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٢٥ .

"فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطلب نفسه ويواظب عليه تكلُّفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له،ويتيسر عليه فيصير به جوادا، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكِبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا، فيتيسر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق"(١) .

هذه وسيلة الرياضة والمجاهدة، وهي وسيلة نافعة وصالحة لكل البشرية، مؤمنها وكافرها . غير أن المؤمن يمتاز بالإضافة إلى وسيلة الرياضة والمجاهدة، بوسيلة الامتثال لأوامر الشرع ونواهيه وآدابه ، التي جاءت في الكتاب والسنة ، وجميعها دائرة على الفضائل والرذائل،فأمر بالفضائل وندب الناس إلى التحلي بها ، ونهى عن الرذائل وحذر من ارتكابها ،

١ ـ والمؤمن معني بالنظر في نصوص دينه ووعيها وتطبيقها .

٢ ـ وإذا فعل ذلك بأن نظر ووعى ، علم أنه ملزم بالتطبيق والتنفيذ ، وأن لا مفر له من ذلك لأن ذلك دين ، والله يراقبه على الالتزام به ، كما قال سبحانه : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء:١] ، وسيثيبه على الامتثال ويعاقبه على الترك والاهمال، فلا يجد مندوحة له عن الالتزام بذلك، فتتربى فيه الفضائل، وتنأى عنه الرذائل، بفعل نصوص الشرع الإيجابية أو الندبية، التي قرأها وعقلها، أو سمعها ووعاها .

٣ ـ ثم يجد المؤمن أن الله تعالى قد رغبه على ذلك وأغراه، بالأجر العظيم والثواب الجسيم على فعل الفضائل واجتناب الرذائل على حد سواء، كما حذره من اقتراف الرذائل، أو ترك التحلي بالفضائل على حد سواء أيضا، مما يجعله يقبل على مكارم الأخلاق رغَبا ورهَبا، وبذلك يكون قد تخلق بأخلاق الإسلام العالية، وعد من أهلها النائلين أجرها وفضلها الذي يبلغ أجر الصائم القائم كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله تعالى .

---

(١) الإحياء ٣/٥٠ .

المبحث الثاني

منزلة الأخلاق في الإسلام وخصائصها

للأخلاق في الإسلام منزلة عظيمة ، تعلم من مبلغ العناية التي عنيت بها في الكتاب والسنة وقد دلت تلك العناية الكبرى على أنها صنو الإيمان في الاهتمام .

وبيان ذلك فيما يأتي :

أ - دلالة القرآن الكريم :

لقد كان مدار اهتمام القرآن الكريم منذ بداية تنزله على المصطفى صلى الله عليه وسلم منصبا على أمرين :

الأول : تقرير الإيمان بالله تعالى وحده، وغرس العقيدة الإسلامية الصافية، واجتثاث مظاهر الوثنية السائدة من الأنفس والمجتمعات .

الثاني : غرس الفضائل الخلقية لتزكية القلوب، وتطهير النفوس، واستئصال رذائلها من الأفراد والمجتمعات .

أما التشريعات العملية فلم تكن في موضع العناية بالتوسع فيها في هذه المرحلة المبكرة، بل اكْتُفِي منها بتشريع بعض العبادات المهمة كالصلاة، وتُرِك بعضها الآخر، وكذلك تفصيلات الشريعة وفروعها الكثيرة؛ إلى ما بعد تأسيس دولة الإسلام في المدينة، فتوالى تشريعها تباعا جريا على مبدأ التدرج في التشريع، ومناسبة مراحله وأطواره .

أما الأمر الأول، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والإيمان بقدره وقضائه والبعث والجزاء والرسل والكتب المنزلة عامة والقرآن خاصة والملائكة والجنة والنار .. فقد كان محور التنزل القرآني والدعوة النبوية، إذ لم يفتأ تجدد تنزل القرآن عن هذا الأمر في كل أطوار النبوة: السرية والجهرية؛ المكية والمدنية .

فالسور المكية على الخصوص والبالغ عددها خمسا وثمانين سورة تقريبا، كلها مفعمة بالحديث عن العقيدة الإسلامية في تقرير التوحيد لله بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والبعث والجزاء، والجنة والنار، والثواب والعقاب.. وهي القضايا التي تأبّى قبولها على كفار مكة أيما إباء .

وكذا السور المدنية فإنها لم تغفل هذا الجانب في الجملة لكونه تقرر وتأصل في مكة، وإن ركزت عنايتها على التشريع التفصيلي في العبادات والمعاملات، بل تناولت أيضا تقرير هذه العقيدة، وأضافت إلى ذلك الرد على أهل الكتاب الذين غيروا عقيدة التوحيد الإسلامية التي بُعث بها أنبياؤهم عليهم صلاة الله وسلامه، إلى إشراك مع الله غيره في تعدد الآلهة أو اعتقاد بنوة له، أو احتياجه إلى أحد من خلقه .

وكل ذلك معلوم بداهة في سور القرآن الكريم وآياته: مكيه ومدنيه .. ولسنا بصدد الحديث عن هذا الجانب في هذه الرسالة؛ لأن الرسالة معنية ببيان الأخلاق القرآنية المتمثلة في الجناب البنوي .

أماالأمر الثاني وهو غرس الفضائل الخلقية، فقد كان يلي أمر العقيدة في الاهتمام من تنزل الوحي السماوي على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث كان الحديث عنه في محكم الآيات ووحي النبوة من بداية نور الإيمان، بتنزل القرآن على ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم،وذلك بالأوامر والنواهي المتكررة الحاثة على التخلي عن رذائل الأخلاق والتحلي بمكارمها .

وبالحث على ذلك بالإشادة بمكارم الأخلاق، وذم مساوئها، في آياته المتكررة وسوره المتتالية المكية والمدنية بحيث بلغت مجموع الآيات التي تحدثت عن الأخلاق صراحة أو إشارة، أمرا أو نهيا، ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لأيات القرآن الكريم وذلك أربع آيات وخمسمائة وألف آية(١) ، ابتداء من أول تنزل القرآن في صدر سورة العلق التي أمرت بالقراءة ونوهت بالعلم وأشادت بالكرم الإلهي، والقراءة والعلم من أسس تنمية

---

(١) انظر أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية للدكتور عبدالحميد الصيد الزنتاني ص ٦٨٥. وقد جمع كثيرا من هذه الآيات د.محمد عبدالله دراز في آخر كتابه دستور الأخلاق في فصل الأخلاق العملية، وسبقه إلى ذلك الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" الذي جمع فيه ما يربو على ألف وخمسمائة آية من الآيات المتعلقة بالمعرفة، والآيات المتعلقة بالسلوك، والكتاب مطبوع ومعروف .

الأخلاق وإذكائها في النفس البشرية كما سيأتي بيانه في حينه إن شاء الله تعالى(١). وأما الكرم فهو عنوان على الفضل والجود والسخاء الذي لا يبارى، وهذه معان خلقية واضحة .

واختتاما بآخر الآيات تنزلا وهي قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ [البقرة:٢٨١] حيث أمرت بالتقوى التي هي الأصل الأول لأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية، السلوكية منها والتعاملية، إذ منها ينبع كل خلق نبيل، وبها يكف عن كل خلق رذيل .

فابتداء تنزل القرآن واختتامه بالحديث عن الأخلاق؛ تصريحا أو إشارة، ثم توالى تنزل الآيات في الحديث عنها على ذلك النحو، يدل دلالة واضحة على اهتمام الشريعة الإسلامية بالأخلاق، وأنها أصل من أصولها .

فهذا برهان مستنبط من سر تنزل القرآن ومجموع آياته، يكفي للتدليل -لو كان وحده- على عناية الشريعة الإسلامية بالأخلاق، لكن كيف وقد عد علماء الإسلام الأخلاق أحد الأصول التي جاءت بها الشريعة ! فقد قال الإمام الشاطبي(٢) - رحمه الله تعالى - : "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها : أن تكون ضرورية .

الثاني : أن تكون حاجيّة .

الثالث : أن تكون تحسينية"، وتكلم عن معنى الضرورية والحاجية ثم قال :

"وأما التحسينيات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"(٣) .

---

(١) انظر ص١٠٨ من هذه الرسالة .

(٢) هو الإمام ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بـ"الشاطبي" أصولي حافظ من أهل غرناطة بالأندلس، كان من أئمة المالكية، له مؤلفات عدة منها "الموافقات" و"الاعتصام" في أصول الفقه ت ٧٩٠هـ، انظر الأعلام للزركلي ٧٥/١ .

(٣) الموافقات ٨/٢-١٢ .

ثم ذكر أنها جارية في العبادات والعادات والمعاملات .

فإذا كانت الأخلاق أحد الأصول التي جاءت بها الشريعة فلا نستغرب تلك العناية الكبيرة بالأخلاق في القرآن الكريم، غير أن ما ذكر لا يمنع من البحث عن أسرار أخرى لذلك .

سر عناية القرآن الكريم بالأخلاق :

لقد كانت بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في وقت كانت مكارم الأخلاق التي ندبت إليها جميع الشرائع قد ولَّت وآذنت بانصرام في كل أرجاء البلاد العربية منها وغير العربية .

أما البلاد العربية فقد كانت بعيدة العهد برسالة إلهية، حيث إن من بعث إلى العرب من الأنبياء كهود وصالح وشعيب وإسماعيل(١)عليهم الصلاة والسلام كان قد تباعد بهم الزمان، وبادت أممهم، ولم يبق في البلاد العربية من ديانات الأنبياء إلا ما كان من الديانة الحنيفية ملة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام،وإسماعيل هو جد العرب المستعربة، ومع ذلك فقد تباعد العهد بدينهما فغيرت الوثنية بالحنيفية، وعبدت الأصنام مع الله تعالى وأشرك بالله غيره، وخرجوا من الإسلام الذي وصَّى به إبراهيم بنيه .

وإلى جانب ذلك فسدت أخلاقهم، "فأولعوا بالخمر والقمار وبلغت بهم القساوة والحمية الجاهلية والعصبية المقيتة إلى وأد البنات، وشن الغارات على القبائل الآمنة المجاورات، وقطع الطريق على القوافل المارات ذاهبات وآيبات، وسقطت منزلة المرأة في المجتمعات فكانت تورث كما يورث المتاع أو سائر الحيوانات، ومن المأكولات ما هو خاص بالذكور محرم على البنات، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد،ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق،وخوف الفقر والإملاق..،إلى غير ذلك من منكرات الأخلاق"(٢)كما بين الكتاب العزيز كثيرا من ذلك في آيات شهيرات.

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد غيروا كتب الله المنزلة إليهم فحرفوها وزادوا فيها ونقصوا،وأحلوا ما حرم الله، واتبعوا أهواءهم في أصول الدين وفي تشريع

---

(١) انظر خاتم النبيين لأبي زهرة ٤٣/١-٥٣ .

(٢)انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٣٩، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبي شهبة - رحمه الله - ٩٤/١ .

العبادات والمعاملات كما أخبر الله عنهم ذلك بقوله: ﴿ أفتَطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعونَ كلام اللهِ ثُمّ يُحَرِّفونَه من بعد ما عَقلُوه وهم يَعلمون ﴾ [البقرة:٧٥] وقال: ﴿ من الّذين هادوا يحَرِّفونَ الكلِم عن مَواضِعه ﴾[النساء:٤٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنهم حرفوا الكتب المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل التي استحفظوا عليها، وتخلوا عن مكارم الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع، وبعثت بها الرسل كما قال الله سبحانه: ﴿ لقد جاءت رُسلُ رَبِّنا بالحَقِّ ﴾ [الأعراف:٤٣](١) لذلك كان على هذه الشريعة الخاتمة أن تعيد الأمة إلى الفطرة السليمة والنهج القويم الذي أراده الله تعالى من عباده في سلوكهم معه ومع خلقه، فكان ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الأخلاقي في القرآن الكريم .

ب ـ دلالة السنة النبوية :

أما السنة فقد كان من أجل الغايات في بعثة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي إتمام مكارم الأخلاق كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وغيره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"(٢) وفي رواية: "مكارم الأخلاق"(٣)، وفي رواية: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال"(٤)، وفي أخرى : "بعثت لأتمّم حسن الأخلاق"(٥) .

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٢٣-٢٦ ، ١٧٤-١٧٦ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٢، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨/٩، والخرائطي في مكارم الأخلاق برقم ١ ، وإسناده حسن، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق برقم١٤، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٢٧٤ ، والحاكم في المستدرك ٦١٣/٢ وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي .

(٣) وهذا لفظ البزار كما حكاه عنه الهيثمي في المجمع .

(٤) أخرجها الطبراني في الأوسط من حديث جابر ـ رضي الله عنه ــ كما عزاه إليه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩١/٨، قال: وفيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف، قلت: لكن الحديث صحيح من غير طريقه، فضعفه يجبر بالشواهد الكثيرة الآتي بيان مواضعها قريبا.

(٥) وهذه رواية مالك في الموطأ ٢١١/٢باب ما جاء في حسن الخلق،رواها بلاغا،لكن قال السيوطي في تنوير الحوالك بذيل الموطأ: وصله قاسم بن أصبغ، والحاكم من طريق عبدالعزيز الدراودي عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة،ثم نقل عن ابن عبد البر قوله:هو حديث مدني صحيح،قال =

فترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصر هدف بعثته في هذا الحديث على إتمام مكارم الأخلاق التي كانت الأنبياء قبله قد بعثت بها، وبقيت منها بقية تحتاج إلى مزيد بيان، بل ما بينته منها كانت الأمم قد ضلت عن كثير منها لا سيما الأمة العربية، فبعث صلى الله عليه وسلم ليتمم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلوا عنه، وبما خص به في شريعته مما لم يكن قبله من مكارم الأخلاق .

وقد جاء القرآن الكريم يؤكد هذا الأصل الأخلاقي في غيرما آية، فقد قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ كما أَرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلُو عليكم آياتِنا وُيزكِّيكم وُيعلِّمُكم الكتابَ والحِكمةَ وُيعلِّمُكم ما لم تكونُوا تَعلمون ﴾ [البقرة:١٥١]، وقال سبحانه: ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنينَ إذ بعث فيهم رَسولاً من أنفسِهم يتلُو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانُوا من قبلُ لَفي ضَلالٍ مُبين ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ هو الذي بعث في الأُميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين ﴾ [الجمعة:٢] .

فيخبر الله تعالى في هذه الآيات أنه بعث نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ليزكي عباده "أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية"(١) التي كانوا قد تلبسوا بها بعد فترة من الرسل، وذلك ما كان قد دعا به أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث دعا الله تعالى أن يبعث في الأمة رسولاً من بعده يجدد دعوته ويُحيي تزكيته، كما قص الله تعالى ذلك عنه بقوله: ﴿ ربَّنا وابعثْ فيهم رَسولاً منهم

= ويدخل فيه الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ...أهـ.

والحديث أخرجه بالإضافة إلى من ذكر: ابن سعد في الطبقات ١٢٨/١، وابن أبي شيبة في المصنف ٥٠٠/١١، والبخاري في التأريخ الكبير ١٨٨/٧، والبيهقي في السنن الكبرى ١٩٢/١٠، والبغوي في شرح السنة ٢٠٢/١٣ وذكره القاضي عياض في الشفاء ٢٠٧/١، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٠٥ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٥، ٧٥/١، ونقل عن ابن عبدالبر قوله: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره. أهـ .

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ، ١٩٦/١ .

يتلو عليهم آياتِك ويُعلّمهم الكتابَ والحِكمةَ ويزكّيهم إنّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾ [البقرة:١٢٩] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يخبر عن نفسه في استجابة الله تعالى لدعوة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقد سأله أبو أمامة(١) ـ رضي الله عنه ـ عن أول أمره، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "دعوة إبراهيم وبُشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام"(٢) .

فإذا كان من أعظم الغايات في بعثته صلى الله عليه وسلم، هو إتمام مكارم الأخلاق وتزكية الأمة، فمعنى ذلك أن شريعته الغراء التي بعث بها ذات أسس أخلاقية عليها تقوم وبها تنفذ في كل جوانبها؛ الإيمانية، والتعبدية، والتعاملية، فلا يزكو إيمان ولا عبادة ولا عمل ما لم يكن مصبوغا بالصبغة الأخلاقية الفاضلة، إذ "ليس من خلق كريم ولا فعل جميل إلا وقد وصله الله بالدين"(٣) .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في جملة من الأحاديث التي ربط فيها بين الجوانب الإيمانية أو التعبدية أو التعاملية، وبين السلوك الأخلاقي، كما سيأتي ذكرها في مباحث الرسالة عند مناسبات ذكرها إن شاء الله تعالى .

ولهذا حض النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الالتزام بالأخلاق الفاضلة ورغبهم فيها، وحذرهم من التخلق بالأخلاق السيئة،وذلك بأفعاله وأقواله التي نذكر منها طرفا صالحا إن شاء الله تعالى .

---

(١) صدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مائتين وخمسين حديثا، سكن مصر ثم حمص وبها توفي سنة ٨١هـ، وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام. انظر أسد الغابة ١٣٨/٥، وتهذيب الأسماء واللغات ١٧٦/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٢/٥، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٥/٨ إلى الطبراني أيضا قال: وإسناده حسن وله شواهد تقويه، وذكر جملة منها في الباب التالي وهو باب قدم نبوته صلى الله عليه وسلم ص ٢٢٦

(٣) كما قال ذلك ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤٤ .

حض النبي صلى ا لله عليه وسلم أمته على التحلي بمكارم الأخلاق

فمن ذلك :

١ ـ ما رواه عبدا لله بن عمرو بن العاص(١) رضـي ا لله عنهمـا قـال: "لم يكـن رسـول ا لله فاحشاً ولا متفحشاً وإنه كان يقول: "إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً"(٢) .

والحديث يدل على أنه صلى ا لله عليه وسلم كان داعية صدق إلى أنبل الأخلاق بحاله، قبل أن يكون داعية إليها بمقاله؛ لأن الأمة معنية باقتفاء نهج نبيها في السلوك الفعلي، كما هي معنية بامتثال أقواله لقول ا لله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ ا للهِ أُسوةٌ حسـنة ﴾ [الأحزاب:٢١] .

وأما أقواله صلى ا لله عليه وسلم فكثيرة أمراً، وترغيباً وحضاً، وتنويهاً .. ، في أحاديث كثيرة يطول حصرها، ولكن نذكر منها نبذة صالحة فمن ذلك :

٢ ـ قوله صلى ا لله عليه وسلم: "اتق ا لله حيثما كنـت، وأتبـع السـيئة الحسـنة تمحهـا، وخالق الناس بخلق حسن"(٣) .

وأما ترغيبه فبأحاديث كثيرة، تدل على عظيم منزلته، وكبير جزائه وذلك كقوله صلى ا لله عليه وسلم:

٣ ـ "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن ا لله يبغض

---

(١) ابن وائل السهمي، أحد الزهاد العباد المكثرين من الرواية، وأحد العبادلـة الفقهـاء، أسـلم قبـل أبيـه، ومناقبـه كثـيرة، تـوفي سـنة ٦٣هـ، على خـلاف في ذلـك وفي موضـع وفاتـه. انظـر طبقـات ابـن سـعد ٢٦١/٤، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣٤٦/٢ ، والإصابة ٣٥٢/٢ ، وتهذيب الأسماء ٢٨١/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لم يكن النبي صلى ا لله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشـاً ١٦/٨، ومسـلم في الفضائل باب كثرة حيائه صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٣٢١ .

والفاحش:هو ذو الفحش في كلامه وفعاله، والمتفحش: الذي يتكلف ذلك ويتعمده.النهاية لابن الأثير ٤١٥/٣

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس من حديث أبي ذر ـ رضـي ا لله عنـه ــ برقـم ١٩٨٧، وقال عنه: حسن صحيح .

الفاحش البذيء"(١) .

والبذيء: هو المتكلم بالفحش ورديء الكلام .

٤ ــ وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم"(٢)

وفي هذين الحديثين من الدلالة على فضل حسن الخلق ما يحمل على التحلي به بكل رغبة، لما يناله صاحبه من هذا الأجر العظيم، إذ هو أعظم الأعمال ثقلاً في الميزان، ومن ثقلت موازينه نال الفضل العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿ فأمَّا من ثَقُلت مَوازِينُه فهو في عِيشةٍ راضية ﴾ [القارعة:٦-٧] .

كما أنه يلحق المرء بمن أتعب نفسه في سهر الليالي بالقيام والأيام بالصيام، وهو لم ينل شيئاً من ذلك العناء، ومع ذلك نال كل ذلك الفضل بحسن خلقه، فهي غنيمة عظيمة بلا شك، وذلك دليل على مبلغ منزلة الخلق الحسن عند الله تعالى، إذ لولا مكانته العظيمة لما رتب عليه ذلك الأجر كله .

٥ ـ وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظيم منزلته عند الله تعالى فقال لمن سأله عن أحب عباد الله إلى الله قال: "أحسنهم خُلُقاً"(٣) .

ولما كانوا أحب عباد الله إلى الله كانوا أحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخلق من حديث أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ برقم ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق برقم ٢٠٠٢، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخلق من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ برقم ٤٧٩٨، وابن حبان في صحيحه ١/٣٥٠، وإسناده حسن، وله شواهد من حديث عبدالله بن عمرو، وأبي هريرة، وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ أخرجها الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٣ وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٥٠٨٢ .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٧ إلى الطبراني من حديث أسامة بن شريك، وكذلك المنذري في الترغيب ٣/٤٠٨ عزاه إليه وإلى ابن حبان في صحيحه، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح .

٦ - "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً.."(١) .

فأحسن الناس أخلاقاً،أحبهم إلى ا لله تعالى وإلى رسوله صلى ا لله عليه وسلم، وفي هذا من الحث على التحلي بحسن الخلق ما يحمل عليه يكل رغبة لما يترتب عليه من محبة ا لله تعالى ومحبة رسوله صلى ا لله عليه وسلم التي هي سبب لنيل الأجر العظيم، والبعد عن نار الجحيم .

وإنما كان حسن الخلق سببا لمحبة ا لله تعالى، ومحبة رسوله صلى ا لله عليه وسلم لصاحبه؛ لأن المتحلي به كامل الإيمان كما دل على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم :

٧- "أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقا"(٢) .

٨ - وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا"(٣) .

---

(١) وتمامه: "وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول ا لله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون" .

والثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً، وخروجاًعن حد الواجب، والمتشدقون: هو الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحا وتعاظما، والمتفيهقون: هم الذين يتنطعون في كلامهم ويتوسعون فيه .

والحديث أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق برقم ٢٠١٨ من حديث جابر ــ رضي ا لله عنه ـ ، وأحمد في المسند ١٨٩/٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٤/٨ إلى أحمد والطبراني قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وذكر له الهيثمي شواهد من حديث عبدا لله بن مسعود وعبدا لله بن عمرو ـ رضي ا لله عنهما ـ، وضعف أسانيدهما .

قلت: ويشهد له حديث عبدا لله بن عمرو المار ص ٢١، المتفق على صحته .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه من حديث أبي هريرة برقم ٤٦٨٢ والترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجهابرقم ١١٦٢، واللفظ له، وقال الترمذي عنه: حسن صحيح

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٩٩/٥ من مسند جابر بن سمرة ــ رضي ا لله عنهما ــ، وعزاه المنذري في الترغيب ٤٠٩/٣ إلى الطبراني قال: وإسناد أحمد جيد ورواته ثقات، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨/٨ إلى أبي يعلى قال: ورجاله ثقات .

وكمال الإيمان والإسلام عليه مناط الثواب ورفع الدرجات ومحو السيئات كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ كانت لهم جنَّاتُ الفردوس نُزُلاً * خالدين فيها لا يَبغونَ عنها حِولا ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿ والَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات لنكفِّرنَّ عنهم سِّيئَاتِهم ولَنجزينَّهم أحسنَ الذي كانوا يَعمَلون ﴾[العنكبوت:٧] .

فكامل الإيمان هو الحسن الأخلاق، الذي يستطيع بحسن أخلاقه أن يعامل ا لله تعالى وأن يعامل عباده، بل ويعامل نفسه على وفق شرع ا لله تعالى، ومراده من عباده .

ولهذا كان حسن الخلق جامعا لكل معاني البر، الذي هو اسم جامع لكل معاني الخير الاعتقادية والتعبدية والتعاملية، قال ا لله تعالى: ﴿ ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ با للهِ واليومِ الآخر والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين .. ﴾ [البقرة:١٧٧] كما سيأتي بيانه قريبا .

وقد جمع كل تلك المعاني حنسن الخلق، كما أجاب بذلك رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من سأله عن البر والإثم فقال :

٩ ـ "البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(١) .

فقابل البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم"(٢) .

وإنما كان جامعا لكل تلك المعاني "لأن حُسن الخلق يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب ا لله تعالى التي أدب بها عباده في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى ا لله عليه وسلم، فالدين كله خُلُق"(٣) .

١٠ ـ ولذلك كان أكثر ما يدخل الجنة حسن الخلق، كما أجاب بذلك النبي صلى ا لله عليه وسلم من سأله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: "تقوى ا لله وحسن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تفسير البر والإثم من حديث النواس بن سمعان ـ رضي ا لله عنه ـ برقم ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في البر والإثم برقم ٢٣٨٩ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٠٦ .

(٣) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٢٣٩ .

الخلق"، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: "الفم والفرج"(١) .

ففي هذه الأحاديث العظيمة حض عظيم على التحلي بمحاسن الأخلاق، لما فيها من بيان لفضله وعظيم أجره، ومنزلته عند الله، لا يتوانى المؤمن الحق عند سماعها ودرايتها عن المبادرة إلى التحلي بمحاسن الأخلاق حرصا على نيل فضلها، وهي غيض من فيض مما حث به النبي صلى الله عليه وسلم أمته على لزوم مكارم الأخلاق التي بعث بتمامها والبعد عن مساوئها .

"ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلّي بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسِفْر لا يعرف مثله لعظيم من أئمة الإصلاح"(٢) ، ولكن بحسبنا ما قدمنا من نماذج على ذلك، وقد علمت من خلالها ما للأخلاق الزاكية من مكانة في الإسلام حيث جعل النبي صلى الله عليه وسلم معيار الخيرية هو حسن الخلق(٣)، ولذلك كان أثقل شيء في الميزان عندما توزن الأعمال يوم القيامة،فتثقل الأخلاق الحسنة كفة الحسنات على كفة السيئات، فيفوز صاحبها بالجنة، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة يدخلها بسبب حسن خلقه وتقوى الله تعالى التي هي أساس حسن الأخلاق، وفي الجنة يدرك صاحب الخلق الحسن درجة قائم الليل مصليا، الظامىء بالهواجر صائما، ويدرك ذلك بأمر عظيم لكنه يسير على من يسره الله له، فإن حسن خلقه يجعله يؤدي الحقوق الواجبة عليه لله ولخلقه بنفس مطمئنة وصدر رحب، ورغبة فيما عند الله تعالى، وبذلك يحظى بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والقرب منه في المجلس، وأي فضل أكبر وأعظم من ذلك ؟ وما كان له أن ينال ذلك الفضل الكبير إلا بحسن الخلق الذي جمع معاني الخير كله كما علمت من قريب .

وبهذا تعلم سر عناية الإسلام بالأخلاق، من أن عنايته بها ناشئة من عظيم منزلتها فيه؛ لأنها أصل من أصوله المهمة .

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق برقم ٢٠٠٤ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال عنه: صحيح غريب .

(٢) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٣ .

(٣) أي بعد الإيمان بالله وملائكته ...الخ .

بل إن الدين كله خلق كما فسره حَبرُ الأمة عبدا لله بن عباس(١) ـ رضي ا لله عنهما ـ وذلك عند تفسيره لقوله تعالى في مدح نبيه صلى ا لله عليه وسلم ﴿ وإنَّك لَعلَى خُلُقٍ عظيم ﴾ فقال: "أي على دين عظيم"(٢) فسمَّى الدِّين كله خلقا .

وذلك كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): "لأن الدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقا، بخلاف الطاعة مرة واحدة قال: ولهذا فسر الدين بالعادة والخُلُق، ويفسر الخُلُق بالدين أيضا، كما في قوله تعالى: ﴿ وإنَّك لعلَى خُلُق عظيم ﴾ ثم ذكَر ما تقدم ذكره عن ابن عباس، قال: وذكره عنه سفيان بن عيينة(٤) وأخذه الإمام أحمد(٥) عن سفيان بن عيينة وبذلك فسَّراه"(٦) .

---

(١) هو عبدا لله بن عباس بن عبدالمطلب ابن عم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، ودعا له النبي صلى ا لله عليه وسلم بالفقه في الدين وعلم التأويل، فاستجاب ا لله له،فبلغ من ذلك مبلغا، حتى كان يسمى حبر القرآن لسعة علمه، وهو أحد السبعة المكثرين من رواية الحديث وأحد العبادلة الفقهاء، مات بالطائف سنة ٦٨هـ،انظر الاستيعاب ٣٥٠/٢، والإصابة ٣٣٠/٢ وغيرهما .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨/٢٩ عنه وعن مجاهد، وعزاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٠٢/٤ أيضا إلى أبي مالك والسدي والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، ونقل الشوكاني في فتح القدير ٢٦٧/٥ عن الواحدي حكاية هذا القول عن الأكثرين .

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد، نادرة العصر تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، ولد سنة ٦٦١، كان من بحور العلم في الحديث والفقه والتفسير والعقائد وغير ذلك، وكان من الزهاد والأذكياء المعدودين، له مؤلفات عدة، توفي سنة ٧٢٨هـ. ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ١٤٩٦/٤، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٢٠ برقم ١١٤٢، وشذرات الذهب ٨٠/٦ .

(٤) ابن أبي عمران ميمون الهلالي، أحد أئمة الإسلام، الثقة الحافظ الفقيه الإمام الحجة، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ولد سنة ١٠٧ ومات سنة ١٩٨هـ. ترجمته في التذكرة للذهبي ٢٦٢/١، والطبقات للسيوطي ص ١١٩ برقم ٢٣٨، وحلية الأولياء ٢٧٠/٧، والرسالة المستطرفة ص ٤١ وغيرها .

(٥) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبدا لله الإمام الشهير صاحب المسند والزهد والورع وغير ذلك،كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة، قال عنه الذهبي:شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره الحافظ الحجة .. ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤١هـ وله ٧٧ سنة. ترجمته في التذكرة ٣٤١/٢، والطبقات ص ١٨٩، والحلية ١٦١/٩ وغيرها، وأفرد ترجمته بالتأليف كثير منهم ابن الجوزي في كتاب مطبوع اسمه مناقب الإمام أحمد .

(٦) قاعدة في المحبة ص ٣٢ .

خصائص الأخلاق في الإسلام

للأخلاق في الإسلام خصائص مهمة تميزها عن الأخلاق عند الفلاسفة ومن سار في ركابهم من الماديين، في الشرق والغرب خاصة العصور المتأخرة، الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا يدينون دين الحق الذي ارتضاه لهم الحق سبحانه وتعالى، مما جعل أخلاقهم لا تعتمد على أساس مقبول،ولا تؤدي عملها في التزكية،أو غرضها في إسعاد النفس البشرية والحياة الاجتماعية .

وعند معرفة خصائص الأخلاق في الإسلام، ندرك البون الشاسع بين أخلاق الفلاسفة وأخلاق الإسلام، وتعلم كنه صلاح الأخلاق الإسلامية للبشرية، وفشل أخلاق الفلاسفة والماديين في أداء واجبها للبشرية .

وخصائص الأخلاق الإسلامية كثيرة نجملها في الخصائص التالية :

ـ الخصوصية الأولى : (ارتباطها بالإيمان) :

الأخلاق الإسلامية تصدر عن العقيدة وترتبط بها ارتباطا وثيقا لأن الصلة بين العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة عميقة جدا، إذ هي صلة البناء بأساسه،وصلة بين أمرين لهما غاية واحدة؛ لأن الأخلاق مستمدة من العقيدة، والعقيدة والأخلاق يهدفان إلى سعادة المرء في دينه ودنياه، وأولاه وأخراه .

ووجه الارتباط بين العقيدة والأخلاق، أن العقيدة الإسلامية الصافية تدفع إلى الابتعاد عن رذائل الأخلاق، وتحث على التحلي بمكارمها لما يشعر المرء بعقيدة الإسلام الصحيحة من ترتب الأثر على ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في الثواب والعقاب، وما يرضي الرب سبحانه وتعالى، وما يسخطه، فيحرص على مكارم الأخلاق لحرصه على

مرضاة ربه سبحانه، وكريم ثوابه ويبتعد عن رذائلها خوفا من غضب ربه وأليم عقابه .

ويجد المؤمن في كتاب الله تعالى ما يدفعه إلى الشعور بالتلازم بين الإيمان والأخلاق، حيث يقرأ في كتاب الله تعالى ذلك التلازم في كل فضيلة مطلوبة، أو رذيلة منهي عنها؛ لأن الله تعالى عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر يجعل ذلك من مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم، فكثيرا ما يقول سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا ﴾ ثم يأمر بخلق حسن أو ينهى عن خلق سيء، كأن يقول: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ وكونوا مع الصَّادقين ﴾[التوبة:١١٩] أو يقول: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يَسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونُوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يَكنَّ خيراً منهُنَّ .. ﴾ [الحجرات:١١]، فتراه يخاطبهم بوصف الإيمان لينبههم إلى أن ما كلفهم به من أمر بخلق حسن،أو نهي عن ضده مثلاً هو من مقتضيات الإيمان الذي اتصفوا به، فعليهم أن يحققوا إيمانهم ويرسخوه بمقتضيات الإيمان من مكارم الأخلاق، والابتعاد عن مساوئها .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يربط بين الإيمان وبين ما يدعو إليه من كريم الأخلاق أو ينهى عنه من سيئه كأن يقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"(١) .

أو يقول: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائِقَه"(٢) أي: غوائله وشروره .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة سيأتي ذكرها في مواطن دلالاتها إن شاء الله تعالى .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم يجعل العلاقة بين الإيمان والأخلاق متلازمة، بحيث تدل ظواهر هذه الأحاديث على ثبوت الإيمان عند التحلي بالخلق الكريم، أو نفيه عند التخلي عنه، مما يجعل المؤمن ملزما إلزاما حتميا بالأخلاق الفاضلة، ومبتعدا عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ١٣/٨ ، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار برقم ٤٧، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ١٢/٨ من حديث أبي شريح - رضي الله عنه

الأخلاق السيئة بمقتضى إيمانه فإذا ما فعل ذلك كان دليلا على عمق إيمانه ورسوخه، في قلبه وشهد له بين الناس بكمال الإيمان كما سيتبين في الخصوصية التالية :

ـ الخصوصية الثانية : (أنها أخلاق إلزامية) :

ليست الأخلاق في الإسلام أمورا اختيارية يمكن التحلي بها أو التخلي عنها، بل هي في نظر الإسلام أصل من أصوله، يطلبها كطلبه لأصول الإسلام الأخرى من عقيدة صحيحة وشرائع كاملة، بل إن الإسلام غذّى أصوله الأخرى بالأخلاق، وصبغها جميعا بالصبغة الأخلاقية، فالعقائد والعبادات والمعاملات التي كلف الله تعالى بها عباده، لا يكون العبد مؤدّيا لها على الوجه الذي أراده الله تعالى ما لم تكن الأخلاق الفاضلة غامرة لها .

كما يدل على ذلك اقتران تلك الأصول والشرائع بالحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد علمت مدى العلاقة بين الإيمان والأخلاق، واستدللت من ذلك على أن طلب الشارع للأخلاق كطلبه للإيمان، ولذلك كان تنزل القرآن بالإيمان والأخلاق معا منذ فجر الرسالة الخاتمة كما علمت غير بعيد.

أما شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ونحوها، فإنها كلها منوطة بالأخلاق ومقترنة بها، فالصلاة مثلا عندما أمر الله تعالى بها، أبان عن الحكمة من إقامتها فقال: ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[العنكبوت:٤٥] .

والزكاة عندما أمر بأخذها أبان عن سر تشريعها فقال: ﴿ خُذ من أموالِهم صدقةً تُطهِّرهم وتزكِّيهم بها ﴾[التوبة:١٠٣] .

والصيام جعل علة تشريعه زكاء الخلق فقال سبحانه: ﴿ كُتِب عليكم الصيامُ كما كُتِب على الذين مِن قبلِكم لعلَّكم تَتَّقون ﴾[البقرة:١٨٣] .

والحج قرن تشريعه بنواهٍ أخلاقية تؤدي إلى زكاء الخلق فقال سبحانه: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرَض فِيهنَّ الحج فلا رَفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ وما تَفعلوا من خير يعلمْه الله وتزوَّدوا فإنَّ خير الزَّادِ التَّقوى واتَّقونِ يا أولي الألباب ﴾[البقرة:١٩٧] .

وهكذا بقية فروع الإسلام وتشريعاته الجليلة الدقيقة، كلها لها غايات أخلاقية عظيمة، فإذا تجردت عن جوانبها الأخلاقية كانت فاقدة لأجلِّ مطلوب فيها .

لذلك كان طلب الشارع للأخلاق العالية ليس من نافلة القول، إنما هو طلب إلزامي لا مجال للحياد عنه سواء كان في السلوك الذاتي أو العبادات أو المعاملات(١) .

"فلا فرق في نظر الإسلام بين قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبِروا وصَابروا ورابِطوا واتَّقوا الله لعلَّكم تُفلِحون ﴾[آل عمران:٢٠٠]، وقوله: ﴿ وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مَسئُولا ﴾[الإسراء:٣٤]، وبين قوله: ﴿ وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاة ﴾[البقرة:٤٣]، أو قوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا تَداينتُم بدينٍ إلى أجلٍ مُسمًّى فاكتُبوه ... ﴾[البقرة:٢٨٢](٢)» لأن كل ذلك مطلوب طلبا حثيثا يأثم تاركه ويثاب فاعله، وقد تضافر على كل خلق كريم خطابات كثيرة من الكتاب والسنة تفيد الثواب أو العقاب، والمدح أو الذم كما ستمر عليك في كل أبحاث الرسالة إن شاء الله تعالى .

ـ الخصوصية الثالثة : (أنها شاملة لكل آفاق الحياة) :

ويراد بشمول الأخلاق، اتساعها لتشمل كل آفاق الحياة الدنيوية والأخروية، وتعم جميع مظاهر الحياة البشرية، بل والحيوانية أيضا فلا يخرج شيء من دائرة الأخلاق الإسلامية .

"إن دائرة الأخلاق الإسلامية واسعة جدا، فهي تشمل أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره فردا أو جماعة أو دولة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق مما لا نجد له نظيرا في مذهب بشري أو قانون وضعي، أو فكر فلسفي.

فالأخلاق في الإسلام لم تغادر شعبة من شعب الحياة؛ بيئة الفرد، وبيئة البيت، وبيئة المدرسة، ومجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والترفيه والقانون والآداب والجيش وميادين الشرطة والمعسكرات وساحات الحرب والسلم والمؤتمرات والأسواق ... إلا وللأخلاق فيها أثر بالغ"(٣) وسيمر بك ما يغنيك عن ذكر النماذج والأمثلة من مجالات

---

(١) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٧-١٣ .

(٢) النظام الأخلاقي في الإسلام للدكتور محمد عقله ص ٦٢ .

(٣) النظام الأخلاقي في الإسلام ص ٤٨، وانظر أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٩٠ .

الحياة المتفرقة، المحاطة بسياج الأخلاق الإسلامية السامية المنيعة .

وبهذا تمكن الإسلام من نزع زمام الحياةمن أيدي الشهوات والمصالح الفردية أو الآنية، ووضعه بين يدي الأخلاق الكريمة، التي حفظت للحياة روحها ومعنويتها، وللمجتمعات مقوماتها، وللفرد صلاحياته للخلافة في هذه الأرض .

ـ الخصوصية الرابعة : (أنها ثابتة لا يعتريها التغير والاضطراب) :

الثبات معناه في اللغة: الدوام والاستقرار، يقال: "ثبت الشيء يثبت ثبوتا، دام واستقر فهو ثابت"(١) .

والمراد به هنا أن الأخلاق الإسلامية من إيمانية أو سلوكية أو تعبدية أو اجتماعية .. أو غير ذلك مما سيأتي تفصيله "كلها أخلاق يتعذر العيش بدونها، ولا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم وارتقت الحضارة"(٢)، بل إنها مع ذلك هي أحوج ما يكون إلى الأخلاق الإسلامية لإسعاد البشرية مع تعقيدات المدنية الحديثة، وسلوكها الذي يغلب عليه الانحراف الأخلاقي بلْه العقائدي .

إن الأخلاق في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعا للظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية؛ لأنها تنطلق من قيم أساسية لا تتغير في أصولها؛ لأنها مرتبطة بالنفس الإنسانية التي تنطلق من معتقدها في الإيمان با لله تعالى، وأهمية التقوى والعمل الصالح، فهي ترجع إلى القيم العليا التي قدمها الإسلام والتي منها ثبات القيم الأخلاقية التي لا تقبل التزلزل والاضطراب؛ لأنها جزء من الدين الذي جاءت به هذه الشريعة، بل كانت غاية من غايات بعثة نبيها المصطفى صلى ا لله عليه وسلم .

"وهذا بخلاف الأخلاق الوضعية، فإنها على العكس من ذلك، حيث تسيرها مصالح

---

(١) المصباح المنير ٨٨/١ .

(٢) النظام الأخلاقي في الإسلام ص ٥٣ .

واضعيها، فقد نادت الفلسفة الأخلاقية في الغرب إلى أن الأخلاق ليست فطرية ثابتة بل إنها مرتبطة بالمجتمعات والعصور من ناحية التطور والتغير وعدم الثبات"(١) .

"وليس غريبا أن تتصف الأخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب؛ لأنها تمثل نفسية واضعها وهو إنسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر وعمق الفكر وحب الخير أن يضع للبشر دستورا أخلاقيا ثابتا لا تبدله الأحوال"(٢) .

- الخصوصية الخامسة : (ارتباطها بالجزاء الإلهي) :

من أهم خصائص القواعد الأخلاقية في الإسلام ارتباطها بالجزاء الإلهي ثوابا وعقابا في الدنيا والآخرة .

ويمثل عامل الجزاء ركنا مكملا للأخلاق في الإسلام؛ لأن الباعث على التمسك بقواعد الأخلاق يكون لدى المسلم هو الحرص على إرضاء الله تعالى ورغبته في الفوز بحسن ثوابه

وهذا الباعث له الأثر العظيم في تقوية إيمانه ومعاونته على الصبر والتحمل لما يتطلبه السلوك الأخلاقي من مجاهدة للنفس وأخذها بما يخالف هواها أو رغباتها العاجلة .

ويتمثل الجزاء حقيقة ماثلة أمامالمسلم لتبدو القواعد الأخلاقية لديه أمرا عادلا متكاملا، فيطبقها بأريحيَّة كاملة،وقناعة تامة بما هو راغب فيه من الثواب أو يرهبه من العقاب .

وقد عنيت النصوص القرآنية والنبوية بهذا العنصر - أعني عنصر الجزاء الأخلاقي - عناية كاملة، فلا تكاد تقرأ نصا في الأخلاق من الكتاب أوالسنة إلا وهو يحمل ترغيبا في الأخلاق الفاضلة لتكتسب، أو ترهيبا من الأخلاق الرذيلة لتجتنب، وذلك ما يحمل المؤمن على المبادرة على التخلق بالأخلاق الفاضلة بمقتضى إيمانه با لله وبوعده ووعيده، ويرى أن إقدامه على خلاف ما أمر به أونهى عنه أمر يوجب عليه العصيان، و المقت من ا لله فيحمله على المبادرة بالتوبة إلى ا لله تعالى إن هو اقترف خلاف ما أمر به أونهى عنه، فيعود بذلك إلى السلوك الحميد، والسير المرضِي، فيستقيم خلقه ويعتدل نهجه،

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) من أخلاق النبي صلى ا لله عليه وسلم للدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٥٩ .

وهذا أمر لا يوجد في الأخلاق الوضعية التي قد تفرض جزاء قانونيا على مرتكب رذيلة خلقية؛ لأنها سرعان ما تفشل عندما يشعر الشخص أنه قد أمن تطبيق القانون عليه بتخفّيه عن الرقابة، أو بحلوله في سلطة تحميه ...،فقد فشلت آلاف القوانين والقرارت واللوائح الموضوعة لمقاومة الانحلال الخُلُقي، والانحراف العقدي في كثير من المجتمعات الكفرية الجاهلية .

ناهيك عن أن تلك الجزاءات غير ثابتة ولا دائمة، فما أكثر ما تتبدل وتتغير بتغير الحكومات، أو بتغير الظروف والأعراف .

كما أنها إن سُنت فإنها لا تتناول من النواحي الخلقية إلا مسائل متناثرة لا تصل إلى الإحاطة الشاملة بكل مناحي الحياة الإنسانية، فهي لا تعنى إلا بما يراه الناس ضروريا، ولا تهتم إلا بما يشكون منه، أما ما يرونه موافقا لأهوائهم فقلّما تتدخل الحكومات للحد منه، أو العقاب عليه .

وأيضا فإن الجزاءات الوضعية هي جزاء عقاب، ليست حزاء ثواب، فهي لا تعدو عن كونها زواجر لمنع وقوع الجريمة الخلقية، أما أن تحث على فعل الخير أو ترغب فيه فلا .

بينما الجزاء الأخلاقي في الإسلام جزاء عقاب وجزاء ثواب معا، اسمع إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ و للهِ ما في السماواتِ وما في الأرضِ ليَجزيَ الّذين أساءُوا بما عمِلوا ويَجزيَ الذين أَحسنُوا بالحُسنى ﴾[1] [النجم:٣١] .

ـ الخصوصية السادسة : (القيمة الذاتية للأخلاق الإسلامية) :

ومعنى هذه الخصوصية أن الأخلاق الإسلامية لها مكانة عظيمة في نفسها بغض النظر عما تجر إليه من خير عميم في حياة الفرد والجماعة، فهي في نظر الإسلام غايات تقصد لذاتها، وليست وسيلة لتحقيق غايات نفعية كما هو الحال في الأخلاق الوضعية، بل إن الالتزام بمقتضى الأخلاق مطلوب في الوسائل والغايات .

---

(١) انظر الأخلاق في الإسلام للدكتور يعقوب المليجي ص ١٤٩-١٥٢ .

"فالأخلاق في الإسلام لا ترتبط بقواعد المنفعة بحيث تدور معها وجودا وعدما، وإنما هي أهداف ينبغي السعي إلى تحقيقها بغض النظر عما يؤدي إليه اختلاف وجهات النظر بشأنها"(١) ، ولذلك لا يجوز الوصول إلى الغاية الشريفة بالوسيلة الخسيسة كما يقولون: "الغاية تبرر الوسيلة"، ألا ترى أن الله تعالى أوجب على المؤمنين نصرة إخوانهم المظلومين قياما بحق الأخوة في الدين، ولكن إذا كانت نصرتهم تستلزم نقض العهد مع الكفار الظالمين، لم يجز النصرة لهم كما قال سبحانه: ﴿ وإن استَنصرُوكم في الدِّين فعليكم النَّصرُ إلا على قومٍ بينَكم وبَينهم ميثاقٌ والله بما تعمَلون بصير ﴾[الأنفال:٧٢]، فنهاهم الله عن النصرة لإخوانهم في هذه الحال؛ لأن وسيلتها الخيانة ونقض العهد، وهما ليسا من أخلاق الإسلام(٢)، فلم يجزها لهم وإن كان في ذلك نصر لإخوانهم، حفاظا على أخلاق الإسلام أن تخترم .

فهذه هي أهم خصائص الأخلاق الإسلامية التي تميزها عن سائر النظريات الأخلاقية الوضعية، وتجعلها جديرة بإسعاد البشرية في الحياة الدنيوية والأخروية .

وجديرة بأن تكون غاية لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٣)، وبأن تنال تلك العناية الكبيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) الأخلاق في الإسلام ص ١٤٩ .

(٢) انظر أصول الدعو للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٩١ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ١٨ .

المبحث الثالث

مادة الأخلاق، ومايقاربها، وأنواعها في القرآن

من خصائص اللغة العربية الاتساع في الألفاظ بحيث يكون للمعنى الواحد ألفاظ كثيرة تصل أحيانا إلى عشرين لفظا أو أكثر، وهي المعروفة في علم اللغة بـ"المترادفات"، أي أنها مختلفة المبنى، لكنها مؤتلفة المعنى، وغالبا ما يكون ذلك في المعاني المهمة ذات الشأن الكبير كلفظ الخلق مثلا، فإن العرب تعبر عنه بألفاظ كثيرة كالغرِيزة، والطَّبيعة، والسَّجِيَّة، والجِبِلَّة، والسَّلِيقة، والخلِيقة، والدُّربة ...

وقد أفرد علماء اللغة لهذا الفن من فنون اللغة كتبا خاصة على شكل معاجم تجمع ألفاظ كل معنى في باب مستقل، كما فعل جمال الدين بن مالك(١) ــ رحمه الله ــ في كتابه "الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة"، وسبقه إلى ذلك كثير من علماء اللغة، ولكن هذا ما بأيدينا الآن من كتب هذا الفن .

وقد أورد ـ رحمه الله تعالى ــ الألفاظ الدالة على معنى الخلق تحت عنوان: "باب الطبع"(٢)، وأتى من ذلك بالألفاظ التالية: "غَريزتي، وخَليقتي، وضَريبتي، ونَحيزتي، وسليقتي، وخِيَمي، وشِيَمي، ونَحِيتَتي، وشمائِلي، وسجيَّتي، وجِبِلَّتي، وخِلقتي، ودُرْبتي، وبِنْيَتي، وعادتي، وشِنْشِنتي، ودَيْدَني، وإجرِيَّاي"(٣) .

فهذه ثمانية عشر لفظا كلها تدل على معنى الخلق، فأيُّ لفظ استعمل دل على أن من أسند إليه الكلام صار ذلك المسند إليه خلقا له وطبعا(٤) وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى.

(١) هو محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الجياني الأندلسي الشافعي الملقب بـ"جمال الدين" ت سنة ٦٧٢هـ، كان إماما في اللغة والنحو وعلوم اللغة كلها، وله مؤلفات نافعة كثيرة، كالكافية الشافية، والألفية، ولامية الأفعال، وغيرها. انظر بغية الوعاة ص٥٣، والأعلام ٢٣٣/٦ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) وانظر أيضا الألفاظ المترادفة المتقاربة في المعنى للرماني ص ٥٦ ط الأولى١٤٠٧، تحقيق د.فتح الله المصري .

(٤) انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ١١٣ .

وقد ورد استعمال بعض هـذه الألفـاظ في نصـوص الكتـاب والسـنة للدلالـة علـى ذلـك المعنى.

أما الكتاب فقد استعمل لفظ الخلق في موضعين منه :

الأول: في سورة الشعراء حيث قال سبحانه على لسـان "عـاد" قـوم "هـود" ـ عليه السلام ـ في معـرض ردهـم المنكـر علـى نبيهـم حـين دعـاهم إلى الله، ورغبهـم بثوابـه، وخوفهم من عقابه: ﴿ قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكن مِـن الواعظـين * إنْ هـذَا إلَّا خُلُق الأوَّلين * وما نَحنُ بِمُعذَّبين ﴾[١٣٦-١٣٨] .

والثاني: في صدر سورة القلم، حـين ذب الله عـن نبيـه المصطفـى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأقسم على عصمته من الجنون، وعلى كمال خلقه حيث قـال سبحانه : ﴿ ن والقلمِ وما يَسطرون * ما أنتَ بِنعمةِ ربِّك بمجنونٍ * وإنَّ لك لأجـرًا غـيرَ ممنـون * وإنَّك لَعلى خُلُق عظيم ﴾[١-٤] .

أما الألفاظ الأخرى المقاربة للفظ الخلـق في المعنـى فاستعمل منهـا : "الـدأب" و"السـنة" و"الفطرة" وهي من الألفاظ التي لم يذكرها ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ، ولكنهـا تـدل على معنى الخلق، فالدأب: معناه العادة والشأن المستمرة دائما على حاله(١)، وهـو بمعنـى الخلق الذي يصبح عادة في الإنسان لا يتغير، وقد ورد أربـع مـرات في القـرآن الكريـم، منها قوله تعالى : ﴿ كدأبِ آلِ فرعـونَ والَّذيـن مِـن قبلِهـم كذَّبـوا بآياتِنـا فـأخذَهم اللهُ بذُنوبِهم واللهُ شديدُ العِقاب ﴾[آل عمران:١١]، وقوله تعالى: ﴿ مثلَ دأبِ قومِ نـوحٍ وعـادٍ وثمودَ والَّذين من بعدِهم ﴾[غافر:٣١] .

وورد بلفظ "دأبا" أي متتابعا(٢)، وذلـك في قـولـه تعـالى: ﴿ قـال تَزرعـونَ سبعَ سِنين دأَبا ﴾[يوسف:٤٧]، وبلفظ "دائِبينِ" أي: جـارين في فلكهمـا(٣) دائمـا لا يفترقـان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وسخَّر لكم الشَّمسَ والقمرَ دائِبين ﴾[ابراهيم:٣٣] .

---

(١) الصحاح للجوهري ١٢٣/١، والمفردات للراغب ص ١٧٤ .

(٢) تفسير الجلالين ٢٧٠/١ .

(٣) تفسير الجلالين ٢٩١/١ .

وأما السنة فمعناها: السيرة والطبيعة، حميدة كانت أو ذميمة(١)، فهي بمعنى الخلق؛ لأنه يصير طبعا للإنسان، وهو مظهر سيرته كما قد علمت، وقد ورد استعمالها في القرآن الكريم سبع عشرة مرة(٢)، منها قوله تعالى: ﴿ وإنْ يَعودُوا فقد مضت سُنَّةُ الأولين ﴾[الأنفال:٤٥] .

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لِسُنَّةِ الله تبديلا ﴾ [الأحزاب:٦٢]، وأما الفطرة فهي بمعنى الخلقة(٣)، وهذا من الألفاظ المرادفة للفظ الخلق كما علمت .

وقد ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فطرةَ الله الَّتي فطرَ الناس عليها لا تَبديلَ لخلقِ الله ﴾ [الروم:٣٠]، والفطرة التي فطر عليها الناس هي دينه الحنيف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه"(٤) .

وكما فطرهم على دينه الحنيف، فقد فطرهم على الخير أو الشر، والسعادة أو الشقاوة، والطيابة أو الخباثة كما علم فيما تقدم بحثه من أن الأخلاق فطرية ومكتسبة .

هذا ما وقفت عليه مما جاء في القرآن الكريم في الدلالة على معنى الخلق بلفظها أو مقاربها .

وأما السنة النبوية، فقد ورد فيها استعمال لفظ "الخلق" أو "الأخلاق" في أحاديث كثيرة في مقامات مختلفة، وسيأتي ذكرها في مناسبات ذكرها من مواضع الرسالة إن شاء الله تعالى .

وكذا ما يدل على ذلك المعنى الخُلقي من الألفاظ السابقة أو غيرها ستذكر إن وجدت عند مناسبات ذكرها حيث يكون الاستشهاد بها متعينا إن شاء الله تعالى .

---

(١) القاموس المحيط ٢٣٧/٤، والمصباح المنير ٣١٢/١ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٧ .

(٣) مجمل اللغة لابن فارس ٧٢٢/٣، والصحاح للجوهري ٧٨١/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سرة الروم ١٤٣/٦، ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة برقم ٢٦٥٨ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

أنواع الأخلاق في القرآن الكريم

قد علمنا من خلال تعريف الأخلاق أنها دائرة بين الحسن والقبح، فإما أن تكون أخلاقا حسنة، أو أخلاقا قبيحة؛ لأن الخلق اسم لما هو كامن في النفس من قوة راسخة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح، أو إلى اختيار ما هو شر وجور، فإن نزعتها إلى اختيار الخير والصلاح سميت "أخلاقا حسنة أو كريمة"، أو إلى الشّر والجور سميت "أخلاقا قبيحة أو ذميمة"

فالخلق إذًا جنس(١) يدخل تحته نوعان: (٢) هما : الخلق الحسن، والخلق القبيح، وتحت كل نوع من هذين أفراد كثيرة .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أفراد النوعين حديثا مستفيضا إجمالا تارة، وتفصيلا أخرى، فأمر بالأخلاق الحسنة وحض عليها، ونوه بها وبأهلها ووعدهم عظيم الثواب، ونهى عن الأخلاق السيئة وحذر منها، وذمها وأهلها وأوعدهم عظيم العقاب، كل ذلك بأدلة المطابقة(٣) أو التضمن(٤) أو الالتزام(٥) .

ويهدف القرآن الكريم من حديثه المستفيض عن الأخلاق إلى غرض أصلي هو تقويم الأخلاق بحيث تصبح أخلاق المسلمين كلهم نوعا واحدا، وهو نوع الأخلاق الحميدة، جريا على منهجه الأساسي وهو الهداية للتي هي أقوم، كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ هـذَا القرآنَ يهدي لِلَّتِي هي أقوم ﴾[الإسراء:٩] .

---

(١) الجنس هو كلي مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو من حيث هو كذلك .

(٢) النوع هو كلي مقول على كثيرين متفقين بالحقائق في جواب ما هو.أهـ. التعريفات للجرجاني ص ٧٩ ، ٢٤٧ .

(٣) دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له .

(٤) دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له إن كان له جزء.

(٥) دلالة الالتزام هي دلالة اللفظ على ما يلازمه في الذهن، وذلك كدلالة الإنسان على تمام الحيوان الناطق بدلالة المطابقة، وعلى الحيوانية أو الناطقية بالتضمن، وعلى قابل العلم بالالتزام، انظر التعريفات للجرجاني ص ١٠٤، والتوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبدالرؤوف المناوي ص ٣٤٠ .

فإن حديثه عن سيء الأخلاق: نهيا وتحذيرا وذما وعقابا، إجمالا وتفصيلا، هو أمر للمسلمين بالتخلي عن مساوىء الأخلاق ولزوم محاسنها، إجمالا وتفصيلا كذلك؛ لأن النهي عن الشيء هو أمر بضده، كما أن الأمر بالشيء نهي عن ضده كما يعرف من دلالة الالتزام أو مفهوم المخالفة(١)، فما من خلق ذميم نهى عنه القرآن الكريم، أو ذمه إلا وذلك النهي أمر بمقابله من الحسن ومدح له، كما أنه ما من خلق حسن أمر به أو مدحه إلا وهو نهي عن مقابله من خلق سيء وذم له، لذلك لم نعرج في هذا الكتاب عن الحديث عن مساوىء الأخلاق قصدا، وإن كنّا قد نتحدث عنها عرضا أحيانا لتدعيم الحديث عن الخلق الكريم، وتعضيد دلائله، وذلك اكتفاء بدلالة الالتزام، فالحديث مثلا عن خلق الرضا والتوكل والرجاء والخوف والإخلاص والاستقامة والشكر وغيرها مما تحدث عنه القرآن الكريم هو حديث بالالتزام عن مقابل هذه الأخلاق من سخط وعجز ويأس وأمن ورياء أو شرك وانحراف وكفر ..، إذ تُعلم الأخلاق الحميدة فتُلتزم، وذلك ترك للأخلاق الذميمة، ولذلك قالوا : "وبضدها تتميز الأشياء" .

---

(١) مفهوم المخالفة هو ما يفهم من الدليل بطريق الالتزام، ويقال: هو أن يثبت الحكم في المسكوت على خلاف ما يثبت في المنطوق. التعريفات ص ٢٢٤ .

المبحث الرابع

مصدر الأخلاق في ضوء القرآن الكريم

المصدر في اللغة: ما يصدر عنه الشيء، يقال: أصدر الأمر؛ إذا أنفذه وأذاعه(١)، وهو في عرف أهل النحو: "الاسم الذي اشتق منه الفعل وصدر عنه"(٢) .

أما في الاصطلاح :فهو "من يملك حق الأمر بالتقيد بخلق معين" أو يقال: "هو من تستمد منه التوجيهات الخُلقية"(٣)، ويعبر عن هذا المعنى أيضاب"الإلزام الخلقي" .

ولقد فهم من البحث السابق من خلال الإشارة إلى العناية الكبرى بالأخلاق في القرآن الكريم والسنة المطهرة مصدر الأخلاق الإسلامية .

وإذا علمنا منزلة الأخلاق في نظر الإسلام من خلال تلك العناية، علمنا أيضا أن الأخلاق الإسلامية "ربَّانية المصدر" نبوية التطبيق والتبيين والتكميل، بمعنى أنها آخذة مأخذ الأحكام الشرعية في تأصيل تشريعها وتأسيس أحكامها من الكتاب والسنة، وما أقرَّاه من عمل السلف الصالح، وعُرف الأمة المسلمة الذي لا يناقض أصلا، بل يندرج تحت أصل من أصولهما(٤)، وسأتناول نماذج من تشريع الأخلاق في الكتاب والسنة للأهمية .

الكتاب :

الكتاب في اللغة: مصدر كتب يكتب كتابة، مشتق من الكَتْب؛ وهو ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة،واستعير لضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط فسمي كتابالجمعه الحروف،

---

(١) انظر المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ١٠٩/١ .

(٢) التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني ص ٢١٦ .

(٣) منهج القرآن الكريم في عرض الأخلاق الأسرية لعلي بن عبدا لله الشهري ص ١٠، طبع على الآلة الكاتبة .

(٤) وذكر الدكتور محمد عبدا لله دراز من مصادر الأخلاق الإجماع والقياس إضافة إلى الكتاب والسنة بناء على أن الأخلاق جارية مجرى الأحكام التشريعية، غير أني لم أجد الأمثلة المحسوسة على تشريع الأخلاق من الإجماع أو القياس، فلذلك لم أذكرها، وتأسيا بأكثر الكتب المصنفة في الأخلاق الإسلامية، فإنها لم تذكرهما من مصادر الأخلاق .

وسمي القرآن الكريم كتابا؛ "لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة"(١) .

قال الراغب بعد ذكره لبعض ما ذكرتُ: ".. وفي التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض باللفظ، والأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد منهما للآخر، ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتابا كقوله: ﴿ أَلمٓ * ذلك الكتابُ ﴾[البقرة:١،٢]، قال: والكتاب في الأصل: مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتابا، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه"(٢)، وقيل: "سمي القرآن كتابا إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه"(٣) .

والقرآن الكريم هو المصدر الأول للأخلاق: تشريعا لأحكامه، وتفصيلا لأنواعه، وتوجيها لأهله حثا لهم وترغيبا، وتحذيرا لهم وترهيبا، في آيات محكمات كثيرات بحيث لا تكاد تخلو سورة من سوره الكريمة من آية أو آيات تتحدث عن الأخلاق تشريعا وتوجيها وترغيبا وترهيبا بلغ مجموعها نحواً من ربع القرآن الكريم كما تقدم ذكره غير بعيد .

ولقد قال الله تعالى في شأن القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هذا القرآنَ يَهدي لِلَّتي هي أقوم ﴾[الإسراء:٩]، وهداية القرآن للتي هي أقوم أي: أعدل وأصوب شاملة للمصالح التي عليها مدار الشرائع وهي درأ المفاسد وجلب المصالح، والتزام مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروفة بالضروريات والحاجيات والتحسينيات كما تقدم ذكره عن الشاطبي — رحمه الله تعالى - .

فقد جاء القرآن الكريم بالهداية في ذلك إلى أقوم طريق وأعدلها. قال في "أضواء البيان"(٤) :

"والحض على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله تعالى وسنة

(١) المفردات للراغب ص ٤٢٣، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٧٦/١ .

(٢) المفردات للراغب ٤٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٢١/١ .

(٤) في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، قال ذلك في ٤١١/٣ .

نبيه صلى ا لله عليه وسلم، ولذلك لما سئلت عائشة ـ رضي ا لله عنها ـ عن خلقه صلى ا لله عليه وسلم قالت: "كان خلقه القرآن"(١)؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ لأن ا لله تعالى يقول في نبيه صلى ا لله عليه وسلم: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[القلم:٤] .

فدل مجموع الآية وحديث عائشة ـ رضي ا لله عنها ـ على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق يكون على خلق عظيم، وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق" .

وسأذكر هنا بعض الآيات الكريمة التي جمعت أصنافا من مكارم الأخلاق لتكون نماذج على ما سواها .

نماذج من تشريع القرآن الكريم للأخلاق :

١ ـ فمن ذلك: في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرِقِ والمغربِ ولكنَّ البِرَّ من آمنَ با للهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السَّبيل والسَّائلين وفي الرِّقاب وأقامَ الصلاةَ وآتى الزَّكاة والمُوفُون بعهدِهم إذا عاهدوا والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ أولئِك الَّذين صدَقوا وأولئِك هُم المتَّقون ﴾[البقرة:١٧٧]، فقد جمعت هذه الآية ست عشرة عروة من عرى الإسلام والإيمان، وقواعده وشعبه العظام، وهي داخلة كلها في مسمى البر وهو "حسن الخلق" ؛ لأنها كلها من مكارم الأخلاق التي ندبت إليها الشريعة المطهرة، وسيرد ذكرها واحدة واحدة في مناسبات ذكرها إن شاء ا لله تعالى .

ولذلك كان البر جامعا لمكارم الأخلاق كما علمت من تعريف النبي صلى ا لله عليه وسلم للبر فيما مضى ذكره قريباً(٢) .

٢ ـ وقال سبحانه:﴿قولٌ معروفٌ ومَغفِرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتبعُها أذىً وا لله غَنِيٌّ حليم *

(١) أخرجه مسلم وسيأتي ذكره وتخريجه قريباً ص٥٦.

(٢) انظر ص٢٤.

يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صَدقاتِكم بالمَنِّ والأذى كالَّذي يُنفق ماله رِئـاءَ النَّـاس ولا يُؤمنِ با للهِ واليومِ الآخر...﴾[البقرة:٢٦٣-٢٦٤]، وفي هـاتين الآيتـين تعليـم لأخـلاق البـذل والعطاء من أن الكلمة الطيبة خير من الصدقة التي يتبعها المن؛ لأن المَنَّ ثقيـل علـى قلـوب الرجال، وقاصم لظهور الآخذين، ولعِظـم الإساءة التي تلحق آخذ الصدقة نهى ا لله تعـالى المعطين نهي تحريم عـن ذلـك، وبـين لهـم أن المـن يجعـل الصدقـة تذهـب أدراج الريـاح، ويؤوب صاحبها بالوزر بدل الأجر .

٣ ـ ويقـول سـبحانه في سـورة آل عمـران: ﴿.. الذيـن يُنفقـونَ في السَّـراءِ والضَّـراء والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن النَّاس وا للهُ يُحِبُّ المحسـنين * والذيـن إذا فعلـوا فاحشـةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا ا للهَ فاستغفروا لِذنوبهم وَمَن يَغفرُ الذُّنوبَ إلا ا لله و لم يُصِرُّوا علـى ما فعلوا وهم يَعلمون ﴾[١٣٤-١٣٥]، وفي هـذه الآيـات إشـادة وتنويـه عظيـم بـأهل هـذه الأخلاق؛ ككظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، والتوبة عن الذنب .

٤ ـ وفي سورة النساء يقول سبحانه: ﴿ إن ا للهَ يأمُركم أن تُؤدُّوا الأمانـاتِ إلى أهلهـا وإذا حكمتُم بينَ النَّاس أن تحكُمـوا بـالعدل إنَّ ا لله نِعمَّـا يعظِكـم بـه إنَّ ا لله كـان سميعـاً بصيراً ﴾[٥٨]، وهذه الآية توجب أداء الأمانات إلى أهلها، والحكـم بـين النـاس بـالعدل، وقد أكد على إقامة العدل بالآية التالية :

٥ ـ يقول ـ جل شأنه ـ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسط شـهداءَ لله ولـو على أنفسِكم أو الوالِدين والأقربين إن يكنْ غنياً أو فقيراً فا للهُ أولى بهما فلا تَتبَّعوا الهوى أن تعدِلوا وإن تلْوُوا[1] أو تُعرِضوا فإنَّ ا لله كان بما تَعملون خبيراً ﴾[النساء:١٣٥] .

٦ ـ ويقول أيضا: ﴿ لا يُحِبُّ ا للهَ الجهرَ بالسُّوء من القولِ إلا من ظُلم وكان ا للهُ سميعًا عليما * إن تُبـدوا خيراً أو تُخـفـوه أو تَعـفوا عن سُـــــوءٍ فإن ا لله كان عفوّاً قديراً ﴾[النساء:١٤٨-١٤٩] . وهذه الآية تنفر من مساوىء الأخلاق، وتفيد أنها مبغوضة عند ا لله تعالى، وتحبذ مكارمها .

---

(١) أي: تحرفوا الشهادة. تفسير الجلالين ١١٩/١ .

٧ - وفي سورة الأنعام يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألَّا تُشركوا به شَيئاً وبالوالدينِ إحساناً ولا تقتُلوا أولادَكم من إمـلاق نحـنُ نرزُقكـم وإيَّاهم ولا تَقربوا الفواحشَ ما ظهر منها ومـا بطـنَ ولا تقتُلوا النَّفس الَّتي حرَّم الله إلَّا بالحق ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تعقلون... ﴾[١٥١-١٥٣] .

وهذه وصايا جامعة لمكارم الأخلاق مع الله تعالى ومع عباده .

٨ - وفي سورة النحل يقول - جل ذكره -: ﴿ إن اللهَ يـأمُر بـالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغيِ يعِظُكـم لعلَّكم تذكَّرون * وأوفُوا بعهد الله إذا عاهدتُّم ولا تنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدِها وقد جعلتُم اللهَ عليكم كَفيلاً إنَّ اللهَ يعلمُ ما تَفعلون ﴾[٩٠-٩١] .

وهذه الآيات جمعت أصناف مكارم الأخلاق، يأمر الله تعالى بها عباده مما هو في مقام الله تعالى أو مقام المخلوقين، فليس من خلق حسن يتعارفه الناس إلا وأمرت به، وليس من خلق سيء إلا ونهت عنه؛ لأن العدل هو الوسط من كل شيء، والدين الإسلامي كله مبني عليه، ولذلك كان ديناً وسطا، وأمته أمة وسط، والإحسان التفضل، والإسلام يدعو إلى الفضل، كما يدعو إلى إقامة العدل، وهو شامل للفضل في العبادات والمعاملات...، ثم نهت بعد ذلك عن كل منكر وبغي وظلم وخيانة ...وهي جماع مساوىء الأخلاق .

٩ - وفي سورة الإسراء يقول الله تعالى : ﴿ وقضى(١) ربُّك ألَّا تعبدوا إلَّا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يبلُغَنَّ عندك الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهما فلا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تَنهرهما وقلْ لهما قولاً كريماً.. ﴾[الخمس عشرة آية ٢٣-٣٧] .

وهذه الآيات جمعت أيضا صنوفا عِدة من مكارم الأخلاق الإيمانية والتعبدية والتعاملية سيأتي ذكر كثير منها مما هو من محاسن الأخلاق في مباحثها الخاصة إن شاء الله تعالى.

١٠ - وفي سورة "المؤمنون" يقول سبحانه: ﴿ قد أفلحَ المؤمنون * الَّذين هم في

---

(١)أي: أمر .

صلاتِهم خاشعون * والَّذين هم عن اللَّغو مُعرضون * والَّذين هم لِلزَّكاة فاعلون * والذين هم لِفُروجهم حافظون... ﴾[إلى تمام التسع الآيات في صدر السورة] .

وفي هذا التنويه العظيم إقرار لهذه المكارم الأخلاقية وتحبيذ لها .

١١ - وفي سورة النور تشريع لكثير من الأخلاق الأسرية إجمالاً وتفصيلا بحيث تعتبر هذه السورة من أجمع السور للأخلاق الأسرية، ومن آياتها في ذلك قوله تعالى: ﴿ ولا يأتَلِ أولُو الفَضل منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ الله ولْيَعفُوا ولْيصفحوا ألا تُحِبُّونَ أن يغفرَ اللهُ لكم واللهُ غفور رحيم ﴾[٢٢] .

ومنها قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتَّى تستأنِسوا وتُسلِّموا على أهلها ...﴾[الآيات من٢٧-٣٣] .

١٢ - وفي سورة الفرقان تبيان لكثير من أخلاق عباد الرحمن، حيث قال الله تعالى: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الذين يَمشون على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً..﴾ [إلى تمام اثنتي عشرة آية ٦٣-٧٤] .

وفي هذه الآيات من التنويه ما في آيات "المؤمنون" وهي تحمل على التحلي بها لما فيها من الإقرار لها والتحبيذ عليها .

١٣ - وفي سورة "لقمان" وصايا أخلاقية عظيمة قصها الله تعالى على لسان لقمان -رحمه الله تعالى - تعد من جوامع آيات الأخلاق، وذلك كقوله سبحانه: ﴿ يا بُنيَّ أقِمِ الصلاةَ وأمر بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابَكَ إنَّ ذلك من عزمِ الأمور * ولا تُصعِّر خدَّك(١) للنَّاسِ ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً(٢) إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ * واقْصِد في مشيِك واغضُض من صَوتك إنَّ أنكر الأصواتِ لَصوتُ الحمير ﴾[١٧-١٩] .

---

(١) أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً .

(٢) أي خيلاء.أهـ تفسير الجلالين ١٤١/٢ .

١٤ - وفي سورة الحجرات نداءات متكررة للمؤمنين للتخلي عن رذائل الأخلاق، والتحلي بمكارمها في التعامل الاجتماعي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قوم عسَى أن يكونُوا خيراً منهم ...﴾[١١]، وقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنـوا اجتنبوا كثيراً من الظَّن إنَّ بعض الظَّن إثمٌ ولا تجسَّسُوا ولا يَغتب بعضُكم بعضًا أيُحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيتاً فكرهتُموه واتَّقوا ا للهَ إن ا لله توَّابٌ رحيم ﴾[١٣]

١٥ - وفي سورة المعارج بيان لكثير من أخلاق المؤمنين ابتداء من قولـه تعالى: ﴿..إلا المُصَلِّين * الذين هـم على صلاتِهـم دائِمـون * والَّذيـن في أموالهِـم حقٌّ معلـوم * للسائل والمحروم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ والَّذين هم على صلاتِهم يُحافظون ﴾[٢٢-٣٤] .

وفيها من التنويه بالمتحلين بمكارم الأخلاق ما تقدم ذكره في"المؤمنون" و"الفرقان" .

فهذه نماذج جامعة لما اشتمل عليه القرآن الكريم من تشريعات للأخلاق، سيأتي بيانها وتفصيلها في مباحث الرسالة المتفرقة إن شاء ا لله تعالى .

وهذا فضلا عن آيات القصص والأمثال التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وهي من أجل الأساليب الحاضة على مكارم الأخلاق والمنفرة عن مساوئها، لما في ذلك من داع لقبولها في النفس البشرية لكونها كانت عن تجربة، أو امتناع بالصورة المعلومة لها بالنسبة للأمثال.

وقد كان ا لله تعالى يقص على نبيه أخبار الرسل ثم يقول له: ﴿ فبهُداهم اقتدِه ﴾[سورة الأنعام:٩٠]، ويقول له: ﴿ فاصبر كما صبر أولُو العزمِ من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥] ويقول أيضاً: ﴿ وكلاً نقصُّ عليك من أنباءِ الرُّسل ما نُثبِّتُ به فؤادَك وجاءك في هذهِ الحقُّ وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنين ﴾[سورة هود:١٢٠]، وليس الخطاب خاصاً بالنبي صلى ا لله عليه وسلم في مثل هذه الأمور، بل هو شامل لأمته .

السـنَّـة :

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة، وجمعها: سُنن(١) .

---

(١) المصباح المنير ١/٣١٣، وانظر لسان العرب مادة (سنن) .

قال في "المفردات": "السنن: جمع سنة، وسنة الوجه طريقته، وسنةالنبي صلى ا لله عليه وسلم: طريقته التي كان يتحراها"(١) .

وهي في اصطلاح علماء الحديث: "كل ما أثر عن النبي صلى ا لله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير"(٢) .

والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، متى ثبتت عن المعصوم صلى ا لله عليه وسلم؛ لأنها من الوحي الذي أوحى به ا لله تعالى على عبده ونبيه المصطفى صلى ا لله عليه وسلم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وما يَنطقُ عن الهوى * إنْ هُو إلَّا وحيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النجم:٣-٤]، لذلك أوجب ا لله على المؤمنين اتباعها، وحذرهم من مخالفتها، وذلك بدلالات آيات كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿ قل أطِيعوا ا للهَ والرَّسول ﴾[سورة آل عمران:٣٢]، فأمر سبحانه بطاعة الرسول صلى ا لله عليه وسلم كما أمر بطاعته، وقوله سبحانه: ﴿ من يُطعِ الرَّسول فقد أطاعَ ا لله ﴾[النساء:٨٠]، فجعل طاعة الرسول صلى ا لله عليه وسلم طاعة لله تعالى .

وقال - جل شأنه -: ﴿ وما آتاكُم الرسولُ فخُذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧]، وهذا إلزام لا مفر منه في اتباع ما جاء به الرسول صلى ا لله عليه وسلم والانتهاء عما نهى عنه، وقد حذر من مخالفة أمر الرسول صلى ا لله عليه وسلم غاية التحذير فقال سبحانه: ﴿ فلْيحذَر الَّذين يخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم ﴾ [النور:٦٣] .

وأمر الرسول صلى ا لله عليه وسلم شامل لصريح الأمر الذي نطق به، ولهديه في الأقوال والأفعال سوى ذلك؛ لأنها كلها مصدر للتأسي كما قال سبحانه: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يَرجُو ا للهَ واليومَ الآخِر ﴾[الأحزاب:٢١] .

---

(١) المفردات ص ٢٤٥ .

(٢) السنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي ص ٤٧، والسنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ١٦، والسنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي لأبي غدة ص ٧-٩ .

وقد كان تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم للأخلاق بالقول والفعل والتقرير كما هو الشأن في أنواع ما يسمى "سنة" .

١ ـ أما القول فقد تقدمت أمثلة له في المبحث الثاني، وستأتي أمثلة كثيرة لكل خلق كريم في كل مباحث الرسالة .

٢ ـ وأما الفعل، فإضافة إلى ما سيأتي ذكره منها في كل مباحث الرسالة، يتعين ذكرُ ما يدل عليه هنا، وأبرز ما يدل عليه وعلى كل خلق عظيم قولياً كان أو فعلياً، حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي هو أصل هذه الرسالة، ومحور ارتكازها؛ لأنها كلها تطبيق لمدلوله بالواقع العملي والقولي من حياته صلى الله عليه وسلم .

وهو ما أخرجه مسلم وغيره من طريق سعد بن هشام بن عامر(١) أنه سأل عائشة(٢) ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت .."(٣) .

---

(١) الأنصاري المدني ابن عم أنس بن مالك رضي الله عنه، روى عن عائشة وابن عباس وغيرهم، وهو ثقة من الثالثة مات بأرض الهند. انظر التهذيب ٤٨٣/٣، والتقريب برقم ٢٢٥٨ .

(٢) بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها كانت أفقه النساء مطلقا، وأفضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلا خديجة على خلاف في ذلك، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي بنت سبع، وبنى عليها وهي بنت تسع، وتوفي عنها وعمرها (١٨)سنة، وماتت سنة ٥٧هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٣٩/٨، وتهذيب الأسماء ٣٥٠/٢، والإصابة ٣٥٩/٤ وغيرها .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦ بسياق طويل، وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب في صلاة الليل برقم ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٩٩/٣، والدارمي في الصلاة، باب صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٤٥/١، وأحمد في المسند ٥٤/٦، كلهم بنحو رواية مسلم،وفي ٩١/٦، ١١١، ١٦٣،مختصراً،وأخرجه ابن ماجه في الأحكام،باب الحكم فيمن =

فإن هذا الحديث يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متمثلاً لأخلاق القرآن في سلوكه كله، تمثلاً عمليا بحيث كان صلى الله عليه وسلم صورة مشاهدة لأخلاق القرآن في أفعاله وأقواله، وسيأتي إيضاح هذا مُسهباً في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى(١)، وستأتي الدلائل المتكاثرة في كل المباحث الآتيةعلى تحلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق من لدن نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، كأعظم مايكون التحلي بها وأجمله بشهادة القرآن الكريم له بذلك حيث قال: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾[القلم:٤] .

وتحليه صلى الله علي وسلم بتلك المكارم الأخلاقية القرآنية هو تشريع للأمة بها بموجب التأسي والاقتداء.

٣ ـ وأما تشريعه صلى الله عليه وسلم للأخلاق الإسلامية بالتقرير، فذلك بتقريره صلى الله عليه وسلم ما كان عليه العرب من بقايا مكارم الأخلاق التي توارثوها من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهي كذلك أخلاق فطرية، وقد شرعها الله تعالى للأمم على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، كالشجاعة والكرم والمروءة والنجدة والوفاء بالعهد وحماية الجار وإجارة المستجير والقناعة، ونحو ذلك من المكارم الخلقية التي جاء عليه السلام بتأكيدها، كما قالت عائشة رضي الله عنها : "لقد جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة كلها زادها الإسلام شدة، منها قرى الضيف، وحسن

= كسر شيئا برقم ٢٣٣٣، والحاكم في المستدرك ٢/٤٩٩،٦١٣، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوة ١/٣٠٨، وابن حبان في باب حسن الخلق برقم ٤٦٧ من الإحسان، وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه برقم ٢٢، وابن جرير الطبري في تفسيره ٢٩/١٣، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٣٩، وسيأتي ذكر رواياته الأخرى في المبحث التالي من هذا المدخل .

(١) انظر ص ٦٦

الجوار، والوفاء بالعهد"(١) .

فقد مر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء ـ أي: ينهاه عنه ويقبح له فعله ويزجره عن كثرته (٢) ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: "دعه فإن الحياء من الإيمان"(٣) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم أقر الرجل الحيي على حيائه، ونهى الرجل الذي عارضه فيه، عن معارضته إياه عنه؛ لأن الحياء خير كله، ولا يأتي إلا بخير كما سيأتي بيانه في بابه إن شاء الله تعالى (٤) .

وهكذا كان يقر كل خلق كريم توارثه الناس عن أسلافهم، وتعارفوا عليه في مجتمعاتهم، مما ركز في الفطرة الإنسانية ويقره الشرع .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤١، وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله تعالى به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه. أهـ تفسير القرآن العظيم ٥٨٢/٢ .

(٢) شرح مسلم للنووي ٦/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الحياء من الإيمان ١٤/١، ومسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان برقم ٣٦ .

(٤) انظر ص ٤٦٥

المبحث الخامس

النصوص المنوهة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم

لم تكن الرسالات الإلهية إلا محض اصطفاء إلهي يخص بها الله تعالى من يؤهله لتحمل أعبائها، والنهوض بواجباتها، بما يجعله في المصطفى للرسالة من كمالات خِلقية وخُلقية، حتى إذا ما تهيأ لذلك، وحان وقت بعثه بالرسالة أوحى بها إليه وكلفه بواجب البلاغ المبين، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: ﴿ اللهُ يصطفي من الملائكةِ رُسلاً ومن النَّاس إنَّ الله سميعٌ بصير ﴾[الحج:٧٥] .

قال الراغب: "والاصطفاء: معناه تناول صفوة الشيء ... واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر(١) ذلك من الأول" (٢) .

وما أفاده الراغب من معنى الاصطفاء هو ما شهد به التاريخ من واقع الرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث أفاد أنهم كانوا صفوة البشر، وأنهم مخلَّصون مما عليه غيرهم من رذائل الأخلاق ورعونات الجاهليات .

ولذلك لم يكن لأحد أن يطمح أو يتشهى أن يدرك النبوة أو يكتسبها بجهده، لأن اصطفاء الله تعالى مغيب عنه، ولا تدرك قوانين الاصطفاء الإلهي بمقاييس البشر، ولقد أنكر الله تعالى على من أراد إخضاع الاصطفاء الإلهي للمعايير التي يتعامل بها البشر من عظمة في الجاه أو المال .. ونحوهما حين قالوا ما قصه الله بقوله سبحانه: ﴿ وقالُوا لولا نُـزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ مِن القريتين عظيم * أهُم يَقسمون رحمة ربِّك ...﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] .

والمراد بـ"رحمة ربك" هنا النبوة فهي قسمة إلهية محضة لا مدخل لأحد فيها من الخلق، ولذلك أنكر الله تعالى عليهم اقتراحهم أشد الإنكار .

---

(١) أي: يخلو .

(٢) المفردات ص ٢٨٣ .

وقوله سبحانه: ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نُؤمن حتَّى نُؤتَى مثل ما أُوتيَ رُسُلُ الله اللهُأعلم حيث يجعلُ رِسالته سيصيبُ الَّذين أجرموا صَغارٌ عندَ اللهِ وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون ﴾[الأنعام:١٢٤]، "والمعنى: أن للرسالة موضعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه، فمن كان مخصوصا موصوفا بتلك الصفات التي لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه، كان رسولا وإلا فلا، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله تعالى"(١) .

ولما أراد الله تعالى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائه ورسله، هيأه لذلك واصطفاه على العالمين بهذه الرسالة، ورشحه لحملها بجعله في ذروة الكمال الخَلقي والخُلقي كما دلت على ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة .

الدليل على تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة .

والأدلة على تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر هنا، حيث إن في القرآن الكريم نحو مائتي آية تدل على ذلك، وفي السنة تفصيل ذلك بما يجاوز الحد والعد .

أولاً : الأدلة القرآنية :

ومن آيات القرآن الكريم في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿إنَّا أرسلناك بالحقِّ بشيراً ونذيراً ولا تُسأَلُ عن أصحابِ الجحيم ﴾[البقرة:١١٩]، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله سبحانه: ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلت من قبلِه الرُّسل ﴾[آل عمران:١٤٤] .

وقوله جل شأنه: ﴿.. وأرسلناكَ للنَّاس رسولاً وكفى باللهِ شهيداً ﴾[النساء:٧٩] .

وقوله عز شأنه: ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالتَهَ والله يعصِمُكَ من الناس ﴾[المائدة:٦٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ قل يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ الله إليكم جميعا الَّذي له ملك

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي المسمى بـ"مفاتيح الغيب" ١٧٦/١٣ .

السماوات والأرض لا إله إلا هو يُحيي ويميت فآمِنُوا با لله ورسولِه النَّبيِّ الأميِّ الذي يُؤمن با للهِ وكلماتِه واتَّبعوه لعَلَّكم تَهتدون ﴾[الأعراف:١٥٨] . وقوله عز وجل: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ولكن رسولَ ا لله وخاتَم النبيين ﴾[الأحزاب:٤٠] .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها النَّبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى ا لله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[سورة الأحزاب:٤٥،٤٦] .

وقوله عز وجل: ﴿ محمدٌ رسولُ ا لله والَّذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم ... ﴾[سورة الفتح:٢٩] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواضحة الدلالة على اصطفاء ا لله تعالى لسيدنا محمد ابن عبدا لله صلى ا لله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة المفضلة على سائر الرسالات السابقة .

ثانياً : الأدلة الحديثية :

أما الأدلة على ذلك من السنة المطهرة فهي أيضاً من الكثرة على نحو ما سبق من دلائل القرآن، ومن ذلك :

١ ـ قوله صلى ا لله عليه وسلم: "إن ا لله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"(١) .

٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام: "إن ا لله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً"(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٦٠٥ـ٣٦٠٦، وأحمد في المسند ١٠٧/٤، من حديث واثلة بن الأسقع رضي ا لله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٦٠٧، وأحمد في المسند ٢١٠/١، وحسنه الترمذي من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي ا لله عنه .

٣- وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه(١) قال: "إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالاته، ثم نظر في قلوب العباد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم يقاتلون عن دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء" (٢) .

والمراد بالمسلمين: المستمسكين بدين الله، فإنهم يكونون معياراً صادقاً للحكم على ما يجدّ من الأشياء، ولا يعتبرون ما جاء مخالفاً لنصوص الشرع الإلهي .

إلى غير ذلك من الأدلة الناطقة باصطفاء الله تعالى لسيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم أنبيائه ورسله ، ويبعثه بأفضل الشرائع لأفضل الأمم .

وحيث إن الله تعالى قد اختاره للقيام بأعباء هذه الرسالة المفضلة، فإنه بلا ريب قد رشحه لذلك بخلقه على صفة الكمال البشري حساً ومعنى، خلقا وخُلقا، وقد تضافرت آي القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على بيان ذلك إجمالا وتفصيلا كما سيأتي إيضاحه في كل مباحث الرسالة، غير إن المقام هنا يقتضي تقديم ذكر مجملات **لتلك** النصوص من الكتاب والسنة الدالة على مبلغ الكمال الخلقي للنبي صلى الله عليه وسلم لتعطي صورة مجملة على كل جزئيات الأخلاق، وتكون تلك الجزئيات بمثابة الإيضاح والبيان لما قدم هنا، فيعظم ترسيخ أخلاق النبوة الخاتمة في أنفس القارئين من المؤمنين والدعاة المخلصين .

---

(١) هو عبدالله بن مسعود بن غافل أحد السابقين إلى الإسلام وأكابر علماء الصحابة كان صاحب سواك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله، مناقبه جمة أمَّره عمر رضي الله عنه على الكوفة، توفي سنة ٢٢ بالمدينة. انظر الإصابة ٣٦٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٩/١، وفي فضائل الصحابة ٣٦٧/١، والحاكم في المستدرك ٧٨/٣، وصحح إسناده ووافقه الذهبي وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨٣/١، إلى أحمد والبزار والطبراني في الكبير، قال: ورجاله موثقون .

الآيات القرآنية المنوهة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم .

وأول ما يتبادر إلى الذهن ويسهل الاستدلال به من تلك الدلائل القرآنية المجملة هو قول الله تعالى في سورة القلم: ﴿ ن والقلمِ وما يَسطرون * ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون * وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنون * وإنَّك لَعلَى خُلُق عظيم ﴾[١-٤] .

(والخلق العظيم هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان فهو أرفع من مطلق الخلق الحسن) (١) .

وهذه الآية الكريمة شهادة عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم بأعظم وصف "يعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله في ميزان الله لعبد الله يقول له فيها: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله !! مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين .

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم تبرز من نواح شتى:

١ - تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون وتثبت في كيانه وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

٢ - وتبرز من جانب آخر من جانب إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقيها وهو يعلم من ربه قائل هذه الكلمة، من هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقِّيه لها في طمأنينة وفي تماسك وتوازن، هو ذاته دليل على عظمة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٦٤ بتصرف .

شخصيته فوق كل دليل﴾ (١) .

وقد كانت هذه الشهادة الكبرى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوائل بعثته بالرسالة حيث كانت هذه الآيات من أوائل ما نزل من القرآن، قيل إنها نزلت بعد العلق(٢)، وهذا يدل على أن عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم كانت بالفطرة التي فطره الله عليها، ثم زادت عظمتها بالوحي الإلهي والتأديب الرباني .

ولقد دل على ذلك اشتهاره صلى الله عليه وسلم في أوساط قومه بزكاء الأخلاق وعظمتها منذ الحداثة حتى لقب بـ"الأمين" وشهدوا له بذلك في غير موطن، ولم يستطع أحد منهم ـ بعد أن عادوه لرسالته ـ أن يمس جنابه العظيم بجرح أو ثلم، ولو عثروا على شيء من ذلك ولو قليلا لكفاهم مؤنة كبيرة في صد الناس عن الإيمان به صلى الله عليه وسلم، ولما اضطرهم الحال إلى أن يبحثوا عن وسائل أخرى مفتراة لصد الناس عن الإيمان، أو يرمونه بما يعلمونه من براءته منه وبعده عنه كالسحر والكهانة والشعر والجنون ... وغير ذلك مما لم يضلوا به إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد شهد الله تعالى لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق، ولم يشهد بمثل ذلك لأحد من الأنبياء؛ لأنه تعالى قال له: ﴿ أولَئِكَ الَّذينَ هدَى اللهُ فبِهُداهم اقتده ﴾[سورة الأنعام:٩٠]، "فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكان كل واحد منهم مختصا بنوع واحد، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل، فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم .

---

(١) في ظلال القرآن للسيد قطب رحمه الله تعالى ٣٦٥٦/٦، وله كلام نفيس طويل على هذه الآية فينبغي أن ينظر، وانظر الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي ص ٣١٢ .

(٢) كذا جاء عن جابر بن زيد، والأصح ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في بدء الوحي ٦/١، ومسلم في الإيمان برقم ١٦٠، أن أول ما نزل سورة اقرأ باسم ربك، ثم فتر الوحي، ثم نزلت سورة المدثر. انظر: التحرير والتنوير ٥٨/٢٩ .

ولما كان ذلك درجة عالية لم يتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم"(١) .

ولم يكن وصف الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق مجرد إخبار عن واقع حال هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وإن كانت أخباره صدقا وعدلا .

بل ساق هذه الشهادة وذلك الوصف العظيم في جواب الأقسام التي أقسم بها سبحانه على براءة محمد صلى الله عليه وسلم مما اتهموه به من الجنون، "إشارة إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون، وأنه كلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً، كان أبعد عن الجنون" (٢) .

وأكد ذلك بمؤكدات كثيرة هي :

١ - وقوعه في جواب القسم .

٢ - "إن" المؤكدة .

٣ - إبراز كاف الخطاب تشريفا له وتنويها بشأنه .

٤ - "اللام المؤكدة التي هي في موضع القسم عوضاً عن المزحلقة" (٣) .

ثم عبر بـ"على" الدالة على الاستعلاء والتمكن، لبيان قوة تمكن الأخلاق العظيمة فيه صلى الله عليه وسلم، واستعلائه على أي خلق عظيم يمكن أن يتحلى به أحد من الخلق، وكل ذلك لتتأصل هذه الشهادة العظيمة في ذهن السامع، وتدفعه إلى البحث عن المظاهر الأخلاقية العظيمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أجمل الله تعالى ذكرها في هذه الآية الكريمة .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/٨٠ .

(٢) روح المعاني للسيد محمود الألوسي ٢٩/٣٠ .

(٣) الجدول في إعراب القرآن د. محمود الصافي ٢٩/٢٤ .

وقد تكرر مثل هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه وتعالى عن أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامات مختلفة كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّك لَعلى هُدىً مستقيم﴾[الحج:٦٧]، وقوله سبحانه : ﴿ إنَّك على الحقِّ المبين ﴾[النمل:٧٩]، وقوله جل شأنه : ﴿ إنَّك على صراط مُستقيم ﴾[الزخرف:٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان على ذروة الذرى من كمال الأخلاق وعظمتها في كل مجالات الأخلاق الإيمانية والتعبدية والفردية والاجتماعية ..

سر وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بالعظمة دون الكرم .

ولم أر من تعرض للبحث عن سر العدول عن لفظ (الكريم) الذي هو شائع في وقوعه وصفا للأخلاق،الى وصف أخلاقه صلى الله عليه وسلم بالعظمة، غير أبي عبدالله الحَليمي (١) في كتابه القيّم "المنهاج في شعب الإيمان" فقد بحث عن ذلك السر وبينه في قوله: "الأغلب أن الخلق يوصف بالكريم دون العظيم، لكن الوصف بالكريم يراد به الثناء على صاحبه بالسماحة والديانة، ولم يكن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصورا على هذا بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بأولياء الله أجمعين، غليظاً على الكافرين، شديدا على المخالفين، لا يغضب لنفسه ولكن يغضب لربه أشد الغضب حتى ينتقم له، وكان مهيبا في صدور الأعداء، منصورا بالرعب، ينهزم العدو منه مسيرة شهر فرَقا منه، فلم يكن من حقه أن يقتصر في وصف خلقه على الكريم، بل كان الوصف بالعظيم أولى به ليدخل فيه الإنعام والانتقام معاً، والغلظ والشدة جميعاً، ويعلم أنه لم يكن ينصرف راجي خير منه بيأس، ولا يسلم له عدو من بأس" (٢) .

وهذا كلام نفيس جدا؛ لأن الشدة على الكافرين، والغلظة عليهم، هي من أكمل

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني ، كان رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر ، توفي سنة ٤٠٣ هـ. ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣١/١٧ - ٢٣٣ ، والأعلام ٢٣٥/٢ .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ٧٣/٢ .

الأخلاق وأعظمها؛ لأن مكارم الأخلاق تقتضي وضع الحق في نصابه والسير على منهج الله وشرعه، ومن كفر بالله تعالى كان من حق الله على عباده أن يعيدوه إلى الرشد والصواب، رحمة به أولاً، وإعادته إلى الفطرة التي خلق عليها ثانياً، وذلك هو ما تقتضيه الحكمة العقلية والفطرة الإنسانية، ولذلك مدحت العرب من يستعمل الأخلاق في مواطنها من رحمة ورهبة، وقسوة ورأفة .. فقالوا :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وقالوا أيضاً :

ووضع النَّدَى في موضع السيف بالعُلى مضر كوضع السيف في موضع النَّدَى

توازن أخلاقه صلى الله عليه وسلم :

وقد كان من عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم التكافؤ في الأخلاق بحيث كان في كل مظهر من مظاهر الأخلاق، تبدو أخلاقه متكافئة، بحيث لا يطغى جانب من أخلاقه على جانب آخر، ولا مظهر على مظهر، فكان "صبره صلى الله عليه وسلم مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته .. وهكذا لا نجد له صلى الله عليه وسلم خلقاً في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها - كمالا وتماما وعظمة - وهذا التكافؤ الخلقي في شخصية محمد صللى الله عليه وسلم يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان؛ لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشريةمن كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم أولو العزم، ويجمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا التوازن بأبهى صوره، بحيث إذا ذكر غيره من النماذج العليا ذكره عنواناً لتبرير جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة... وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) محمد رسول الله للشيخ محمد الصادق عرجون ٢١١/١ .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم من أعلام النبوة :

ولذلك كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم علماً من أعلام النبوة، ودليلاً من أدلتها؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الأخلاق ذروة الكمال بحيث لم يكن في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وما داني طرفيه ، من قاربه في فضله ولا داناه في كماله خلقا وخلقا، وقولاً وفعلاً، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وإنّك لعلى خُلُق عظيم ﴾ .

وبلوغه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق ذروة الكمال مُعوزٌ فصار كالمعجز كما قال الماوردي (١) - رحمه الله تعالى - : "ولأن من كمال الفضل اجتناب الكذب، وليس من كذب في ادعاء النبوة بكامل الفضل، فصار كمال الفضل موجبا للصدق، والصدق موجبا لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل" (٢) أهـ .

وقد عد الفخر الرازي (٣) - رحمه الله تعالى — من معجزاته (٤) صلى الله عليه وسلم الحسية كمال أخلاقه عليه الصلاة والسلام ، قال :

"وكان عليه الصلاة والسلام في كل واحدة من هذه الأخلاق الكريمة في الغاية القصوى من الكمال، وكان متمكنا فيها، مستجمعا لها بأسرها، ولا يتفق ذلك لأحد من

---

(١) هو الإمام علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاةعصره، له تصانيف كثيرة منها الحاوي و"أدب الدنيا والدين" و"الأحكام السلطانية" و"أعلام النبوة" ... توفي سنة ٤٥٠ هـ، سير أعلام النبلاء ٦٤/١٨ ، والأعلام ٣٢٧/٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨١ .

(٣) هو الإمام المفسر محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، له مؤلفات كثيرة منها التفسير الكبير المسمى "مفاتيح الغيب" و"الأربعون في أصول الدين" وغيرهاكثير، توفي سنة ٦٠٦ هـ، سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢١ ، والأعلام ٣١٣/٦ .

(٤) المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة الداعية إلى الخير والسعادة المقرونة بدعوى النبوة، يقصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله. أهـ التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي ص ٦٦٥ .

الخلق غير أهل العصمة من الله تعالى، فكان اجتماع ذلك في صفاته من أعظم المعجزات" (١) .

هذا وأراني قد توسعت في الكلام على هذه الآية لعظمتها، وجلال دلالتها، وشمول معناها، وهناك آيات أخرى كثيرة منوهة بخلقه صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ ومن تلك الآيات : قوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم ولو كُنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضُوا من حولِك فاعفُ عنهم واستَغفِر لهم وشاوِرهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله إنَّ اللهَ يُحبُّ المتوكلين ﴾[سورة آل عمران:١٥٩] .

فإن في هذه الآية إشادة عظيمة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال الحسن البصري (٢) ـ رحمه الله تعالى ـ : "هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم نعته الله عز وجل"(٣)، وذلك أن اللين والرحمة اللتين وصفه الله تعالى بهما هما عمودا الأخلاق الحسنة التي مجدها الإسلام، وجعلها أحد أصوله العظام .

وقد أثبتهما الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونفى عنه ما يقابلهما من الأخلاق السيئة وهما الغلظة والفظاظة، وذلك لتأكيد كمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم وعظمتها .

وإذا كانت الآية الأولى ﴿ وإنَّك لَعلى خُلُق عظيم ﴾ قد نزلت في أول الوحي حيث التكذيب والأذى والاستضعاف، فإن الآية الثانية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من المسلمين وقوة من المجاهدين، ومع ذلك لم تتغير أخلاقه صلى الله عليه وسلم بعد هذه السنين الطويلة التي مرت بين الآيتين، ورغم اختلاف الأحوال الداعية إلى

---

(١) الأربعين في أصول الدين ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، ثقة فقيه فاضل يعد رأس أهل الطبقة الثالثة وهي الطبقة الوسطى من التابعين، أدرك جماعة من الصحابة، وتوفي سنة ١١٠ هـ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥ رقم ٦٤، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢/١٣١، وغيرهما .

(٣) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الشيخ الأصبهاني ت ٣٦٩ ص ١٩ رقم ١٠ .

اختلاف الطبائع والأخلاق في العادة، غير أن النبي صلى ا لله عليه وسلم لم يزدد على مر الأيام وتحقيق النصر إلا رسوخاً في الأخلاق ، وكمالا في العظمة، كيف لا ؟ وشهادة ا لله تعالى له بعظمة الخُلُق، شهادة مستمرة لا يطرأ عليها التغير بتغير أحواله في مستقبل دعوته وأيام حياته .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لقد جاءَكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

فإن هذه الآية تبين ما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة تجاه أمة دعوته "من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم" (١) .

وهذه الآية من أواخر ما نزل، حيث نزلت بعد غزوة العسرة في السنة التاسعة، ففيها دلالة أخرى على ثبات عظمة أخلاقه صلى ا لله عليه وسلم، ولذلك كان امتنان ا لله على العرب خاصة والبشرية عامة عظيما، بقدر عظم هذا النبي صلى ا لله عليه وسلم وعظمة أخلاقه، التي كان منها اتصافه بصفتين من أعظم الأخلاق وهما: الرأفة والرحمة، قال في "التحرير والتنوير" (٢): "وذكر هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره: الرفق بالأمة، والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة، ومن آثار ذلك : شفاعته للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب، قال: ثم إن ذلك يومىء إلى أن شرعه جاء مناسباً لخلقه، فانتفى عنه الحرج والعسر، قال تعالى: ﴿ يريدُ ا للهُ بكم اليُسر ولا يُريد بكم العُسر ﴾[سورة البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿ وما جعلَ عليكم في الدِّين من حرج ﴾[سورة الحج:٧٨] أهـ .

والآيات المنوهة بأخلاق النبي صلى ا لله عليه وسلم غير هذه كثيرة سيأتي ذكرها في مناسبات ذكرها من المباحث المتفرقة إن شاء ا لله تعالى .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١١٧/٥ .

(٢) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٧٢/١٠ .

الأحاديث المنوهة بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

أما الأحاديث المنوهة بأخلاقه صلى الله عليه وسلم فهي من الكثرة بالمحل الذي استدعى علماء الأمة في عصورها الأولى إلى جمعها في مصنفات خاصة كما فعل الحافظ أبومحمد عبدالله بن محمد بن جعفر الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ،المتوفى سنة ٣٦٩ هـ، في كتابه الموسوم: "أخلاق النبي صلى الله عليه وآدابه" .

أو مصنفات عامة هي كتب السير والشمائل والتي تضم ـ ولا سيما كتب الشمائل ـ أبوابا خاصة تعني ببيان أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ونحوها كتب السنة عامة؛ جوامعها وسننها ومسانيدها .. فإنها أيضا تعنى ببيان الأخلاق، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم هي محورها سواء كانت فعلية أو قولية ؛ سلوكية أو توجيهية .

والذي يجدر ذكره هنا من تلك الدلائل الكثيرة المنوهة بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، هو إخبار أصحابه صلى الله عليه وسلم الذين عاشروه وسبروا أخلاقه فعبروا عنها بألسنتهم، بعدما ملأت قلوبهم وأفعالهم .

وهي أخبار كثيرة، ولكن نقتصر من ذلك على الحديثين الصحيحين المشهورين عن أمَّي المؤمنين خديجة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ، اللتين كانتا أدرى الناس به ظاهرا وباطنا، وذلك تجنبا لكثرة التكرار، وستأتي بقية الأحاديث المنوهة بعظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم في مناسبات ذكرها من مباحث الرسالة .

أولاً : حديث خديجة بنت خويلد(١) أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في قصة بدء الوحي، وهو حديث مشهور، وجاء فيه قولها ـ رضي الله عنها ـ وهي تطمئن النبي

---

(١) ابن أسد بن عبدالعزى، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي أول نسائه، ولم يتزوج عليها في حياتها قط، وولدت له جميع أولاده وبناته عدا إبراهيم ـ رضي الله عنه ـ وكانت وزيرة صدق للنبي صلى الله عليه وسلم تفرج همومه وتنفس كربه، وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك حزنا شديدا، وسمي عام الحزن، انظر ترجمتها في الإصابة مع الاستيعاب ٢٧٩/٤، وتهذيب الأسماء ٣٤١/٢ .

صلىالله عليه وسلم مما أفزعه من هول الملك في بداية التنزل عليه: ".. كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق .." (١) .

شرح الحديث :

فخديجة - رضي الله عنها - أقسمت على أن الله تعالى لن يخزيه، وأكدت ذلك بلفظ التأبيد، واستدلت على ذلك بنور فطرتها السليمة على ما أقسمت عليه، بأمر استقرائي وهو ما تعرفه عنه من اتصافه بمكارم الأخلاق، التي تعصم صاحبها أن يمسه سوء يكرهه، كما جرت سنة الله في ذلك، وأن له شأنا عظيما، وشأوا بعيدا، غير ما خطر بباله وما خشاه على نفسه، وهو أن الله تعالى ما رشحه بتلك المكارم الأخلاقية إلا لأمر عظيم يحمله عنه لخلقه، وهو الرسالة الخاتمة التي طال ترقبها وانتظارها، لا أن ينيله بعدها بسوء في نفسه أو جسده (٢) .

ونقل الإمام النووي (٣) - رحمه الله تعالى - عن العلماء معنى قول خديجة - رضي الله عنها - فقال:

"قال العلماء: معنى كلام خديجة - رضي الله عنها - إنك لا يصيبك مكروه لما جعل

---

(١) أخرجه البخاري في بدأ الوحي ١/٥، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٦٠ .

(٢) انظر: محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون ١/٣٠٦،٣٣٣، ففيه كلام نفيس وبحث رصين .

(٣) هو الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حزام النووي، نسبة إلى (نوى) من أعمال حوران في أرض الشام، الملقب بمحيي الدين النووي - رحمه الله تعالى - كان أوحد زمانه علما وعملا وأمرا بمعروف ونهيا عن منكر، ألف مؤلفات عظيمة نافعة منها "شرحه على مسلم" و"المجموع شرح المهذب" ولم يتمه وغيرهما كثير، توفي سنة ٦٧٦ هـ عن خمسة وأربعين عاما، أفرده بالترجمة تلميذه ابن العطار، والسخاوي، والسيوطي، وترجمت له ترجمة واسعة في كتابي: الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ط .

الله سبحانه وتعالى فيك من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ومحاسن الشمائل، وذكرت ضروبا من ذلك. قال: وفي هذا أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع السوء والمكاره" (١) .

وقد وصفت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمات بعظيم مكارم الأخلاق وشرائف الصفات الاجتماعية التي كانت معهودة آنذاك، حيث وصفته بأصول مكارم الأخلاق في هذا الجانب التي ينضوي تحتها سائر مفرداتها وأنواعها .

"لأن الإحسان يكون إما إلى الأقارب، أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به" (٢) .

ثانياً : حديث عائشة - رضي الله عنها - الذي أجابت به سائلها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي قالت فيه: "إن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن .." (٣) .

وفي رواية عنها قالت: "كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم قالت: أتقرأون سورة«المؤمنون»؟ قال: قلنا نعم، قالت: اقرأ، قال: فقرأت: ﴿ قد أفلحَ المؤُمنون * الّذين هم في صلاتِهم خاشعون * والّذين هم عن اللّغو مُعرضون * والّذين هم للزّكاةِ فاعلون * والّذين هم لِفُروجهم حافظون ﴾[١-٥]، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

---

(١) شرحه على البخاري ص ٥٤، ونحوه في شرح مسلم ٢٠٢/٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - ٥٦/١ .

(٣) أخرجه مسلم وغيره وتقدم تخريجه ص ٤٨

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٣٠٩/١، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٣٦/١٢، والحاكم في المستدرك ٣٩٢/٢، وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي في التلخيص، كلهم من طريق يزيد بن بابنوس، وهو مقبول كما قا ل=

وفي رواية عنها ـ رضي ا لله عنها ـ قالت: "كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه" (١) .

شرح الحديث :

فهذه الروايات تدل بجلاء على ما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من عظمة وكمال في الأخلاق .

فقد أفادت عائشة ـ رضي ا لله عنها ـ السائل أنه صلى ا لله عليه وسلم كان يتمثل القرآن في أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه (وأن كلامه كان مطابقا للقرآن تفصيلا وتبيينا وعلومه علوم القرأن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه القرآن، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه وسعيه في تنفيذ أوامره .

فترجمت أم المؤمنين ـ رضي ا لله عنها ـ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى ا لله عليه وسلم، عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وقد حَسُن تعبيرها، وجمع من المعاني ما لا يجمعه كثير الكلام .

وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى) (٢) ، فهمَّ أن يقوم ولا يسألها عن شيء كما جاء في الحديث، وتأهب لأن يرجع إلى القرآن فيبحث عن مكنونات جواهره

= الحافظ في التقريب برقم ٧٦٩٤، غير أن مرتبته لا تحط من رتبة الحديث عن الصحة أو الحسن نظرا لمتابعاته المارة والآتية، ولذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(١) هذه رواية أبي الدرداء ـ رضي ا لله عنه أخرجها البيهقي في الدلائل ٣٠٩/١، وعزاهاالشوكاني في فتح القدير ٢٧٠/٥ إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وذكرها ابن كثير في شمائل الرسول صلى ا لله عليه وسلم ٧٤/١، عن يعقوب بن سفيان بسنده إلى أبي الدرداء ـ رضي ا لله عنه ـ .

(٢) المواهب اللدنية لأحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب القسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣هـ، ٦٦/٢ بتصرف يسير .

الأخلاقية، ويستدل بها على أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أوفى من يطبق آياته .

ولا ريب أنه إن فعل ذلك فإنه سيجد بغيته كاملة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان متمسكا بآداب القرآن وأوامره ونواهيه ومحاسنه، وجميع ما قصه الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق عن نبي أو ولي، أو حث عليه أو ندب إليه، كان صلى الله عليه وسلم متخلقا به، وكل ما نهى عنه ونزه عباده عنه، كان عليه الصلاة والسلام لا يحوم حوله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يبين القرآن بأقواله وأفعاله وأحواله، وتلك هي مهمته التي كلفه الله تعالى بها بمثل قوله: ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكر لِتُبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم ﴾[النحل:٤٤]، وذلك هو التكليف الذي كلفه الله تعالى به بمثل قوله: ﴿ أولئِك الَّذين هدى الله فبِهُداهم اقتده ﴾[الأنعام:٩٠] .

غير أن السائل سيعجز عن الإحاطة بكل أخلاقه صلى الله عليه وسلم من خلال ذلك؛ لأنه يعلم "أن معاني القرآن لا تتناهى، فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى، إذ في كل حالة من أحواله صلى الله عليه وسلم يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وما يفيضه الله تعالى من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذاً التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الحميدة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان ولا من ممكنات عاداته" (١) .

وقد أدركت السيدة عائشة - رضي الله عنها - هذا المعنى في السائل، فأرادت أن تقرب له إدراك ما لا بد من إدراكه من تلك الجزئيات الأخلاقية، فأوقفته على مثال واحد وهو ما تضمنته مقدمة سورة "المؤمنون" ليذهب فيستضيء بذلك المثال، لاستنباط أخلاقه صلى الله عليه وسلم من القرآن على ذلك الغرار .

أو دلته على منهج يتبعه في الوقوف على جزئيات أخلاقه صلى الله عليه وسلم من

---

(١) المواهب اللدنية ٢٨٨/١ .

خلال القرآن، كما في رواية أبي الدرداء - رضي الله عنه - ، فدلته على المواطن التي فيها رضاً لله تعالى من صنوف الطاعات والقربات،فيعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان متخلقا بها، ويرضيه انتهاجها من نفسه ومن أمته، وعلى المواطن التي فيها إغضاب لله تعالى من صنوف الإشراك والمعاصي، فيعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غاية البعد عنها، وأنه يغضب لاقترافها والعمل بها من أحد من البشر، وإذا غضب لله فلا يقوم لغضبه أحد كما لا يخفى .

ولئن كان مثل سعد بن هشام - رحمه الله تعالى - ، أو أبي الدرداء - رضي الله عنه - قد احتاجا إلى أن توقفهم السيدة عائشة - رضي الله عنها - على طريقة استنباط أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن وهما في عصر الفهم الثاقب، والعلم النافع لصفاء الأفكار، وقرب العهد بالنبوة حينذاك، فإن أبناء الأمة اليوم ، بل ومنذ قرون متقدمة، في أمس الحاجة إلى معرفة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نوه بها القرآن الكريم، وشهد بعظمتها، من خلال نظره وتشريعه وتوجيهه، وهو ما تبنّته هذه الرسالة التي أرجو أن تسد الفراغ في هذه القضية الأساسية التي يحتاجها المسلمون في كل زمان .

والتي آن الأوان للبدء في مباحثها، فأقول وبالله التوفيق:

البَابُ الأَوَّلُ

أخلاق القرآن الإيمانيَّة والتطبيقات النَّبويَّة لها

وفيه فصلان :

- الفَصْلُ الأَوَّلُ : الأخلاقُ الاعتقَاديَّة .
- الفَصْلُ الثَّانِي : الأخلاقُ السُلوكِيَّة .

تمهيد :

للأخلاق الإسلامية علاقة وثيقة بالإيمان تصل إلى درجة ثبوت الإيمان عند التحلي بها أو فقده عند التخلي عنها أو عن بعضها، وذلك لأن الذي يحمل على التخلي عن رذائل الأخلاق والتحلي بفضائلها، إنما هو الإيمان بشارعها وهو الله تعالى، والمبين لها وهو رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بما يترتب عليها من ثواب عند الامتثال ، وعقاب عند الترك، و الإيمان بوجوب طهارة النفس عن دنس المعاصي ، وسوء المعاملة لله تعالى ولعباده .

ولهذا كانت العناية بالأخلاق تالية ومترتبة على العناية بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم في تنزل القرآن وأصول الإسلام ، كما تقدم ذكره وبيانه في المباحث السابقة (١).

فلقد كانت أوامر القرآن الكريم ونواهيه في الأخلاق غالبا ما تذكر المؤمنين بتلك العلاقة بين الأخلاق والإيمان، حيث تبدأ أولا بذكر أمور الإيمان بالله .. ثم تأمر بخلق فاضل ، أو تنهى عن خلق سيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ قل تَعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألَّا تُشركوا به شيئاً وبالوالدينِ إحساناً ولا تَقتُلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزُقكم وإيَّاهم ولا تقربُوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطن ولا تقتُلوا النَّفسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلا بالحق ذلكُم وصَّاكم بِهِ لعلَّكم تعقلون ﴾[سورة الأنعام:١٥١-١٥٣] ، فترى أنها أول ما بدأت بتقرير الإيمان بالله وحده، وذلك بإيجاب توحيده ، ونفي الشرك عنه، ثم رتبت الأمر بالوصايا الخلقية الجليلة للدلالة على أن من مقتضيات الإيمان بالله تعالى ترك تلك المحرمات، التي هي بؤر الفساد الخلقي، وامتثال تلك المأمورات التي تمثل الكمال الأخلاقي، من إيفاء الكيل، والقول بالعدل، والوفاء بالعهد، واتباع صراط الله المستقيم، وهو شرع الإسلام الذي بعث به محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) انظر ص٦٤.

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ ا للهَ يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُربى ويَنهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي يَعظُكم لعلَّكم تذكرون * وأوفُوا بعهدِ ا لله إذا عاهدتُم ولا تنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدها وقد جعلتُم ا للهَ عليكم كفِيلا إنَّ ا لله يعلمُ ما تَفعلون ﴾ [سورة النحل: ٩٠،٩١] .

فترى أن ا لله تعالى يقرر لعباده أولاً ألوهيته، فإذا أقروا بذلك فعليهم أن يمتثلوا أوامره التي حضهم فيها على مكارم الأخلاق؛ من العدل مطلقا، والإحسان عامة، وإيتاء الأقربين، وإيفاء العهود والإيمان .

ونهاهم فيها عن الفحشاء كله، والمنكر عامته، والبغي على ولاة الأمر، وذلك بمقتضى إيمانهم با لله تعالى .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّك أن لا تَعبدوا إلَّا إياهُ وبالوالدينِ إحسانا ...﴾ [سورة الإسراء:الآيات من٢٣ إلى ٣٨] .

فأول ما أعلمه به هو إثبات ربوبيته سبحانه، واستحقاقه للعبودية وحده، ثم بعد ذلك فصل لهم جملة من مكارم الأخلاق ليتخلقوا بها، وجملة من مساوئها ليتخلوا عنها.

وهكذا نجد القرآن عند حديثه عن الأخلاق أمرا ونهيا، غالبا ما يبدأ بتقرير الإيمان ، ثم بعد ذلك يبين للناس حكم ا لله تعالى: من مكارم خلقية، أو مفاسد فردية أو اجتماعية، ورحم ا لله ابن مسعود فكأنه كان يقرر هذه القاعدة حين قال: "إذا سمعت ا لله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا، فارعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(١) .

---

(١) أخرجه عبدا لله بن المبارك في الزهد ص ١٢ رقم ٣٦، والإمام أحمد في الزهد ص٢٣١ رقم ٨٦٤، وأبو نعيم في الحلية ١/١٣٠ .

فهو هنا يقرن بين الإيمان، وما يرتب الله تعالى عليه من خير يطلب، أو شر يجتنب .

ومكارم الأخلاق ومساوئها يدوران في فلك الخير والشر الذين عبر بهما - رضي الله عنه - ، إذ مكارم الأخلاق خير محض، ومساوئها شر محض .

ويوضح كل ما ذكرته قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه -: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"(١) إذ يصرح هذا الحديث على أن كامل الخلق هو كامل الإيمان، وسيء الخلق ناقصه، فدل على أن علاقة الأخلاق بالإيمان علاقة تلازم،حيث إنها علاقة أصل بأصل لا يكمل أحدهما حتى يكمل الآخر.

لهذا كله كان منهجي في هذه الرسالة أن أبدأ بـ (الأخلاق الإيمانية) ؛ لأنها أصول الأخلاق، المتمة لأصل الدين وهو (الإيمان)، والابتداء بالأصل هو الأصل، إذ الفرع إنما ينبني عليه .

ومعلوم أن الأخلاق الإيمانية كثيرة، لذلك نقتصر على ما عني القرآن بذكره منها كشأني في الرسالة كلها، كالرضا والتوكل، والرجاء والخشية والخوف، والاخلاص والاستقامة، والشكر والمحبة ...

ولما كانت هذه الأخلاق منها ما تأخذ حكم الوجوب لضرورتها في تحصيل الإيمان، إذ لا يفقدها إلا عاطل عن الإيمان الصحيح، وذلك كالتسليم بقضاء الله تعالى وقدره، والتوكل على الله، وتعلق الرجاء به، والخشية له، والخوف منه ،**ومنهاماهودون ذلك**،

لما كان الأمر كذلك قسمت الأخلاق الإيمانية إلى فصلين تبعا لضرورتها، وأهميتها للإيمان، ودرجة لزومها ووجوبها له، أو قربها من ذلك؛ فجعلت الفصل الأول في الأخلاق الاعتقادية، والثاني في الأخلاق السلوكية، وذلك ليسهل بحثها، وتعظم فائدتها، وهذا أوان الشروع في **المقصود** فأقول وبالله التوفيق :

---

(١) حديث صحيح تقدم ذكره وتخريجه ص٢٣

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الأَخـــلاقُ الاعــتقَـاديـَّــةُ

وفيه مباحث :

١ ـ الرضا .

٢ ـ التوكل .

٣ ـ الخوف والخشية .

٤ ـ الرجاء .

المَـبْحَـثُ الأَوَّلُ

(الرِّضا)

الرضا في اللغة ضد السخط: يقال: رضي يرضى رضاً فهو مرضي، ومرضو، : إذا لم يسخط (١) .

وفي الاصطلاح : هو طيب النفس بما يصيبه ويفوته مع عدم التغير .

ويقال : هو سرور القلب بمُرِّ القضاء (٢) .

وهذا التعريف يحدد معنى الرضا في جانب العبد، ولكن القرآن الكريم قد تحدث عن نوعين من الرضا هما: رضا العبد، ورضا الرب ـ جل شأنه ـ ، غير أن مجال البحث إنما هو رضا العبد، أما رضا الرب ـ جل شأنه ـ فأذكره هنا من باب الكمال والإتمام ، مقدما إياه على غيره لشرف مقامه عن غيره.

النوع الأول : رضا الرب جل في علاه على عباده.

وهو صفة ثابتة لله عز وجل لا نعلم كنهها ونعلم أثرها، وهو أكبر من كل مايتصوره العقل البشري كما قال سبحانه: ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[سورة التوبة ٧٢] . وينال ذلك الرضى الذين (يأتمرون بأمره وينتهون عن نهيه)(٣) .

وهؤلاء قد بينهم القرآن الكريم بصفاتهم وهم:

١ـ من أكرمهم الله تعالى بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذوا الدين بشوق واقبال وقوة نفس وصدق عزم وقد نص الله سبحانه وتعالى على رضاه عنهم في غير منها قوله سبحانه: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ﴾[سورة التوبة ١٠٠].

وقوله جل شأنه: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ [سورة الفتح:١٨] .

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ٣٣٤/٤، والمفردات للراغب الأصفهاني١٩٧.

(٢) التوقيف على مهمات التعريف لعبد الرؤوف المناوي ص ٣٦٥،٣٦٦ .

(٣) المفردات ص ١٩٧ .

وقد كان هؤلاء الصحابة أحرص الناس على رضوان الله تعالى، فكانوا يجتهدون في اكتسابه بفعل المأمورات، وترك المنهيات، والاستقامة على الطاعات، كما قال سبحانه: ﴿ محمدٌ رسولُ اللهِ والَّذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم تَراهم رُكَّعًا سُجَّداً يَبتغون فضلًا من اللهِ ورِضواناً سِيماهم في وُجوهِهم من أَثَرِ السجود.. ﴾[سورةالفتح:٢٩] .

٢ ـ التابعون للصحابة بإحسان وهم الذين كانوا مقتفين لآثار الصحابة في الهداية والسداد، كما دلت على ذلك آية التوبة الآنفة الذكر .

٣ ـ من سار على نهج الصحابة والتابعين في الإيمان والعمل الصالح، كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات أولئِك همُ خيرُ البرِّية * جزاؤُهم عندَ رِّبهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾[سورة البينة:٧،٨] .

٤ ـ أهل التضحية والجهاد في سبيله سبحانه من الصحابة ومن بعدهم، كما قال جل شأنه : ﴿ الَّذين آمنوا وهَاجروا وجاهَدوا في سبيلِ الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله وأولئِك هم الفائزون * يبشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنَّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم ﴾[التوبة ٢٠،٢١] .

والآية الكريمة عامة الدلالة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٥ ـ أهل المودة للمؤمنين دون الكافرين ولو كانوا أقرب الأقربين، كما قال تعالى : ﴿ لا تجدُ قوماً يُؤمنون با للهِ واليومِ الآخر يوادُّونَ من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتَهم أولئِك كتبَ في قُلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ويدخلُهم جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه أولئِك حزبُ اللهِ ألا إنَّ حِزبَ الله هم المفلحون ﴾[سورة المجادلة:٢٢] .

٦ ـ أهل الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس كما قال سبحانه : ﴿ قال اللهُ هذا يومُ يَنفعُ الصَّادقين صدقُهم لهم جنَّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩] .

٧ ـ أهل التقوى لله عز وجل كما قال سبحانه : ﴿ لِلذِّينَ اتَّقوا عندَ ربِّهم جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من اللهِ والله بصيرٌ بالعباد ﴾[سورة آل عمران:١٥] .

فهذه بعض صفات المرضي عنهم التي دل عليها الكتاب العزيز، فمن كان فيه صفة من هذه الصفات فقد حصل على سبب من أسباب رضوان الله تعالى، وعليه أن يسعى الى المزيد ويثبت عليه حتى يلقى الله تعالى وهو على ذلك، فيجد وعد الله محققا في جنات النعيم، وتلك هي الغايات التي يتمناها المؤمنون في تلك الجنات كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله تعالى.

وليست هذه الصفات حاصرة لأسباب رضوان الله تعالى، بل هذه أسباب معلومة ومحققة له إن شاء الله، ولكن هناك أسباب كثيرة تحقق رضوان الله تعالى غير محصورة بالتحديد، وإنما يطلع عليها هو سبحانه من أحوال القلوب وتعلقها به تعالى ولو في أشياء يسيرة، لكنها تكون عند الله تعالى عظيمة محبوبة كما دل على ذلك حديث أنس بن مالك (١) ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"(٢) .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه

---

(١) ابن النضر بن حرام الأنصاري الخزرجي النجاري، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حمزة، خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته في المدينة وذلك عشر سنين، ونال بركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان من أكثر الصحابة أولاداً ومالاً، ومن آخرهم وفاة، حيث توفي سنة ٩٣ هـ بالبصرة، وهو آخر من مات بها من الصحابة رضي الله عنهم، انظر: طبقات ابن سعد ١٧/٧، والاستيعاب مع الاصابة ٧١/١، وتهذيب الأسماء واللغات ١٢٧/١ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب برقم ٢٧٧٤، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الحمد إذا فرغ من الطعام برقم ١٨١٧ .

ا لله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط ا لله لا يلقي لها بـالاً يهـوي بهـا في جهنم" (١) .

فدل هذان الحديثان على أن ا لله تعالى أخفى رضاه في طاعتـه، كمـا أخفـى غضبـه في معصيته لحكمة جليلة، ولعلها تكون الحض على سبيل الاستقامة، حتى لا تستقل طاعتـه، ولا يستهان بمعصيته، وحتى يسعى كل مسلم إلى غاية الإخلاص، وصدق النيـة، وحسـن السريرة، والإقبال الدائم على ربه ومولاه .

منزلة المرضي عنهم :

ومن أجل الأمور وأجملها هنا بيان منزلة أولئك الذين بادلهم ا لله تعالى رضوانه، فرضي عنهم، كما رضوا عنه سبحانه، وهو ما تحدث عنه القرآن الكريم في آيـات عـدة، حيـث بين ما أعد ا لله تعالى لهم من صنوف إنعاماته في جناته التي فيها ما لا عـين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلـب بشر، كما جاء في الحديث(٢)، وذلـك كقولـه جـل شـأنه : ﴿أعدَّ لهـم جنـاتٍ تجـري تحتهـا الأنهـارُ خـالدين فيهـا أبـداً ذلـك الفـوزُ العظيـم﴾[سـورة التوبة:١٠٠] .

وقـد تكـرر مثـل هـذا الوعـد في غـالـب الآيـات الـتي تحدثـت عـن رضـوان ا لله تعـالى عليهم(٣)،وسمى القرآن ذلـك النعيـم والرضـوان الـذي ينالونـه بـالفوز العظيـم،كمـا قـال سبحانه:﴿ رضِي ا للهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩]،وذلك هو

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان ١٢٥/٨، ومسلم في الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار برقم ٢٩٨٨ .

(٢) عن أبي هريرة عند البخاري في بدء الخلق،باب صفة الجنة ١٤٢/٤، بلفظ:"أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفِي لهم من قرّة أعيُن ﴾[السجدة:١٧]، ومسلم في الجنة، في فاتحته برقم ٢٨٢٤ .

(٣) كما في آية المجادلة:٢٢، وآية البينة:٧-٨ .

الفوز الذي لا يحيط به نطاق الوصف، ولا يوقف على مطلب يدانيه أصلا، بل أعظم من ذلك كله أنه سبحانه بعد أن عدد ألوان نعيمه عليهم، جعل رضوانه عليهم أكبر من ذلك النعيم كله، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ، ورضوانٌ من الله أكبر ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾[سورة التوبة:٧٢] ، أي أنه أكبر من كل نعيم يناله أولياؤه في الجنة؛ لأن في ذلك السعادة الروحية، وهي أكمل وأشرف من السعادة الجسمانية، إذ في ذلك ابتهاج كامل، حيث يكون الحق تبارك وتعالى راضياً عن عباده فلا يسخط عليهم أبداً، وذلك هو سر السعادة الروحانية(١) .

وقد جاء في الحديث ما يدل على هذا المعنى :

فعن أبي سعيد الخدري(٢) رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك...، فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول:أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً"(٣) .

النوع الثاني : رضا العبد :

ورضا العبد بالنسبة للرب سبحانه وتعالى ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الرضا بالله تعالى ربا، ويتضمن الرضا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، ويراد بهذا القسم: أن لا يتخذ غير الله رباً يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه .

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٣/١٧ - ١٣٤ .

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري، كان من أفاضل الصحابة وفقهائهم، وهو أحد السبعة المكثرين من الرواية توفي سنة ٦٤هـ، انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢٧٣/٢، والإصابة ٣٥/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٨٩ .

فخشية نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم وخوفه من المولى جل وعلا، هو من قبيل التعظيم لله تعالى لكمال معرفته به، وخوف من عدم الوفاء بحقوق ا لله تعالى العظيمة عليه، على ما ينبغي أن تكون (١) .

خشيته على أمته :

وكما كان عليه الصلاة والسلام يخشى ا لله تعالى ويخافه فيما يتعلق بذاته الشريفة مع جناب ا لله تعالى وتقدس، فقد كان خلق الخوف والخشية فيه متعديا أيضا لما يتعلق بأمته، حيث كان يخشى على أمته فتنة الدنيا، وفتنة الذنوب والشقاق، رحمة منه بأمته صلى ا لله عليه وسلم، كما أفادت ذلك أقواله الكثيرة، ومنها قوله:

١ - "إني وا لله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها" (٢)، يعني الدنيا .

٢ - ويقول: "فو ا لله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، فتنافسوها كما تنافسوها - يعني الأمم قبلكم - وتلهيكم كما ألهتهم" (٣) .

٣ - ويقول أيضا: "إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج ا لله لكم من زهرة الدنيا" قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول ا لله ؟ قال: "بركات الأرض" (٤) .

فهذه الأحاديث تدل على أن النبي صلى ا لله عليه وسلم كان متخلقا بهذا الخلق في كل أحواله ومتعلقاته، ما يخص نفسه الشريفة، وما يتعلق بأمته، وذلك دليل على تكافؤ خلقه الذي لم يكن في غيره كما سبق تقريره (٥) .

---

(١) انظر منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول صلى ا لله عليه وسلم ٣/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ١١٢/٨ ، من حديث عقبة بن عامر رضي ا لله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الباب السابق، من حديث عمرو بن عوف رضي ا لله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق، ومسلم في الزكاة، باب ما يخرج من زهرة الدنيا برقم ١٠٥٢، من حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه .

(٥) ص ٥٩ .

المبحث الرابع

(الرجاء)

الرجاء في اللغة: الأمل، فهو ضد اليأس، يقال: رجوت الأمر، وأرجوه، وارتجيته، وأرتجيه، وترجّيته: إذا أملته (١) .

وهو في العرف: "ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة" (٢) .

أو هو: "تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلا" (٣) .

منزلة الرجاء من الأخلاق الإيمانية :

والرجاء من الأخلاق الإيمانية العظيمة التي جعلها الله تعالى زادا للنفس، وروْحا للقلب، وضياء للساكنين في ظلمة الدنيا؛ لأنه: "لولا روح الرجاء لعطّلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة"(٤) .

لذلك كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة، حثا عليه وثناء على أهله، وذما لمن لم يتصف به من الخلق في نحو من عشرين آية من الذكر الحكيم من مادة الرجاء، أما ما يدل عليه من غيرها فكثير سيأتي طرف منها إن شاء الله .

حث القرآن الكريم على التخلق بخلق الرجاء :

أما حثه على التخلق به فكما في قوله تعالى: ﴿ قل يا عباديَ الّذين أسرفوا على أنفسِهم لا تَقنَطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعًا إنَّه هو الغفورُ الرحيم ﴾[سورة الزمر:٥٣] .

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس ٤٢٣/٢، والمصباح المنير للفيومي ٢٣٧/١ .

(٢) المفردات للراغب ص ١٩٠ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٠٩، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ٣٥٦ .

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ٤٢/٢ .

فإن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى كما يدل عليه فحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿ إنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك ﴿ إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشرَك به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يَشاء ﴾[سورة النساء:٤٨] ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: "جميعا" .

فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلاً: ﴿ إنَّه هو الغفورُ الرحيم ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة عظيمها واسعها(١) .

ولهذا قال كثير من السلف: إن هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله تعالى .

فقد جاء عن علي رضي الله عنه، أنه سأل أصحابه عن أي آية في القرآن أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آياً من القرآن:﴿ومن يَعملْ سُوءًا أو يَظلِم نفسَه ثم يستغفرِ الله يجدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾[سورة النساء:١١٠] أو نحوها، فقال علي رضي الله عنه: "ما في القرآن آية أوسع من: ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تَقْنَطُوا من رحمةِ الله إنَّ

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٤/٤٧٠ .

ا لله يغفرُ الذنوبَ جميعا ﴾ (١) .

وجاء عن ابن مسعود رضي ا لله عنه أنه قال: إن أكبر آية في القرآن فرحا آية في سورة الغرف ـ يعني الزمر ـ ﴿ قل يا عبادِيَ الذين أَسرفوا ...﴾(٢) .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وإنَّ ربك لذو مغفرةٍ للنَّاس على ظُلمِهم وإنَّ ربك لشديدُ العقاب ﴾[سورة الرعد:٦]، فإنها تدل أيضا على عظيم عفو ا لله وسعة رحمته بعباده إن تابوا عن ظلمهم ، فهي تحمل بشارة عظيمة، ورجاء كبيرا للمذنبين؛ لأن ا لله تعالى إذا كان يعلم الظالمين حالة ظلمهم، ثم مع ذلك يبشرهم بالمغفرة إن هم تابوا عن ذلك، فإنه بلا ريب يحملهم على حسن الظن با لله والصدق في رجائه .

ولذلك جاء عن ابن عباس رضي ا لله عنهما أنها أرجى آية في كتاب ا لله تعالى(٣) .

والآيات الدالة على عظم عفو ا لله غير ما ذكر كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فإن كذَّبوكَ فقل رَّبكم ذو رحمةٍ واسعة ولا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾[سورة الأنعام:١٤٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ نبِّئْ عبادي أَنِّي أنا الغفورُ الرحيم ﴾[سورة الحجر:٤٩] إلى غير ذلك من آيات الرجاء والحاضة عليه، وهي من الكثرة ما تستدعي أن يقف النظر عندها، فيستدل منها على عظيم منزلة خلق الرجاء عند ا لله تعالى .

التنويه بأهل هذا الخلق في القرآن الكريم :

ولقد دل على عظيم منزلته أيضا تنويه ا لله جل وعلا بالمتحلين به في آيات كثيرة من الذكر الحكيم كما في قوله سبحانه: ﴿ إنَّ الذين آمنوا والَّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل ا لله أولئِك يَرجون رحمةَ ا لله وا للهُ غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:٢١٨] .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٦/٢٤، وابن أبي الدنيا في حسن الظن با لله رقم ٦٩ .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٥/٢٤ ، وابن أبي الدنيا في حسن الظن با لله برقم ٧٠ .

وانظر: تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" ٢٦٩/١٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٣٤/٧ .

(٣) حكى ذلك القرطبي في تفسيره ٢٨٥/٩ .

فقد جعل ا لله تعالى هـذا الخلـق مـن أخـلاق أهـل الإيمـان، وصفـة مـن صفـاتهم الـتي يستوجبون بها رحمته وغفرانه .

وقال في آية أخرى: ﴿ أولئك الذيـنَ يدعـونَ يبتغـون إلى ربهـم الوسـيلةَ أيهـم أقـربُ ويرجونَ رحمته ويخافونَ عذابه إنّ عذاب ربك كان محذورا ﴾[سورة الإسراء:٥٧] .

والمعنى: هؤلاء الذين تدعونهم مـن دونـي كالمسيح وعزيـر هـم عبـادي يتقربـون إلي بطاعاتي ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني ؟

فأثنى ا لله تعالى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء .

وقال في آية أخرى: ﴿ أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائمـاً يحـذرُ الآخـرة ويرجـو رحمة ربه، قل هل يستوي الّذين يَعلمون والّذين لا يَعلمون ﴾[سورة الزمر:٩] .

فهذا تنويه عظيم بهذا الصنف من عباد ا لله تعالى، وهو صنف المؤمنين الذين وصفهـم بالقنوت، وهو القيام بوظائف الطاعة من الصلاة ونحوها، والخوف من عذابه والطمـع في رحمته، وقد جاء هذا الثناء بأسلوب الاستفهام التقريري إظهارا لفضلهم أولا، ثـم تنديـدا بالصنف الضار الذي جعل لله تعالى أندادا ليـضل عن سبيله والذي قـال ا لله تعالى لـه: ﴿ قل تَمتّع بكفرِك قليلاً إنّك من أصحابِ النار ﴾[سورة الزمر:٨] .

والمعنى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند ا لله تعالى.

كما قال في آية أخرى: ﴿ ليسُوا سواءً من أهل الكتـابِ أمّـةٌ قائمـةٌ يتلـونَ آيـاتِ ا لله آناءَ الليل وهـم يسجدون ﴾(١) [سورة آل عمران: ١١٣] .

ونلاحظ في هذه الآية: ﴿ أمَّن هو قانتٌ .. ﴾ أمرين:

الأول: أن ا لله عز وجل قرن الرجاء بالعمل الصالح حيـث قـال: ﴿ قـانتٌ آنـاءَ الليـل ساجدا وقائما .. ﴾ بمعنى أنه لا يفتر من الطاعة، وهذا ما سيأتي بيانه بعد .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧/٤ .

الثاني: أن الرجاء اقترن بالخوف لإفادة أن الرجاء والخوف قرينان، لا ينبغي أن ينفك أحدهما من الآخر، لأنه (اذا استحكم الرجاء حدث عنده من التخشع والتذلل نحو ما يحدث عند الخوف اذا استحكم، لأن الخوف و الرجاء متناسبان، فالخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه، ويدعو الله عز وجل به، فلا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف،ولأجل تناسب الأمرين قرن الله تعالى بينهما في غيرماآية من كتابه كقوله سبحانه: ﴿ .. وادعوه خوفًا وطَمعا إنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾[سورة الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿يرجون رحمتَه ويخافونَ عذابه ﴾[سورة الإسراء:٥٧]،وقال: ﴿ يدعونَنَا رغَبًا ورَهَبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[سورة الأنبياء:٩٠]، والرغبة رجاء،والرهبة خوف، ولهذا قالوا: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت)(١).

فعلى المؤمن أن يكون في حال وسط بين الرجاء والخوف بحيث لو وزن خوفه برجائه لاعتدلا.

لا أن يبالغ في الرجاء فيوصله إلى ترك العمل فيكون غرورا وخداعا للنفس.

ولا أن يبالغ في الخوف فيوصله إلى القنوط واليأس من رحمة الله تعالى وذلك أمر كبير حذر الله تعالى منه أشد تحذير، وذم من تحلى به أبلغ ذم .

ذم من لم يتخلق بالرجاء واتصف بنقيضه وهو اليأس :

فإذا لم يكن العبد راجيا الله تعالى في غفران الذنوب والثواب الحسن، فهو لا يخلو من أن يكون على حالين :

الأول : أن يكون مؤمنا بالله وبوعده ووعيده وجنته وناره، ولكن استعظامه لذنوبه أنساه عظم رحمة الله تعالى .

(١) انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٥١٧/١، وشعب الإيمان للبيهقي ٣/٢ .

الثاني:أن يكون مكذباً بذلك فلا يؤمن با لله ولا باليوم الآخر وما فيها من جنة أو نار، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فقد ذم ا لله تعالى الأول والثاني:

أما الأول فإنه قد خالف نهي ا لله تعالى له عن اليأس من رحمته سبحانه وهو قوله جل ثناؤه: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا لله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[الزمر ٥٣] فارتكب بذلك محظور المخالفة للمولى جل وعلا، وذلك دليل نقص الإيمان وضعفه .

وأما الثاني، فقد حكم ا لله تعالى عليه بالكفر في آيات كثيرة من كتابه الكريم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إنه لا ييأس من روح ا لله إلا القوم الكافرون ﴾[سورة يوسف:٨٧] .

وقال: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[سورة يونس:٧،٨] .

وقال سبحانه: ﴿ ولو يعجل ا لله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾[سورة يونس:١١] .

فترى أن ا لله تعالى قد جعل اليأس من رحمته، وعدم رجاء مغفرته ، شيمة من شيم الكافرين، فإنهم هم الذين لا يعرفون عظمة ا لله تعالى ولا يرجون لله وقارا .

وإذا كان اليأس والقنوط وعدم رجاء عفو ا لله وغفرانه ولقائه هو صفة للكافرين وشيمتهم فمعنى ذلك أن من اتصف به فقد ضارعهم في بعض صفاتهم، ويكون قد رشح نفسه لمشاركتهم في بعض عقابهم، لا جرم فقد عُدَّ اليأس من رحمة ا لله من كبائر الذنوب التي لا يكفرها إلا التوبة النصوح، بينما عُدَّ الرجاء من شعب الإيمان(١)، فينبغي للمؤمن أن لا يشابه الكافرين في حال من أحوالهم، أو سلوك من سلوكهم، بل عليه أن يبتعد عن كل وصف يتصفون به؛ حتى لا يتعرض للذم الذي سيق فيهم، ولا للجزاء الذي رتب لهم، ومن أجلِّ ذلك إحسان الظن با لله، والطمع في عفوه وغفرانه،والرجاء في كرمه وإحسانه امتثالا للنداء العام الذي وجهه الخالق جل في علاه لخليقته، والذي

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي ٨٩/١، ٩٠ ، وشعب الإيمان للحليمي ٥١٧/١ وشعب الإيمان للبيهقي ٣/٢ ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٦٣/٢٨ .

قال فيه: ﴿ قل يا عباديَ الَّذين أسرفُوا على أنفسِهم لا تَقنطُوا من رحمةِ ا لله إنَّ ا لله يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً إنهَّ هو الغفور الرحيم * وأنيبُوا إلى رَّبكم وأسلموا لـه مـن قبـل أن يـأتيَكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾سورة الزمر:٥٣،٥٤] .

اشتراط العمل مع حسن الرجاء :

ولكن لا يكون الرجاء خلقاً محموداً إلا إذا اقترن بعمل يصدق الأمل، وهو هنا العمل الصالح وذلك "أن العبد إذا بث بـذر الإيمـان وسـقاه بمـاء الطاعـات، وطهـر القلـب عـن شوب الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل ا لله تعالى تثبيته علـى ذلـك إلى الموت وحسـن الخاتمة، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه بامتثاله على المواظبـة والقيـام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عـن بـذر الإيمـان تعهـده بمـاء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لـذات الدنيـا، ثـم طلب المغفرة، فانتظاره حمق وغرور"(١) .

لذلك قرن ا لله تعالى الرجاء المثمر المستحق لتحقيـق المرجـو بـالعمل الصـالح في آيـات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين آمنُوا والَّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل ا لله أولئـك يرجونَ رحمةَ ا للهِ وا للهُ غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:٢١٨] .

والمعنى: "أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة ا لله تعـالى، وليـس المـراد تخصيـص وجـود الرجاء؛ لأن غيرهم قد يرجو أيضاً، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء" (٢) ، كما هو مبين في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجُو لقاءَ رَّبه فليعمل عمـلاً صالحـاً ولا يشرك بعبادة رَّبه أحداً ﴾[سورة الكهف:١١٠] .

فشرط لصدق الرجاء وتحقيق المرجو:العمل الصالح، وعلى رأسه: عدم الإشـراك بـا لله تعالى .

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢٤/٤ .

(٢) انظر المرجع السابق .

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ إن الَّذين يتلون كتابَ الله وأقاموا الصَّلاةَ وأنفقوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانِيةً يرجُون تجارةً لن تبور ﴾[سورة فاطر:٢٩] .

فبين سبحانه أن أهل رجائه هم أولئك العاملون بأركان الشريعة وفروعها .

فهذه الآيات تدل على أن الرجاء المعتبر شرعاً شرطه العمل، وأنه بدونه غرور لا قيمة له، وهذا محل وفاق بين أهل العلم، فقد قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل" (١) .

وإجماعهم على ذلك يستند إلى الأدلة الصريحة من الكتاب العزيز التي تقدم ذكرها، ومن السنة الآتي بيانها، إلا أن يتفضل الله تعالى بالعفو والمغفرة الشاملة، وهي كذلك لا تكون إلا للمؤمن الذي أتى بأصل الإيمان، وهو في ذاته "عمل" عظيم، فالرجاء لا يكون إلا مع عمل وإن قلَّ، والله تعالى هو المأمول أن يعاملنا بفضله وكرمه .

---

(١) مدارج السالكين ٣٦/٢ .

تمثل خلق الرجاء في النبي صلى ا لله عليه وسلم :

وبلا ريب فقد كان صلى ا لله عليه وسلم سيد الراجين لله تعالى، وسيد الصادقين في رجائهم،حيث برهن على التخلق بهذا الخلق بما يستلزمه من صدق العمل والبعد عن اليأس والقنوط .

كيف لا وهو صلى ا لله عليه وسلم أعرف الناس با لله تعالى وأخشاهم له، وهو الذي شهد له ا لله بعظمة الخلق، والرجاء في ا لله تعالى من الأخلاق العظيمة التي عمتها تلك الشهادة .

بيد أن ا لله تعالى قد شهد له بهذا الخلق بخصوصه كما في قوله سبحانه: ﴿ وإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك تَرجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾[سورة الإسراء:٢٨] .

فأخبر سبحانه أن نبيه المصطفى صلى ا لله عليه وسلم كان يرجو رحمة ربه ، وسواء كانت الرحمة المرجوة هنا كناية عن الرزق والتوسعة، أو هي الرحمة بعمومها(١) ، فإن الكل من ا لله تعالى، وقد علق النبي صلى ا لله عليه وسلم رجاءه با لله فيما لا يقدر عليه غيره، سواء كان رزقاً أم رحمة شاملة، وذلك هو تعلق العبد بجناب الرب سبحانه، وهو طمع العبودية بهبات الربوبية، وأمل المخلوق في كرم الخالق .

وهو الرجاء الذي مدح ا لله شأنه ونوه بأهله، وقد أثبته لنبيه المجتبى صلى ا لله عليه وسلم بالتعيين، ولم يكن ذلك لأحد غيره من البشرية، بل كان إثبات ذلك لمن كان كذلك على سبيل الإجمال والتعميم، ولا غرو في أن يخص ا لله تعالى نبيه بمثل هذا الخطاب ـ وكم له من خصائص عظيمة وعجيبة ـ فإن ا لله تعالى قد جعل رجاءه وكلَّ سلوكه وهديه أسوة وقدوة لأمته في تخلقهم بالأخلاق الفاضلة-ومنها خلق الرجاء- في كل شئونهم الدينية والدنيوية كما أفاد ذلك قوله جل شأنه : ﴿ لقد كان لكم في رسولِ ا لله أُسوةٌ حسنة لمن كان يَرجو ا للهَ واليومَ الآخر وذكرَ ا لله كثيراً ﴾[سورة الأحزاب:٢١] .

فإذا كان من يرجو ا لله واليوم الآخر عليه أن يتأسى برسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حتى يصح رجاؤه، ويصدق فيه، فيرجو كما كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٠/٦ .

يرجو، ويتخلق كما كان يتخلق، ويعبد كما كان يعبد ... فإن ذلك يعني أنه صلى ا الله عليه وسلم كان على الذروة العليا والكمال المطلق من التخلق بهذا الخلق العظيم، ومن كل خلق عظيم وعمل نبيل، وذلك هو ما شهد به الواقع العملي من حياته صلى ا الله عليه وسلم في سلوكه في أمور دينه ودنياه. وهذه طائفة من تلك الدلائل على ذلك :

من أقواله صلى ا الله عليه وسلم في الرجاء :

أما أقواله صلى ا الله عليه وسلم في الرجاء، فمنها ما كان يسندها إلى ا الله عز وجل فيرويها بلسانه عن ربه جل وعلا:

١ ـ كقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: "قال ا الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأخيرمنهم، وإن تقرب مني شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة"(١) .

فهذا الحديث يفتح للمؤمن باب الرجاء في ا الله، وذلك بأن يحسن ظنه فيه، فسيجد ا الله عند حسن ظنه:أجرا وثوابا حسنا،

٢ ـ ولذلك ندب النبي صلى ا الله عليه وسلم أمته إلى إحسان الظن با الله تعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن با الله تعالى" (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ويحذركم ا الله نفسه ١٤٨/٩، ومسلم في الذكر والدعاء في أوله برقم ٢٦٧٥، من حديث أبي هريرة رضي ا الله عنه .

قال ابن الأثير في "جامع الأصول" ٤٧٧/٤ وفي النهاية ٣٢/٤ في معنى قرب ا الله عز وجل: "المراد بقرب العبد من ا الله: القرب بالذكر والعمل الصالح، لا قرب الذات والمكان، فإن ذلك من صفات الأجسام وا الله يتعالى عن ذلك ويتقدس، والمراد بقرب ا الله من العبد: قرب نعمه وألطافه به، وبره وإحسانه إليه، وفيض مواهبه عليه وترادف مننه عنده" ا.هـ .

وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ٢/١٧ ...، وفتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٦٣/٢٨-١٦٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صفة الجنة، باب الأمر بحسن الظن با الله تعالى عند الموت برقم ٢٨٧٧، وأبو داود في =

فهذا حث منه صلى ا لله عليه وسلم لأمته بأن تحسن ظنها بربها، لاسيما عند القدوم عليه، كي تجد ا لله تعالى على النحو الذي ظنته من العفو والمغفرة والرحمة، وذلك هو الرجاء في ا لله تعالى،

٣ ـ كما بين النبي صلى ا لله عليه وسلم ذلك في حديث قدسي آخر، قال فيه رواية عن ربه جل وعلا : " ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو لقيتني بقُراب(١) الأرض خطايا لقيتك بقُرابها مغفرة، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان(٢) السماء ما لم تشرك بي شيئاً ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي"(٣) .

وهذه الأحاديث القدسية التي يخبر بها النبي صلى ا لله عليه وسلم عن ربه جل وعلا في دعوته عباده إلى أن يحسنوا الظن به فيرجون رحمته ومغفرته: قد كان عليه الصلاة والسلام يتمثل واقعها أكمل تمثيل، كما نطقت بذلك شواهدكثيرة :

من الأحاديث النبوية الدالة على رجاء النبي صلى ا لله عليه وسلم :

١ ـ فمنها رجاؤه في ا لله تعالى أن يكون صاحب الوسيلة في الجنة وهي المنزلة التي لا ينبغي أن تكون لأحد سواه، كما دل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

= الجنائز، باب ما يستحب من الظن با لله تعالى عند الموت برقم ٣١١٣، من حديث جابر ين عبد ا لله رضي ا لله عنهما .

(١) أي: ما يقارب ملأها .

(٢) العَنان بالفتح: السحاب، وقيل: ما عن لك منها؛ أي: اعترض وبدا لك إذا رفعت رأسك. النهاية ٣/٣١٣

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٧/٥، والدارمي ٣٢٢/٢، وابن أبي الدنيا في حسن الظن با لله برقم ٣٢ من حديث أبي ذر رضي ا لله عنه، وفي إسناده شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام كما في التقريب برقم ٢٨٣٠، لكن للحديث شاهد عند الترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار برقم ٣٥٤ من حديث أنس رضي ا لله عنه، وحسنه الترمذي في بعض النسخ كما نقل ذلك الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ص ٣٦٧، وقال ابن رجب عنه: وإسناده لا بأس به. ا.هـ . =

"إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلّى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله عز وجل لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة" (١) .

٢ ـ ومنها: رجاؤه في أمته أن تكون أكثر الأمم كما قال عليه الصلاة والسلام: "ما من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (٢) .

يعني "لأن معجزته العظمى وهي القرآن العظيم مستمرة إلى يوم القيامة، وهي تشاهد بالبصيرة، فيكون من تبعها أكثر، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين، فإنها كانت معجزات حسية تدرك بالبصر، ثم تنقطع" (٣) .

٣ ـ ومنها: رجاؤه صلى الله عليه وسلم لأمته أن تكون نصف أهل الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم يخاطب أصحابه: "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا:نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا: نعم، قال: والذي نفس محمد بيده إني

= أما النسخة التي بين أيدينا فإنه قال فيها: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعلته عنده كثيِّر بن فائد، فإنه مقبول كما قال الحافظ في التقريب رقم ٥٦٢٠ .

وله شاهد آخر من حديث أبي الدرداء عند الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٢١٧ .

فالحديث إذاً ينجبر بشواهده، فيرتقي إلى مرتبة الحسن لغيره إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ...برقم ٣٨٤ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن برقم ٥٢٣، والترمذي في المناقب برقم ٣٦١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٢٢٤/٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ٨،٧/١٩ .

لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة،وما أنتم وأهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر" (١) .

وا لله تعالى هو المأمول أن يحقق له رجاءه في كل ما يتمناه ويؤمله من جناب مولاه سبحانه، كما وعده بذلك بقوله: ﴿ ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى ﴾[سورة الضحى:٥] .

٤ ـ ومع ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يبتهل إلى ا لله في تحقيق مرجوه فيه ويقول: "اللهم رحمتك أرجو، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت" (٢) .

حثه أمته على التخلق بخلق الرجاء :

ومن المعلوم أن ما يحمل على صدق الرجاء في ا لله تعالى هو معرفة سعة رحمة ا لله، والنبي صلى ا لله عليه وسلم قد كان في ذروة الكمال من هذه المعرفة، كما يدل على ذلك تبيينه لأمته إياها في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى ا لله عليه وسلم :

١ ـ "لَلّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة(٣) مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلة، وعليها زاده وطعامه وشرابه، فا للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة العبد

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف الحشر ١٣٧/٨، ومسلم في الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة برقم ٢٢١ من حديث ابن مسعود رضي ا لله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح برقم ٥٠٩٠، وأحمد في المسند ٤٢/٥. من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي ا لله عنه، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٠/١٠ إلى الطبراني، قال: وإسناده حسن.

(٣) أي مفازة مهلكة.

المؤمن من هذا براحلته وزاده" (١) .

٢ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تغلب غضبي" (٢) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" (٣) .

٤ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم" (٤) .

٥ ـ وقوله فيما روى عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغى، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، قال: فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟" قال: قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لله أرحم بعباده من هذه بولدها" (٥) .

٦ ـ وقوله عليهالصلاة والسلام: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب التوبة ٨٤/٨، ومسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها برقم ٢٧٤٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (ويحذركم الله نفسه ...)١٤٧/٩، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى برقم ٢٧٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب باب جعل الله الرحمة مائة جزءا ٩/٨، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى برقم ٢٧٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم .

(٤) أخرجه مسلم في التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار برقم ٢٧٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٥) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في التوبة برقم ٢٧٥٤ .

أحد، ولو يعلم الكافر ما عند ا لله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" (١) .

وهكذا كان صلى ا لله عليه وسلم يبين مدى سعة رحمة ا لله تعالى للمؤمنين ليحملهم بذلك على صدق الرجاء في ا لله تعالى، وكامل الطمع في مغفرته ورضوانه .

اشتراط العمل مع صدق الرجاء :

ولكن لا يكون الاعتماد على سعة رحمة ا لله تعالى إلا مع بذل الجهد في أداء المستطاع من العمل، وقد كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يفعل ذلك ويبينه لأمته ويقول لهم :

١ - "لن ينجي أحدا منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول ا لله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني برحمة، سددوا(٢) وقاربوا(٣) واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلجَة(٤)، والقصدَ القصدَ(٥) تبلغوا(٦) " .

فهو صلى ا لله عليه وسلم يبين لهم أنه لا اتكال على الأعمال، ولكن على رحمة ا لله تعالى مع تقديم الاستطاعة من العمل، لا على العمل وحده "لأن العمل بمجرده ولو تناهى لا يوجب دخول الجنة، ولا أن يكون عوضا لها، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه ا لله تعالى لا يقاوم نعمة ا لله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، فتبقى سائر نعمه مقتضية

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، باب سعة رحمة ا لله تعالى برقم ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات، باب عظم العقوبة وعظم الرجاء برقم ٣٥٣٦، وأحمد في المسند ٢/٣٣٤،٣٩٧،٤٨٤، من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٢) أي: اقصدوا السداد أي: الصواب .

(٣) أي: لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملل فتتركوا العمل فتفرِّطوا .

(٤) الغدو: السير من أول النهار، والرواح: السير من أول النصف الثاني من النهار، والدلجة: بضم الدال وفتح اللام وسكونها: سير الليل .

(٥) بالنصب على الإغراء أي: الزموا الطريق الوسط المعتدل .

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل ١٢٢/٨، ومسلم، في صفة القيامة، باب "لن يدخل أحد الجنة بعمله" برقم ٢٨١٦ .

لشكرها، وهو لم يوفها حق شكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه في هذه الحالة، كانت رحمته خيراً من عمله" (١) .

فلم يبق إذا إلا صدق الرجاء في رحمة الله تعالى، مع الاستطاعة من العمل وسيكون عند ظن عبده به كما أخبر بذلك وهو لا يخلف الميعاد .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب العمل الكثير الزاكي لا يتكل على عمله، بل على رحمة الله فغيره ممن قلَّ عمله، وهو مع ذلك لا يسلم من النقص، أولى بأن لا يتكل على عمله، وأن يعتمد على صدق الرجاء في الله تعالى، وإحسان الظن به، مع المثابرة على المستطاع من العمل، كما أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "سددوا وقاربوا ..." .

ولا شك أن من العمل ومن العبادة صدق الرجاء في الله تعالى وحسن الظن به كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

٢ ـ "حسن الظن من حسن العبادة" (٢) .

وبهذا علمت ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من صدق الرجاء في الله وتحقيق شروطه حتى كان على خلق عظيم كما وصفه الله تعالى بذلك .

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٨٢/٢٤، وفيه كلام طويل ونفيس حول هذا الحديث فينبغي أن ينظر .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في حسن الظن بالله تعالى برقم ٤٩٩٣، وأحمد في المسند، وعزاه المزي في "تحفة الأشراف" ١٠٩/١٠، إلى الترمذي في الدعوات ، ولم أجده فيه .

وأخرجه ابن حبان ١٤/٢ من الإحسان، وابن أبي الدنيا في حسن الظن برقم ٦ ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم أيضا من حديثه ٢٤١/٤، وقال: على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، قلت : وإسناد أبي داود ضعيف كما في فيض القدير ٣٨٥/٣ -

الفَصل الثّاني

الأخلاق السلوكية الإيمانية

وفيه خمسة مباحث

١ ـ الإخلاص .

٢ ـ الاستقامة .

٣ ـ الشكر .

٤ ـ المحبة .

٥ ـ التوبة والإنابة .

المبحثُ الأوَّل

(الإخلاص)

الإخلاص في اللغة يعني: تنقية الشيء وتهذيبه (١) .

يقال: خلَص الشيء بالفتح، يخلُص خلوصا أي: صار خالصا، أي: نقيا من الشوائب المكدِّرة صفوَه، فكل ما يتصور أن يَشُوب غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص منه سمي خالصا، ويسمى الفعل المخلَص: إخلاصا ، وهو في الطاعة: ترك الرياء (٢) .

ويراد به في الاصطلاح: "التَّبري عن كل ما دون الله تعالى" (٣) .

ويقال هو : "تخليص القلب من شَوب يكدِّر صفوه" (٤) .

شرح التعريف :

والمعنى: أن يفرد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد العبد بطاعته التقرب إليه سبحانه وتعالى، دون شيء آخر من تَصَنُّعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو معنى من المعاني، ويضاده: الإشراك، فمن ليس مخلِصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي، وكذا الإخلاص (٥) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٠٨/٢ .

(٢) الصحاح للجوهري ١٠٣٧/٣، والقاموس المحيط ٣٠١/٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٣ .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ١٥٥ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٣، وانظر مزيدا من تعاريفه في "مدارج السالكين" ٩١/٢ .

(٥) انظر الإحياء للغزالي ٣٢٤/٤، ومدارج السالكين لابن القيم ٩٢/٢ .

منزلة الإخلاص من الأخلاق الإيمانية :

يعد الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها؛ لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة، فما كان منها مرادا به وجه الله تعالى أثمرت الثمرة النافعة، وما تجرد منها عنه أو شابها شيء غير الله تعالى، كانت فاقدة الأثر الحميد .

لذلك كان لا بدع أن يتصدر هذا الخلق كل الأخلاق السلوكية الإيمانية، والفردية والاجتماعية لما يقصد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية .

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الإخلاص :

ولهذه المكانة التي يتبوؤها هذا الخلق العظيم، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة: أمرا وترغيبا وثناء على أهله، وتنويها وتبيانا لعظيم جزائهم عند الله تعالى، في آيات كثيرة نذكر منها طائفة فيما يلي :

أوامر القرآن الكريم بلزوم الإخلاص:

أما الأوامر القرآنية بلزوم الإخلاص ففي آيات منها قوله تعالى : ﴿ قل أمَرَ ربِّي بالقسط وأقيمُوا وجوهَكم عند كلِّ مسجد وادعوه مخلِصينَ له الدِّين كما بدأكم تعودُون ﴾[سورة الأعراف:٢٩] .

وهذا أمر إلهي أراده الله تعالى من جميع عباده في جميع الشرائع، ومعنى الآية كما في تفسير ابن كثير: "أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها،وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاءوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابا موافقا للشريعة، وأن يكون خالصا من الشرك" (١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٨ .

ويدل على ما قاله الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - قول الله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاءَ ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادةِ ربّه أحدا ﴾[سورة الكهف:١١٠] .

فإن هذه الآية تشترط للعمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى مما جاء في شرعه، أن لا يشوبه شيء من الإشراك، والإشراك اسم عام يشمل الشرك الأكبر، وهو الكفر بالله تعالى، والأصغروهو الرياء، فدلت الآية على أن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه سبحانه، كما قال في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه" (١) .

ولقد نص على ذلك فيما يُحدث العبد من توبة،بأن تكون خالصة لوجهه ،كما قال في شأن التائبين من النفاق: ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّركِ الأسفلِ من النَّارِ ولن تجدَ لهم نصيراً * إلا الَّذين تابوا وأصلحوا واعتَصمُوا بالله وأَخلصوا دينَهم لله فأُولئك مع المؤمنين وسَوفَ يؤتِ اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيماً ﴾[سورة النساء:١٤٥،١٤٦] . فاشترط المولى جل ذكره لصحة توبة المنافق إضافة إلى إصلاح العمل والاعتصام بالله: الإخلاص في أمور الإسلام والإيمان، ومعنى ذلك أنه إذا فقد الإخلاص لم تصح توبته، ولم يكن صادقاً فيها، فهذه الآيات كلها تدل على أهمية الإخلاص في العبادات، ولهذا توالت الآيات الآمرة بلزوم الإخلاص لله تعالى في العبادات كلها زيادة في توكيد طلبه ولزوم إيجابه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فادعوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ ولو كره الكافرون ﴾[سورة غافر:١٤]، وقوله جل شأنه: ﴿ هو الحيُّ لا إله إلَّا هو فادعوه مُخلِصين له الدِّين ﴾[سورة غافر:٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة المؤمنين بلزوم الإخلاص في عباداتهم: دعاء أو صلاة أو زكاة أو صياما أو حجا أو غيره .

ولم يكن المؤمنون من هذه الأمة هم الذين خوطبوا بمثل هذه الخطابات، وألزموا بهذا الخلق العظيم،بل كل الأمم السابقة قد أمرت بمثل تلك الأوامر، وأريد منهم ما أريد من

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله تعالى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٩٨٥ .

المسلمين، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا ا لله مخلِصين له الدينَ حنفاءَ ويُقيموا الصَّلاة ويُؤتوا الزّكاة وذلك دِينُ القيمة ﴾[سورة البينة:٥]؛ وذلك لأن الدين عند ا لله في جميع الشرائع ولدى جميع الرسل هو الإسلام كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ ا للهِ الإسلامُ ﴾[سورة آل عمران:١٩]، وقال: ﴿ ومن يَبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسِرين ﴾[سورة آل عمران:٨٥] .

وقد قال سبحانه: ﴿ ألاَ للهِ الدِّينُ الخالصُ ﴾[سورة الزمر:٣]، والدين المراد به هنا هو الدين المعهودوهو الإسلام، وقد قصر ما يصح أن يدان ا لله به على الخالص منه (١) ، وهو المنزه عن شوائب الشرك قليله وكثيره، جليله وحقيره، فأفادت الآية أن الإخلاص شرط في دين الإسلام، وهو دين الأنبياء أجمعين، وطلب خلق الإخلاص في جميع الشرائع دليل على عظم منزلة هذا الخلق العظيم .

تنويه ا لله تعالى بأهل هذا الخلق :

ولما كان هذا الخلق العظيم بهذه المثابة، كان من تحلى به جديرا بأن ينوه ا لله تعالى به ويثني عليه في كتابه الخالد، وقد فعل المولى جل ذكره ذلك حيث نوه بأهل الإخلاص من عباده أيما تنويه، وكان أولى من ينال ذلك التنويه العظيم، أعظم الناس إخلاصا لله تعالى وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذلك أشاد ا لله تعالى بإخلاصهم، وأعظم في الثناء عليهم كما قال جل ذكره عن موسى عليه السلام: ﴿ واذكُر في الكتابِ موسى إنَّه كان مخلَصاً وكان رسولاً نبياً ﴾[سورة مريم:٥١] ، قرىء في السبع بفتح اللام وكسرها من (مخلَصاً) (٢) .

---

(١) واستفيد القصر في هذه الآية من تقدم الخبر على المبتدأ، وهو هنا قصر حقيقي .

(٢) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والمفضَّل عن عاصم بكسر اللام، اسم فاعل من أخلص، وهو محل الشاهد، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بفتح اللام مبنيا للمفعول، بمعنى: أن ا لله أخلصه. انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥/٢٣٩ والإقناع في القراءات السبع ٢/٦٩٧

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ كذلك لِنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادِنا المخلَصين ﴾[سورة يوسف:٢٤] . قرىء في السبع بفتح اللام وكسرها (١) .

وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ قل أتحاجُّوننا في اللهِ وهو ربَّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ونحنُ له مخلِصون ﴾[سورة البقرة:١٣٩] .

فتأمل مبلغ الثناء الذي تحمله الآيات على هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لإخلاصهم لله تعالى، حيث اختار الله تعالى هذا الخلق للثناء عليهم به دون بقية الأخلاق الفاضلة الكريمة التي كانوا يتحلون بهاءوهي كثيرة ككثرة الأخلاق الفاضلة نفسها، وهذا يدل على أن هذا الخلق كان أبرز سماتهم وأخص خصائصهم، وقد دل على ذلك الواقع العملي من رسالاتهم، حيث بذلوا كل ما في وسعهم من طاقة لتبليغ رسالات الله والدعوة إلى الإيمان به ، وترك الإشراك به ، دون أن يكون لهم أي قصد شخصي أو نفع مادي، حسي أو معنوي يحملهم على بذل ذلك الجهد العظيم في الدعوة والبلاغ، كما كانوا يقولون لأقوامهم عند دعواتهم إياهم: ﴿ وما أسألُكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلَّا على ربِّ العالمين ﴾[سورة الشعراء:١٠٩]، فقد وردت هذه الآية على لسان أكثر الرسل بنصها أو قريب منها .

وهي تدل على كمال تجردهم عن الأغراض الشخصية، وكمال إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى .

ما أعده الله تعالى للمخلصين من الأجر والمثوبة :

ولما كان المخلصون، قد تجردوا من كل شائبة تكدر صفو إخلاصهم،فصفت عباداتهم عن الأغيار، ونياتهم عن التشريك والأخطار، فحققوا مبدأ العبودية الحقة،

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بكسر اللام أي: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم، وهي القراءة التي هي محل الشاهد، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام، أي: من الذين خلصهم الله من الفواحش.
انظر زاد المسير ٢١٠/٤ والإقناع في القراءات السبع ٦٧١/٢.

حيث صاروا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون ولا يفعلون ولا يذرون إلا با لله و لله، فكانوا بذلك أهلا لأن ينالوا كل مكرمة عاجلة أو آجلة، وذلك ما منحهم ا لله تعالى إياه كما تحدثت بذلك آيات كتابه المبين.

وأول تلك المكرمات وأعظم تلك الهبات الفاضلات هي عصمتهم من الشيطان الرجيم الذي آلى على نفسه أن يغوي بني آدم، حتى يشركهم معه في سخط ا لله وغضبه ولعنته وناره، فإن إبليس عليه اللعنة عندما يجيء إلى هذا الصنف من الناس لا يجد إليهم سبيلا لأن ا لله تعالى قد عصمهم منه، فيَبقُون في حفظ ا لله ورعايته عابدين خاشعين قانتين كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة من الكتاب العزيز، منها قوله جل ذكره في رده على توعد الشيطان حيث قال: ﴿ قال ربِّ بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغوينَّهم أجمعين * إلا عبادك منهمُ المخلَصين ﴾ فقال ا لله تعالى له: ﴿ قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم * إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلَّا مَن اتَّبعك من الغاوين ﴾ [سورة الحجر:٣٩-٤٢]، وقال سبحانه على لسانه أيضا: ﴿ فبعزَّتك لأُغوِيَنَّهم أجمعين * إلا عبادَك منهم المخلَصين ﴾[سورة ص:٨٢،٨٣]، وقال جل شأنه: ﴿ إنَّ عبادي ليس لكَ عليهم سلطانٌ ﴾[سورة الإسراء:٦٥]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على هذا المعنى، والمخلصين تقرأ بفتح اللام وكسرها.

قال ابن عطية(١): "المخلَصين بفتح اللام، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك، وقرأ الجمهور: بكسر اللام، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك .." (٢) .

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي، كان إماما كبيرا قدوة المفسرين، وكان فقيها عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً في الأدب، بصيرا بلسان العرب، وكان يتوقد ذكاء، له التفسير المشهور المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" ولد سنة ٤٨٠هـ، وتوفي سنة ٥٤١هـ، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص ٥٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣١٤/٨ ، وذكر بعد ذلك اختلاف القراء في (عليَّ) فقال: "قرأ الضحاك، وحميد، والنخعي، وأبو رجاء، وابن سيرين، وقتادة، وقيس بن عبادة، ومجاهد،وغيرهم: (عليٌّ مستقيم) قال:من =

فترى أن ا لله قد أضاف عبوديتهم له لما كانوا له مخلصين، وأي شرف يناله المرء أكثر من أن ينال شرف العبودية لله. كما قالوا :

وممـا زادنـي شـرفاً وتيهـاً (١)   وكدت بأخمَصى(٢) أطأ الثريا

دخـولي تحت قولك يـاعبادي   وأن صـيَّرت أحمـد لي نـبيا

ولذلك كانت هذه العبودية سببا لأن ينالوا تلك العصمة الربانية من الشيطان الرجيم، وما كان لهم من سبيل أن ينالوها إلا بهذا الخلق العظيم ألا وهو الإخلاص.

أما ثاني تلك المكرمات فهي النجاء من عذاب ا لله تعالى، وإسبال جزيل النعم عليه في الدنيا والآخرة، كما دل على ذلك قول ا لله تعالى: ﴿ إنَّكم لذائِقُوا العذابِ الأليم * وما تُجزون إلا ما كنتم تَعمَلون * إلَّا عبادَ ا لله المخلَصين(٣) * أولئكَ لهم رِزقٌ معلومٌ * فواكهُ وهم مكرَمون * في جنَّاتِ النعيم * على سُررٍ مُتَقابلين * يُطافُ عليهم بكأسٍ من مَّعين * بيضاءَ لذةٍ للشَّاربين * لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفُون * وعندهم قاصراتُ الطَّرف عِين * كأنَّهن بَيضٌ مكنون ﴾[سورة الصافات: ٣٨-٤٩] .

فترى أي نعيم يناله أحد من عباد ا لله تعالى أكبر من هذا، ولقد سرد ا لله تعالى تعدادا لبعض أصنافهم تهييجا لأنفس السامعين والقارئين، وتبيانا لمنزلة ألئك المخلصين،

= العلو والرفعة، قال: والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص لما استثنى إبليس من أخلص، قال ا لله له: هذا الإخلاص طريق رفيع لا تناله أنت بإغوائك أهله" ا.هـ .

(١) أي: فخراً .

(٢) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، والمراد به هنا : القدم كله، مختار الصحاح ص ١٩٠ .

(٣) قال الشوكاني في "فتح القدير" ٣٩٢/٤ : "قرأ أهل المدينة - نافع وأبو جعفر - والكوفة - عاصم وحمزة والكسائي - المخلَصين بفتح اللام، أي: الذين أخلصهم ا لله بطاعته وتوحيده، وقرأ الباقون - أبن كثير المكي، وأبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي - بكسرها، أي: الذين أخلصوا ا لله العبادة والتوحيد".

وما أعظم أثره في الأنفس لا سيما بعد أن ذكر قبله عذاب الكافرين.

وليس النجاء من عذاب الله للمخلصين قاصرا على إنجائهم من عذاب الآخرة بل عذاب الدنيا ينجون منه كذلك، كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿ ولقد ضلَّ قبلَهم أكثرُ الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عبادَ الله المخلَصين ﴾[سورة الصافات:٧١-٧٤]، أي كانت عاقبتهم الهلاك والعذاب إلا المخلصين منهم، فإن إخلاصهم لله في التوحيد والعبادة أنجاهم من عذابه الأليم .

ولهذا كانت البشرية عندما ترى أنه قد أحيط بها عذاب الله تلجأ إلى الإخلاص إلى الله تعالى علَّها أن تدرك رحمة الله بالمخلصين، فتخلصهم مما حل بهم من العذاب، كما قص الله تعالى ذلك على ألسنة أقوام ممن أدركتهم سنة الله تعالى في إهلاك الكافرين الجاحدين، وذلك بقوله تعالى: ﴿ هو الذي يُسيِّركم في البَرِّ والبَحرِ حتى إذا كُنتُم في الفلك وجَرينَ بهم بريحٍ طيِّبة وفرحِوا بها جاءتها رِيحٌ عاصفٌ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دعوُا اللهَ مخلِصينَ له الدِّين لئن أنجيتنا من هذِه لنكوننَّ من الشَّاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحق ﴾[سورة يونس:٢٢،٢٣] .

وقوله سبحانه: ﴿ وإذا غشيَهم موجٌ كالظُّلَل دعوُا الله مخلِصين له الدين فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ فمنهم مقتصِدٌ وما يجحدُ بآياتِنا إلا كلُّ ختَّار(١) كفُور ﴾[سورة لقمان:٣٢] .

فترى أن سنة الله تعالى لم تتخلف عمن تحلى بهذا الخلق العظيم، فهؤلاء الذين كان مصيرهم في خطر فلم يجدوا بداً من صدق الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبودية له، لم تتخلف عنهم سنة الله تعالى في إنجاء المخلصين من العذاب، بل أدركتهم فخلصتهم مما كان قد أحيط بهم ﴿ سنَّةَ اللهِ التي قد خلتَ من قبلُ ولن تجد لسنَّةِ الله تبديلاً ﴾ [سورة الفتح:٢٣] .

غير أن أولئك الناجين سرعان ما انقلبوا لمَّا أمنوا الخطر فعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والطغيان، وستحيق بهم سنة الله في الآخرة من العذاب كما قال سبحانه:

---

(١) أي: غدار .

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنما بغيُكم على أنفسِكم متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُكم فنُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون ﴾[سورة يونس:٢٣] .

وفي الحديث ما يشهد لما دلت عليه هذه الآية من إنجاء الله تعالى من أخلص له في العبودية وصدق الالتجاء .

فعن سعد بن أبي وقاص(١) رضي الله عنه قال: "لما كان يوم الفتح فرَّ عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا، أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما، قال: فنجاه فأسلم" (٢) .

فهكذا يكون إنجاء الله تعالى لمن أخلص له، وهكذا تكون مثوبته في الدنيا فضلا عن مثوبته في الآخرة، كما دلت عليه الآية السابقة .

---

(١) اسم أبيه مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري، كان سعد من السابقين إلى الإسلام حيث كان سابع سبعة، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٥٤هـ، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر بهامش الإصابة في معرفة الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/١٨-٢٧، والإصابة ٢/٣٣ .

(٢) أخرجه النسائي في تحريم الدم ، باب الحكم في المرتد ٧/١٠٥، وأخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام بالسند نفسه برقم ٢٦٨٣ ولكن ليس فيه عنده محل الشاهد هنا، قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٣/٢٢ : "وفي إسناده إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، وقد احتج به مسلم، وتكلم فيه غير واحد، وفي إسناده أيضا أسباط بن نصر ، وقد احتج به مسلم في صحيحه، وتكلم فيه غير واحد ا.هـ .

تمثل خلق الإخلاص في النبي صلى ا لله عليه وسلم

وحيث إن الإخلاص بتلك المنزلة من الأخلاق الإيمانية، فإن النبي صلى ا لله عليه وسلم قد كان في ذروة الكمال منه؛ لأنه هو ذو الخلق العظيم كما شهد له ا لله تعالى بذلك .

حديث القرآن الكريم عن إخلاص رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :

ولقد كان المولى جل وعلا مع ذلك ـ وكما هي سنته في تعهد حبيبه ونبيه في التوجيه والتأديب ـ كان لا يزال يحث نبيه المصطفى صلى ا لله عليه وسلم على انتهاج هذا الخلق العظيم، والثبات عليه في كل أحواله، وذلك بمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أنزلنَا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبدِ ا للهَ مخلِصاً له الدِّين * ألا لله الدِّينُ الخالصُ ...﴾[سورة الزمر:٢،٣] .

ولا شك بأن سيدنا محمداً صلى ا لله عليه وسلم قد كان يأخذ مثل هذا التوجيه الإلهي مأخذ الجد والعزيمة، فتتمثل فيه معانيه بأوفى صورها وأكمل تطبيقاتها، حتى كانت تفيض على قلبه الشريف من أنوار ذلك التوجيه ما يعجز القلم وتحصر اللسان عن وصفه، فكان يقول ما قصه ا لله تعالى على لسانه: ﴿ قل إنِّي أُمرتُ أن أعبدَ ا للهَ مخلِصاً له الدين * وأُمرتُ لأن أكونَ أولَ المسلمين * قل إنِّي أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يوم عظيم * قل ا للهَ أعبدُ مخلِصاً له دِيني ﴾[سورة الزمر:١١ـ١٤] .

فترى كيف لبَّى النبي صلى ا لله عليه وسلم توجيه ربه في الاستمرار والثبات على هذا الخلق العظيم، حتى كان يردد ذلك الأمر على لسانه ويقول: ﴿ إنِّي أُمـرتُ أنْ أعبدَ ا لله مخلصاً له الدين ﴾ تلذذا بهذا التوجيه الكريم، والأمر القويم، مع أنه صلى ا لله عليه وسلم كان في القمة من الإخلاص كما شهد له بذلك القرآن الكريم حيث قص قوله صلى ا لله عليه وسلم وهو يخاطب أهل الكتاب: ﴿ قل أتحاجُّونَنَا في ا للهِ وهو ربُّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ونحن له مخلِصون ﴾[سورة البقرة:١٣٩] .

فهو صلى ا لله عليه وسلم يخبر عن نفسه بأنه مخلص لله تعالى في دينه وعبادته، وهو الصادق الأمين، وقد أقره القرآن الكريم على ذلك، فحكى مقالته على سبيل الإقرار والاعتماد والإشادة، مما يدل على أن هذا الخلق العظيم قد كان مستحكما فيه صلى ا لله

عليه وسلم في كل أحواله كما هو شأنه في كل خلق عظيم .

١ - ففي دعوته إلى الله تعالى، كان يتفانى في الإخلاص لها لا يتوانى عنها ليلا أو نهارا، ولا يدخر جهدا يمكن أن يبذله،ليس له في ذلك غرض نفسي، ولا يعبأ براحة جسمية كما سيأتي بيانه في مبحث البلاغ من باب أخلاق النبوة إن شاء الله تعالى،[1] ونُعجِّل من ذلك هنا ما يدل على إخلاصه في القرآن الكريم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أولئك الَّذين هدَى الله فبهداهم اقتَدِهْ قل لا أسألُكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[سورة الأنعام:٩٠] .

وقوله سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودةَ في القُربَى ﴾[سورة الشورى:٢٣] .

وقول الله تعالى في الذب عنه والاستدلال على إخلاصه: ﴿ أم تسألُهم أجراً فهم من مَغرم مُثقلون ﴾[سورة الطور:٤٠] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه ما كان له من غرض في دعوته إلى الله تعالى إلا كمال الإخلاص لله وتبليغ ما أمر به على النحو الذي يرضي الله، لا يريد من ذلك جزاء ولا شكوراً .

٢ - وعبادته لله تعالى، كانت قائمة على كمال الإخلاص فيها لله المستحق للعبادة وحده، فقد كانت حياته كلها عبادة، ينتقل فيها من نوع إلى نوع، ومن حال إلى حال، كما شهد له الله تعالى بذلك في قوله جل ذكره: ﴿ قل إنَّ صلاتي ونُسكي ومَحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين * لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢،١٦٣] .

فهذا القرآن الكريم يلقن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن للملأ هذه الحقيقة الكامنة فيه، لَمَّا عِلِمَها الله تعالى منه، ليقتدي به الناس فيخلصوا كإخلاصه، لأنه هو الأسوة الحسنة للبشرية كما قال الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِر وذكر الله كثيراً ﴾[سورة الأحزاب:٢١] .

---

(١) أنظر ص ١٠٦٤ - ١٠٦٧

وقد كان صلى الله عليه وسلم يطبق هذا التوجيه القرآني، فكان يقول عند قيامه إلى الصلاة: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين" (١) .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الإخلاص :

ولما كان صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق في ذروة الكمال كما شهد له بذلك القرآن الكريم، وكما عبر عنه بلسانه الشريف، حيث أفاد أن جميع أحواله في الحياة وبعد الممات هي خالصة لله تعالى، فقد كان يدل على ذلك أيضا بأقواله التي تعبر عن هذا الخلق والتي كانت تلقى لأصحابه ولأمته كلها في بيان أهمية هذا الخلق ومكانته في الدين، وفي الحث عليه، والتحذير من التخلي عنه .

بيانه صلى الله عليه وسلم لأهمية خلق الإخلاص :

أما بيانه صلى الله عليه وسلم لأهمية هذا الخلق العظيم، فهو ما يعبر عنه قوله عليه الصلاة والسلام:

١ - "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٧١، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء برقم ٧٦٠، والترمذي في الدعوات، باب الدعاء في أول الصلاة برقم ٣٤١٧، ٣٤١٨، ٣٤١٩ ، والنسائي في الافتتاح ٢/١٣٠ ، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في أول صحيحه، وفي مواضع أخرى متفرقة منه، ومسلم في الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات" برقم ١٩٠٧ ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقد أناط صلى الله عليه وسلم بالإخلاص كل عمل يمكن أن يؤديه المرء عبادة لله تعالى، فلا يقبل منها عمل إلا ما كان خالصا لوجهه سبحانه، لأن تقدير الحديث (إنما قبول الأعمال بخلوص النيات) (١) .

فإذا كانت الأعمال لا تقبل إلا إذا خلصت النية، فمعنى ذلك أن الإخلاص ركن أساسي في العبادة، وأن العبادة التي يفقد منها الإخلاص ترد على صاحبها، كما دل عليه الحديث السابق "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه"(٢). حيث دل على أن من أشرك في عمله غير الله تعالى لم يقبله منه؛ لأنه ليس خالصا لوجهه، ومن هذا الحديث تعلم مبلغ أهمية هذا الخلق، كما تعلم مبلغ مكانته في النبي صلى الله عليه وسلم لأن أعماله كلها كانت على وفقه، كيف لا وهو الدال على الله تعالى بحاله وقاله.

ولقد عد هذا الحديث من الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الإسلام، المجموعة في قول بعضهم :

عمدةُ الدين عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية
اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية(٣)

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على إخلاص النيات في الأعمال لتكون مقبولة، وذلك بمثل قوله:

٢ ـــ "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم

---

(١) انظر فتح الباري ٣٥/١ .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٤٥.

(٣) هذان البيتان لطاهر بن مفوز، وجاء عن الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبي داود، والترمذي، والدار قطني، وحمزة الكناني أن هذا الحديث ثلث الإسلام، ومنهم من قال: ربعه، ووجه البيهقي كونه ثلث الإسلام بأن كسب العبد بقلبه ولسانه وجوارحه، والنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها" فتح الباري ٣١/١ .

وأعمالكم"(١) .

فقد أرشد أمته إلى إخلاص نياتهم في الأعمال لأنها محط نظر الله تعالى، فهو يعلم ما أريد به وجهه مما لم يرد به، أو أشرك به غيره، فلذلك ندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص نياتهم حتى تقبل أعمالهم، لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه .

٣ ـ وبمثل قوله صلى الله عليه وسلم منوها بأهل الإخلاص ".. ثلاث لا يُغِلُّ (٢) عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم" (٣) .

٤ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: " قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة" (٤) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي كان يبين فيها النبي صلى الله عليه وسلم مكانة هذا الخلق ومكانة أصحابه عند الله تعالى، وهي تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجم عن ذلك الخلق بسلوكه في أفعاله وأقواله؛ لأنه أول من يطبق ما يندب إليه .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس برقم ٢٥٦٣ ، وأبو داود في الأدب، باب الغيبة، باب الظن برقم ٤٨٨٢، ٤٩١٧ ، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم برقم ١٩٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) من الإغلال وهو: الخيانة في كل شيء. النهاية ٣٨١/٣ والصحاح ١٧٨٤/٥ .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٨، والحاكم في المستدرك ٨٧/١، وقال: على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وعزاه المنذري في الترغيب ٥٤/١ إلى البزار بإسناد حسن، قال: وقد روي هذا الحديث أيضا عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وبعض أسانيدهم صحيح

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٤٧/٥، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٥/١٠ : إسناده حسن .

ترهيبه صلى ا لله عليه وسلم من الرياء :

وقد دل على ذلك السلوك أيضا تحذيره الشديد وترهيبه الأكيد من التخلق بضد هذا الخلق، كالرياء والسمعة، الذين يذهب معهما الأجر، ويوجبان لصاحبهما الوزر، وذلك كما في قوله صلى ا لله عليه وسلم :

١ ـ "من سمَّع سمَّع ا لله به، ومن يرائي يرائي ا لله به" (١) .

٢ ـ وقوله صلى ا لله عليه وسلم: "إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به فعرفّه نعمة ا لله فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمة ا لله فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسَّع ا لله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرياء والسمعة ١٣٠/٨، ومسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير ا لله برقم ٢٩٨٧ من حديث جندب بن عبد ا لله رضي ا لله عنه .

ومعنى الحديث كما قال ابن الأثير في جامع الأصول ١٣/١١ يقال: "سمع فلان بفلان إذا فضحه فأظهر عيبا كان يستره، ومن فعل ذلك بالناس فإن ا لله يفعل به مثله، بأن يهتكه ويكشف عيوبه للناس في الدنيا والآخرة، قال: ويجوز أن يراد بالتسميع الرياء، وهو أن يفعل الإنسان فعلا صالحا في السر ثم يظهره ليسمعه الناس ويحمد عليه، فيفسد صالح عمله بالرياء الواقع بإظهاره، فإن ا لله يسمع به، ويظهر إلى الناس غرضه من طلب الرياء، وأن عمله لم يكن خالصا" قال: "ويجوز أن يريد بمن سمَّع الناس، بأن ينسب إلى نفسه عملا صالحا لم يفعله، وادَّعى خيرا لم يصنعه، فإن ا لله يفضحه ويظهر كذبه، فيسمع الناس بغرضه الفاسد" ا.هـ .

لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار" (١) .

فكل هذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على عظمة مكانة خلق الإخلاص، وعظمة تحلي النبي صلى الله عليه وسلم به، حيث كان يفيض بأخباره عنه ، ليحث أمته على التحلي به، والتخلي عما يناقضه من رياء وسمعة، لكمال رحمتة بهم، وعظيم محبته الخير لهم؛ لأنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فيتحلى بها في نفسه ليكون أسوة لأمته، ويدعوهم إلى التحلي بها، فيرغبهم فيها، ويحذرهم من تركها، وهو في ذلك ﴿وما يَنطقُ عن الهوى إن هُو إلَّا وحيٌ يوحَى ﴾ كما قال الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار برقم ١٩٠٥، من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضا الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة برقم ٢٣٨٢، والنسائي ٦/٢٣، ٢٤ .

المبحث الثاني

(الاستقامة)

الاستقامة في اللغة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر: إذا اعتدل(١) .

قال الراغب: "الاستقامة، تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو"(٢)، يعني بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض، والسين والتاء فيه للمبالغة في التّقوُّم .

وفي الاصطلاح: هي "الوفاء بكل العهود ولزوم الصراط المستقيم برعاية حد الوسط في كل أمر من مطعم ومشرب وملبس، وكل أمر ديني ودنيوي"(٣) .

وهي بهذا المعنى تشبيه لها بالطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمتى، لأن هذا التعريف يعني لزوم الإنسان للمنهج المستقيم في كل أحواله وأطوار حياته، وهو أجمع التعاريف الكثيرة التي أطلقت على هذا الخلق، والتي تعددت منذ عصر الصحابة، وذلك عندما تعرض كل منهم لتعريفها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ...﴾[سورة فصلت:٣٠] ففسرها بما فهم وبقدر ما لديه من العلم، وما يتلاءم مع اتجاهه ومشربه .

تعريف بعض الصحابة رضي الله عنهم للاستقامة :

فقال أبو بكر رضي الله عنه : "هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً" .

وهذا التعريف مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم عندما قرأ هذه الآية فقال: "قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام" (٤) .

---

(١) الصحاح للجوهري مادة قوم ٢٠١٧/٥، والقاموس المحيط ٦٨/٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤١٨ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٩، والتوقيف للمناوي ص ٥٩ .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة حم السجدة برقم ٣٢٥٠ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال عنه:حسن غريب،وعزاه الشوكاني في فتح القدير٥١٦/٤ إلى النسائي والبزار وأبي يعلى وابن جرير =

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "استقاموا لله بطاعته و لم يروغوا رَوغان الثعالب" يريد أنهم التزموا بها دائما، وليس وقتا دون وقت .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "استقاموا: أخلصوا العمل لله" .

وقال علي رضي الله عنه وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "استقاموا: أدوا الفرائض"(١) .

"وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره"(٢) والخلاف بينها لفظي .

أهمية هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

وعناية هؤلاء الأربعة الخلفاء أقطاب الإسلام وأعلام الصحابة ومشايخهم بتفسير الاستقامة، تشير إلى أهميتها في الدين، ولا غرو فهي تشمل جميع جوانبه العقدية والتعبدية والأخلاقية، فكل مجال من مجالاته يلزم له الاستقامة عليه حتى يلقى الله تعالى، وإلا كان ﴿ كالتي نَقضت غزلها من بعد قوةٍ أَنكاثاً(٣)﴾ [سورة النحل:٩٢]، وذلك لأن الله تعالى يريد من عباده الاستمرار على الطاعة حتى الممات كما قال النبي صلى الله عليه

= ١١٤/٢٤، وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل ١٢٨٨/٣، وابن مردويه، وعزاه قبله ابن كثير في تفسيره ٩٨/٤ إليهم أيضا .

(١) ذكر هذه الأقوال مسندة ابن جرير في تفسيره ١١٤/٢٤ـ١١٧، وسردها ابن الجوزي في زاد المسير ٢٥٤/٧، وابن كثير في تفسيره ٩٨/٤، والشوكاني ٥١٦/٤ .

وهناك أقوال أخرى كثيرة في معنى الاستقامة منقولة عن السلف تدور في فلك هذه الأقوال الأربعة المذكورة هنا، انظر البحر المحيط لأبي حيان ٤٩٦/٧ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨٣/٢٤ .

(٣) منصوب على الحال، جمع نكث، وهو ما ينكث أي: يحل إحكامه، تفسير الجلالين ٣١١/١ .

وسلم: "أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ" (١) .

وبقدر ما تكون الاستقامة يكون كمال الإيمان لأن الإيمان يزداد ويكمل بالطاعات، ويقل وينقص بالمعاصي والسيئات، فمن كان على الاستقامة ثابتا كان أكمل إيمانا وأعظم أخلاقا، ومن كان دون ذلك، فدون ذلك، ومن كان فاقدا لها كلية كان فاقدا للإيمان كلية أيضا .

ولهذا ذكرها الله تعالى بعد ذكر الإيمان فقال: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ..﴾ للتدليل على تلازم الإيمان بالاستقامة عليه، وهو ما دل عليه تفسير أبي بكر رضي الله عنه لها، ولذلك يقول في الكشاف مبينا سر تراخيها عن الإيمان: "ثُمَّ: لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة، وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله، قال ونحو قوله تعالى: ﴿ إنَّما المؤمنون الذين آمنوا با الله ورسولِهِ ثم لم يرتَابوا ﴾[سورة الحجرات:١٥]، والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته"(٢) .

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق :

ولأجل هذا كله كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق العظيم كبيرة، حيث أمر المؤمنين بلزومه ونوه بأهله، وأبان عن فضلهم وعظيم أجرهم في غيرما آية من القرآن الكريم، وذلك دليل على عظم شأنه .

الأمر بلزوم الاستقامة :

أما الأوامر القرآنية بلزوم الاستقامة، فقد وجهها الله تعالى إلى خواص عباده كما وجهها إلى عامتهم .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨، ومسلم في الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل برقم ٧٨٢ ، واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر بن محمد بن عمر الملقب بجار الله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ، ٣٩١/٣ .

وخواص عباده هم أنبياؤه المقربون لديه، الذين هم على قدم الاستقامة بمقتضى اصطفاء الله تعالى لهم ليكونوا رسله إلى خلقه، وهذا الاصطفاء يعصمهم عن أن يكونوا عاصين لله تعالى أو مخالفين أوامره كما سيأتي بحثه وبيانه إن شاء الله تعالى. ومع ذلك فإن الأوامر القرآنية لم تفتأ تتنزل عليهم بالثبات على الاستقامة والدوام عليها، فموسى وهارون علهما السلام يقول لهما الله عز وجل: ﴿ قد أُجيبت دعوتُكما فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون ﴾[سورة يونس:٨٩] .

وسيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم يقول له الله تعالى: ﴿ فاستقم كما أُمرتَ ومن تاب معك ولا تَطغوا إنه بما تعملون بصير﴾[سورة هود:١١٢]، ويقول له أيضا: ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمِرتَ ولا تتبَّع أهواءهم ..﴾[سورة الشورى:١٥] .

وهذه الأوامر القرآنية لأنبياء الله تعالى على الثبات على هذا الخلق العظيم غير قاصرة عليهم، بل تشملهم وتشمل المؤمنين بالأولى لأنهم هم الذين يحتاجون إلى الإلزام بهذا الخلق ، لما هم عليه من التفريط، فإذا كان الأنبياء وهم على قدم الاستقامة -كما شهد لهم الله تعالى بذلك وسيأتي بيانه- يؤمرون بلزوم هذا الخلق، فغيرهم أولى بأن يلزموا به، وكانوا أجدر بأن يدخلوا في تلك الخطابات دخولا أوليا، ومع ذلك فقد وجه إليهم خطاب يخصهم ليكون ذلك أبعد للجدل وأنفى للحجة، وذلك هو ما كلف به نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يوجهه إليهم حيث قال: ﴿ قل إنَّما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلٰـه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ [سورة فصلت:٦] .

فلا يبقى بعد هذا الخطاب مقال لقائل يريد أن يفلت من الالتزام بهذا الخلق العظيم لصعوبة الثبات عليه، ولقد أمر الله تعالى جميع عباده أن يسألوه التثبيت عليها في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل، وذلك عند قراءتهم فاتحة الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة المتضمنة لطلب الهداية عليها ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم * صراطَ الذين أنعمت عليهم ﴾ ، وذلك الصرط هو الطريق القويم والنهج السليم على الإيمان والطاعة، والأخلاق الفاضلة، وهو ما تعنيه كلمة "الاستقامة" .

التنويه بهذا الخلق وأهله في القرآن الكريم :

ولقد كان من عناية القرآن الكريم بهذا الخلق العظيم أن نوه وأشاد به وبأهله في عدة آيات كقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تَتَنزلُ عليهم الملائكةُ أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشِروا بالجنَّةِ التي كنتم تُوعدون * نحن أولياؤُكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخِرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسُكم ولكم فيها ما تَدَّعون * نُزُلاً من غفور رحيم ﴾[سورة فصلت: ٣٠-٣٢] .

فهذا تنويه عظيم بالمستقيمين على الإيمان والطاعة، لا يدرك كنهه، ولا ينال مثله غير أهله، بدلالة ما رتب الله تعالى على الالتزام بهذا الخلق من المكرمات العظيمة التي بيَّنتها هذه الآية الكريمة وغيرها كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * أولئِك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[سورة الأحقاف: ١٣، ١٤] .

فإن هذه الآيات إضافة إلى ما تحمله من جميل الثناء وبالغ الإشادة بالمستقيمين، فإنها تحمل أيضاً البشارات العظيمة بالمثوبات الكريمة الكبيرة التي ينالها المستقيمون على الإيمان والأخلاق والطاعات، وإليك بيان ذلك :

بيان ما أعده الله تعالى لأهل الاستقامة من المثوبة :

فأول تلك البشارات التي تتنزل بها الملائكة الكرام على أهل هذا الخلق العظيم، هي تأمينهم مما قد يداخل رَوْعهم من هول ما هم قادمون عليه من أهوال يوم القيامة العظيمة، فتتنزل عليهم ملائكة الرحمة بالتأمين والتطمين قائلة لهم : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فإن الله سيكلؤكم برحمته وعنايته، ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد، فإن الله سيخلفكم فيهم بالرعاية والعناية، فتحل في قلوبهم عندئذ السكينة، وتنشرح صدورهم بالثقة الكاملة بوعد الله تعالى الذي جاءهم على ألسنة ملائكته، وقد تكرر هذا الوعد في آيتي فصلت والأحقاف زيادة في تأكيده للنفوس .

وثاني تلك المكرمات بعد تأمين الروع : التبشير بالجنة التي كانوا يوعدون بها من

قبل، فيعملون لاكتسابها، وذلك تعجيل لهم بمسرة الفوز برضا الله تعالى، وتحقيق وعده لهم" ، وقد بينت الملائكة لهم ما في الجنة من عظيم الثواب إتماماً لكمال لذة البشارة فتقول لهم : ﴿لكم فيها ما تَشتهي أنفسُكم﴾ أي: من فنون الملاذ مما يقع تحت الحس ﴿ولكم فيها ما تَدَّعون﴾ أي: ولكم فيها من كل ما يخطر ببالكم وتتمنوه في نفوسكم، وأن ذلك كله ﴿نزُلاً من غفور رحيم﴾[فصلت:٣١،٣٢] أي: ضيافة من الله تعالى (١) .

فبحسب المتخلقين بهذا الخلق فخراً وفضلا على غيرهم عظيم هذا الثواب في الآخرة .

أما في الدنيا فإن الله تعالى قد وعدهم بصلاح الحال واستقامة الأحوال كما قال سبحانه: ﴿ وألَّو استقاموا على الطَّريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾[سورة الجن:١٦]، فإن هذه الآية وعد إلهي بصلاح أحوال المستقيمين في الدنيا، إذ الماء الذي وعدوا به هو سبب لسعة الرزق؛ إذ هو أصل المعاش، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب(٢)، وقد بين الله تعالى هذا الوعد في آية أخرى قال فيها: ﴿ من عمِل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحيِيَنَّه حياةً طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يَعملون ﴾[سورة النحل:٩٧] .

فإن العمل الصالح بعد الإيمان بالله تعالى هو ما تعنيه الاستقامة، إذ يقتضي العمل الصالح اتباع المأمورات واجتناب المنهيات، والثبات على ذلك .

وقد وعد الله تعالى أهل ذلك بالحياة الطيبة في الدنيا والأجر العظيم بالآخرة، والحياة الطيبة تكون إما باليسار، أو القناعة والرضا بالقسمة الإلهية، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة(٣) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٤ ، وروح المعاني للألوسي ١٢١/٢٤/٨-١٢٢ .

(٢) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٧٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٥ .

تمثل خلق الاستقامة في النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد كان النبي صلى ا لله عليه وسلم في ذروة الكمال من الاستقامة على الإيمان والأخلاق والطاعات .. وكل ما تعنيه كلمة الاستقامة من معنى وشمول، وذلك بمقتضى نبوته وخُلته لربه .

وهو ما تدل عليه شهادة ا لله تعالى له بعظمة الخلق، إذ لولا أنه كان كذلك لما نال تلك الشهادة العظيمة التي لم تكن لأحد غيره، والاستقامة جوهر تلك الأخلاق، إذلا يكون ذا خلق عظيم إلا إذا كانت أخلاقه ثابتة لا تتغير، متكافئة لا يطغى جانب منها على جانب، وهو الحال الذي كان عليه سيدنا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كما علمت مما تقدم تقريره في المدخل(١)، وهذه هي الاستقامة في الأخلاق، وذلك فضلا عن شهادة ا لله تعالى له بالثبات على هذا الخلق والكمال فيه، كما سيأتي بيانه قريبا .

ومع كونه عليه الصلاة والسلام كان على ذلك الحال بفطرة ا لله تعالى التي فطر الناس عليها، فقد كانت عناية القرآن الكريم به صلى ا لله عليه وسلم في تثبيته على كمال الأخلاق وسموها، لاتزال تتعهده فتحضه على الثبات عليها كما مر في بعض الأخلاق الاعتقادية والسلوكية الإيمانية .

وفي هذا الخلق كانت العناية القرآنية في حث المصطفى صلى ا لله عليه وسلم على الثبات عليه كبيرة، نظرا لعظم مكانة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية الإيمانية وعظم تحمله .

لذلك نرى القرآن الكريم يخاطبه بقوله: ﴿ فاستقم كما أُمرت ومن تابَ معك ولا تطغوا إنَّه بما تعملون بصير ﴾[سورة هود:١١٢] .

وبقوله: ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمِرتَ ولا تَتَّبع أهواءَهم ﴾[سورة الشورى:١٥] .

وهي أوامر بالدوام على الاستقامة والثبات عليها كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا آمِنوا ...﴾[سورة النساء:١٣٦] .

قال ابن عطية: "أُمِر النبي صلى ا لله عليه وسلم بالاستقامة وهو عليها، إنما هو أمر بالدوام والثبات، قال: وهذا كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه،وهو متلبس به،

---

(١) انظر ص٥٩

قال: والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أمته بالمعنى .."(١) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتأثر تأثرا بالغا بمثل تلك التوجيهات، فيشمر عن ساعد الجد للعمل بمقتضاه بكل ما أوتي من قوة وطاقة، وفي هذا التوجيه بذل النبي صلى الله عليه وسلم قُصارى جهده وكمال طاقته في الاستمرار على هذا الخلق بكل كمال في الأخلاق والطاعات وشدة التعلق برب البريات، والتفكر في أحوال أمته في الدنيا والآخرة، حتى أثر ذلك في جسمه الشريف وكان رأي العين لأصحابه، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية" (٢) .

ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما استغربوا سرعة بدار الشيب فيه وقالوا: "يا رسول الله قد شبت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم:شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"(٣) .

وفي رواية قال: "شيبتني هود وأخواتها" (٤).

يعني بذلك لما فيها من الأمر بالاستقامة في الآية السابقة الذكر، وذلك خوفا أن لا

---

(١) المحرر الوجيز ٤١٢/٧ وابن عطية تقدم التعريف به ص١٤٧ .

(٢) نقله الإمام النووي في شرح مسلم ٩/٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في تفسر سورة الواقعة برقم ٣٢٩٧، وفي الشمائل برقم ٤٠، والحاكم في المستدرك ٤٧٦/٢ من حديث ابن عباس، وقال الترمذي عنه: حسن غريب، وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٠/٧ إلى الطبراني في الأوسط، قال: ورجاله رجال الصحيح .

(٤) عزاه الهيثمي في المجمع ٤٠/٧ إلى الطبراني من حديث عقبة بن عامر، قال: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه إليه السيوطي في الجامع الصغير ٤٠/٢، ورمز له بالصحة، ولم يتعقبه المناوي في فيض القدير ١٦٨/٤ .

يكون قام بواجبها كما ينبغي أن يكون القيام؛ "لأن الاستقامة من أصعب المقامات إذ هي كمقام الشكر الذي هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميعَ ما أنعم ا لله تعالى به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يليق بكل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل"(١) .

فهي تعني :الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي ا لله تعالى على حقيقة الصدق(٢) .

لذلك قالوا: "إنها درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيما في حالته ضاع سعيه وخاب جهده" .

قالوا: "إنما شيَّبه ذلك مع عصمته وتحققه أن الحق لا يمكر به؛ لأن المقرَّب ولو بالغ في الاستقامة، يمنعه الأدب مع ا لله أن يشهد في نفسه أنه وفَّى بالأمر بحيث لم يبق بعده درجة يمكن صعودها، بل المقرب أولى بشدة الخوف ممن سواه؛ لأن من خصائص حضرات القرب شدة الخوف لكمال التجلي بالهيبة، وكلما زاد القرب زاد الخوف، قالوا: ومن ادعى مقام التقرب مع الإدلال على ا لله، فما عنده خَبر من القرب"(٣) .

ولقد كان صلى ا لله عليه وسلم يُشعِر أصحابه بذلك الحال الذي كان عليه من الاستقامة، وخشيته أن لا يكون قد أدى واجب العبودية كما يجب، فيقول لهم: "لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا"(٤)، وكان على الحال الذي تقدم ذكره من الخوف والخشية، كل ذلك بسبب ما كان عليه من الاستقامة الكاملة لله في الإيمان والأخلاق وجميع الطاعات، ثم هو مع ذلك ممن قال ا لله تعالى فيهم: ﴿ والذين يُؤتُون ما ءاتَوا وقلوبُهم وجِلَة أنَّهم إلى ربِّهم راجعون ﴾[سورة المؤمنون:٦٠] .

---

(١) فيض القدير للمناوي ١٦٩/٤ .

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ٩/٢ نقلا عن أبي القاسم القشيري .

(٣) فيض القدير ١٦٩/٤ .

(٤) متفق عليه وتقدم تخريجه في مبحث الخوف والخشية ص ١٩٠

ومازال على ذلك حتى شهد له الله تعالى أنه على قدم الاستقامة الكاملة، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله جل شأنه: ﴿ وادع إلى ربّك إنّك لعلى هُدًى مستقيم ﴾ [سورة الحج:٦٧] . :

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ يس * والقرآنِ الحكيم * إنّك لَمِن المرسلين * على صراطٍ مستقيم ﴾[سورة يس:١-٤] .

والهدي المستقيم أو الصراط المستقيم هو ما تعنيه الاستقامة بكل أبعادها، فهذه شهادة من الله عز وجل لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه على كمال الاستقامة في نفسه إيمانا وعبادة وأخلاقا .. إذ أخبر الله تعالى عنه بذلك إخبارا مؤكدا بتأكيدات كثيرة في الآيتين(١)، وذلك دليل على مبلغ استقامته صلى الله عليه وسلم .

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأمته طريق الاستقامة :

وقد كان من استقامته صلى الله عليه وسلم قيامه بواجب التبليغ لشرع الله، وتعليم الأمة دين الإسلام قليله وكثيره، جليله وحقيره، على النحو الذي أراده الله تعالى وأمره به .

وكان من تعليمه الأمة وإبلاغها شرع الله تعالى وآدابه وأخلاقه ، أن علمها هذا الخلق العظيم على النحو الذي رأى أنها ستقوم به معه، كما يشهد لذلك أحاديث كثيرة نذكر منها الآتي :

١ - فقد جاء إليه رجل وقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك، فقال له صلى الله عليه وسلم: "قل آمنت بالله ثم استقم"(٢) .

---

(١) المؤكدات في الآية الأولى هي: إن ولام الابتداء والجملة الاسمية، وفي الآية الثانية هذه المؤكدات، وصدرت بمؤكد رابع بليغ وهو القسم، على أن النبي صلى الله عليه وسلم من المرسلين وأنه على صراط مستقيم .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام برقم ٣٨، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه .

فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة إلى ما يريده من أمر دينه ودنياه وذلك بلزوم الاستقامة بعد الإيمان بالله، فإنه إن لزم ذلك استقام له أمر الدين والدنيا .

٢ ـ غير أن لزوم الاستقامة على الوجه الأكمل مما قد يتعذر على كثير من الناس، لأنها من أصعب المقامات كما قيل، غير أنه لا حيلة من لزومها بقدر الطاقة والإمكان، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ذلك فقال: "استقيموا ولن تحصوا"(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: "سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"(٢) .

فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى فعل ما يقدرون عليه بحسب الطاقة، ثم لا حرج عليهم بعد ذلك فهو يقول: استقيموا ولن تحصوا أي: استقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا، ولن تطيقوا الاستقامة(٣)، يعني على وجهها، وهذا منتزع من قول الله تعالى:

---

(١) تمامه: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" أخرجه مالك في الموطأ كتاب الوضوء ٤٣/١، بلاغا، وابن ماجه في الطهارة برقم ٢٧٧ من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٨٨/١ : "رجاله ثقات أثبات إلا أنه منقطع بين سالم ابن أبي الجعد وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يسمع منه بلاخلاف، قال: لكن له طريق أخرى متصلة، أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٤ ، وأبو يعلى الموصلي ، والدارمي في مسنده ص ١٦٨، وابن حبان في صحيحه من طريق حسان بن عطية أن أبا كبشة حدثه أنه سمع ثوبان، وأخرجه الحاكم من طريق سالم عن ثوبان، وقال، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، قال: ولست أعرف له علة يعلل بمثلها هذا الحديث إلا وهم من أبي بلال الأشعري، وهم فيه على أبي معاذ ا.هـ، المستدرك ١٣٠/١، وسكت عنه الذهبي، وأخرجه أيضا من حديث جابر، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم ٤١٢ ، ١٣٥/٢، وتكلم على طرقه وشواهده كثيرا، وفي إتمام المنة في التعليق على فقه السنة ص ٢٣٤ .

(٢) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ١٦٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٩٨/١ .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمَعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفُسِكم ﴾[سورة التغابن:١٦]، وقوله: ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وُسعها ﴾[سورة البقرة:٢٨٦]، وهذا إرفاق منه صلى الله عليه وسلم بأمته، أما هو فقد كان يأخذ بعزائم الأمور فكانت استقامته على الكمال والغاية، وبذلَ من الجهد في تحقيقها ما لم يقدر عليه أحد غيره، حتى بلغ به الحال ما علمته من الشيب والتعب، وذلك بحسب مقامه عند الله تعالى وبالغ رغبته في تحقيق أسمي أنواع العبودية والتحلّي بكمال الأخلاق وجليلها .

المبحث الثالث

الشكر

الشكر في اللغة: "تصور النعمة وإظهارها، قيل:هو مقلوب عن الكشر أي الكشف، يقال: دابة شكور أي: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل: أصله من عين شكري أي: ممتلئة، فالشكر على هذا: هو الامتلاء من ذكر المنعِم عليه"(١) .

ويقال في تعريفه اللغوي أيضاً: "الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف"(٢) .

وفي العرف: "هو صرف العبد كل ما أنعم به عليه إلى ما خلق لأجله"(٣)، يعني من نعمه الظاهرة والباطنة في النفس والمال، فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق بكل جارحة على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه، وأدى واجب شكرها .

وفي معنى الشكرِ: الحمدُ(٤)، بل هو أعم منه، فإن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة، أما الحمد فيكون في مقابل نعمة أو غيرها حيث يقال شكراً للصنيعة أو ابتداء للثناء على المحمود، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً(٥) .

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٦٥، والفرق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٤٠ .

(٢) الصحاح للجوهري ٧٠٢/٢، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٠٧/٣، ومجمل اللغة له أيضا ٥١٠/١، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ٦٣/٢ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٣٥ .

(٤) الحمد في اللغة: الثناء بالجميل على جهة التعظيم، وفي العرف: فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعما على الحامد أو غيره، التعريفات للجرجاني ص ٩٣ .

(٥) انظر المفردات للراغب ص ١٣١، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٣٩/٤٠، وتاج العروس شرح القاموس للزبيدي ٣٣٩/٢ .

مكانة هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

يعتبر الشكر من أجلِّ الأخلاق السلوكية الإيمانية التي على المؤمن أن يتحلى بها في كل أحوالِه لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها .

وقددل على عظم مكانته: انضواء جُل الأخلاق الإيمانية تحته من محبة ورضا وتوكل ... لأن الشكر لا يتم إلا بعد التحلي بها، ولا يكون إلا عند استشعارها(١) .

كما دل على ذلك أيضا وصف ا لله نفسه بهذا الخلق في غير ما آية، منها قوله جل شأنه: ﴿ إن ا للهَ شاكرٌ عليم ﴾[سورة البقرة:١٥٨]، وقوله: ﴿ إن ا للهَ غفورٌ شكور ﴾ [سورةالشورى:٢٣]،وقوله: ﴿وا للهُ شكورٌ حليم﴾[سورةالتغابن:١٧]،إلى غيرذلك من الآيات.

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق:

ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية، أمرا به،وحثا عليه، وثناء على أهله، ووعدا لهم بحسن جزائه، ونهيا عن ضده .. مما يدل على أن أمر هذا الخلق عظيم الشأن، وكيف لا يكون كذلك وهو نصف الإيمان كما جاء في الأثر(٢) .

أوامر القرآن الكريم به :

أما أوامر القرآن الكريم بالتحلي به فكثيرة منها الأوامر في الآيات التالية :

أ ـ قوله تعالى: ﴿ فاذكُروني أذكركُم واشكروا لي ولا تكْفُرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢]، وفي هذا الأمر قرن ا لله تعالى الشكر بالذكر، ومعلوم أن الذكر له المنزلة العليا كما قال تعالى: ﴿ ولَذكرُ ا لله أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥]، وقد قرن بالشكر للدلالة على تقاربهما في المنزلة عنده سبحانه وتعالى .

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢٤٩/٢ .

(٢) وعزاه الغزالي في الإحياء ٧١/٤ إلى ابن مسعود رضي ا لله عنه، وابن أبي الدنيا في الشكر ص ٣٤، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٤٤٠، إلى المغيرة بن عامر رحمه ا لله تعالى .

كما قابله بالكفر للإشعار بأن من لم يقم بواجب الشكر، فهو في حيِّز نقيضه وهو الكفر، أي كفر النعمة، فمن لم يشكر نعم الله تعالى فهو كافر لها كما تفيده دلالة التلازم المشعرة به هذه الآية وغيرها .

ب ـ قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُلوا من طيِّباتِ ما رزقناكم واشكُروا لِله إنْ كنتُم إيَّاه تعبدون ﴾[سورة البقرة:١٧٢] .

وفي هذه الآية يبين الله تعالى أن العبودية له سبحانه تستلزم شكره، فمن كان لله عابدا يجب عليه أن يكون لآلائه شاكرا، وإلا فإنه غير صادق في عبوديته كما تفيده أداة الشرط "إن" ، ونحو هذه الآية :

جـ ـ قوله تعالى: ﴿ فكُلوا ممَّا رزقكم الله حلالاً طيباً واشكُروا نعمةَ اللهِ إن كنتُم إيَّاه تعبدون ﴾[سورة النحل:١١٤] .

والمعنى في الآيتين: إن كانت عبادتكم خالصة له سبحانه حقا، فعليكم أن تشكروا نعمه، فإن العبادة تستلزم الشكر، بل هو من ضروب العبادة وأنواعها . والمراد بالعبادة هنا: (هو الاعتقاد الجازم بألوهيته سبحانه، والخضوع له والاعتراف بنعمه)(١).

وقد قرنت العبادة بالشكر أيضا في آية أخرى هي :

د ـ قوله تعالى: ﴿ فابتغوا عندَ اللهِ الرِّزق واعبدُوه واشكروا له إليه تُرجعون ﴾ [سورة العنكبوت:١٧] . مما يدل على تلازم العبودية بالشكر تلازماً وثيقاً .

هـ ـ قوله تعالى: ﴿ كلُوا من رزقِ ربِّكم واشكروا له بلْدةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غفور ﴾ [سورة سبأ:١٥] . وهذه الآية كالآية السابقة تذكِّر العباد برزق الله تعالى المتوافر عليهم، وتأمرهم بوجوب شكره عليه .

و ـ قوله تعالى: ﴿ ووصَّينا الإنسانَ بوالِدَيه حملتْهُ أمُّه وهْناً على وَهْن وفِصالُه في عامين، أنِ اشكر لي ولوالِديكَ إليَّ المصير ﴾[سورة لقمان:١٤] .

وفي هذه الآية يأمر المولى عز وجل ابن آدم بأداء واجب الشكر له سبحانه، ثم

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٨/٢ .

للوالدين، من أول أيام تكليفه على نعمه العظيمة عليه؛ حيث أوصله إلى هذه المرحلة بعد مروره بمراحل الضعف الكثيرة، ومن هذا تعلم أن شكر المولى عز وجل يجب أن يكون خُلقا عاما في المرء، وأنه لا سبيل إلى التهاون فيه لهذه الأوامر الكثيرة التي لو اكتفي بواحد منها لكان كافيا في الإلزام، فكيف به مع تكرار تلك الأوامر التي جيء بها لزيادة التأكيد والتقوية في الدلالة، والتذكير من النسيان والغفلة .

الحث على الثبات على هذا الخلق العظيم :

ومع تلك الأوامر المتعددة، فإن الله تعالى لم يزل يحث العباد على القيام بواجب هذا الخلق بأساليب الحض المختلفة، يستثير بذلك همم المتقاعسين عن أداء هذا الواجب الخلقي العظيم، إلى القيام به على الوجه الأتم، والتحلي به على الدوام، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ لعلّكم تشكرون ﴾ فقد وردت هذه الكلمة أربع عشرة مرة في القرآن الكريم، وهي في الغالب ترد مسبوقة بذكر نعم الله وإفضاله الكثيرة على عباده، وكلمة "لعل" هنا ليست للترجي والتوقع، كما هو شأنها في كلام الآدميين؛ لأن الترجي لا يقع من الله تعالى؛ إذ هو عالم الغيب والشهادة، ولكنها لبيان عِلّية خَلق تلك النعم العظيمة، وبيان أن الله تعالى لم يخلقها لهم إلا ليقوموا بواجب شكرها على النحو الأتم، وفي ذلك من التحضيض على القيام بذلك الواجب ما فيه ! حيث تفيد تلك الآيات أنهم إن لم يقوموا بأداء واجب شكرها فإنهم كافرون وجاحدون لها، وذلك يعرضها للزوال كما بين ذلك في آية أخرى قال فيها: ﴿ وإذ تأذّن ربُّكم لئِن شكرتُم لأزيدنّكم ولئِن كفرتُم إنّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧]، ولذلك نجد أن تلك الآيات المختومة بذلك التعليل يبدأ بتعداد تلك النعم والتنويه بها ليحثهم على المحافظة عليها، فيقول مثلا: ﴿ ما يُريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يُريدُ لِيُطهِّركم وليُتمَّ نعمتَه عليكم لعلّكم تشكرون ﴾[سورة المائدة:٦] .

ويقول أيضا: ﴿ واذكُروا إذْ أنتُم قليلٌ مستَضعفُون في الأرض تخافونَ أن يَتخطّفَكم

الناس فآواكُم وأيَّدكم بنصره ورَزقكم من الطَّيباتِ لعَلَّكم تشكُرون﴾[سورة الأنفال:٢٦] . ويقول كذلك: ﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلُوا منه لَحمْاً طرياً وَتستَخرجوا منه حِلْية َتلبَسونها وترى الفُلكَ مواخرَ فيه ولتَبتغوا من فضلِه ولعلَّكم تشكرون ﴾ [سورة النحل:١٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على جزيل نعمائه سبحانه وتعالى، والحاثة العباد على شكرها، وقد جاء الحض على الشكر بأدوات التحضيض الأخرى، كـ"ألا" و"لولا" ... وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وآيةٌ لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنَّاتٍ من نخيل وأعناب وفجَّرنا فيها من العيون * لِيأْكُلوا من ثمرِه وما عملَتْه أَيديهم أفلا يشكُرون ﴾[سورة يس:٣٣-٣٥] .

وقوله تعالى في نعمة الماء: ﴿ أفرأيتُم الماءَ الَّذي تشربون * ءأنتم أنزلتُموه من المُزْنِ أم نحن المنزِلون * لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً فلولا تَشكُرون ﴾[سورة الواقعة:٦٨-٧٠] .

وقوله تعالى في نعمة الدروع الواقية في الحروب: ﴿ وعلَّمناه صَنعة لَبُوسٍ لكم لتُحصِنكم من بأسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾[سورة الأنبياء:٨٠]، والمعنى اشكروني على ذلك كله .

إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على شكر المنعم جل في علاه، فضلاً عن الآمرة به صراحة، وكل ذلك دال على عظيم منزلته، ومنزلة أهله المتحلين به .

الثناء على الشاكرين :

وقد دل على هذه المكانة العظيمة، ذلك الثناء البالغ الذي حمله القرآن الكريم في آياته الكريمة على المتحلين بهذا الخلق العظيم من أنبيائه ورسله، كنوح وإبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكذا في حق بعض عباده الصالحين، فقال عن نوح: ﴿ ذرِّيَّة من حملنا مع نُوح إنَّه كان عبداً شكوراً ﴾[سورة الإسراء: ٣]، وشكور: صيغة مبالغة أي: كثير الشكر، وقال أيضاً: ﴿ إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً قانتا لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين*شاكرًا لأنعُمِه اجتَباه وهَداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾[سورة النحل:١٢٠، ١٢١]

وهذا الثناء على هذين النبيين العظيمين بخصوصهما يشمل إخوانهما من أولي العزم وبقية الرسل كذلك عليهم الصلاة والسلام جميعا؛ لأنهم كانوا جميعا من أهل هذا المقام، حيث إنهم بغير ريب يعرفون نعم الله تعالى وكثرتها، وما يجب عليهم نحوها، فيؤدونه على الوجه الأكمل؛ لأنهم أكمل البشر عبودية لله تعالى، وقد بعثوا جميعا بمكارم الأخلاق، وبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم تلك المكارم، كما جاء في الحديث(١) .

أما بقية المؤمنين فهم متفاوتون في أداء واجب النعم المسداة إليهم من القيام بشكرها حق الشكر، وذلك بقدر معرفتهم لتلك النعم، وتمحضهم في صفة العبودية، فمن أدى ذلك الواجب على النحو الذي يحب ربنا ويرضاه كان ممن دخل في عموم الثناء على أهل هذا الخلق العظيم بمثل قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صبَّار شكور ﴾ [سورة ابراهيم:٥، وسورة لقمان:٣١، وسورة سبأ:١٩، وسورة الشورى:٣٣]، وقوله جل شأنه: ﴿ وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكور ﴾[سورة سبأ:١٣] .

وفي مثل هذه الآيات تنويه عظيم بهم، حيث أفادت أن أهل الشكر هم المنتفعون بآيات الله التنزيلية والكونية، فيتعظون بها ويستدلون بها على عظمة الخالق، وتجعلهم يعبدونه حق عبادته، وفي الآية الثانية أضاف عبوديتهم له للتدليل على مبلغ مكانتهم عنده، إذ لا ينال هذه الإضافة الشريفة إلى المولى جل شأنه إلا خواص العباد وأكرمهم لديه.

وقد أبان عن هذه المكانة العظيمة أيضا ثناءُ الله تعالى على الشاكرين الوارد في قوله سبحانه: ﴿ أولئِك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا ونتَجاوزُ عن سيئاتِهم في أصحاب الجنة، وعدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعدون ﴾[سورة الأحقاف:١٦]. فإن في هذه

---

(١) تقدم ذكره وتخريجه ص ١٨ .

الآية من التنويه بعظم المكانة وحسن المثوبة في الآخرة ما لا يدرك كنهه، وهي إخبار عن أولئك الذين يقولون: ﴿ ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتَك الَّتي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحا ترضاه وأصلِح لي في ذُرِّيَّتي إنِّي تبتُ إليك وإنِّي من المسلمين ﴾ [سورة الأحقاف:١٥] .

جزاء الشاكرين في الدنيا والآخرة :

ولما كان للمتحلين بالشكر تلك المكانة الرفيعة المتميزة عند الله تعالى، أجزل لهم عظيم المثوبة في الدنيا من توالي نعمه عليهم، وحفظها من الزوال، وفي الآخرة من إحلال رضوانه وحسن جزائه .

أما في الدنيا فقد تحدثت آيات كثيرة عن جزاء الله للشاكرين فيها، فعن توالي نعمه تعالى على الشاكرين يقول الله تعالى: ﴿ وإذ تأذَّن(١) ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنَّكم ولئِن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧]، وهذا وعد مؤكد من الله تعالى أعلم به عباده بزيادة النعم عندما يؤدون شكرها، وأشعر الجاحدين لها بالعذاب من إزالة النعم في الدنيا والعقاب الشديد في الأخرة، وهو جار مجرى السنن الكونية التي لا تتخلف عند وجود مقتضياتها، كما يشهد لذلك إنجاؤه سبحانه لآل لوط عليه السلام من العذاب الذي صبَّه الله على قومه، جزاء لشكره كما قال سبحانه: ﴿ إلاَّ آل لُوط نجَّينَاهم بسحَر * نعمةً من عندِنا كذلك نجزي مَن شَكر ﴾[سورة القمر:٣٤،٣٥]، وكما قال سبحانه: ﴿ ما يفعلُ الله بعذابِكم إن شكرتم وآمنتُم وكان الله شاكراً عليماً ﴾[سورة النساء:١٤٧] .

ولذلك كانت دعوة الله تعالى بعظيم المثوبة للشاكرين منجَّزة غير معلقة بمشيئته كما هو الشأن في كثير من وعود الله تعالى لعباده بثواب الدنيا أو الآخرة كما في قوله جل شأنه: ﴿ والله يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب ﴾[سورة البقرة:٢١٢]، وقوله: ﴿ فيكشِفُ ما

---

(١) أي: أعلَمَ .

تَدعون إليه إن شاءَ ﴾[سورة الأنعام:٤١]، وقـوله: ﴿ فسوفَ يُغنيكم ا للهُ مِن فضلِه إن شاء ﴾[سورة التوبة:٢٨]، إلى غير ذلك من الاستثناءات والتعليقات بمشيئته سبحانه .

أما أهل هذا الخلق فإن ا لله تعالى وعدهم وعودا منجزة غير معلقة بمشيئته كمـا يـدل عليه قول ا لله جل ذكره: ﴿ وسيَجزي ا للهُ الشَّاكرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٤] ، وقـال أيضا: ﴿ وسنَجزي الشَّاكرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٥] .

وهذا الجزاء الذي وعد ا لله تعالى به شـامل للجـزاء في الدنيـا في زيـادة النعـم ودفـع النقم.

وللجزاء في الآخرة من حسن المثوبة وعظيم الأجر، كمـا يفيـد ذلـك (تصديـر هـذه الوعود بالسين وإبهام الجزاء، ففي ذلك من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء مـا فيه، وكونه بحيث يضيق عنه نطاق البيان) (١) .

ويشير إلى ذلك أيضا قول ا لله تعالى في شأن أولئك القـائمين بـأداء واجـب الشـكر بالجنان والأركان: ﴿ إنَّ الذين يتلون كتابَ ا لله وأقاموا الصَّـلاة وأنفقُـوا ممَّـا رزقنـاهم سراً وعلانيةً يرجون تجارةً لن تبور * ليوفِّيهم أجورَهم ويزيدَهـم مـن فضلـه إنَّـه غفـور شكور ﴾[سورة فاطر:٢٩،٣٠] .

فهذه الآية تدل على أن ا لله تعالى يعطي الشاكرين أجرا غير منقوص، ويزيدهم مـن فضله سبحانه ما يليق بكرمه جل وعلا، ولا غرو في أن ينالوا ذلك الفضل فإن شكرهم لله تعالى يرشحهم لذلك لأنه يرضى ا لله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وإن تشـكُروا يرضَـهُ لكم ﴾[سورة الزمر:٧]، ورضاه سبحانه عن الشـكر عنـوان لرضـاه عـن الشـاكر كمـا لا يخفى: ﴿ ورِضوانٌ من ا لله أكبرُ ﴾[سورة التوبة:٧٢] .

وإذا كان ثواب الشكر ذلك الفضل العظيم والأجر الكبـير في الدنيـا والآخـرة؛ فـإن من الحماقة أن يقصِّر الإنسان عـن نيلـه وإدراكـه طالما وهـو يقـدر أن يكتسـبه بلسـانه وجنانه وأركانه، ولذا قيـل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيبا ... كنقص القادرين على التَّمام .

---

(١) روح المعاني ٧٩/٤/٢ بتصرف يسير .

ولقد نعى القرآن الكريم على أولئك المقصرين في نيله، حيث بين لهم أنهم إنما فرطوا في نفع أنفسهم بتقاعسهم عن اكتساب ذلك الأجر في الدنيا والآخرة، كما يستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿ ومن شكرَ فإنَّما يشكرُ لِنفسه ومن كَفَر فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم ﴾[سورة النمل:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشكر لِله ومن يَشكرْ فإنَّما يشكرُ لنفسه ومن كفرَ فإنَّ الله غنيٌّ حميد ﴾[سورة لقمان:١٢] .

إذ تفيد هاتان الآيتان أن ثواب الشكر إنما يعود على الشاكر نفسه ولا يعود إلى الله تعالى بنفع كما لا يلحقه من عدمه ضر، لأنه سبحانه غني عن شكر الشاكرين أجمعين. وقد أفادت الآيتان هذا المعنى بأسلوب القصر الحقيقي لزيادة التأكيد على ذلك المدلول، وليرسخ في نفسه فهمه، وإذا كان المرء لا يألو جهدا في نفع نفسه فلينفعها فيما وعد المولى به فإن الله لا يخلف الميعاد، وإلا كان مفرطا عن نفع نفسه أيما تفريط وذلك غاية العجز.

وعيد من لم يتخلق بهذا الخلق :

ومع كون فائدة هذا الخلق إنما هي عائدة على المتخلق به فقط، إلا أنه لا سبيل لأحد أن يترك التحلي به اختيارا لنفسه ذلك، لأنه وإن كان يعد تقصيرا في حق النفس فإنه أيضا تقصير في حق الرب تقدست أسماؤه، فإن نعمه على العباد لا تحصى كما قال سبحانه: ﴿وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها ﴾[سورة إبراهيم:٣٤]، وحق هذه النعم أن يؤدى شكرها، بصرف كل نعمة فيما يرضي الله تعالى من محابه في الطاعات، أو في المباحات على الأقل، وإلا كان كافرا بتلك النعم وذلك يوجب له العقاب الأليم كما قال سبحانه: ﴿ وإذ تأذَّن رُّبكم لئِن شكرتُم لأزيدنَّكم ولئِن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧] .

وذلك لأن كفران نعمه سبحانه وتعالى يدل على عدم رضا الكافر لها عن المولى جل وعلا،وعلى سوء طويّته نحوه سبحانه، وقد جعل الشكر دليل رضاه عنه وعن نعمه، ولذلك كان يحب المدح من عباده وإن لم يكن له محتاجا،كما جاء في الحديث:

"لا أحَد أغيرُ من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيءَ أحبُّ إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه" (١) .

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام ٧٢/٦، وفي تفسير سورة الأعراف ٧٤/٦، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومسلم في اللعان برقم ١٤٩٩من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري .

تَمثُّل خلُق الشُّكْر في النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد سبقت الإشارة إلى حال أنبياء ا لله تعالى من هذا الخلق العظيم، من أنهم فيه على الكمال والتمام بدلالة ثناء القرآن الكريم على بعضهم به، وأن ذلك الثناء يعمهم جميعا لما كانوا عليه من المعرفة لِآلآء ا لله والقيام بحق عبودية ا لله تعالى قياما ليس بعده قيام .

ونبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم ممن يشمله ذلك الثناء العظيم شمولا أوليا، لأنه كان على نهجهم في كل كمال خلقي وسلوك رباني كما أمره ا لله تعالى بذلك بقوله: ﴿ ..أولئك الّذين هدَى ا لله فبِهداهم اقْتدِه ﴾[سورة الأنعام:٩٠] .

ومع ما يعنيه هذا الاقتداء من المتابعة في كل كمال، وما يعنيه حال النبي صلى ا لله عليه وسلم من كمال الامتثال، وما كان عليه من تمام الكمال في معالي الأخلاق ومحاسن الأفعال سجية منه وطبعا، مع ذلك كله تجد القرآن الكريم يحمل إليه توجيها للثبات على هذا الخلق العظيم فيقول له: ﴿ بل ا للهَ فاعبدْ وكُن من الشَّاكرين ﴾[سورة الزمر:٦٦]، فكم يكون ثبات النبي صلى ا لله عليه وسلم على هذا الخلق مع هذا التوجيه الخاص إضافة إلى كل ما تقدم ؟ .

لئن ذهبت النفس في تخيُّله كل مذهب فلن تستطع أن تتصوره أكمل تصور ما لم تقف على بيان الصحابة رضي ا لله عنهم لما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من الكمال في هذا الخلق،وذلك مثل ما جاء من حديث أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها قالت:

١- "كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تفطَّر رجلاه، فقالت : يارسول ا لله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ياعائشة: أفلا أكون عبدا شكورا" (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، ترجمة باب قيام النبي صلى ا لله عليه وسلم الليل ٦٣/٢، ومسلم في صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم ٢٨٢٠ واللفظ لمسلم .

٢- وفي رواية عنها قالت: "إن نبي ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة رضي ا لله عنها: لم تصنع هذا يارسول ا لله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا" قالت : فلما كثر لحمه صلى جالسا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع"(١) .

٣- ومثل ما جاء عن المغيرة بن شعبة(٢) رضي ا لله عنه قال: "قام النبي صلى ا لله عليه وسلم حتى ورمت قدماه، فقالوا: قد غفر ا لله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: "أفلا أكون عبدا شكورا"(٣) .

فانظر يارعاك ا لله إلى مبلغ شكر النبي صلى ا لله عليه وسلم ربه جل وعلا على جزيل نعمائه عليه بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، تجد نفسك تعجز عن القيام بنحوه، إذ قام متهجدا في الليل حتى تفطرت وتشققت قدماه من طول القيام، بحيث شق ذلك على أصحابه الكرام، وشفقوا عليه صلى ا لله عليه وسلم وحاوروه في أن يخفف عن نفسه، ظنا منهم أن طول العناء في القيام إنما يكون طلبا لمغفرة الذنوب وأن من تحققت له المغفرة غير محتاج إلى ذلك العناء. فبين لهم النبي صلى ا لله عليه وسلم "أن هناك طريقا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئا، فيتعين كثرة الشكر على ذلك"(٤)،وقال لهم: أفلا أكون عبدا شكورا ؟!

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح،باب قوله تعالى:﴿ ليغفر لك ا لله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ١٦٩/٦،ومسلم في صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم ٢٨٢٠، واللفظ لمسلم.

(٢) ابن مسعود بن معتب الثقفي صحابي مشهور، أسلم قبل الحديبية، وشهد مع النبي صلى ا لله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وولي البصرة، وكان من دهاة العرب المشهورين، مات سنة ٥٠ هـ، رضي ا لله عنه. انظر: الإصابة ٤٥٢/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي صلى ا لله عليه وسلم الليل ٦٣/٢، ومسلم في صفة القيامة برقم ٢٨١٩ .

(٤) فتح الباري ١٨/٦ نقلا عن القرطبي .

أو أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟! والمعنى: "أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرا فكيف أتركه؟" (١) ، ولم يرد أن يكون شاكرا فقط، وإنما أراد أن يكون شكورا، أي كثير الشكر لله جل وعلا.

فعرفوا أن نعمة الله تعالى تستوجب مزيد الشكر عليها، لا أن تقابل بالفتور والخلود إلى الراحة، وبهذا نعلم مدى شعوره صلى الله عليه وسلم بعظم نعمة الله تعالى عليه وما ينبغي عليه من الاجتهاد في أداء شكرها.

وهذا ضرب من ضروب شكر الله تعالى على نعمائه، ولم يقتصر شكره صلى الله عليه وسلم على هذا الضرب بل كان يشكر الله تعالى بكل حواسه وجوارحه شكرا يليق بجلائل نعمائه في كل حال من أحواله في مقابل كل نعمة تلابسه.

٤- "فكان إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خر ساجدا شاكرا لله تعالى"(٢) .

وإذا أكل أو شرب حمد الله وشكره كما أخبر عن نفسه حينما عرض عليه ربه ليجعل له بطحاء مكة ذهبا فقال :

٥- "لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك"(٣) .

وكان من شكره لله تعالى على طعامه أن يقول :

---

(١) فتح الباري ١٨/٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في سجود الشكر برقم ٢٧٧٤ ، والترمذي في السير، باب ما جاء في سجدة الشكر برقم ١٥٧٨ ، وابن ماجة في الإقامة ٤٤٦/١، من حديث أبي بكرة، وقال الترمذي عنه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، يعني لحال بكار بن عبد العزيز، فإنه صدوق يهم كما في التقريب برقم ٧٣٥ ولكن للحديث شواهد تقويه. انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٦٦٧ - ٦٦٨، وحسنه الألباني في تعليقه على المشكاة ٤٧٣/١ برقم ١٤٩٤ وذكره النووي في القسم المحتج به من خلاصة الأحكام من أمهات السنن وقواعد الإسلام ١١٠/ب .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه برقم ٢٣٤٧ ، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وقال عنه الترمذي: يضعف في الحديث، وفي التقريب برقم ٤٨١٧: ضعيف من السادسة .

٦- "الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه غير مَكفيٍّ ولا مودَّع(١) ولا مستغنى عنه ربنا"(٢).

٧- ويقول: "الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له مَخرجا"(٣) .

شكره صلى الله عليه وسلم على النعم المسداة لإخوانه من الأنبياء :

ولقد كان من كمال شكره عليه الصلاة والسلام أن يشكر الله تعالى حتى على النعم التي أولاها الله إخوانه الأنبياء، فكان يرى أن ذلك من نعمه عليه، وذلك لما بين النبيين من لُحمة العلاقة بينهم، التي عبر عنها بقوله: ".. الأنبياء إخوة أبناء عَلَّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"(٤) .

لذلك كان يشكر الله تعالى على هذه النعمة شكرا بليغا كما دل عليه أمره صلى الله عليه وسلم بصيام يوم عاشوراء اليوم الذي نجَّى الله تعالى فيه موسى وأهلك فرعون وقومه .

١ ـ فقد"قدم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم

(١) أي: غير متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده، جامع الأصول ٣٠٨/٤، والنهاية ١٦٨/٥، كلاهما لابن الأثير .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه ١٠٦/٧، وأبو داود في الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم برقم ٣٨٤٩، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم برقم ٣٨٥١، وابن حبان في صحيحه ٣٢٦/٧ الإحسان من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وإسناده صحيح .

(٤) متفق عليه ، تقدم تخريجه ص ٩٣ .

صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا أحق بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه"(١) .

٢-وفي رواية قالوا: "هذا يوم عظيم، وهو يوم نجّى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون، فصام موسى شكرا لله، فقال: "أنا أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه"(٢) .

٣- وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ سورة "ص" فإذا أتى على قوله تعالى: ﴿ وظنَّ داودُ أنَّما فتنَّاه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعا وأناب ﴾[سورة ص:٢٤] خر ساجدا لله تعالى ويقول : "سجدها داود توبة ونسجدها شكرا" (٣) .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكر الله تعالى على نعمائه في كل أحيانه وعلى كل أحواله بأقواله وأفعاله، على نعمه عليه، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين.

وذلك دليل على مكانة هذا الخلق العظيم في نفسه بحيث أصبح الشكر لله تعالى مطلبا له، يبغي وراءه حتى يجد مناسبة لفعله بادر إليه مسرعا .

ابتهاله صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى في أن يوفقه لشكره :

ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الشكر لله تعالى، فإنه مع ذلك كان يرى نفسه أنه لم يؤد كامل الشكر لله تعالى، وذلك بحسب مقامه العظيم عند الله جل

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام عاشوراء ٥٧/٣، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء برقم ١١١٣٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وهل أتاك حديث موسى .. ﴾ ١٨٦/٤، من حديث ابن عباس أيضاً .

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ١٥٩/٢، والدار قطني في سننه ٤٠٩/١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٩/٢ إلى ابن السكن، قال: وقد صححه، وتبعه الألباني في تعليق المشكاة رقم ١٠٣٨، ٣٢٦/١، فصححه .

وعلا، فكان لذلك يبتهل إلى الله تعالى ويدعوه أن يوفقه لشكره على الدوام، وكان من دعائه وابتهاله في ذلك قوله :

"رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي(١)، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي(٢)، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة(٣) صدري"(٤) .

إلى غير ذلك من شكره لله تعالى وحمده إياه على نعمائه، مما عنيت بذكره كتب الحديث عامة، وكتب الأذكار خاصة .

حثه أمته على التخلق بهذا الخلق :

وكما كان عليه الصلاة والسلام يقوم بواجب الشكر بنفسه على ذلك النحو فقد كان يحث أمته على التحلي به ويبين لهم فضله، ليكونوا مؤدين لهذا الخلق على وجهه كما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وهو قول لسائر أمته :

١- "يامعاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول:

---

(١) مكر الله: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة، وهي مردودة . النهاية ٤/٣٤٩ .

(٢) أي : إثمي .

(٣) السخيمة : الحقد في النفس .

(٤) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٥١٠، والترمذي في الدعوات برقم ٣٥٥١، وابن ماجة في الدعوات، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٣٠، وأحمد في المسند ١/٢٢٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال عنه الترمذي : حسن صحيح، واللفظ للثلاثة الآخرين، ولفظ أبي داود قريب منه .

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"(١) .

٢ـ وقال أيضا: "ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة"(٢) .

ولما كان كثير من الناس قد لا يدرك مكانة هذا الخلق وعظيم فضله وأجره عند الله تعالى، بين النبي صلى الله عليه وسلم لأمته هذه المكانة ليحثهم بذلك على الحرص في التحلي به، وذلك في أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم:

٣ ـ "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"(٣) .

ومنزلة رضوان الله تعالى على العبد قد علم مبلغ كنهها، وكمال فضلها في مبحثه، حيث علم هناك أن رضا الله على العبد هي غاية ما يتمناه المرء من ربه في الدنيا والآخرة، وأنها أكبر نعمة ينعم بها الله تعالى على عباده في الآخرة(٤) .

٤ـ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "الطاعم الشاكر كالصائم الصابر"(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار ١٥٢٢، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء ٥٣/٣، وأحمد في المسند ٢٤٥/٥، ٢٤٧، من حديث معاذ وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة برقم ٣٠٩٤، وابن ماجه في النكاح، باب أفضل النساء برقم ١٨٥٦، وأحمد في المسند ٢٧٨/٥، ٣٦٦، واللفظ لهما من حديث ثوبان رضي الله عنه، وحسنه الترمذي، مع ما ذكر من الانقطاع، حيث سأل محمد بن إسماعيل عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان، فقال: لم يسمع منه، ولعل ذلك نظرا لشواهده التي أشار إليها الحافظ ابن حجر في الأحاديث العاليات رقم ١٥، واعتمد عليها الألباني فصحح الحديث في سلسلته الصحيحة رقم ٢١٧٦، ٢٠٨/٥ .

(٣) رواه مسلم ، وتقدم تخريجه ص ٧٦.

(٤) انظر ص ٧٠ .

(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٣ برقم ٢٤٨٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجة في الصيام،برقم ١٧٦٥، وأحمد في المسند ٢٨٣/٢، وابن حبان ٢٦٧/١ من الإحسان، والحاكم =

والطاعم الشاكر هو: الحسن الحالِ في المطعم، إذا طعم شكر الله تعالى على إنعامه عليه .

وفي هذا من البيان ما لا مزيد عليه، حيث إن منزلة الصائم الصابر على الجوع والعطش في الهواجر معلومة، فقد قال الله تعالى: ﴿ إنَّما يوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب ﴾[سورة الزمر:١٠] ، وقد جعل الله تعالى "للطاعم إذا شكر ربه على ما أنعم به عليه ثواب الصائم الصابر"(١) .

فإذا كان الشاكر لله تعالى ينال هذه المرتبة، فحريٌّ بكل أحد أن لا يفرط في هذا الخلق العظيم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك في أوج الكمال كما علمت مما تقدم ذكره من الأحاديث الدالة على شكره لله تعالى عند كل طعام يأكله.

علامات لمن يتحلى بهذا الخلق العظيم :

ولما كان هذا الخلق تتنازعه الدعاوى، لكونه قد لا يطلع عليه أحد إذ كان قلبيا، أو قد يجادل المرء فيه ويدعي أنه من أهله، أو غير ذلك مما يُلبِّس به على الناس .

لما كان الحال ما ذكر، بين النبي صلى الله عليه وسلم للأمة علامات يميزون بها الشاكر من غيره، ومن تلك العلامات :

أ ـ شكر الناس على إحسانهم إلى المرء، فإن من كان ذا خلق رفيع يكافئ على ذلك بالشكر والثناء الحسن، فإن لم يفعل ذلك مع ما يقتضيه حال المحسنين من التشوف إلى الثناء والشكر، فهو لله أجحد، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله :

= في المستدرك ١٣٦/٤، ووالبخاري في الأطعمة ١٠٦/٧ ترجمة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٦٥٥ ، وقال عنه الترمذي : حسن غريب .

(١) فتح الباري ٢٨٧/٢٠ .

١ - "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" (١) .

وندبهم إلى فعل ذلك حتى يحققوا لأنفسهم هذا الخلق فينالوا أجره، فقال عليه الصلاة والسلام :

٢ - "من أعطي عطاء فليجز به إن وجد، وإن لم يجد فليثن به، فإن من أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور"(٢) .

وفي رواية :

٣ - من أُبلِيَ بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره"(٣) .

ب - شكر القليل من النعم؛ لأن الذي يشكر القليل يشكر الكثير من باب أولى، ومن لم يشكر القليل، كان ذلك دليلا على أنه لا يشكر الكثير؛ لأنه لا يملك هذا الخلق من أساسه .

جـ - التحدث بنعمة الله تعالى التي يوليها العبد؛ لأن ذلك دليل سروره، ورضاه عن ربه جل وعلا، وعن قسمته له من قليل أو كثير، فمن لم يتحدث بذلك مع ما يرى عليه من النعم كان ذلك جحوداً منه لها، وقد دل على هذين الأمرين قوله صلى الله عليه وسلم :

٤ - "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير،ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في شكر المعروف برقم ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك برقم ١٩٥٤، وأحمد في المسند ٢/٢٥٨،٢٥٩،٣٠٣،٣٨٨.. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وجاء من حديث أبي سعيد وغيره .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب شكر المعروف برقم ٤٨١٣، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه برقم ٢٠٣٤، وابن حبان برقم ٢٠٧٣، من حديث جابر بن عبد الله، واللفظ للأولين، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٣) أخرجها أبو داود في الأدب، باب شكر المعروف برقم ٤٨١٤، وإسناده صحيح فهو متابع للرواية الأولى وجابر لها، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ٢/١٨١-١٨٣ برقمي ٦١٧،٦١٨ .

والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب.."(١)

وبهذا يستطيع المرء أن يعرف المتحلي بهذا الخلق من غيره، إذ كل إنسان لا بد أن تجري عليه مثل هذه العلامات باستمرار، فإذا كان الإنسان شاكراً لمعروف غيره على القليل والكثير، ويتحدث بنعمة الله تعالى ويظهرها، فهو من أهل هذا الخلق، ومن لم تبد عليه شيء من هذه العلامة يكون في دعواه على تحليه به إن ادعاه نظر لا يخفى، والله أعلم .

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٨/٤، ٣٧٥، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٠/٥-٢٢١ إليه وإلى البزار والطبراني، قال: ورجالهم ثقات .

المبحث الرابع

(المحبَّة)

يقال في اللغة: أحببتُ الشيء فهو مُحَبٌّ، واستحببته إذا استحسنتَه، وتحببتُ إليه: توددت(١)، مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه، سميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب(٢) .

وفي الاصطلاح: هي "إرادة ما تراه أو تظنه خيرا" أو تقول: هي "ميل النفس إلى الشيء الملائم"(٣) .

فهذا أجمع ما قيل في تعريف المحبة من حيث هي، وقيل فيها أقوال لا تزيدها إلا غموضا، ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: "لا تحد المحبة بحد أوضح منها ـ يعني لفظ "المحبة" ـ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من "المحبة"،قال: وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات"(٤) .

منزلة خلق المحبة في الأخلاق الإيمانية :

يعد خلق المحبة من أجل الأخلاق الإيمانية؛ لأنها أصل كل فعل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، وكذا الترك لا يكون إلا عنها، ولهذا كان رأس الإيمان؛ الحُبُّ في الله والبغض في الله، وكان من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد

---

(١) الصحاح للجوهري ١٠٦/١، والمصباح المنير للفيومي ١٢٧/١ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ١٨ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٠٥، والذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٦٣ .

(٤) مدارج السالكين ٩/٣، وقد ذكر لها ابن القيم في روضة المحبين ص ١٩ـ٢٠ ومدارج السالكين ١١/٣ـ١٦ حدودا كثيرة .

استكمل الإيمان)(١) كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق :

ولأجل تلك المكانة نجد أن العناية بها في القرآن فائقة، حيث لم يـزل القـرآن الكريـم يتحدث عنها في آياته الكريمة بلفظها المشهور،وبألفاظها المرادفة الأخرى كالهوى،والشغف والخلة والمودة بحيث نافت مرات ذكرها بلفظها على المائة، منها نحـو النصـف في المعنـى الذي نريده من المحبة باعتبارها خلقا إيمانيا عظيما، وهذه العناية تـدل علـى عظيـم خطـر هذا الخلق وكبير شأنه في الأخلاق، وقد كان ذكره لها على سبيل الحـض عليهـا والتنويـه بأهلها، وعلامات المحبة من عدمها، وماينبغي أن يحب مما يكره، ومحبة الله تعـالى لبعـض عباده .

الحض على التحلي بخلق المحبة لله تعالى :

ولما كانت المحبة هي أصل كل فعل ومبدؤه كان: (جماع القرآن هو الأمـر بمحبـة الله تعالى ولوازمها والنهـي عـن محبـة غـيره سـبحانه ولوازمهـا، وضـرب الأمثـال والمقـاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين)(٢) .

وذلك بمثل قولـه تعـالى: ﴿ قـل إن كـانَ آبـاؤُكم وأبنـاؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كسادَها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيله فـتربَّصوا حتـى يـأتيَ اللهُ بـأمره والله لا يَهـدي القـوم الفاسقين ﴾[سورة التوبة:٢٤] .

فإن هذه الآية تحمل وعيدا شديدا على تقديم محبة أي شيء من أمـور الدنيـا علـى محبـة

---

(١) انظر: المحبة لابن تيمية ص ٧-٩، وروضة المحبين لابن القيم ص ٥٧-٥٩ .

(٢) انظر: المحبة لابن تيمية ص ١١ .

ا لله تعالى ورسوله صلى ا لله عليه وسلم، وأنه يجب إيثارهما في المحبة على من سواهما كائنا ما كان .

وهذه المحبة تقتضي إيثار طاعتهما واتباع أمرهما، على إيثار مَن ذكر ا لله من الأقارب والأموال وغيرها مما قد تريد النفس تقديمها على ا لله ورسوله صلى ا لله عليه وسلم، كما قال ا لله تعالى: ﴿ قل إنْ كنتُم تُحِبُّون ا للهَ فاتبعوني يحبِبْكم ا للهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكم﴾[سورة آل عمران:٣١] .

وإن لم تكن مع المحبة متابعة فهي دعوى مجردة كما قالوا:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه　　هذا لعمروى في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته　　إن المحب لمن يحب مطيع (١)

وهذه المحبة يقتضيها الإيمان، فمن كان مؤمنا أوجب عليه إيمانه أن يتحلى بها كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ومن الناسِ من يتَّخذ من دونِ ا لله أنداداً يحبونهم كحبِّ ا لله والذين آمنوا أشدُّ حبّاً لله ﴾[سورة البقرة:١٦٥]، وكذا قوله سبحانه: ﴿ ياأيُّها الَّذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينِهِ فسوفَ يأتي ا للهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبونَه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل ا للهولا يخافون لومةَ لائم ذلك فضلُ ا لله يؤتيه من يَشاء وا للهُ واسع عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] .

فلآية الأولى فيها بيان لحال المؤمنين وصفتهم، من أنهم أشد حبا لله من محبة أهل الأنداد لأندادهم، وأولئك قد عرفوا بالتفاني في محبتها حتى أنهم كانوا يدافعون عنها دفاع المستميت ويعادون من أجلها الأقارب والأباعد، كما هو معلوم من موقفهم من دعوة النبي صلى ا لله عليه وسلم، ولكن شأن المؤمنين أن يكونوا أشد حبا لله تعالى من أولئك لأندادهم كما وصفهم ا لله تعالى بذلك.

---

(١) عزى الألوسي في روح المعاني ١٢٩/٣/١ هذين البيتين للورَّاق، ولعله محمود بن حسن المتوفى سنة ٢٢٥هـ، الذي كان شاعرا، وكان أكثر شعره في المواعظ والحكم، كما قال الزركلي في الأعلام ١٦٧/٧، ونُسبا إلى أبي العتاهية و لم أجدهما في ديوانه .

والآية الثانية آذنت من يرغب عن دين الإسلام بدين آخر سواه أنه غير مأسوف عليه وأن ا لله تعالى يستبدل به قوما مؤمنين، شأنهم المحبة لله تعالى ومحبة ا لله تعالى إياهم وهم أولى بهذه المنحة منه وأحق.

التنويه بأهل هذا الخلق :

وكلا الآيتين مع ما فيهما من الإخبار عن حال المؤمنين وشأنهم، فإنهما تتضمنان أيضا تنويها عظيما بالمؤمنين الذين هم من هذا الخلق بمكانة كما وصفتهم الآيتان بذلك على سبيل المدح والامتنان حتى نالوا بذلك محبة ا لله تعالى جزاء لمحبتهم إياه سبحانه.

ومحبة ا لله تعالى إذا وجبت للمؤمن فضلا وكرما أنالته منتهى الأمال، وبلغته أقصى المراتب العالية في الدنيا والآخرة؛ لأنها تعني إنعام ا لله تعالى عليهم بالغفران كما يدل عليه قوله تعالى لمن ادعى هذه المحبة وهو ليس من أهلها: ﴿ وقالتِ االيهودُ والنَّصارى نحنُ أبناءُ ا للهِ وأحباؤُه قل فِلمَ يعذِّبكم بذنوبِكم ﴾[سورة المائدة:١٨]، والمعنى: لوكنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فِلم أعدَّلكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ فإن المحبوب لا يعذب بل يغفر له ويكرم كما قالوا :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ثم رد ا لله تعالى ذلك الادعاء العريض بقوله: ﴿ بل أنتم بشرٌ مِمَّن خلقَ يغفرُ لِمَن يشاء ويُعذِّبُ من يشاءُ ﴾ يعني: بل أنتم كسائر الناس الذين لم يكونوا في هذه المرتبة، فمنهم من يغفر له، ومنهم من يعذب .

وقد أنال ا لله تعالى هذه المكرمة العظيمة والمنحة الإلهيـة الجسيمة بعض عباده الذين تحلوا بمكارم الأخلاق كالإحسان والتوبة والطهارة . والتقوى والصبر والتوكل والقسط والمتابعة للنبي صلى ا لله عليه وسلم، كما تحدثت عن ذلك آيات عدة من كتاب ا لله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿ إن ا للهَ يحبُّ المحسنين ﴾[سورة البقرة:١٩٥]، ﴿إن ا للهَ يحبُّ التَّوابينَ ويحبُّ المتطهِّرين﴾[سورة البقرة:٢٢٢]، ﴿ إن ا لله يحبُّ المتقين ﴾[سورة آل عمران:٧٦]،

﴿ واللهُ يحبُّ الصَّابرين ﴾ [سورة آل عمران:١٤٦]، ﴿ إن اللهَ يُحبَّ المتوكِّلين ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]، ﴿ إن اللهَ يُحبُّ المقسِطين ﴾ [سورة المائدة:٤٢]،﴿ قل إن كنتُم تحبّونَ الله فاتبعوني يحبِبْكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكم ﴾[سورة آل عمران:٣١]، إلى غير ذلك من الآيات، كما حرّمها الكثير ممن تخلى عن هذه المكارم الأخلاقية، وتحلى بنقائضها من الرذائل الأخلاقية كالاعتداء والفساد والكفر والظلم والتكبر والخيانة والإثم والإسراف... وغير ذلك كما نص على ذلك القرآن الكريم في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿ إن الله لا يُحبُّ المعتدين ﴾[سورة البقرة:١٩٠]،﴿ والله لا يُحبُّ الفساد ﴾[سورة البقرة:٢٠٥]، ﴿ واللهُ لا يُحبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيم ﴾[سورة البقرة:٢٧٦]، ﴿ والله لا يُحبُّ الظَّالمين ﴾[سورة آل عمران:٥٧]، ﴿ إن الله لا يُحبُّ من كان مختالاً فخوراً ﴾[سورة النساء:٣٦]، ﴿ إن الله لا يُحبُّ من كان خوَّاناً أثيماً ﴾[سورة النساء:١٠٧]، ﴿ إنه لا يحبُّ المسرِفين ﴾[سورة الأنعام:١٤١] . إلى غير ذلك .

ونفي محبته سبحانه وتعالى عنهم تعني عدم رضاه عنهم لتحليهم بما يوجب لهم ذلك من مساوىء الأخلاق، وذلك إشعار لهم بالعذاب والنكال، أعاذنا الله من ذلك وجعلنا من أهل محبته ورضوانه .

علامات المحبة لله تعالى ومحبة الله تعالى للعبد :

ولما كان هذا الخلق في أصله أمراً قلبيا، وكانت الدعاوى قد تتنازعه حيث لا سلطان لأحد غير الله على القلب، فيكشف أمره، فتبقى الدعوى محتملة للصدق والكذب، كان لا بد من علامات وأدلة تبرهن على صحة المدعي، فيشهد له بذلك أو يكذب، وقد فصل القرآن الكريم علامات المحبة لله تعالى، فجعل من ذلك: اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، والذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيله، وعدم الخوف من لوم لائم، ومعاداة أعدائه ...

أما الاتباع لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتُم تُحبّون الله فاتبعوني يحببْكم الله ﴾[سورة آل عمران:٣١]، فإن هذه الآية تسمى آية المحبة .

"قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل آية المحبة ﴿ قل إن كنتم ...﴾(١)
ولذلك قال الحافظ ابن كثير: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" (٢) .

وأما العلامات الأخرى: فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينِه فسوفَ يأتي الله بقومٍ يُحبّهم ويحبونَه أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرين يُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لَومةَ لائم ذلك فضلُ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله واسعٌ عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] .

فإن هذه الآية تذكر لأهل هذا الخلق الذي بادلهم الله تعالى به، فأحبهم كما يحبونه: أربع علامات :

الأولى : الذلة على المؤمنين، وهي كناية عن الرقة والرحمة والشفقة عليهم .

الثانية : العزة على الكافرين، وهي الشدة والغلبة على أعدائهم وأعداء الله تعالى من الكفرة .

الثالثة : الجهاد في سبيله بالنفس واليد والمال واللسان والقلم .

الرابعة : أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، بمعنى أنهم لا يبالون بأي لوم يوجه إليهم من أي جهة كانت .

فهذه دلائل المحبة لله تعالى، فمن ظهرت فيه هذه الدلائل كان صادقا في دعواه، وكان ذلك دليلا على محبة الله تعالى له، وهذا هو محل الفضل والفوز في الحقيقة، إذ

---

(١) مدارج السالكين ٢٢/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١، والحديث أخرجه البخاري في البيوع، باب النجش.. ٩١/٣، ترجمة وتعليقا بصيغة الجزم، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم ١٧١٨ من حديث عائشة رضي الله عنها .

ليس الشأن في أن يحبوا الله تعالى، بل في أن يحبهم ، ولا يتم لهم ذلك إلا إذا تحققوا بما يقتضي محبة الله تعالى كما دل عليه الشرط والجزاء في قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتُم تُحبُّون الله فاتَّبعوني يُحبِبْكم الله ﴾[سورة آل عمران:٣١] .

محبة المؤمنين بعضهم بعضاً :

وكما تحدث القرآن الكريم عن خلق المحبة في مقام الله تبارك وتعالى، فقد تحدث عنها في مقام المؤمنين أيضاً، وقد كان حديثه عنها في هذا المقام بأسلوب الإخبار لإفادة أنه خلق يقتضيه الإيمان من أتباعه بمجرد إيمانهم، وذلك لما بينهم من رابطة قوية هي أقوى من كل رابطة عرقية أو نسبية، وهي رابطة الإيمان التي جعلتهم أخوة متحابين .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الخلق في هذا المقام في آيات كثيرة تدل عليه وإن لم يكن بمدلول اللفظ، فبلازمه .

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المتحابين من المؤمنين: ﴿ فسوفَ يأتِي الله بقومٍ يُحبُّهم ويحبونَه أذلةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين ﴾[سورة المائدة:٥٤]، وذلة المؤمنين بعضهم لبعض، ليست ذلة قهر وخضوع، إنما هي ذلة محبة وإخاء كما قال تعالى في آية أخرى في وصفهم: ﴿ أشداءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بينهم .. ﴾[سورة الفتح:٢٩]، والتراحم فيما بينهم لا يدفعه إلا كمال المحبة لما علمت أن المحبة أصل كل فعل ومبدؤه، ولذلك لمَّا تنتفي الأخوة الإيمانية، لا تجد هذه المحبة عند المؤمنين، ولو كانت بين أقرب الأقارب من آباء وأبناء وإخوان ونحوهم كما قال تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنونَ با للهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ الله وَرسولَهُ ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أولئِك كتبَ في قلوبِهم الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ... ﴾[سورة المجادلة:٢٢]، والمعنى: لا يكون هذا الحال من الموادة لأعداء الله بين المؤمنين، فمن كان مؤمنا لا تجد منه مودة إلا للمؤمنين، أما غيرهم ممن يحاد الله ويعاديه فلا يكون بينه وبينه مودة، ولو كان من أقرب الأقربين إليه؛ لأن علاقة الإيمان أقوى عنده من علاقة النسب، كما قال تعالى: ﴿ إنَّما المؤمنون إخوةٌ ﴾ [سورة الحجرات:١٠]، وهذا حصر لصفات المؤمنين؛

لأنهم "ينتسبون لأصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية"(١)، وهذه الأخوة الموجبة لتلك الحياة الأبدية توجب التحاب والتراحم فيما بينهم، ولقد كان من شعورهم بهذا الإخاء الذي هو من آثار تلك المحبة المستوحاة من الإخاء الإيماني ذلك التعاطف والتراحم الذي كان بين المؤمنين من الأنصار والمهاجرين، والذي تحدث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ والَّذين تبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم ولا يَجدونَ في صدورهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤثِرُون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلِحون * والَّذين جاءوا من بعدِهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخوانِنا الَّذين سبقونَا بالإيمان ولا تجعل في قُلوبنا غِلاً لِلَّذين آمنوا ربَّنا إنَّك رؤوف رحيم ﴾[سورة الحشر:٩،١٠] .

ومن تأمل في هاتين الآيتين يعلم مدى المحبة التي تكون بين المؤمنين والتي تحققت في الرعيل الأول من المسلمين.

فهل يعود المؤمنون اليوم إلى أخلاق إيمانهم، ويقتدون بصالح أسلافهم ؟ ذلك ما نرجوه من الله تعالى وهو المأمول أن يحقق ما نرجوه ويرجوه كل مؤمن صادق الإيمان .

---

(١) تفسير البيضاوي المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ص ٦٨٤ .

تمثُّلُ خُلُقِ المحبَّةِ
في النَّبيِّ صَلَّى ا لله عليه وَسلَّمَ

وإذا كان خلقُ المحبة لله تعالى والمؤمنين بتلك المكانـة العظيمـة والمنزلـة الكريمـة، فـإن أولى الناس تحقيقاً لها، وأجلهم تحليا بها هو سيدنا محمد بن عبد ا لله صلوات ا لله وسـلامه عليه، لمـا كان عليه من عظمة الأخـلاق والكمال في كـل مـقـام سـني يقـرب إلى ا لله تعالى .

ولما كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من هذا الخلـق في ذروة الكمـال، جعـل ا لله تعالى اتباعه صلى ا لله عليه وسلم دليل صدق على محبة ا لله تعالى، فمن كان يريد التحلـي بهذا الخلق، فعليـه أن يترسـم خطـا رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم، والاقتـداء بـه في سلوكه وأحواله، من أقواله وأفعاله، كما قال سبحانه آمرا لـه صلـى ا لله عليـه وسـلم أن يبلغ أمته: ﴿ قل إن كنتُم تُحِبّونَ ا للهَ فاتَّبعوني يُحبِبْكم ا للهُ وَيَغفرْ لكم ذُنوبَكم وا للهُ غفورٌ رحيم ﴾[سورة آل عمران:٣١] .

وكَونُ اتباع النبي صلى ا لله عليه وسلم دليلُ صدق المحبة ومعيارها، يدل علـى أن كـل ما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال والأفعال يعـبر عـن محبـة ا لله تعـالى ويـدل عليها، وذلك ما كان يعبر به النبي صلى ا لله عليه وسلم عن نفسه حيث كـان يقـول:

١ ـ "ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليـلا، ولكـن أخـوة الإسـلام ومودته .."(١) .

٢ ـ وفي حديث آخر يقول: "أبرأ إلى كل خليل من خُلتّـه، ولـو كنـت متخـذا خليـلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا، وإن صاحبكم خليل ا لله"(٢) .

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ١٢٢ .

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ١٢٢ .

٣ ـ وفي حديث آخر قال: "إني أبرأ إلى الله تعالى أن يكون لي منكم خليل، وإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا .."(١) .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعبر عن محبته لربه بـ"الخلة"، وهو الوصف الذي يفيد توحيد المحبة للمحبوب وهي رتبة لا تقبل المشاركة؛ لأنها تعني أن المحبة قد تخللت القلب فصارت خِلاله، أي في باطنه،وكذا تخللت جميع أجزاء الروح كما قالوا:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبـذا سمي الخليل خليلا(٢)

قال ابن الأثير: "وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأن خلته كانت مقصورة على حب الله تعالى فليس فيها لغيره متسع، ولا شِركة من محاب الدنيا والآخرة، قال: وهذه حال شريفة لا ينالها أحد بكسب واجتهاد، فإن الطباع غالبة، وإنما يخص الله بها من يشاء من عباده مثل سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه"(٣) .

ولهذا قالوا: إن مرتبة الخُلَّة فوق مرتبة المحبة، وقد اجتمعا في النبي صلى الله عليه وسلم(٤) .

٤ـ وكان يدل على مبلغ هذه المحبة فيه صلى الله عليه وسلم كل ما مر من علامات المحبة من الطاعة لله تعالى بما لا مزيد عليها، والتواضع والرأفة والرحمة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيل الله لا يخاف في الله لومة لائم كأكمل ما تكون هذه الخلال وأوفاها،كما سيأتي بيانها جميعا في مباحثها الخاصة بها، ومضى ما يدل على

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه برقم ٢٣٢٨ من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) انظر روضة المحبين لابن القيم ص ٤٧-٤٩ .

(٣) النهاية ٧٢/٢ .

(٤) انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي المتوفي سنة ٩٤٢هـ، ٥٦٢/١، والعبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٥، وانظر أيضا الشفاء للقاضي عياض ٤١٢/١ .

ذلك من الطاعة في مبحث (الشكر)، وهي الحال الـتي تـترجم عـن المحبـة، والمقتضيـة لمكافئتها بمحبة ا لله جل جلاله، كما دل عليه قوله صلى ا لله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

".. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بـالنوافل حتـى أحبَّه، فـإذا أحببتُـه كنـت سمعـه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلـه الـتي يمشـي بهـا، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"(١) .

٥ـ ومع ما كان عليه صلى ا لله عليه وسلم من كمال المحبة لله تعالى والخلة له، فإنـه مـع ذلك كان يدعو ا لله ويقول :

« اللهم ارزقني حبك، وحب ما ينفعني حبـه عنـدك، اللهـم مـا رزقتـني ممـا أحـب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب"(٢) .

وهذا يدل على عظيم شغفه بمحبة ا لله تعالى، ورغبته في الاستمرار على تلـك المحبـة الكاملة،والازدياد منها إلى أن يلقى ربه تبارك وتعالى، وذلك لـما يـرى مـن أُنسـه بمحبـة ا لله تعالى، ولما يعلمه عن ربه من الجلال وكثير الإنعام الموجبات للمحبة طبعا .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع ١٣١/٨ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

والمراد من هذا الكلام كما قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكـم ص ٣٤٤: "أن مـن اجتهـد بالتقرب إلى ا لله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قرب إليه، ورقـاه مـن درجـة الإيمان إلى درجـة الإحسـان فيصير يعبد ا لله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلىء قلبه بمعرفة ا لله تعالى ومحبتـه وعظمتـه وخوفـه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا بعـين البصيرة .. قال: فمتى امتلأ القلب بعظمة ا لله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبـد شـيء مـن نفسه وهواه ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكـره، ولا يتحـرك إلا بـأمره، فإن نطق نطق با لله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، قال: فهذا هو المراد بقوله: "كنت سمعه الذي يسمع به ..الخ ا.هـ بتصرف .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات،باب رقم ٧٤ من حديث عبد ا لله بن يزيد الخطمي رضي ا لله عنه برقم =

محبة المؤمنين في الله تعالى :

وكما كان صلى الله عليه وسلم عظيم المحبة لله تعالى، فقد كان عظيم المحبة للمؤمنين في الله تعالى على ذلك النحو من الكمال، كما تدل على ذلك أقواله الشريفة في الحث على التحاب في الله والمرغبة فيه، والمبينة لفضله، وهي الأقوال التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بمدلولها في نفسه، وترجمت عنها أقواله لأمته، إذ لولا أنه صلى الله عليه وسلم كان كذلك لما عبَّر عن ذلك لسانه الشريف، حيث إنه لا يدل على فضل إلا كان أول الناس تحليا به ومبادرة إليه .

حثه على التحاب في الله:

أما حثه صلى الله عليه وسلم المؤمنين على التحاب في الله تعالى فهو أكيد، بلغ أن ناط به الإيمان والإسلام، وفي ذلك دليل على تلازم الإسلام والإيمان بالمحبة، وقد ورد ذلك في أحاديث منها :

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا[1] حتى تحابُّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم"[2] .

فترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم يخبر أن الإيمان الذي هو سبب لدخول الجنة،

= ٣٤٩١، والطبراني في الدعاء ١٤٥٥/٣ برقم ١٤٠٣، وإسناده حسن، وقال عنه الترمذي: حسن غريب.

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٣٦/٢: "هكذا هو في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة صحيحة" ا.هـ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٥٤ ، وأبو داود في الأدب، باب إفشاء السلام برقم ٥١٩٣ ، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في إفشاء السلام برقم ٢٦٨٩ .

لا يتحقق إلا بالتحاب بين المؤمنين، وذلك دليل على تلازم المحبة والإيمان، فمن ادعى الإيمان فعليه أن يحقق إيمانه بمحبة إخوانه المؤمنين؛ لأنه لا يكمل إيمانه ولا يصلح حاله إلا بذلك، إذ كيف يحقق محبته لإخوانه كما يحب لنفسه وهو لا يحبهم، وقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم إيمان من لم يفعل ذلك حيث قال :

٢ ـ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(١) .

وقد دلهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما يحصل به التحاب فقال: "ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم" وذلك لأن إفشاء السلام بين المسلمين على من عرف المرء ومن لم يعرف منهم "أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة، وتمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض"(٢) .

كما بين عليه الصلاة والسلام الصورة التي يجب أن يكون عليها المسلمون، والتي يحبها منهم ولهم فقال :

٣ ـ "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٣) .

فهكذا يصور النبي صلى الله عليه وسلم وحدة المسلمين وتلاحمهم المبنية على المحبة والرحمة لبعضهم بعضا، وفي هذا حث أكيد للمسلمين أن يحققوا الصورة التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم لواقعهم وحالهم حتى يتحقق فيهم وصف الإيمان والإسلام .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١١/١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه برقم ٤٥ .

(٢) شرح مسلم لنووي ٦٣/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ١٢/٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، ومسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم برقم ٢٥٨٦ ، واللفظ له .

الترغيب في المحبة في ا لله تعالى :

وقد كان صلى ا لله عليه وسلم يرغب في التحاب في ا لله تعالى فيبين ما لذلك من الفضل العظيم عند ا لله تعالى، وذلك بمثل قوله صلى ا لله عليه وسلم:

١ - "سبعة يظلهم ا لله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" وذكر منهم: "ورجلان تحابا في ا لله اجتمعا عليه وتفرقا عليه"(١) .

٢ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون ا لله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه ا لله منه، كما يكره أن يقذف في النار"(٢) .

٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن ا لله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي"(٣) .

٤ - كما بين لهم أن المحبة في ا لله تعالى توصل المرء إلى أعلى المنازل، وتجعله في مرتبة محبه إن كان من أهل المراتب العالية، وذلك بقوله صلى ا لله عليه وسلم لمن سأله عن الساعة، فأجابه النبي صلى ا لله عليه وسلم بقوله: "وما أعددت لها ؟" قال: لا شيء، إلا أني أحب ا لله ورسوله، فقال له النبي صلى ا لله عليه وسلم: "أنت مع من أحببت" .

قال راوي الحديث؛ أنس بن مالك رضي ا لله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى ا لله عليه وسلم: "أنت مع من أحببت" قال: فأنا أحب النبي صلى ا لله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٣٨/٢، من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة برقم ١٠٣١ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١٢/١، من حديث أنس رضي ا لله عنه، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال الإيمان برقم ٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل الحب في ا لله تعالى برقم ٢٥٦٦ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل عملهم"(١) .

٥ ـ وكان من كمال حرصه صلى الله عليه وسلم على التحاب في الله تعالى أن أمر من يُكِنُّ في فؤاده محبة لأخيه المؤمن أن يخبره بذلك حتى يبادله المحبة في الله تعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: "إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه"(٢) .

٦ ـ كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك بنفسه، وذلك كقوله لمعاذ بن جبل(٣) رضي الله عنه بعد أن أخذ بيده: "يا معاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"(٤) .

ولم ينفرد معاذ بهذه المحبة بل الأمة كلها كان لها ذلك الحظ من محبته صلى الله عليه وسلم، وقد تجلت محبته صلى الله عليه وسلم لأمته كلها في حرصه الكامل على نفعها وتيسير دينها ودلالتها على الخير كما وصفه الله تعالى بذلك حيث قال: ﴿ لَقَد جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٣٨].

وسيأتي إيضاح ذلك في مبحث (خلق الرحمة) من الباب الثالث إن شاء الله تعالى(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول الرجل : "ويلك" ٤٨/٨، وفي باب علامة الحب في الله ٤٩/٨، وأبواب أخر، ومسلم في البر والصلة، باب المرء مع من أحب برقم ٢٩٥٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إليه برقم ٥١٢٤، من حديث المقدام بن معديكرب، وأحمد في المسند ١٣٠/٤، وابن حبان ٣٨٩/١ الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٧١/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم ٤١٨، ٧٠٤/١ .

(٣) ابن عمرو بن عائذ الخزرجي الأنصاري، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، وشهد العقبة الثانية وبدرا وأحدا، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالفقه، وبعثه إلى اليمن واليا، وتوفي صلى الله عليه وسلم وهو فيها، ومات معاذ بالشام في طاعون عمواس سنة ١٨هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٣٤٧/٢، وتهذيب الأسماء واللغات ٩٨/٢ .

(٤) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٨٥.

(٥) انظر ص ٦٠٢

المبْحَثُ الخَامِسُ

(التّوبة والإنابة)

التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: تاب من ذنبه أي: رجع عنه، يتوب إلى الله توبا وتوبة ومتابا فهو تائب إذا رجع عن المعصية(١) .

وفي الاصطلاح: هي ترك الذنب على أجل الوجوه، ويقال أيضا هي: "ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة"(٢) .

وهذا التعريف جامع لما تتوقف التوبة عليه من الأركان كما سيأتي بيانه .

"والإنابة قريبة من التوبة لغة وشرعا"(٣)، قال الراغب: "الإنابة إلى الله الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل"(٤) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

والتوبة والإنابة من أجلِّ أخلاق القرآن الإيمانية ، لما يعنيانه من الرجوع إلى الحق والاعتراف بالذنب وانكسار القلب أمام حضرة الرب جل جلاله، وفي ذلك من الدلالة على زكاء النفس ما فيه .

ولهذا كانت "أول المقامات الإيمانية، ومبدأ طريق السالكين ومفتاح باب الواصلين

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٥٧/١، والصحاح للجوهري ٩١/١، والقاموس المحيط ٤٠/١، مادة (توب) .

(٢) مفردات القرآن للراغب ص ٧٦ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٧٠ .

(٤) مفردات القرآن ص ٥٠٨ مادة (نوب)، وفي القاموس المحيط ١٣٥/١: ناب إلى الله تاب، وفي مختار الصحاح ص ٦٨٤: أناب إلى الله تعالى : أقبل وتاب .

إلى رب العالمين"(١) وهي أيضا "أوسط تلك المقامات وآخرها، إذ التوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك"(٢).

عناية القرآن الكريم بالتوبة :

ولأجل المكانة العظيمة التي يتبوأها هذا الخلق العظيم كانت عناية القرآن الكريم به عظيمة من حيث الأمر به، والحض عليه، والثناء على أهله، وبيان ما أعد الله تعالى لهم من الأجر والثواب، ومن حيث التحذير من تركها أو التمادي والتسويف فيها، وبيان ما أعده الله تعالى لهم من العقاب، كل ذلك بما يطول ذكره، فقد بلغت مرات ذكره بلفظ التوبة والإنابة نحوا من مائة مرة، ناهيك عما يدل عليه من الألفاظ الأخرى المقابلة كالانتهاء والرجوع والفيء والأوب ونحو ذلك(٣)، وهذا يدل دلالة واضحة على عظيم منزلة هذا الخلق عند الله تعالى، وماله من ثمرة عظيمة لصالح المرء في عاجل أمره وآجله كما لا يخفى .

الأمر بالتحلي به :

أما الأمر بالتحلي بالتوبة ففي آيات من كتاب من الله تعالى، منها قوله سبحانه: ﴿ وتوبوا إلى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنون لعَلَّكم تُفلِحون ﴾[سورة النور:٣١] .

قال ابن القيم: "وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة "لعلَّ" المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١٠/٢٨/١٥٨ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٨٧ .

(٣) انظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة لابن مالك ص ٤٩ .

رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله تعالى منهم"(١) .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا تُوبوا إلى اللهِ توبـةً نصُوحـًا عسـى ربُّكم أن يكفِّرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جنَّاتٍ تجَري مِن تحتها الأنهـارُ يـومَ لا يُخزي اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه ..﴾[سورة التحريم:٨] .

وقوله جل شأنه: ﴿ وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾[سورة الزمر:٥٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة جميع العباد بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى عن قريب .

وتدل هذه الأوامر على وجوب التوبة عليهم بمقتضى الأمر المفيد للوجوب، وذلك ما لا خلاف فيه عند أهل العلم، بل حكى الإمام النووي الإجماع عليه قال: "لتظاهر دلائل الكتاب والسنة على ذلك"(٢) .

الإغراء بامتثال هذه الأوامر :

وانظر إلى رأفة الله عز وجل بعباده كيف تلطف إليهم فيما أوجبه عليهم من التوبة، حيث إنه سبحانه لم يجعل الأمر صِرفا ككثير من الأوامر الشرعية الأخرى، بل ما يكاد يفرغ من الأوامر حتى يذيله بما يُغْري على قبوله والإسراع في الاستجابة له، وذلك بقوله ﴿ لعلَّكم تفلحون ﴾، ﴿ عسى ربُّكم أن يكفرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار ﴾ .

فإن الله تعالى يعد عباده بأدوات الترجي "لعل"، وعسى" بالفلاح الذي يعني الفوز في الدنيا والآخرة،والمغفرة التي هي غاية ما يطلبه العبد من الرب جل وعلا، وليست الأدوات هذه هنا كما هو حالها في أصل وضعها الذي لا يقتضي تحقق حصول المرجو، وإنما توقع حصوله فقط .

---

(١) مدارج السالكين ١٧٨/١ .

(٢) انظر رياض الصالحين ص٤٢، وإحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤ .

بل هو في هذا المقام "يقتضي حصول المرجو لوجوب سلامة مخبره عن الخلف"(١) .

قالوا: (وإنما جيء بصيغة الأطماع للجري على عادة الأساليب العربية في وعود الملوك، فإنهم إذا أرادوا فعلا قالوا: عسى أن نفعل كذا، و لله المثل الأعلى، وأيضا للإشعار بأن ذلك تفضل منه سبحانه، وأن التوبة غير موجبة له ليكون العبد بين الخوف والرجاء الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة)(٢) .

و لم يقتصر الأطماع ذلك على قبول التوبة والوعد بالمغفرة وثواب الآخرة .. بل لما كانت النفس موكلة بحب العاجل فقد أغراهم على التوبة بصلاح الدنيا أيضا كما قال سبحانه: ﴿ وأنِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يمتِّعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ويؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه ﴾[سورة هود:٣]، وهذا وعد من الله تعالى بصلاح أحوال التائبين في الدنيا بالأمن والعيش الرغيد، وقد فصل سبحانه بعض ذلك المتاع الحسن في آيات أخرى كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ ويا قومِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يُرسلِ السماءَ عليكم مِدراراً ويزدْكم قوّةً إلى قوّتِكم ولا تتولَّوا مُجرمين ﴾ [سورة هود:٥٢]، وذلك لإغراء عباده على التوبة لما تعنيه التوبة من تحقق العبودية.

ولقد كان الإغراء كبيرا ومهما حينما أخبر الله تعالى عن محبته للتائبين حيث قال سبحانه: ﴿ إنَّ اللهَ يُحبُّ التوّابين ويحبُّ المتطهِّرين ﴾[سورة البقرة:٢٢٢]، إذ لا تكاد تقرع أسماع العصاة حتى يعلموا أن الله تعالى لم يعدهم بقبول توبتهم وإثابتهم على ذلك فحسب، بل إنهم ينتقلون من سخطه إلى محبته المقتضية للرحمة والمغفرة والثواب الحسن، لا سيما إذا علموا مدلول المبالغة التي تفيد حصول تلك المحبة مهما تكررت المعصية، إذا أحدثت لها توبة، إذ التوّابون هم كثيرو التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فكلما أحدثوا ذنبا أحدثوا له توبة ولو كان في اليوم مائة مرة، وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان المكي ٨١/١ .

(٢) انظر روح المعاني ١٦٠/٢٧/١١ .

مبلغ محبة الله تعالى لتوبة عبده بقوله صلى الله عليه وسلم: "لَلّهُ أفرح بتوبة عبده ..."الحديث(١) .

التحضيض على التوبة :

وفي ذلك من التحضيض على الإقبال على الله تعالى بالتوبة والإنابة ما لا يتردد عند سماعه عاقل مؤمن ، ومع ما في ذلك الترغيب من الحض على التوبة، إلا أن التحضيض والحث عليها لم يقتصر على ذلك، بل كان بأساليب التحضيض الأخرى كقوله تعالى: ﴿ أفلا يتُوبونَ إلى اللهِ ويَستغفرونه واللهُ غفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٧٤]، فإن في هذه الآية دعوة لمن أعظموا على الله الفِرية وجاؤوا بشيء إدٍّ ﴿ تكادُ السَّمٰوٰتُ يتفطَّرن منه وتَنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدّاً * أنْ دعَوا للرَّحمن وَلدا * وما يَنبَغي لِلرَّحمن أن يَتَّخذَ ولداً ﴾[سورة مريم:٩٠-٩٢] حيث (قالوا : إن الله ثالث ثلاثة) ومع ذلك فإن الله تعالى دعاهم إلى الرجوع عن ذلك الإفك العظيم، ووعدهم بمغفرته إن هم انتهزوا ذلك وبادروا إلى التوبة، فكيف بمن لم يصل ذنبه إلى ذلك المستوى من الجرم ؟ إنه أجدر بتوبة الله تعالى عليه .

وكقوله سبحانه: ﴿ يُريدُ اللهُ لِيبيِّنَ لكم ويهديَكم سننَ الَّذين من قبلِكم ويتوبَ عليكم واللهُ عليمٌ حكيم * واللهُ يريدُ أن يتوبَ عليكم ويريدُ الَّذين يتَّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريدُ اللهُ أن يُخفف عنكم وخُلقَ الإنسانُ ضعيفاً ﴾[سورة النساء:٢٦-٢٨] .

وتأمل سر تكرار إرادة الله تعالى التوبة على عباده، تجده أنه للتوكيد ولتقوية الخبر الأول(٢)، ليتقرر في نفس الإنسان مدى إرادة الله تعالى التوبة على عباده، رأفة بهم ورحمة؛لينيلهم ثواب التائبين، ومحبة رب العالمين، بخلاف أولئك الذين يريدون من بني

---

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه ص١٣٧.

(٢) انظر تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) ٢٢/٤ .

الإنسان أن ينحرفوا عن أصل فطرتهم في توحيد خالقهم وصيانة مجتمعاتهم والحفاظ على كياناتهم، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ ويريدُ الَّذين يَتَّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

كما كان الحض على التوبة أيضا بوعود الله تعالى المتكررة بمغفرته سبحانه للتائبين ، وذلك كمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إلَّا الذين تابوا وأَصلَحوا وبيَّنوا فأولئِكَ أتوبُ عليهم وأنا التَّوابُ الرَّحيم ﴾[سورة البقرة:١٦٠] .

وقوله جل شأنه: ﴿ فمن تَابَ من بعدِ ظُلمه وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه ﴾[سورة المائدة:٣٩] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ كتبَ ربُّكم على نفسِه الرَّحمة أنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ مِن بعده وأصلحَ فأنَّه غفور رحيم ﴾[سورة الأنعام: ٥٤] .

وقوله عز وجل: ﴿ والَّذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا مِنْ بعدِها وآمنُوا إنَّ ربك من بعدِها لغفورٌ رحيم ﴾[سورة الأعراف:١٥٣] .

إلى غير ذلك من الآيات المتكررة في كتابه الكريم الواعدة بتوبة الله تعالى ومغفرته للتائبين التي قلما تخلو عنها آيات التوبة الكثيرة في القرآن الكريم .

وكل هذه الوعود الصادقة تجعل المرء يقبل على التوبة برغبة كبيرة، وتحمله على التخلي عن المعصية بصدق،وذلك طمعاً في مغفرة الله ورحمته ومحو سيئاته .

على أن كرم الله تعالى وفضله لم يقف عند حد قبول التوبة وغفران السيئات حتى وَعد بإبدال السيئات حسنات،وذلك بقوله سبحانه: ﴿ إلَّا من تابَ وآمَن وعملَ عملاً صالحاً فأولئِك يُبدِّلُ الله سيئاتِهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[سورة الفرقان:٧٠] .

وقد أوضحت السنة المشرفة معنى هذه الآية، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: إعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا،

فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا"(١) .

فانظر إلى عظمة الكرم الإلهي هذا حيث لم يكتف الباري سبحانه بغفران الذنوب حتى بدل السيئات حسنات، إنه كرم من جواد رحيم لا يحرمه إلا محروم .

قالوا: وإنما تبدل السيئات حسنات "لأن العبد التائب كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار"(٢) .

التنويه بالتائبين والثناء عليهم :

ولا غرو في أن ينال التائبون كل ذلك الإكرام، فإن الله تعالى قد أثنى عليهم ونوه بهم بما يدل على تأهلهم لكل ما أكرموا به، وما أثيبوا به، إذ لا يثني الله تعالى ولا ينوه إلا بمن عظمت منزلته وتأهل لإكرامه وإنعامه .

وكان ذلك التنويه بمثل قوله سبحانه: ﴿ .. إلَّا الذين تابوا وأصلَحوا واعتَصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[سورة النساء:١٤٦] . فترى أن الله تعالى جعل التائبين من النفاق مع المؤمنين في الرتبة والمنزلة، وقد علم ما للمؤمنين من عظيم الأجر والمثوبة والمكانة الرفيعة من آيات أخرى كثيرة ومن هذه الآية نفسها التي أفادت ذلك وقالت: ﴿ وسوف يُؤتِ اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيماً ﴾ أي لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه.

وبمثل قوله سبحانه: ﴿ والذين اجتَنبُوا الطَّاغوتَ أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البُشرى فبشِّر عباد ﴾[سورة الزمر:١٧]. فتأمل ما في هذه الآية من بليغ التنويه بالمنيبين إلى الله تعالى حيث ذكروا على سبيل المدح ووعدوا بالبشارة الحسنة جزاء لهم على حسن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٠، والترمذي في صفة جهنم، باب رقم ١٠ برقم ٢٥٩٦ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٢٧/٣ .

صنيعهم في الدنيا من الإنابة إلى ا لله تعالى والتوبة اليه.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وأُزلفتِ الجنَّة للمتقين غيرَ بعيد * هذا ما تُوعدونَ لكل أوَّابٍ حفيظ * من خشيَ الرَّحمنَ بالغيب وجاء بقلبٍ منيب * أُدخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخُلود * لهم ما يشاؤنَ فيها ولَدينا مَزيد ﴾[سورة ق:٣١-٣٥] .

إذ في هذه الآية من التنويه والثناء على الأوَّابين إلى ا لله،وهم كثيرو الأوب وهو الرجوع إلى ا لله بالطاعة، ما لا يدرك مداه، فقد وصفهم بالحفاظ على حدود ا لله والخشية له والإنابة إليه، ثم جازاهم على ذلك أن أحلَّهم دار كرامته يدخلونها بسلام من كل سوء، وأعد لهم فيها ما يشاؤن من النعيم، وأكبر من ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، كل ذلك لتحليهم بخلق التوبة إلى ا لله والإنابة له، فما أعظم هذا الثناء وما أعظم أجره!

جعلنا ا لله ومشايخنا ووالدينا وأحبابنا من أهله .

إلى غير ذلك من الآيات المنوهة بأهل التوبة والإنابة من عباد ا لله تعالى، الدالة بالالتزام على مكانتهم عنده سبحانه ولذلك أحلَّهم دار المقامة من فضله لايمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب .

توبة ا لله على العبد :

ومعلوم أن العبد وهو ضعيف لا يملك لنفسه حولا ولا قوة، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، لا يقدر أن يحقق لنفسه تلك المكانة ولا ذلك الأجر العظيم ما لم يصحبه توفيق ا لله تبارك وتعالى وعونه عز شأنه، ولذا فإن مبدأ توبة العبد تكون من ا لله سبحانه وذلك بتوفيقه للتوبة، ورجوعه سبحانه مع سابق علمه وإرادته عن عقابه،كما قال سبحانه: ﴿ ثم تابَ عليهم ليتُوبُوا إنَّ ا لله هو التَّوابُ الرحيم ﴾[سورة التوبة:١١٨] .

"فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب ا لله عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء العلة"(١) .

---

(١) مدارج السالكين ٣١٣/١ .

وذلك لأن "توبة العبد إلى الله تعالى محفوفة بتوبة من الله تعالى قبلها وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه؛سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة"(١) كما دل على ذلك آيات كثيرة من محكم كتاب الله تعالى، منها الآية السابقة، ومنها قوله سبحانه: ﴿ لقد تَاب الله ُعلَى النَّبيِّ والمهاجرينَ والأنصارِ الَّذين اتَّبعوه في ساعةِ العُسْرةِ ...﴾[سورة التوبة:١١٧].

ومنها قوله عز شأنه:﴿ فتلقَّىآدمُ من ربِّه كلماتٍ فتابَ عليه إنَّه هو التَّوابُ الرحيم ﴾ [سورة البقرة:٣٧] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ ويتوبُ الله ُعلى المؤمنينَ والمؤمناتِ وكانَ الله ُغفوراً رحيما﴾[سورة الأحزاب:٧٣] .

فالباري سبحانه يبادر عبده بالتوبة التي تعنى من جنابه المقدس "الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة"(٢). فينشأ عن ذلك إذنه وتوفيقه وإلهامه لعبده للتوبة، رأفة ورحمة منه بعباده كي ينالوا كريم ثوابه وجميل إحسانه، فإذا ما بادر العبد إلى ذلك تحقق وعد الله لهم بالقبول والمغفرة، المخبر عنه بمثل قوله سبحانه: ﴿ إلاَّ الذين تابوا وأصلَحوا وَبيَّنُوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التَّواب الرَّحيم ﴾[سورة البقرة:١٦٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ فمن تاب من بعدِ ظُلمه وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه إن الله َغفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٣٩]، وقوله: ﴿ إلاَّ من تاب وآمنَ وعمِلَ صالحا فأولئِك يَدخلونَ الجنَّة ولا يُظلَمون شيئا ﴾ [سورة مريم:٦٠]. إلى غير ذلك من الآيات .

اقتران توبة الله على العباد بمشيئته سبحانه :

غير أن توبة الله على عباده ليست مكفولة لكل أحد، بل هي مرتبطة بمشيئته سبحانه، فيتوب على من يشاء، ويمنعها من يشاء،بمقتضى ملكه وعدله،كما قال سبحانه:

(١) مدارج السالكين ٣١٢/١ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥ .

﴿ ويتوبُ اللهُ على من يشاء ﴾[سورة التوبة:١٥]، وقال: ﴿ ثم يتوبُ الله من بعدِ ذلك على من يَشاء ﴾[سورة التوبة:٢٧]. ولهذا كان الخذلان في العباد كثيرا،والتائبون منهم قليلا إذ مشيئة الله ليست عامة، ولما كانت التوبة غير مكفولة لكل من أرادها كان على العباد أن لا يركنوا إلى أنفسهم في تحقيقها،ولا يدّعوها من غير أن يطلبوها ممن هي بيده، ألا وهو التواب الرحيم، فإن نبي الله تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام لم يتكلا على أنفسهما في تحقيقها،بل طلباها من الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهما قولهما: ﴿ ربَّنا واجعلنا مُسلِمينِ لك ومن ذرِّيَّتِنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتُب علينا إنَّك أنت التَّوابُ الرحيم ﴾[سورة البقرة:١٢٨]، وهما ممن يُقطع بتوبتهما فإنهما نبيان رسولان، ومع ذلك فهما يطلبان من الله تعالى أن يتوب عليهما، فغيرهما ممن ليس كذلك أحرى بأن يطلبها من الله تعالى، والله عز وجل لا يخيب أحدا دعاه بصدق وإخلاص، إذ هو يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، و﴿ يقبلُ التَّوبةَ عن عِبادِه ويعفُو عن السّيئات ﴾[الشورى ٢٥] كما أخبر عن نفسه وهو الصادق في وعده(١) .

شروط قبول التوبة :

لكن قبول الله تعالى توبة عبده طلبا أو فعلا مشروط بشروط بينها الباري سبحانه في محكم كتابه وهي:

أولا: أن لا تكون حين أن تبلغ الروح الحلقوم كما قال الله تعالى: ﴿ إنَّما التَّوبةُ على الله لِلَّذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب فأولئكَ يتوبُ الله عليهم وكان الله عليما حكيما * وليست التَّوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتَّى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إنِّي تبتُ الآن ... ﴾[سورة النساء:١٧،١٨] .

وذلك لأن التوبة حينئذ توبة اضطرار ، لا توبة اختيار، وتوبة الاضطرار لا تنفع،(إذ القصد من التوبة هو: ترتب آثارها عليه من صلاح الحال في الدنيا بالاستقامة الشرعية

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٩٠ .

فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبـة)(١). ففرعـون لما أيقـن بـالهلاك وعـاين بأس الله تعالى حين أدركه الغرق: ﴿ قـال آمنـتُ أنَّـه لا إلـهَ إلا الَّـذي آمنَـت بـه بنـوا إسرائيلَ وأنا من المسلمين ﴾ فقال له الله تعالى: ﴿ ءالآنَ وقد عصيتَ قبـلُ وكنـتَ مـن المفسدين ﴾ [سورة يونس:٩٠،٩١]، والاستفهام إنكاري ومعنـاه: أتؤمـن الآن حـين يئسـت من نفسك فلا ينفعك الإيمان الآن، كما قال تعالى: ﴿ فلم يـكُ ينفعُهُـم إيمـانُهم لمَّـا رأوا بأسنا سنَّـةَ الله التي قد خلَت في عباده وخَسِر هُنالك الكافرون ﴾[سورة غافر:٨٥] .

ثانيا: أن لا تكون مع الإصرار على الكفر إلى حين المـوت لقولـه تعـالى في تمام الآيـة السابقة: ﴿ ولا الَّذين يموتون وهم كفَّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾[سورة النسـاء:١٨] والمعنى:"ليس قبـول التوبـة لهؤلاء ولا لهؤلاء"(٢)، ولقولـه سـبحانه: ﴿ إنَّ الذيـن كفـروا وماتوا وهـم كفَّار فلن يقبلَ من أحدِهـم مـلءُ الأرض ذهبـاً ولـو افتـدى بـه أولئـك لهـم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين ﴾[سورة آل عمران:٩١] .

ثالثا: أن لا تكون بعد طلوع الشمس من مغربها فإنَّ باب التوبـة يغلـق حينئـذ لقولـه تعالى: ﴿ هل يَنظرونَ إلا أن تأتيهَم الملائكةُ أو يأتيَ ربُّك أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربِّك، يـوم يأتي بعضُ آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبـلُ أو كسبت في إيمانِهـا خيراً قل انتَظِروا إنَّا مُنتظرون ﴾[سورة الأنعام:١٥٨]، وآيات الله هذه تكون قبل يوم القيامة كما جاء في حديث البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن أبـي هريـرة رضـي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليو وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن مَن عليها، فذلك حين لا ينفع نفسـا إيمانُهـا لم تكـن آمنـت من قبل"(٣) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨١/٤ .

(٢) روح المعاني ٢٤٠/٤/٢ .

(٣) البخاري في تفسير سورة الأنعام ٧٣/٦ .

التوبة النصوح :

كما أن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا كانت صادقة مستوفية لأركانها على النحو الذي أراده الله تعالى من عباده والذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ يأيُّها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نصوحا عسى ربُّكم أن يكفرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جناتٍ تجري مِن تحتِها الأنهار ...﴾[سورة التحريم:٨]، والتوبة النصوح هي:(البالغة في النصح، الصادقة التي لا يعود صاحبها إلى الذنب ولا يريد العود إليه(١)) وهي التي تجمع أركان التوبة وهي: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، والندم على ما فات منها، وإذا كانت متعلقة بحقوق الناس فيُزاد ركنٌ رابع وهو: أن يعيد إليهم حقوقهم أو يستبرئهم منها، فإذا جمعت التوبة هذه الأركان الأربعة كانت صادقة وكانت توبة نصوحا، فقد نقل الحافظ ابن كثير عن العلماء رحمهم الله تعالى قولهم: "التوبة النصوح هي : أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه"(٢) .

فهذه هي التوبة التي يترتب عليها الأثر من الثواب العاجل و الآجل، وصلاح الحال والمآل، وهي التي أرادها الله عز وجل من عباده كما دلت على ذلك آية التحريم، والتي هي مقيدة لآيات التوبة المطلقة، بدليل أن التوبة إذا لم تتوفر فيها هذه الأركان لا تكون صحيحة مقبولة ولا تأتي ثمارها، وإنما هي توبة الكذّابين كما يسمونها، وهم الذين يخادعون أنفسهم وهم لا يشعرون، وهي توبة تحتاج إلى توبة كما قالوا: استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

فكل معصية لله تعالى متعلقة بحقه أو حق عباده نَص عليها في كتابه أو جاءت على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم يجب على العبد أن يتخلّى عنها، ويتوب منها محقِّقاً أركان التوبة هذه، وإلا كانت توبته رداً عليه .

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٧٤٦، وتفسير الجلالين ٢/٣٦٦، وأيضا روح المعاني ١٥٧/٢٩/١٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٩٢/٤ .

تمثّل خلق التّوبة في النّبيّ صلّى ا لله علَيه وسلّم

وإذا كانت التوبة والإنابة يعنيان في مدلولهما اللغوي:الرجوعَ كما علمت مما تقـدم، فإن ذلك الرجوع يكون من المعصية إلى الطاعة فيمن تتـأتى منـه المعصيـة ووقعـت منـه، وهم عامة الناس الذين لم تمنعهم العصمة من الوقوع فيها .

أما من حفظهم ا لله تعالى بالعصمة وهم الأنبياء فإن التوبـة والإنابـة في مقـامهم تعـني: الرجوع عن حالة في مقام العبودية إلى حالة أرفع منها على مـا سيأتي بحثه وتقريـره في مبحث العصمة من الباب الخامس إن شاء ا لله تعالى(١) .

وتوبة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من هذا القبيل، وقد كان يـترقى فيهـا في أوج الكمالات مدة حياته، حتى أتـاه اليقـين، والتحـق بـالرفيق الأعلـى مـع الملائكـة المقربـين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما يدل على ذلك حديث الأغرّ(٢) المزنـي رضـي ا لله عنه، قال: سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول:

١ - "إنه لَيُغان(٣) على قلبي حتى أُستغفر ا لله في اليوم مائة مرة"(٤) .

قال ابن الأثير: "أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدا كـان مشغولاً با لله تعالى، فإن عرض له وقتاً ما عارض بشَرِيٌّ يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحها، عَدَّ ذلك ذنبا وتقصيرا فيفزع إلى الاستغفار"(٥) .

---

(١) ص ٩٨

(٢) ابن عبد ا لله، ويقال: ابن يسار المزني ويقال: الجهني، ومنهم من فرق بينهما، صحابي من المهـاجرين لم أجد من ذكر تاريخ وفاته. انظر الإصابة ٥٦/١، والاستيعاب بهامشـها ٩٥/١، وتقريـب التهذيـب ص ١١٤ رقم ٥٤٢ .

(٣) قال في شرح مسلم: الغين والغيم بمعنى، والمراد هنا ما يتغش القلب ا.هـ ٢٣/١٧ .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه برقم ٢٧٠٢، وأبـو داود في الصـلاة، باب الاستغفار برقم ١٥١٥، والبغوي في الأنوار برقم ١١٤٥ .

(٥) النهاية في غريب الحديث ٤٠٣/٣،ونحوه في جامع الأصول ٣٨٦/٤-٣٨٧ .

وقال الإمام النووي: "وقيل سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته وتأليف المؤلفة ونحو ذلك، فيشتغل بذلك عن عظيم مقامه، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته، ولإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال، فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك .."(١) .

فترى كيف كان صلى الله عليه وسلم يعد ذلك ذنبا يقتضي منه التوبة والاستغفار وهو من الطاعات والقربات، وهذا ما يفسره الأثر المشهور: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"(٢) .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم التوبة من هذا الأمر في عدة روايات عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم :

٢ - ففي رواية أخرى عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: "يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة"(٣) .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"(٤) .

٤ - وعن ابن عمر(٥) رضي الله عنهما قال: "إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب

---

(١) شرح مسلم ٢٤/١٧ .

(٢) أي: كلما ترقى في درجة عد ما قبلها سيئة، وهذا قول أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته، . انظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢٦١/٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر، باب استحباب الاستغفار برقم ٢٧١٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم ٨٣/٨ .

(٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، ولد في الاسلام، وكان أحد المكثرين من الصحابة رواية، وأحد العبادلة المشهورين، وكان من أشد الناس اتباعا للأثر، مات سنة ثلاث وسبعين. انظر الاصابة ٣٤٧/٢، والاستيعاب بهامشها ٣٤١/٢ .

الرحيم"(١) .

ووردت أحاديث كثيرةبهذا العدد: سبعين، ومائة، عن جماعة من الصحابة رضي ا لله عنهم أكثرها صحاح أو حسان(٢) .

٥ ـ وقالت السيدة عائشة رضي ا لله عنها: كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يكثر من قول: سبحان ا لله وبحمده، أستغفر ا لله، وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول ا لله أراك تكثر من قول سبحان ا لله وبحمده وأستغفر ا لله وأتوب إليه؟ فقال: خبَّرني ربي أني سأرى علامة من أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان ا لله وبحمده وأستغفر ا لله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصر ا لله والفتح ﴾ فتح مكة، ﴿ ورأيت الناس ...﴾(٣) .

٦ ـ وكان دعاؤه إذا قَفَلَ من غزو أو حج أو عمرة على كل شَرَف(٤) من الأرض: "...آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون"(٥) .

٧ ـ وكان من دعائه أدبار الصلوات قوله: "رب تقبَّل توبتي، واغسل حَوبتي، وأجب دعوتي ..."(٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في الاستغفار برقم ١٥١٦، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه برقم ٣٤٣٤، وقال عنه: حسن صحيح غريب .

(٢) انظر: الدعاء للطبراني ١٦١٢/٢-١٦٢٣، باب عدد استغفار رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في كل يوم، من قال مائة مرة ..، وباب من قال سبعين مرة .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤ .

(٤) أي: ما علا وارتفع من الأرض .

(٥) أخرجه البخاري في العمرة، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ٨/٣، ومسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم ١٣٤٢ من حديث ابن عمر رضي ا لله عنهما .

(٦) حديث صحيح سبق ذكره وتخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٥.

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يتوب إلى الله تعالى ويتضرع إليه في أن يتقبل توبته، وهذا يبين لنا حقيقة ما جاء من تسميته بـ"نبي التوبة" الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا محمد وأحمد والمقفّي(١) والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة"(٢) حيث كان صلى الله عليه وسلم على هذه الحال من التوبة، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ لقد تاب اللهُ على النبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتبعوه في ساعة العُسْرة ...﴾ [سورة التوبة:١١٧] .

وآذنه الله تعالى بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر حيث قال سبحانه: ﴿ إنّا فتحنَا لك فتحاً مبيناً * لِيغفرَ لك اللهُ ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخر ويُتمَّ نعمتَه عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً ﴾[سورة الفتح:٢،١] .

ومع ذلك فهو يتوب إلى الله تعالى بمثل تلك التوبة عدداً وتضرعاً .

حثه صلى الله عليه وسلم على التوبة :

وكما كان صلى الله عليه وسلم يبادر بالتوبة بنفسه على ذلك النحو، فقد كان يريد من أمته أن تكون كذلك لما يريده لهم من التزكية وكمال الأخلاق وعلو المنزلة عند الله تعالى، كما هي مهمته من بعثته إليهم التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتِنا ويُزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[سورة البقرة:١٥١] .

لذلك فقد كان عليه الصلاة يحث أمته على التوبة إلى الله تعالى،وذلك بترغيبهم فيها بمالايتسع المقام لبسطه وذكره، فنكتفي بذكر نماذج من ذلك :

---

(١) أي: الذي ليس بعده نبي كالعاقب، وقيل: المتبع آثار من قبله من الأنبياء (وكلا المعنيين صحيح)، انظر سبل الهدى والرشاد ٦٤٣/١ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٥٥ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ "لله أفرحُ بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويِّة مهلِكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عله الحر والعطش أو ماشاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده"(١) .

فتأمل ما يدل عليه هذا الحديث من الترغيب في التوبة، إذ يحمل على الإقدام عليها برغبة ورجاء عظيمين اتكالا على قبول الله تعالى للتائب وفرحه به .

ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

٢ ـ "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"(٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أن الله تعالى يتشوّف إلى توبة عبده، وهو في انتظارها منه ليلا ونهارا، وذلك لأجل أن يتوب عليه بالقبول والمغفرة والإثابة والمحبة .

كما أبان صلى الله عليه وسلم عن حقيقة اقتضتها الإرادة الإلهية لتتحقق في الخارج صفتا «العفوُّ الغفور» لله عز وجل، وهذان الوصفان لا يظهر أثرهما إلا بعصيان العباد وتوبتهم، ومغفرة الله تعالى لهم، أبان عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

٣ ـ "والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيَستغفرون الله فيغفرَ لهم"(٣) .

---

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه ص ١٣٨ واللفظ للبخاري

(٢) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنب وإن تكررت الذنوب والتوبة برقم ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار برقم ٢٧٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٤ ـ وبقوله صلى الله عليه وسلم: "لو لا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم"(١)، وذلك ليبين للناس مدى محبة الله تعالى للتحلي بخلق التوبة إلى الله تعالى والاستغفار وطلب الاعتذار، وذلك ترغيب لهم في المبادرة إلى الله تعالى بالتوبة وصدق الرجاء فيه سبحانه وتعالى .

كما بين عليه الصلاة والسلام أن التوبة إلى الله تعالى تجعل المرء نقيا من الذنوب، وتعيد سالف عهده النقي من المعاصي، حيث تغسل توبته تلك صفحته السيئة كما يُغسل الثوب الأبيض من الدرن، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

٥ ـ التائب من الذنب كمن لا ذنب له"(٢) .

فشبه النبي صلى الله عليه وسلم التائب بالطاهر النقي من الذنوب، وذلك لأن التوبة قد محت سيئاته وذنوبه .

٦ ـ وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالفعل في صور واقعية أوضح مدى محو التوبة للسيئات، فقال في قصة ماعز الأسلمي وتوبته من الزنا، وبعد إقامة الحد عليه، قال صلى الله عليه وسلم:"لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم"(٣) .

٧ ـ وقال في المرأة الغامدية التي تابت من الزنا، وأقام عليها الحد:"والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مُكْس لغفر له"(٤)

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنب..، برقم ٢٧٤٨، والترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله تعالى لعباده برقم ٣٥٣٩ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٣/٨ إلى الطبراني من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، يعني فهو مرسل .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا برقم ١٦٩٥ من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم فيما سبق من الكتاب والباب والرقم من حديثه أيضا، والمكس: هو الجباية التي يأخذها أعوان الحكام الظالمين .

٨ - وقال في المرأة الجهينية التي تابت كذلك وأقام عليها الحد: "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت - والخطاب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى"(١) .

٩ - وقص لأمته قصة الرجل الذي كان فيمن قبلنا، وكان قد قتل تسعة وتسعين نفسا، ثم تمم المائة بمن أفتاه بعدم قبول توبته لعظيم جريمته، ثم تاب توبة صادقة، فمات فغفر الله تعالى له بصدق توبته، وهي قصة طويلة مشهورة، متفق على صحتها(٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي نطق بها صلى الله عليه وسلم ليرغب أمته في الإقبال على الله تعالى بالتوبة النصوح، ومثل هذه الأحاديث تحمل العبد بلا ريب على التحلي بخلق التوبة والمبادرة بها على إثر كل ذنب يقع فيه ومعصية يلابسها، طمعا في عفو الله تعالى عنه ومغفرته له، التي قد علمها من مثل هذه الأحاديث .

١٠ - وقد كان مع ذلك يحثهم على المبادرة بها قبل فوات الأوان من الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها،حيث لا تنفع التوبة حينئذ؛ لأنها تكون حينئذ عن مشاهدة ومعاينة وهي إنما تنفع عندما تكون عن غيب، فكان صلى الله عليه وسلم يبين لأمته هذه الحقيقة حتى يبادروا بها قبل فوات الأوان فيقول:

"إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر"(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم فيما سبق من الكتاب والباب برقم ١٦٩٦ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) أخرجها البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١١٢/٤ ، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل برقم ٢٧٦٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار برقم ٣٥٣٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والحاكم في المستدرك ٢٥٧/٤، وابن ماجة برقم ٤٢٥٣، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر تخريجه في هامش جامع الأصول ٥١٣/٢ لعبد القادر الأرنؤوط .

١١ ـ ويقول أيضا: "من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه"(١) .

وكل هذه الأحاديث تدل على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشعور بالتوبة بحيث كان يفيض حديثنا عن هذا الخلق العظيم في كل جزئية من جزئيات دلالته .

وقد كان صلى الله عليه وسلم متحليا بكل ما كان يدعو أمته إليه بالضرورة؛ لأنه كان أسرع الناس مبادرة إلى ما يدعو إليه من خير كما تقدم ذكره وتقريره .

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار برقم ٢٧٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

البَابُ الثَّانِي

أخلاق القرآن التعبدية والتطبيقات النبوية لها

وفيه تمهيد وفصلان :

- التمهيد: في تعريف العبادة وبيان علاقتها بالأخلاق
- الفصلُ الأوَّل: في الفرائض .
- الفصلُ الثَّاني: في النَّوافل .

تمهيـــــد:

العبادة في اللغة: الانقياد والخضوع والطاعة(١)، والتذلل، يقال: طريق معبَّـد: إذا كـان مذللاً قد وطئته الأقدام .

وهي في لسان الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(٢) .

ويقال في تعريفها أيضا: "هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض"(٣) .

ومن خلال هذين التعريفين ندرك شمول العبادة واتساع دائرتها لتشمل أفعال الإنسـان وأقواله ونياته .

علاقة العبادة بالأخلاق :

كما ندرك ارتباطها الوثيق بالأخلاق التي هي أصل من أصول الشريعة الإسلامية كما قد علمنا، وذلك لما تعنيه من التذلل والخضوع لله تعالى، الذين يمثلان جوهر العبودية والأخلاق الزكية من العبد لمولاه، ولهذا كانت هذه العبادة عاملا مهما من عوامل تزكية الأخلاق، كما يدل على ذلك تعليل كثير من جزئياتها كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها بأمور أخلاقية تكون إحدى ثمار تلك العبادات .

وذلك لأن الله تعالى خلق الإنسان من قبضة الطين ثم نفخ فيه الروح، فاجتمعت فيه قوى وغرائز متعددة، منها ما هو روحي يدفعه إلى السمو والارتقاء، ومنها ما هو مادي يدفعه إلى الأرض والتراب والطين كالشهوة والغضب والطمع ونحوها .

وجاء الإسلام يزكي عوامل الخير في الإنسان، وينقيه من عوامل الشر، واتخذ لذلك

---

(١) القاموس المحيط ١/١١٣ .

(٢) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤، وانظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٢٠٥-٢١٠ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٩٨ .

وسائل متعددة اعتقادية وتعبدية، وقد علمنا ما تفعله الأخلاق الاعتقادية من تزكية في الأخلاق .

أما الأمور التعبدية فإنها تقهر الغرائز المادية الشهوانية والشيطانية، وتعزز الغرائز الروحية الملائكية في النفس البشرية فيصبح المرء ذا أخلاق عالية(١) .

وأهم تلك العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج فإنها ذات أثر عظيم في تزكية الأخلاق البشرية، فهي لتكررها وروحانيتها تجعل الإنسان مرتبطا على الدوام بفاطر تلك الأخلاق وواهبها، فتحول بينه وبين ما يبعده عن سَنن تلك الفطرة، وتلزمه الثبات عليها إن كان ممن حظي بنصيب من وهب إلهي منها، أما من لم يكن له حظ وهبي منها، فإن تلك المعتقدات وهذه العبادات تكسبه القدر الكافي من مكارم الأخلاق، وتجنبه مساوئها، وتلك المعتقدات هي تلك الأخلاق الإيمانية التي مضى الحديث عنها، والتي دعا الله عباده إليها أمرا وترغيبا وترهيبا كما علم مما تقدم ذكره .

وهذه العبادات إضافة إلى أنها مطلوبة لذاتها لمقتضى سر إيجاد العباد، فهي مطلوبة أيضا لأجل تقويم الأخلاق وتزكيتها، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية التي تحدثت عنها، أمرا أوندبا أو ترغيبا من الكتاب والسنة، كما سيأتي ذلك في المباحث التعبدية الآتية :

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٧/٥ .

الـفَـصْــلُ الأَوَّلُ

(الفرائض)

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الصلاة .

المبحث الثاني : الزكـاة .

المبحث الثالث : الصيام .

المبحث الرابع : الحــج .

المبحث الأول : (الصلاة)

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريفها وبيان علاقتها بالأخلاق .

المطلب الثاني : الطهارة لها .

المطلب الثالث : إقامتها .

المطلب الرابع : الخشوع فيها .

المطلب الخامس : المحافظة عليها .

المطلب الأول

تعريف الصلاة وبيان علاقتها بالأخلاق

تعريف الصلاة:

الصلاة في اللغة: الدعاء(١)، وفي الشرع: هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم(٢) .

علاقة الصلاة بالأخلاق :

إن من أهم ما يزكي النفس ويهذب الأخلاق: الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، إذ تجعل العبد متصلا بقلبه وجوارحه با لله تعالى لا يكاد ينقضي وقت من أوقاتها حتى يأتي وقت آخر، فيعيده إلى تعلقه الروحي بربه ذي الجلال والكبرياء .

وطالما أن العبد بهذه المثابة من دوام التعلق با لله تعال، فإنه يصير سامي الأخلاق وعالي الهمة يبتعد عن الدنايا، وينأى عن الموبقات إجلالا لله وخوفا منه سبحانه، وبذلك يكون ذا خلق كريم ومكانة رفيعة، وهو ما يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ وأقم الصَّلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥]، حيث أفادت هذه الآية "أن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة، وتشمل كل بدن المصلي فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادّكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت،وخامرها ارتقاب ا لله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، و لم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله"(٣) .

وهكذا تكون صلاة المؤمن، فإنه إن فعلها على هذا الوجه أدت هذه الثمرة بلا ريب، وذلك ما هو ملموس ومعلوم .

---

(١) المصباح المنير للفيومي ٣٧١/١ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٦١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٨/١٣ .

فشعيب عليه الصلاة والسلام لما كان ينهى قومه عن منكرات الأخلاق التي كانوا عليها، أدرك قومه أن ماجاءهم به من ذلك، إنما هو بسبب صلاته التي كان يكثر منها فقالوا له: ﴿ يا شعيب أصلواتُك تأمرُك أن نترُكَ ما يعبد آباؤُنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء ﴾[سورة هود:٨٧]، فأسندوا الأمر إلى الصلاة، لما للصلاة من تأثير على صاحبها في فعل المكارم واجتناب المساوىء، ولذلك يقول الله تعالى فيمن لم يقيموا الصلاة فلم يكن معهم بعد ذلك ما يزعهم عن الفحشاء:﴿ فخلَف من بعدهم خلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوف يلْقون غياً ﴾[سورة مريم:٥٩] .

وكذلك قال عن المجرمين الذين أدركوا في القيامة حقيقة ما كانوا عليه من الضلال في الدنيا حيث قال لهم أصحاب الجنة: ﴿ ما سلككُم في سقر ﴾ فأجابوا بقولهم: ﴿ لم نكُ من المُصلِّين * و لم نكُ نطعِمُ المسكين * وكنَّا نخوضُ مع الخائضين * وكنَّا نكذِّب بيوم الدِّين ﴾[سورة المدثر:٤٢-٤٦] .

فترى أن أول تحسرهم كان على ترك الصلاة، إذلمالم يكونوا من أهلها، لم يتهيأ لهم التحلي بمكارم الأخلاق من كرم الإطعام، والبعد عن الخوض في الباطل،والاعتراف بالحق ... وفي مقابل هؤلاء الذين كانوا محافظين على الصلاة فإنهم تحلَّوا بمكارم الأخلاق من الكرم والاعتراف بالحق والعفة الكاملة والخوف من الله وإقامة العدل ...

إلى غير ذلك ، كما قال سبحانه: ﴿ إلَّا المصلين الَّذين هم على صلاتِهم دائمون * والَّذين في أموالِهم حقٌ معلومٌ * للسائلِ والمحروم * والَّذين يُصدِّقون بيوم الدِّين * والَّذين هم من عذاب ربِّهم مشفِقون * إنَّ عذابَ ربِّهم غيرُ مأمون * والَّذين هم لِفروجهم حافِظون * إلَّا على أزواجِهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومين * فمن ابْتغَى وراءَ ذلك فأولئك هم العادُون * والَّذين هم لأماناتِهم وعهدهم راعون * والذينَهُم بشهاداتِهم قائمون * والَّذين هم على صلاتِهم يُحافظون * أولئك في جنَّاتٍ مكرَمون ﴾[سورة المعارج: ٢٢-٣٥] .

فإذا تأملت سر افتتاح هذه المكارم الأخلاقية بالصلاة، وختمها بها، لعلمت أن

الصلاة هي سر تلك الأخلاق الكريمة بدلالة فقدانها عند افتقاد الصلاة كما علمت من الموازنة السابقة، كما يشير إليها افتتاح هذا المقطع من الآيات، فإنه افتتح بذكر حكم عام على بني الإنسان هو ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين ...﴾ فاستثنى من جنس الإنسان الذي حكم عليه بتلك الرذائل الخلقية: المصلين الذين دلتهم صلاتهم إلى الأخلاق الحميدة المذكـورة بعدها . وكما دل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ [سورة المؤمنون١ـ١٠] .

فترى أن جميع هذه الآيات المنوهة بالمؤمنين وبأخلاقهم الفاضلة، تستفتح حديثها عنهم بذكر موقفهم من الصلاة، ثم تستطرد في ذكر مكارم أخلاقهم الأخرى، مما يدل على أن الصلاة هي معيار الأخلاق ومفتاحها، وأن من أقامها وحافظ عليها صار ذا خلق كريم، وذلك هو ما تشهد له الأحاديث والآثار الآتية :

١ ـ جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال له: "ينهاه ما تقول"(١) يعني من الصلاة .

٢ ـ وفي رواية أن رجلا قال له: إن فلانا يصلي، فإذا أصبح سرق، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "سينهاه ما تقول"(٢) .

٣ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً"(٣) .

---

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٦١ إلى أحمد والبزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ورجاله رجال الصحيح .

(٢) عزاه الهيثمي كذلك ٢/٢٦١ إلى البزار من حديث جابر رضي الله عنه قال: ورجاله ثقات .

(٣) عزاه الهيثمي أيضا ٢/٢٦١ إلى الطبراني في الكبير قال: وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة لكنه مدلس، وذكر له شاهدا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وعزاه للطبراني في الكبير قال: ورجاله رجال الصحيح .

٤ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر"(١) .

فهذه الأحاديث والآثار واضحة الدلالة على ما تعمله الصلاة من تزكية الأخلاق، ولكن لا تكون الصلاة عاملة ذلك العمل، ومؤدية لتلك الثمرة إلا إذا أديت على النحو المطلوب شرعاً؛ من الطهارة لها، وإقامتها بأركانها وآدابها، والخشوع فيها، والمحافظة عليها، وعندها تكون كما أخبر الله تعالى ﴿ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[العنكبوت ٤٥]

ولهذا أولى القرآن الكريم هذه الأمور عنايته بها عند حديثه عن الصلاة، حيث لم يكتف بطلب أدائها، وإنما طلب إقامتها على وجهها الصحيح من الطهارة لها، والخشوع فيها والمحافظة عليها .

وحيث إن الصلاة التي تكسب صاحبها معالي الأخلاق تتوقف على هذه الأمور، وأن القرآن الكريم قد أولاها عنايته الخاصة لتكون صلاة ذات معنى وثمرة، فإني سأتناول بحثها من زاوية حديث القرآن عنها في المجال الأخلاقي من خلال هذه **المطالب** : الطهارة، الإقامة، الخشوع، المحافظة . وبالله التوفيق .

---

(١) عزاه في المجمع أيضا ٢/٢٦١ إلى الطبراني في الكبير قال: ورجاله رجال الصحيح .

وذكر ابن كثير في تفسيره هذين الأثرين وغيرهما، وذكر الاختلاف في رفعهما ووقفهما، ثم قال: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم ا.هـ. تفسير القرآن العظيم ٣/٤١٥ ، وذكره نحوه الشوكاني في فتح القدير ٤/٢٠٦ .

المطلب الثاني

(الطّهارة)

الطهارة في اللغة تعني : النظافة من الأقذار حسية كانت أو معنوية(١) .

قال ابن فارس: "الطاء والهاء والراء، أصل واحد يدل على نقاء وزوال دنس..، والتطهر: التنزه عن الذم وكل قبيح"(٢) .

أما في اصطلاح الفقهاء فهي تعني : رفع المنع المترتب على الحدث أو النجس، ويقال أيضا: هي رفع حدث أو إزالة نجس أو ما في معناهما.(٣) .

قال الراغب: "وهي ضربان: طهارة جسم، وطهارة نفس، قال: وحمل عليهما عامة الآيات"(٤).أي: فتارة تتحدث عن طهارة الجسم كقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَّروا ﴾[سورة المائدة:٦]، وقوله تعالى: ﴿ ولا تقربُوهُنَّ حتى يَطهُرن فإذا تطهَّرن فأتُوهنَّ من حيثُ أمركم الله ﴾[سورة البقرة:٢٢٢] .

وتارة عن طهارة النفس كقوله تعالى: ﴿ إنَّما يريدُ الله ُليُذهِبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويطهِّركم تطهيراً ﴾[سورة الأحزاب:٣٣]، وقوله جل شأنه: ﴿ خذ مِن أموالِهم صدقةً تطهِّرهم وتزكِّيهم بها ﴾[سورة التوبة:١٠٣]، وقوله أيضا: ﴿ أولئِكَ الَّذين لم يردِ الله ُأن يطِّهِّرَ قلوبَهم ﴾[سورة المائدة:٤١] . إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن الضربين، ولكن حديثها عن الضرب الثاني أكثر؛ وذلك لعناية الإسلام الكبيرة بتطهير النفس البشرية من رعونتها المنافية للأخلاق الإسلامية، فقد تحدث عن هذا الضرب نحو من عشرين آية، بينما تحدث عن الضرب الأول نحو عشر آيات(٥)، وذلك من مادة (طهر)، أما ما يدل عليها من غير هذه المادة فكثير .

---

(١) انظر: تاج العروس للزبيدي٣٩٢/٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٢ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤٢٨/٣ .

(٣) المجموع ٧٩/١، وحاشية إعانة الطالبين ٢٧/١ .

(٤) المفردات ص ٣٠٧ مادة (طهر) .

(٥) انظر المعجم المفهرس ص ٤٢٨ .

ولست في صدد الحديث عن طهارة النفس فللحديث عن ذلك مجال آخر في هذه الرسالة(١)، وإنما الحديث هنا عن حديث القرآن عن الطهارة التي تشترط لصحة الصلاة، وهي الطهارة الحسية؛ لأن هذا هو الذي يعنينا في مجال أخلاقيات الصلاة، لذلك سنقتصر على هذا الجانب دون سواه فأقول وبا لله التوفيق :

قد علمنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولكن ما هي الصلاة التي تفعل ذلك ؟

والجواب: هو أن علينا أن نعود إلى الكتاب والسنة لنعرف الصلاة التي يكون لها هذا الأثر، وعند الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف على ذلك نجد أنه قد أتى ببعض أمور الصلاة ، وترك بيان الباقي لمبيِّنه وهو النبي صلى ا لله عليه وسلم .

وكان مما بينه شرطها الأول وهو : الطهارة .

حيث ركّز القرآن الكريم في أمر الصلاة على هذا الشرط فبينه غاية البيان فقال تعالى مبينا ذلك : ﴿ يأيُّها الَّذين آمنوا إذا قُمتُم إلى الصَّلاة فاغسِلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافِق وامسحو برؤسِكم وأرجلَكم إلى الكعبين وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا وإن كنتُم مرضَى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستم النِّساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيداً طيباًفامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يُريد ا للهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يُريدُ ليطهِّرَكم وليتمَّ نعمتَه عليكم لعلكم تشكرون ﴾[سورة المائدة:٦] .

فهذه الآية الكريمة، قد بينت الطهارة للصلاة بيانا شافيا،حيث فصَّلت أركان الوضوء وأعضاءه ، وما يجب فعله من غسل أو مسح ، وما يلزم فعله إذا كان الحدث كبيرا، وما ينوب عن الماء عند فقده أوتعذر استعماله، وذلك هو التيمم، كما بينت أعضاء التيمم وكيفيته، كل ذلك في هذه الآية الواحدة الجامعة الكريمة .

وما ذلك إلا لأهمية الطهارة وتوقف الصلاة عليها؛ إذ هي مفتاح الصلاة كما قال النبي صلى ا لله عليه وسلم: "مفتاح الصلاة الطَّهور، وتحريمها التكبير وتحليلها

(١) وهو ما عني به الباب الأول والثالث على وجه الخصوص .

التسليم"(١) . والمعنى أن الصلاة كالبيت المقفل لايستطاع دخوله إلا بمفتاح فمن جاء بالمفتاح دخله وإلا فهو مصدود عنه(٢) .

سر عناية القرآن الكريم بالطهارة :

ولعل السر في هذه العناية هو أن الصلاة وقوف بين يدي الملك الجليل، ومناجاة له وذلك يستدعي تهيؤا روحيا بإنعاش البدن، وإحيائه قبل الوقوف بين يديه تبارك وتعالى، ويحصل ذلك بغسل هذه الأطراف التي غالبا ما يكون عصيانه تبارك وتعالى عن طريقها، وبذلك تكون قد تلبدت بران الذنوب التي يعظم مواجهة الله عز وجل بها، فيفتر الروح عن هذه المواجهة، فكان لا بد من إنعاشه بالمآء الذي جعل الله فيه خاصية الحياة والإنعاش، وإزالة أو تخفيف الذنوب التي اقترفتها هذه الجوارح بذلك الوضوء الذي جعله الله مكفرا لها(٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب فرض الوضوء من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم ٦١، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور برقم ٣، وإسناده صحيح، وقال عنه الترمذي: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب، وصححه الألباني في الإرواء ٩/٢ برقم ٣٠١، وانظر التلخيص الحبير ٢١٦/١ .

(٢) انظر: عون المعبود، مع تهذيب ابن القيم ٨٩/١ .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب خروج الخطايا مع الوضوء برقم ٢٤٥، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره". وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء برقم ٢٥١، ومالك في الموطأ ١٧٦/١، والترمذي في الطهارة ٧٢/١ رقم ٥١ .

فبذلك يتهيأ لمناجاة الملك الجليل وتؤتى هذه المناجاة ثمرتها.

ولعل هذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة حين قالت: ﴿ ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يريدُ ليطهرَّكم وليتمَّ نعمتَه عليكم لعلَّكم تشكرون ﴾[سورة المائدة:٦] .

قال العلامة الألوسي(١) : "ولكن يريد ليطهركم : أي لينظفكم فالطهارة لغوية، أوليذهب عنكم دنس الذنوب فإن الوضوء يكفر الله تعالى به الخطايا ...، وذكر حديث أبي هريرة المتقدم آنفا، ثم قال: فالطهارة ـ التي دل عليها الحديث ـ معنوية، بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى ازالة النجاسة، لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف"(٢) .

قلت: وقد ذكرت في التعليق الأحاديث التي تدل على محو الوضوء للسيئات، ومنها تعلم مبلغ ما يفعله الوضوء من تطهير النفس من الذنوب التي هي الحجاب الأعظم بين العبد وربه،ولا غرابة في أن يفعل الوضوء ذلك فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن "الطهور شطر الإيمان"(٣) ، ومعنى ذلك: أن الإيمان يجُبُّ ما قبله من الخطايا، وكذلك الوضوء، لأن الوضوء لا يصح إلا مع الإيمان فصار في توقفه على الإيمان في معنى الشطر(٤) .

والطهارة كما تعني رفع الحدث، فهي تعني كذلك : إزالة النجاسة من على البدن والثوب والمكان، إذ لا يصدق على المرء أنه تطهر وهو ملطَّخ بالنجاسة، فإن طلب الشارع إزالة النجاسة أكيد في سائر الأحوال سواء كان داخلا في الصلاة أو غير ذلك، ولكن طلبه لها في حال الصلاة أشد، إذ من الأدب أن لا يقف المرء بين يدي من لا تخفى

---

(١) هو أبو الفضل السيد محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المفسر، خاتمة المحققين توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر التفسير والمفسرون للذهبي ٣٥٢/١ والأعلام ١٧٦/٧ .

(٢) روح المعاني ٨١/٦/٢ .

(٣) رواه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء برقم ٢٢٣، والترمذي في الدعوات رقم ٣٥١٢، باب رقم ٩١، والنسائي في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٥/٥،٦ .

(٤) هذا أحد الأقوال في معنى الحديث، وفي معناه أقوال أخرى، انظر: شرح النووي على مسلم ١٠٠/٣

عليه خافية وهو ملطخ بالأقذار فإن ذلك يستوجب مقته وغضبه.

ألا ترى كيف بلغت منزلة الأنصار حينما بالغوا في التطهر فكانوا إذا استجمروا بالأحجار أتبعوا ذلك بالماء فأنزل ا لله تعالى فيهم: ﴿ فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتطهَّروا وا لله يُحِبُّ المطَّهِّرين ﴾[سورة التوبة:١٠٨](١) .

وقد ورد وعيد شديد في عدم التنزه من البول، فقد مرَّ رسول الله صلى ا لله عليه وسلم على قبرين فقال: "أما أنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير" ثم قال: "بلى، أما أحدهما: فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستتر(٢) من بوله، فدعا بعَسِيب(٣) رَطْب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا، ثم قال: "لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا"(٤) .

ولما كان للطهارة ذلك الأثر العظيم آذن ا لله المحافظين عليها بمحبته في موضعين من كتابه الكريم: الأول في سورة البقرة حيث قال جل شأنه:﴿ إنَّ ا لله يُحبُّ التَّوابين ويُحبُّ

---

(١) كما جاء من حديث أبي هريرة عند أبي داود في الطهارة رقم ٤٤، والترمذي في التفسير برقم ٣١٠٠، قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا وا لله يحب المطهرين﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم .

والحديث صحيح بشواهده الكثيرة، كما بين ذلك الألباني في إرواء الغليل ٨٤/١-٨٥ برقم ٤٥ .

(٢) أي: لا يجعل بينه وبين البول سترة تحفظه من أن يرجع البول عليه .

(٣) العسيب: واحد العسب، وهو سعف النخل، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٦٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء، باب من الكبائر أن لايستتر من بوله ٦٢/١، وباب ما جاء في غسل البول، وفي الجنائز، باب الجريدة على القبر، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول، وفي الأدب باب الغيبة والنميمة من الكبائر .

ومسلم في الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه برقم ٢٩٢ واللفظ له .

المتطهرين ﴾[آية:٢٢٢] ، والآخر في سورة التوبة حيث قال عز وجل: ﴿ والله يحب المطَّهِّرين ﴾[آية: ١٠٨] . أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة(١) .

وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم حيث آذنهم الله بمحبته التي تعني غاية التكريم لهم، منه تعالى كما تقدم بيانه في مبحث المحبة(٢) .

---

(١) محاسن التأويل ٣٢٢/٨ .

(٢) ص ١٩٣

المَطْلَبُ الثَّالِث

(إقامة الصَّلاة)

وإذا ما تطهر المسلم على النحو الذي ذكر، فإنه قد تهيأ لأداء الصلاة التي تعبده الله بها، ولكن ما هو الأداء الذي ينبغي أن يؤديها عليه ؟ هل يكفي فيها مطلق القراءة والركوع والسجود ؟ .

الجواب : لا،ليس ذلك فقط هو الأداء المطلوب .

لأن الله تعالى الذي افترض علينا الصلاة قد بين لنا كيفية أدائها فليس لأحد أن يؤديها على خلاف ذلك البيان، فإنها لا تكون حينئذ صلاة شرعية أو ذات ثمرة، ولمعرفة ذلك البيان نرجع إلى القرآن الكريم لنعلمه،وسنجد أنه قد أمر بها في آيات كثيرة، وأثنى على المؤدين لها بآيات كثيرة أيضا، و كان ذلك غالبا بمادة "أقام" وما تفرع منها، وذلك لتعطي هذه المادة معنى خاصا قد لا يدل عليه غيره،وهو ما بينه ابن جرير الطبري(١) رحمه الله تعالى بقوله: "إن إقامتها تعني أداءها بحدودها ، وفروضها، والواجب فيه، على ما فرضت عليه"(٢) .

وقال غيره : إن معنى إقامتها يحتمل ثلاثة أقوال :

أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به .

والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

الثالث: إدامتها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند(٣) .

---

(١) هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، رأس المفسرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره كما قال السيوطي في طبقات المفسرين ص ٨٢ برقم ٩٣، وذكر له ترجمة موجزة نفيسة، ولد سنة ٢٢٤، وتوفي سنة ٣١٠هـ، له ترجمة في غالب كتب التراجم، انظر هامش الطبقات المذكورة، ومعجم طبقات الحفاظ لعبد العزيز السيرواني ص ٦٥٣ .

(٢) جامع البيان ١/١٠٤ .

(٣) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٢٥ .

وهذه المعاني الثلاثة مأثورة عن السلف أهل التأويل، كما هو مبين في المرجع المشار إليه، وكلها صحيحة يكمل بعضها بعضا .

فإقامة الصلاة تعني إذا: (تأديتها بحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة،مع المحافظة على مواقيتها وشروطها وفروضها والمداومة عليها)(١) .

قال الراغب: "لم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمر، ولا مدح به حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة،تنبيها إلى أن المقصود منها توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئاتها"(٢) .

وقال الحكيم الترمذي(٣): "فلم نجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها ، قال: فلما بلغ ذكر المنافقين قال: ﴿ فويلٌ للمصلين ﴾ فسماهم«المصلين» وسمى المؤمنين«المقيمين الصلاة» وذلك ليعلم أن المصلين كثير، والمقيمين قليل، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحاج قليل والركب كثير"(٤) .

وقال ابن القيم فيمن لا يقيم الصلاة على وجهها: "هذا تعطيل للصلاة وخداع من الشيطان، وخلاف لأمر الله ورسوله حيث قال تعالى: ﴿ أَقيموا الصلاة ﴾ فأمرنا بإقامتها وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، قال: وقد علق

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٥/٢ بتصرف .

(٢) المفردات ص ٤١٨، مادة (قوم) .

(٣) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الملقب بالحكيم الترمذي، وصفه الذهبي بأنه حافظ صاحب تصانيف ا.هـ، من تصانيفه "نوادر الأصول في أحاديث الرسول" ط واضطرب المؤرخون في تاريخ وفاته، والأرجح أنها سنة ٣٢٠هـ، كما رجح ذلك الزركلي في الأعلام ٢٧٢/٦، وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٤٥/٢ .

(٤) الصلاة ومقاصدها ص٧، وما قاله الإمامان الراغب والحكيم الترمذي، هو الأغلب، ولكن قد ورد الأمر بالصلاة بغير لفظ الإقامة كما في قوله تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾، وقوله: ﴿ وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾، وقوله: ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ إلى غير ذلك، وهذا لبيان الحقيقة، وإلا فما قالاه في معنى الإقامة صحيح، والله أعلم .

ا لله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته خشـوع الصـلاة لم يكـن مـن أهل الفلاح ..."(١) .

فعلمنا من ذلك كلـه أن الصـلاة الـتي تؤتـي ثمارهـا مـن الأجـر وتزكيـة النفـس وعلـو الأخلاق،هي الصلاة المؤداة على النحو الذي أمر ا لله بها، إذ لا تسمى صلاة شرعية ذات ثمرة إلا إذا كانت كذلك، وعلمنا أيضا أن الإطلاق في قولـه تعـالى: ﴿ إنَّ الصـلاةَ تنهـى عن الفحشاءِ..﴾ مقيـد بالآيـات الأخـرى الـتي منهـا صـدر تلـك الآيـة إذ فيهـا ﴿ وأقـم الصَّلاة..﴾، بل إنه لا إطلاق فيها أصـلا، إذ أن الصـلاة الثانيـة هـي عـين الصـلاة الأولى المقيدة بالإقامة،كما هي القاعدة في تكرار المعرفة، فالألف واللام للعهـد الذكـري، وا لله أعلم .

(١) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص ٤٩ .

المَطلبُ الرَّابعُ

(الخشوع فيها)

الخشوع في اللغة يعني: الخضوع والذل والسكون، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَخَشعتِ الأصواتُ للرَّحمٰن فلا تسمع إلا هَمساً ﴾[سورة طه:١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت(١)، قال ابن رجب(٢): "أصل الخشوع هو لين القلب ورقته، وسكونه وخضوعه وانكساره وحُرقته" قال: "فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له"(٣) .

وبهذا يكون ابن رجب رحمه الله قد جمع بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للخشوع؛ لأن تعريف الخشوع في الاصطلاح هو "هيئة في النفس، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع لله تعالى"(٤) ، وهذا معنى ما ذكره ابن رجب بقوله: "فإذا خشع القلب ..الخ، وهو المعنى الذي توحي به الدلالة اللغوية لهذه المادة كما علمت .

مكانة هذا الخلق بعامة :

ومن خلال هذا التعريف تعلم مدى مكانة هذا الخلق في الإسلام لما يعنيه من كمال العبودية لله تعالى، والشعور بالذل له والافتقار إليه دائما، ولذا نجد الثناء على أهله في

---

(١) القاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٣١٨/٥، وانظر مدارج السالكين ٥٢٠/١، والتوقيف للمناوي ص ٣١٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي ولد سنة ٧٣٦ وتوفي سنة ٧٩٥هـ، وله عدة مؤلفات منها: "شرح علل الترمذي"، له ترجمة في طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٠ برقم ١١٧٠، وأنباء الغمر للحافظ ابن حجر ٤٠٥/١، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٢٣/٦ وغيرها .

(٣) الخشوع في الصلاة ص ١١ .

(٤) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٧٤/١، ومفردات القرآن للراغب ص ١٤٨،، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣١٤ .

القرآن الكريم عظيما ، وما ذلك إلا لعظمة مكانة هذا الخلق في الإسلام، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصادقاتِ والصَّابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصَّائمينَ والصَّائماتِ والحافظينَ فُروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرينَ ا لله كثيرًا والذَّاكراتِ أعدَّ ا لله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

فقد عد خلق الخشوع في الرجل والمرأة من الأخلاق الإسلامية التي رتب ا لله تعالى عليها مغفرته وأجره العظيم، وقرنها في سلك واحد مع خصال الخير الأُخرى .

وكما في قوله تعالى : ﴿ واستَعينوا بالصَّبر والصلاةِ وإنَّها لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين ﴾ [سورة البقرة:٤٥]، فدلت الآية على أن الخاشعين هم الذين تهون عندهم تكاليف الدين مهما عظمت، وذلك لامتلاء نفوسهم بالخشوع لله تعالى .

ومعنى الآية كما ذكر المفسرون: "أن الصلاة شاقة وثقيلة، لما فيها من سجن النفس عن جميع الشهوات، فمكابدتُها تعد أشد المكابدات، لكن من كان من أهل الخشوع فإنها تهون عليه؛ لأن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقُّها وتستلذ بسببه متاعبها"(١) .

وكما في قوله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الَّذين هم في صلاتِهم خاشعونَ ﴾[سورة المؤمنون:١،٢] .

فوصف المؤمنين الذين قضى لهم بالفلاح وهو الفوز بخيري الدنيا والآخرة بعدة صفات، جعل صفة الخشوع أول صفاتهم؛ لأن ذلك من أبرز صفات الإيمان .

إلى غير ذلك من الآيات التي تنوه بمن كان هذا الخلق من أبرز أخلاقهم(٢) .

ولقد عتب ا لله تعالى عل من ادعى الإيمان ثم لم يكن هذا الخلق من أبرز أخلاقه، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ألم يأنِ لِلَّذينَ آمنُوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ ا للهِ

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٧٣/١، وتفسير البيضاوي ص ٩، وتفسير الألوسي ٢٤٩/١ .

(٢) كما في آيتي الإسراء ١٠٧،١٠٨، وآية الأنبياء ٩٠ .

وما نَزل من الحق ﴾[سورة الحديد:١٦] .

فترى أن الله تعالى قد عتب على من وصفهم بالإيمان لعدم خشوعهم عند ذكره أو سماع آياته، وفي هذا الأسلوب من العتاب ما تنخلع منه أفئدة أولي الألباب .

حتى قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: "قد سمع كثير من الصالحين هذه الآية تتلى فأثرت فيهم آثارا متعددة، فمنهم من تاب عند ذلك لانصداع قلبه بها، ومنهم من تاب عند ذلك وخرج عما كان فيه"(١) .

وما ذلك التنويه العظيم بأهله، والعتاب الشديد على تركه إلا لعظمة مكانته عند الله تعالى، ولذلك أعد لأهله (مغفرة وأجرا عظيما) لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه كما يدل على ذلك تنكيره ووصفه بالعظمة، وجعلهم ورثة الفردوس وهو أعلى الجنان، كما قال عقب سرد أولئك الورثة بصفاتهم وأخلاقهم في سورة المؤمنون: ﴿ أولئِكَ هم الوارثون * الَّذين يرِثون الفرْدوسَ هم فيها خالِدون ﴾[١٠،١١]، وما رشَّحهم لتلك المكانة العالية إلا عظمة تلك الأخلاق التي تحلَّوا بها والتي كان في مقدمتها الخشوع .

الخشوع في الصلاة :

ولما كان هذا الخلق بتلك المكانة كان طلب الصلاة له طلبا حثيثا بحيث عد "روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها"(٢)، وغدت كل صلاة تخلو من الخشوع، صلاة لا روح فيها.

وذلك لأن الصلاة هي روح العبادات كلها التي تعني الذل والخضوع كما تقدم، فكان لا بد وأن تظهر فيها معالم العبودية من الذل والخضوع لله، وذلك هو ما يعنيه الخشوع في جوهر مدلوله .

ولهذا لما أثنى الله تعالى على المصلين، إنما أثنى عليهم لتحليهم في صلاتهم بالخشوع

---

(١) الخشوع في الصلاة ص ١٧- ١٨ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥٢٦ .

كما علمت من آيتي سورتي البقرة والمؤمنون السابق ذكرهما، اللتين قال الله تعالى فيهما: ﴿ وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾ وقال: ﴿ قد أفلح المؤمنونَ * الّذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ .

وفي هذه الآية وصف الفائزين بالفلاح بصفات، كان في مقدمتها الخشوع في الصلاة، فدل على أن من لم يخشع في صلاته أنه ليس من أهل الفلاح، إذ لو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين(١) .

ومعنى ذلك أن الصلاة التي تخلو من الخشوع ليست هي الصلاة التي أرادها الله تعالى؛ لأن الله تعالى قد رتب على الصلاة ما تقدم ذكره، وفي هذه الآيات أشار إلى عدم حصول ذلك لمن لا يخشع في صلاته، فذلك دليل على أن صلاة الغافل ليست هي الصلاة المطلوبة شرعا .

وقد عضد هذه الدلالة، ذم الله تعالى للساهين عن صلاتهم حيث قال: ﴿ فويلٌ للمصلين * الّذين هم عن صلاتِهم ساهون ﴾[سورة الماعون:٤-٥]، حيث يشمل هذا الذم من تركها بالكلية، ومن أخرها عن وقتها المقدر لها شرعا، أو وقتها الأول، ومن أخل بأدائها وأركانها وشروطها، ومن لم يخشع فيها، و لم يتدبر معانيها وما يتلوه فيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذا الوعيد والذم" كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره(٢) .

كما أن الله حينما أمر بالصلاة وأثنى على أهلها، إنما كان على إقامتهم لها .

وقد مر معنا ما تدل عليه لفظ (الإقامة) من أنها تعني تأديتها بحدودها الظاهرة والباطنة، ومن لب حدودها الباطنة: الخشوعُ الذي يكون في القلب وتعبر عنه الجوارح فهو إذا مطلوب طلبا حثيثا في الصلاة .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) ٥٥٤/٤، وانظر مدارج السالكين ٥٢٧/١ .

ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى عدم الاعتداد بصلاة من لم يكن خاشعا فيها .

وسواء كان هـذا الـرأي مرجوحا أو راجحا، فـإن ذلـك يـدل علـى الأهميـة البالغـة للخشوع في الصلاة، ولا بدع فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "رُبَّ صائم حظه مـن صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر"(١) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، من حديث أبي هريرة برقم ١٦٩، وأحمد في المسند ٣٧٣/٢، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٣٠٠/١٠، رقم ١٤٣٠٢ .

وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣٠١/١: إسناده صحيح، رجاله ثقات، اهـ برقم ٦١٩ .

وحسّن العراقي في تخريج الإحياء ١٥٠/١ إسناد أحمد .

المَـطْـلَـبُ الخَـامسُ

(المحافظة عليها)

ثم إن الصلوات الخمس في العمر كله تعد وُحدة كاملة،لا يصح شرعا أن يؤخذ بعضها ويترك بعضها الآخر، أو يصلي في وقت دون آخر، بل إن الإسلام كله كذلك، دينا كاملا لا يقبل التبعيض أو التفريط كما قال تعالى: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينا ﴾[سورة المائدة:٣]، وكما قال ناعيا على اليهود الذين يأخذون بعض جزئيات الدين دون البعض الآخر: ﴿ أفتؤمنونَ ببعضِ الكتاب وَتكفرونَ ببعضٍ فما جزاءُ من يَفعلُ ذلك مِنكمْ إلا خِزيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويوم القيامة يُردُّون إلى أشدِّ العذابِ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾[سورة البقرة:٨٥]، والآية وإن كانت في صدد الحديث عن اليهود، فإنها تعم المؤمنين إذا شابهوهم فيما عوتبوا فيه كما لا يخفى .

والصلاة ركن من أركان هذا الدين، ولا يؤدِّي الركن عمله وينتج أثره إلا إذا كان كاملا غير منقوص، ويشهد لذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال: "من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكا يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف"(١) .

لذلك نجد القرآن الكريم أمر بالمحافظة على الصلوات وأثنى على المحافظين عليها، أما من لم يحافظ عليها فقد ذكرهم في معرض الذم، وبين ما أعد الله لهم من مصير .

الأمر بالمحافظة على الصلاة :

فقال آمرا بالمحافظة عليها: ﴿ حافظوا على الصَّلواتِ والصَّلاةِ الوسطى وقوموا لله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٩/٢، والطبراني في الأوسط ٤٥٦/٢ رقم ١٧٨٨ ، وابن حبان ١٤/٣ الإحسان، قال الهيثمي في المجمع ٢٩٧/١: رجاله ثقات. وفي الزواجر لابن حجر الهيتمي ١٢٣/١: إسناد أحمد جيد .

قانتين ﴾[سورة البقرة:٢٣٨]، والمعنى: "داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها وسننها من غير إخلال بشيء منها"(١) وهذا أمر يقتضي الوجوب، فمن فرط فيه فقد فرط في ترك واجب .

وذكر الفخر الرازي عِلَّة هذا الأمر في وجوه ثلاثة منها الوجهان الآتيان :

"أحدهما: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخضوع والخشوع، تفيد انكسار القلب من هيبة الله، وزوال التمرد عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى، والانتهاء عن مناهيه كما قال: ﴿ إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] .

ثانيهما: أن الصلاة تذكِّر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة، ولذلك قال: ﴿ واستَعينوا بالصَّبر والصلاة ﴾(٢) [سورة البقرة:٤٥] .

وكأنه رحمه الله يريد أن يفسر سر تكرار الصلاة في اليوم والليلة خمس مرات، وهما وجهان جليلان كما لا يخفى .

الثناء على المحافظين على الصلاة :

وفي هذا الأمر بالمحافظة على الصلوات كفاية للامتثال والمبادرة من المؤمنين، لكن الله تعالى وهو الودود الرحيم لم يغفل ذكر المبادرين إلى تأديتها من الثناء العطر إشادة بهم وتحفيزا لهمم المتقاعسين من غيرهم، فقال جل شأنه في ذلك: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدِّقُ الذّي بينَ يَديه ولتنذرَ أمَّ القرى ومن حولها والذين يُؤمنون بالآخِرةِ يُؤمنون به وهم على صلاتِهم يحافظون ﴾[سورة الأنعام:٩٢].

فترى أن الله عز وجل قد خص من بين خصال الإيمان وشعبه الكثيرة ذكر الإيمان

---

(١) محاسن التأويل ٣/٢٨٢ .

(٢) التفسير الكبير ٦/١٤٥ .

بكتابه، والمحافظة على الصلاة للدلالة على أهمية هذين الوصفين في مسمى الإيمـان، إذ عدم الإيمان بالقرآن مخرج للمرء من ربقة الإيمان، وعدم المحافظة على الصلاة تفريط بعماد الدين، وذلك كفر عند كثير من العلماء كما ستأتي الإشارة إليه .

قال الفخر الرازي رحمه الله: "وليس لقائل أن يقول: الإيمان بالآخرة يحمـل علـى كـل الطاعات، فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر ؟

قال: لأنا نقول: المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعـد الإيمـان بـا لله تعالى، وأعظمها خطرا، قال: ألا ترى أنه لم يقـع اسـم الإيمـان علـى شـيء مـن العبـادات الظـاهرة إلا علـى الصـلاة كمـا قـال تعـالى: ﴿ ومـا كـان الله ليضيع إيمـانكم ﴾[سـورة البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم، قال: و لم يقع اسم الكفر على شيء إلا على ترك الصلاة، قـال عليه الصلاة والسلام: "من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر"(١) قال: فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله تعالى بالذكر في هذا المقام"(٢) .

وقد تكرر ثناء الله تعالى على المحافظين على الصلاة في مواضع أخرى غير هذا .

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ فيما يوجد بين يدي من كتب الحديث، ولكن ورد بألفاظ أخرى قريبة منـه؛ منها مـا أخرجه ابن ماجه في الفتن برقم ٤٠٣٤، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنـه أن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم قال: "مـن تـرك الصـلاة متعمـدا فقـد برئـت منـه ذمـة الله" وإسـناده حسـن كمـا في الزوائـد ٣٠٤/٢...

ويشهد له ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهمـا، أنـه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة " مسلم رقم ٨٢، وأبـو داود في السـنة رقـم ٤٦٧٨، والـترمذي في الإيمـان، بـاب مـا جـاء في تـرك الصـلاة بأرقـام: ٢٦١٨، ٢٦١٩، ٢٦٢٠، وابـن ماجـه في الصـلاة ١٠٧٨، ومـا رواه النسـائي في الصـلاة ٢٣١/١، والـترمذي في الإيمـان ٢٦٢١، وابن ماجه في الصلاة برقم ١٠٧٩ من حديث بريدة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلـى الله عليه وسلم: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمـن تركهـا فقـد كفـر"، وقـال عنـه الـترمذي: حسـن صحيح غريب .

(٢) التفسير الكبير ٨٢/١٣ .

ففي سورة (المؤمنون) عدد الله مناقب المؤمنين المفلحين على سبيل الثناء والمدح وذكر من مناقبهم أنهم ﴿ على صلاتِهم يُحافظون ﴾ ثم أثابهم على ذلك كله بما أخبرعنه بقوله: ﴿ أولئك هم الوارثون۝الذين يَرثون الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾ [١٠،١١] .

وفي سورة (المعارج) استثنى الله تعالى من جنس الإنسان المجبول على الخصال الذميمة من الهلع والجزع والبخل، استثنى المصلين الذين أثنى عليهم ثناء عظيما على تحليهم بصفات كريمة حميدة كثيرة، أولها أنهم ﴿ على صلاتِهم دائمون ﴾ وآخرها أنهم ﴿ على صلاتهم يُحافظون ﴾ مما يحمل دلالة على شرف الصلاة وعلو قدرها؛ لأنها معراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين(١) .

قالوا: "وإنما كرر الثناء عليهم في شأن الصلاة لاختلاف دلالة الوصفين إذ الدوام غير المحافظة، فالمداومة عليها تعني المحافظة على أدائها بأن لا يُخِلُّون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، أما المحافظة عليها فهي تعني أنهم يراعون إسباغ الوضوء لها ومواقيتها وإقامة أركانها، وإكمالها بسننها وآدابها، وحفظها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها"(٢) .

فأثنى الله عليهم لجمعهم الوصفين وذلك دليل على التلازم بينهما، وأن المداومة دون المحافظة أو العكس لا ترشح لمثل ذلك الثناء البليغ، ولا لأن تؤتي الصلاة ثمارها .

ذم من لم يحافظ على الصلاة :

وهو ما دلت عليه آيات الكتاب العزيز الأخرى والسنة المطهرة في أحاديث كثيرة.
أما الكتاب فبمثل قوله تعالى:﴿فخَلَف من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوف يَلْقون غيّاً﴾[سورة مريم:٥٩]، فقد قالوا: إن إضاعتها ليس تركها بالكلية، ولكنهم

---

(١) انظر روح المعاني ٧٩/٢٨/١٠ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٩٢/١٨ بتصرف، وانظر تفسير الفخر الرازي ١٢٩/٣٠ .

أخَّروهـا عن أوقاتها كما روي عن جماعة من أهل التـأويل(١)، قـالوا: لأن الـترك بالكليـة كفر(٢) .

[الماعون٤-٥]

وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿ فويلٌ للمصلِّين * الذيـن هم عـن صلاتِهـم سـاهون ﴾(٣)، كما تقدمت الإشارة إليه .

أما السنة المطهرة فقد ورد فيها من الوعيد الشديد على عدم المداومـة أو المحافظـة على الصلاة، ومن الترغيب على ذلك الشيء الكثير تقدم شيء من ذلك .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: "خمس صلوات كتبهـن ا لله علـى العبـاد، فمـن جـاء بهن و لم يضيِّع منهن شيئا استخفافا بحقهن، كان له عند ا لله عهد أن يدخله الجنـة، ومـن لم يأت بهن فليس له عند ا لله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة"(٤) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي لا يأتي على مثلها الحصر هنا .

---

(١) منهم ابن مسعود والنخعي وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن مخيمرة ا.هـ، زاد المسير ٢٤٥/٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٢٧/٣ .

(٣) انظر زاد المسير مثلا ٢٤٤/٩ .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ في صلاة الليل، باب الأمر بالوتر ١١٠/١، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات برقم ٤٢٥، وفي باب من لم يوتر برقم ١٤٢٠، والنسائي في الصـلاة، بـاب المحافظـة على الصلوات الخمس ٢٣٠/١، وابن حبان في صحيحه ١١٦/٣ من الإحسان، قال الشيخ شعيب الأرنـؤوط في تعليقه على جامع الأصـول ٤٥/٦: صححـه ابـن عبـد الـبر وغـيره مـن العلمـاء، وصححـه الألبـاني في السلسلة الصحيحة ١٣١/١، كلهم من حديث عبادة بن الصامت رضي ا لله عنه .

التَّطبيق النَّبويُّ للصَّلاة

لقد كان للصلاة عند النبي صلى الله عليه وسلم ميزة خاصة عن سائر العبادات، لما لها من المعاني السامية والمنزلة الكبرى عند الله عز وجل، إذ هي مناجاة الله، ووقوف خاشع بين يديه بالعقل والقلب والجوارح، إذ هي عماد الدين، والعلامة المميزة للمؤمنين من الكافرين، فلذا كانت قرة عينه صلى الله عليه وسلم وروضة راحته، ومزيل همه وغمه .

١ ـ فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "حُبب إليَّ من الدنيا الطيب والنساء، وجعل قرة عيني في الصلاة"(١) .

فانظر كيف خص الصلاة من بين سائر أعمال الدين، بأنها قرة عينه، أي موضع سروره، ومحل طيب نفسه، لما فيها من مناجاة ربه والتضرع إليه، ولهذا كان يقول:

٢ ـ "أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها" وفي لفظ "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"(٢) .

والمعنى: "آذِنَّا بالصلاة لنستريح بأدائها من شغل القلب، وذلك لأنه كان يعدُّ غيرها من الأعمال الدنيوية تعبا، فكان يستريح بالصلاة لما فيها من مناجاة الله تعالى، وما أقرب الراحة من قرة العين"(٣) .

وكيف لا تكون الصلاة عند النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المثابة، وهي روح

---

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء، باب حب النساء ٦١/٧، وأحمد في المسند ١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥، والحاكم في المستدرك ١٦٠/٢، والبيهقي في الكبرى ٨٧/٧، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٢٣٢، ٧٢٠، ٧٢١، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣١١٩/٣، وحسنه في تعليقه على المشكاة رقم ٥٢٦١، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣٠/٢: إسناده جيد .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في صلاة العتمة برقم ٤٩٨٥، ٤٩٨٦، من حديث سالم بن أبي الجعد، وعزاه العراقي في تخريج الأحياء ١٦٥/١ إلى الدار قطني في العلل، قال: وإسناده صحيح .

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٢٦٤/٦ بتصرف يسير .

العبادات كلها التي طالما حثه ا لله تعالى على الجد والاجتهاد فيها مدة حياته، وذلك بمثل قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[سورةالحجر:٩٨-٩٩] ، فأمره بأن يلجأ عند اشتداد الضيق عليه إلى العبادة من التسبيح والتحميد والسجود والاستمرار على ذلك ، إلى أن يأتيه اليقين وهو الموت، أو النصر الموعود به(١)، لما في هذه العبادة من انكشاف الغم والضيق، للتعلق با لله والتلذذ بمناجاته، فينسى كل ما يحزنه(٢)، ويخف عليه كل ضيق، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر صلى(٣) .

ولقد تكرر الأمر الإلهي له صلى ا لله عليه وسلم بالعبادة والاستمرار عليها في القرآن الكريم خمس مرات نحو هذه الآية، ففي سورة (هود) يقول ا لله تعالى في خطابه له: ﴿ و لله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[آية ١٢٣]، فأمره بالعبادة والتوكل على ا لله تعالى .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٦٠/٢، وروح المعاني للألوسي ٨٧/١٤/٥، والتحرير والتنوير ٩٢/١٤، وقال الألوسي: وأيا ما كان ـ أي تفسير اليقين بالموت أو النصر ـ فليس المراد به ما زعمه بعض الملحدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصل له ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، قال: ولقد مرقوا بذلك من الدين، وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين ا.هـ.

وقال القسطلاني في المواهب ٢٠٠/٢: وهؤلاء أعظم كفرا وإلحادا، حيث عطلوا العبودية، وظنوا أنهم قد استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة التي هي من أماني النفس وخداع الشيطان، قال: فلو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة ما دام قادرا عليه ا.هـ .

(٢) انظر روح المعاني ٨٧/١٤/٥، والتفسير الكبير ٢٥٠/٢٠ .

(٣) كما جاء في حديث حذيفة رضي ا لله عنه عند أبي داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى ا لله عليه وسلم من الليل برقم ١٣١٩، وأحمد في المسند ٣٨٨/٥، وإسناده ضعيف كما بينه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ١٣٢٥ .

وفي سورة (مريم) يقول له سبحانه: ﴿ ربُّ السموٰاتِ والأرض وما بينهما فاعبُده واصطَبر لعبادته هل تعلمُ له سَمِيًّا ﴾[آية:٦٥]، فأمره بالعبادة والاصطبار على مشاقها حتى يضيق ذرعا بتكاليفها .

وفي سورة (الزمر) يقول سبحانه: ﴿ إنَّا أنزلنا إليكَ الكِتابَ بالحقِّ فاعبد ا للهَ مخلِصًا له الدِّين ﴾[آية:٢]، وفيها أيضا يقول: ﴿ بل ا للهَ فاعبُد وكنْ من الشَّاكرين ﴾[آية:٦٦].

فأمره أولا بالعبادة والإخلاص فيها، وفي الثانية بالعبادة والشكر على عظيم إنعام ا لله تعالى عليه، وهذا بالإضافة إلى الآيات التي كان الخطاب فيها عاما، ويدخل فيها النبي صلى ا لله عليه وسلم دخولا أوليا، وهي كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَاسُ اعبُدوا ربّكم الذي خلَقكم والذين مِن قبلِكم لعلَّكم تتقون ﴾[سورة البقرة:٢١] . وهي كثيرة معلومة (١) .

"ولهذا كان صلى ا لله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهادا وقياما بوظائف العبادة ومحافظة عليها، إلى أن توفاه ا لله تعالى"(٢) كما يدل لذلك الأحاديث الكثيرة،في كل جزئية من جزئيات الصلاة لا سيما الطهارة لها، وإقامتها على وجهها، والخشوع فيها، والمحافظة عليها كما سيأتي بيانه :

تطهره صلى ا لله عليه وسلم للصلاة :

١-فعن تطهره صلى ا لله عليه وسلم للصلاة، يبين لنا عثمان بن عفان رضي ا لله عنه كيفية تطهره صلى ا لله عليه وسلم:

وذلك أنه توضأ فأفرغ على يديه ثلاثا فغسلهما ثم مضمض واستنثر وغسل وجهه ثلاثا، وغسل يده اليمنى إلى المرفقين ثلاثا، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثا، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: "رأيت رسول ا لله صلى

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٤٢ .

(٢) المواهب اللدنية ٢/٢٠٠ .

ا لله عليه وسلم توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قال: "مــن توضأ نحو وضوئي هـذا ثـم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفِر له ما تقدم من ذنبه"(١) .

٢ ـ كما بينه علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه حيث "أُتِيَ بكرسيٍّ فقعد عليه، ثم دعا بتَور(٢) فيه ماء فكفأه على يديه ثلاثا، ثم مضمض واستنشق بكف واحدة ثلاث مرات، وغسل وجهه ثلاثا، وغسل ذراعيه ثلاثا، وأخذ من الماء فمسح برأسه، وغسل رجليه ثم قال: "من سره أن ينظر إلى طهور رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فهذا طهوره"(٣) .

٣ ـ وكان يتوضأ ثلاثا ثلاثا كما مر في حديث عثمان رضي ا لله عنه .

٤ ـ ويتوضأ مرتين مرتين(٤) .

٥ ـ ومرة مرة(٥) لبيان الجواز .

٦ ـ ويتوضأ عند كل صلاة(٦) .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ٥٠/١، وفي الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم ٤٠/٣، ومسلم في الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله برقم ٢٢٦ .

(٢) وهو إناء من صفر أو حجارة كالإجّانة ـ الطّاوة ـ النهاية ١٩٨/١ .

(٣) أخرجه النسائي في الطهارة، باب عدد غسل الوجه، وفي أبواب أُخَر قبله وبعده ٦٧/١ ـ ٧٠، من عدة طرق، وأبو داود في الطهارة، باب صفة وضوء النبي صلى ا لله عليه وسلم من عدة طرق من رقم ١١١ ـ ١١٧، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في وضوء النبي صلى ا لله عليه وسلم كيف كان برقم ٤٨ ـ ٤٩، وقال عنه: حسن صحيح .

(٤) كما جاء عند البخاري رحمه ا لله تعالى في الوضوء، باب الوضوء مرتين ٥٠/١، من حديث عبد ا لله بن زيد رضي ا لله عنه، أن النبي صلى ا لله عليه وسلم توضأ مرتين مرتين .

(٥) كما ثبت عند البخاري في الوضوء، باب الوضوء مرة مرة ٤٩/١، من حديث ابن عباس رضي ا لله عنه .

(٦) كما ثبت عند البخاري في الوضوء من غير حَدَث ٦٢/١، من حديث أنس رضي ا لله عنه .

٧ - وربما صلى الصلوات بوضوء واحد لبيان الجواز[(١)] .

٨ - وإذا توضأ أسبغ الوضوء[(٢)] .

٩ - ويقول: "ويل للأعقاب من النار"[(٣)] للحث على إسباغ الوضوء .

١٠ - ويقول: "لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه ويصلي الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها"[(٤)] .

١١ - وكان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع[(٥)] .

فهذه نبذة من الأحاديث في وضوئه صلى الله عليه وسلم، والأحاديث في الباب كثيرة معلومة لا يتسع المقام لبسطها، وهي معلومة في أبواب الطهارة من كتب الحديث عامة .

---

(١) كما جاء عند مسلم في الطهارة، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد برقم ٢٧٧، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه، وعند البخاري في الوضوء ٦٢/١، من حديث سويد بن النعمان رضي الله عنه .

(٢) كما ثبت من حديث أسامة بن زيد عند البخاري في الوضوء ٤٦/١، ومسلم في الحج، باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة برقم ١٢٨٠، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلين ٤٥/١، وعند مسلم في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم ٢٤٦، وباب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء برقم ٢٥٠، وثبت أيضا عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم من فعله صلى الله عليه وسلم وأمره .

(٣) رواه البخاري في الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يغسل القدمين ٥١/١، من حديث عبد الله بن عمرو، وباب غسل الأعقاب ٥١/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما برقم ٢٤١ .

(٤) رواه البخاري في الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ٦٠/١، ومسلم في الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله برقم ٢٢٦ من حديث عثمان رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري في الوضوء، باب الوضوء بالمد ٦٠/١، ومسلم في الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة برقم ٣٢٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأما ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث القولية المنوّهة بفضل الوضوء وعظيم أجره فقد تقدم ذكر بعض منها حينما كانت المناسبة داعية لذكرها في أول المبحث هذا .

إقامته صلى الله عليه وسلم للصلاة وخشوعه فيها :

وأما إقامته صلى الله عليه وسلم للصلاة بأركانها وخشوعها وآدابها وهيئاتها فهو أيضا مما يجل عن الحصر هنا، من الأحاديث الصحيحة الثابتة فضلا عن غيرها .

١ ـ فمن ذلك حديث أبي حُميد الساعدي(١) رضي الله عنه،الذي جاء فيه أنه قال في عشرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،منهم أبو قتادة رضي الله عنه وعنهم جميعا، قال: "أنا أعلمكم بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فلم ؟ فوالله ما كنتَ بأكثرنا له تبعا، ولا أقدَمنا له صحبة، قال: بلى، قالوا: فاعرض، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يكبر حتى يَقرّ كل عظم في موضعه معتدلاً، ثم يقرأ ثم يكبر ويرفع يديه، ثم يحاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل فلا يُصَبّ(٢) رأسه، ولا يُقنِع(٣)، ثم يرفع رأسه فيقول: سمع الله لمن حمده، ثم يرفع يديه حتى يحاذي منكبيه معتدلاً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبيه، ثم يرفع رأسه ويثني رجله اليسرى فيقعد عليها، ويفتح أصابع رجليه إذا سجد، ثم يسجد، ثم يقول: الله أكبر، ويرفع ويثني رجله اليسرى، فيقعد عليها، حتى يرجع كل عظم إلى موضعه، ثم يصنع في

---

(١) هو المنذر بن سعد بن المنذر، وقيل: اسمه عبد الرحمن، وقيل: عمرو، صحابي جليل شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا وما بعدها، وعاش إلى أن توفي آخر خلافة معاوية وأول خلافة يزيد، انظر الإصابة ٤/٤٦، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤/٤٢ .

(٢) أي لا يميله إلى أسفل .

(٣) أي لا يرفعه حتى يكون أعلى من ظهره .

الآخرة مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبَّر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، كما كبر عند افتتاح الصلاة، ثم يصنع مثل ذلك في بقية صلاته، حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخَّر رجله اليسرى، وقعد متورِّكا على شقه الأيسر، قالوا: صدقت هكذا كان يصلِّي"(١) .

فهذا الحديث أجمع الأحاديث الكثيرة التي وردت في كيفية صلاته عليه الصلاة والسلام، وهو يدلنا على مقدار تعظيمه صلى الله عليه وسلم للصلاة واستشعاره جلال الله تعالى في مقامه لها، وإقباله عليها بروحه وجسده جميعا،حتى صار هذا خُلُقا له صلى الله عليه وسلم تتمثل فيه وصايا القرآن بإقامة الصلاة والخشوع فيها والمحافظة عليها وتعظيم شأنها في أقواله وأفعاله .

وهناك أحاديث أخرى كثيرة تدل على نحو ما دل عليه هذا الحديث من إقامة الصلاة على وجهها الأتم .

٢ - ومن تلك الأحاديث حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثم قال: وجَّهت وجهي للذي فطر السموٰات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إلـٰه إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدني لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك .

وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي

---

(١) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الجلوس في التشهد ١/١٩٩، وأبو داود في صفة الصلاة، باب سنة الجلوس في التشهد برقم ٧٣٠، واللفظ له، وأخرجه في هذا الباب من عدة طرق برقم ٧٣١ ـ ٧٣٥، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في وصف الصلاة برقم ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وبصري ومخّي وعظمي وعصبي. وإذارفع قال: سمع ا لله لمـن حمـده، ربنـا ولـك الحمـد ملء السموات والأرض وملء مابينهما، وملء ما شئت من شيء بعده.

وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للـذي خلقه وصوّره فأحسن صورته، وشقّ سمعه وبصره، وتبارك ا لله أحسن الخالقين .

وإذا سلّم من الصلاة قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت"(١).

ومن هذين الحديثين تتضح لنا صفة صلاة النبي صلى ا لله عليه وسلم على الإجمـال مـن حيث الأداء والمناجاة، والخشوع والطمأنينة، وإجلال ا لله تعالى إجلالا ملَك عليـه مجـامع نفسه، ومعاقد لفظه، وجوامع قوله،في كل موقف من مواقفهـا، إذا استفتح، وإذا ركـع، وإذا رفـع، وإذا سـجد ..، والأحـاديث في بيـان كيفيـة صلاتـه صلـى ا لله عليــه وسـلم كثيرة(٢) .

ولما كانت صلاته صلى ا لله عليه وسلم على هذا النحو من كمال الإقامة، نـدب أمتـه الى الاهتداء به فيها، وعبادة ا لله تعالى على ذلك النحو فقال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "صلوا كما رأيتموني أصلي"(٣) .

وهذا أمر إيجاب من لم يتقيد به، ولم يصلِ كصلاته صلى ا لله عليه وسلم لم تصح صلاتـه

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل برقم ٧٧١، وأبو داود في الصـلاة، بـاب مـا يستفتح برقم ٧٦١، والترمذي في الصلاة مختصرا، باب ما يقول الرجل إذا رفع رأسـه مـن الركـوع برقـم ٢٦٦ ، والنسائي في الافتتاح، باب نوع آخر مـن الذكـر والدعـاء بـين التكبـير والقـراءة ١٢٩/٢، والبغوي في الأنوار برقم ٥٢١ .

(٢) منها غير ما ذكر حديث وائل بن حجر، وحديث عقبة بن عامر، وحديـث أبي هريـرة، وحديـث عائشـة رضي ا لله عنهم. انظر: جامع الأصول ٤٢٤/٥ ـ ٤٢٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعـة ١٥٤/١، ومسـلم في المسـاجد، بـاب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤، من حديث مالك بن الحويرث رضي ا لله عنه .

٢ ـ لذلك لم يعتد صلوات الله وسلامه عليه بصلاة ذلك الرجل الذي لم يصل كصلاته، فلم يقمها بأركانها وآدابها على نحو ما كان يفعله عليه الصلاة والسلام، بل قال له: "إرجع فصل فإنك لم تصل"، يفعل ذلك مرارا، حتى قال له الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني، وعندها قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئنّ راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها"(١) .

فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الصلاة التي يصليها هو، وحكم على صلاته التي صلاها على غير تلك الكيفية بأنها ليست بصلاة، فدل على أن من لم يصل على ذلك النحو من القراءة والطمأنينات والآداب أنه غير مصل، لأنه لم يصل كما كان رسول الله عليه وسلم يصلي .

محافظته صلى الله عليه وسلم على الصلاة :

أما محافظته صلى الله عليه وسلم على الصلوات، فقد فهمت بالالتزام من العلم بعظم مكانة الصلاة لديه، السابق ذكرها في أول التطبيق هذا، فإن من كانت الصلاة لديه بتلك المكانة، يكون حفاظه عليها كحفاظه على روحه وجسده، بل أشد من ذلك، كيف لا وهي قرة عينه وسلوة حزنه، وموضع راحته، وذلك هو ما دلت عليه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منها الأحاديث التالية :

---

(١) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة ١٩٠/١، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم ٣٩٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذا هو الحديث المشهور بحديث المسيء صلاته، وقد جمع طرقه وألفاظه الأخ الشيخ محمد عمر بازمول في جزء مفرد مطبوع .

١ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى صلاة لغير ميقاتها، إلا صلاتين: جمع بين المغرب والعشاء بِجَمع(١)، وصلَّى الفجر يومئذ قبل ميقاتها"(٢) .

فهذه شهادة ابن مسعود رضي الله عنه الذي كان شديد الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،حتى كان يَظنُّ الغرباء أنه من أهل بيته، فهو لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير ميقاتها قط .

٢ - وكذا قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : "ما صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة لوقتها الآخِر مرتين حتى قبضه الله"(٣)، والسيدة عائشة هي من هي إطلاعا على أحواله عليه الصلاة والسلام ؟! ومع ذلك تنفي أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تكرر له أن صلَّى صلاة في وقتها الآخِر مرتين، وذلك لشدة تحريه الصلاة في أول وقتها، ولذلك لما كان هذا هو حاله، واضطرته الحرب في غزوة الأحزاب إلى أن يؤخر صلاة العصر عن وقتها الأول، ساءه ذلك جدا، ودعا على المشركين قائلا:

٣ - "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا، أوقال:

---

(١) أي: بمنى .

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب من يصلي الفجربجمع ٢٠٣/٢، ومسلم في الحج، باب استحباب التغليس بصلاة الصبح يوم النحر برقم ١٢٨٩ .

(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل برقم ١٧٤، وقال: حسن غريب وليس إسناده بمتصل، قلت: لكن وصله الحاكم ١٩٠/١، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر حاشية المحدث أحمد شاكر على الترمذي ٣٢٩/١ .

حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا"(١) .

فانظر كيف أظهر عليه الصلاة والسلام حزنه على تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذلك إلا لشدة اهتمامه بتأديتها في أول وقتها، وكبير محافظته عليها، وإلا فقد كان في عذر سائغ في هذا التأخير، وكان في عبادة عظيمة .

ولقد كان لفرط محافظته عليه الصلاة والسلام على الصلاة في أول وقتها، كان إذا غزا أو سافر فأراد أن يستريح، عهد إلى أحد أن يرقب الوقت، خشية أن ينام عنه أو يؤخره عن أوله :

٤ ـ كما جاء من حديث أبي قتادة (٢) رضي الله عنه قال: "سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض القوم: لو عرَّست(٣) بنا يا رسول الله ؟ قال: أخاف أن يناموا عن الصلاة، فقال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم وقد طلع حاجب الشمس، فقال: يا بلال، أين ما قلت ؟ فقال: ما أُلْقِيَتْ عليَّ نومة مثلها قط، قال: إنَّ الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء، يابلال قم فأذن الناس بالصلاة، فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابياضَّت قام فصلى بالناس جماعة"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم ٦٢٨، وابن ماجه في الصلاة، باب المحافظة على صلاة العصر برقم ٦٨٦، وأحمد في المسند ٨٢/١، ١١٣، ١٢٢، ١٢٦، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، من حديث علي رضي الله عنه، وفي ٤٠٤/١، ٤٥٦ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) هو الحارث ويقال: عمرو أو النعمان بن ربعي السُّلَمي الأنصاري الخزرجي، شهد أحدا وما بعدها، وكان يقال له فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ، وله ٧٢ سنة. انظر الإصابة ١٥٨/٤، وبهامشها الاستيعاب ص ١٦١ .

(٣) التعريس نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة، النهاية ٢٠٦/٣ .

(٤) أخرجه البخاري في المواقيت، باب الأذان بعد ذهاب الوقت ١٤٥/١، ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم ٦٨١ .

هكذا كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الصلوات وأدائها في أول أوقاتها مع سعة بعض أوقات الصلوات، ولكن ما كان من جعلت الصلاة قرة عينه ليقدر على تأخيرها عن أول وقتها ما لم يقصد التشريع، وانظر كيف كان انزعاجه صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على تأخير صلاة العصر حتى احمرت الشمس، مع أن آخر الوقت لم يخرج، كما أنه كان في جهاد وعمل موصول مع الله تعالى، ولكن هكذا كان الخلق النبوي الشريف، استشعارا لجلال الله تعالى ومحبة الوقوف بين يديه سبحانه، وانظر كيف كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الصلاة، حيث لم يرد أن يستريح من تعب السفر خشية أن يفوت عليهم وقت صلاة الفجر، حتى تكفل بلال بحفظ الوقت، وفي رواية مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه رضوان الله عليهم: "احفظوا علينا صلاتنا" فلما عهد إليهم ذلك، ووثق بهم في هذا الشأن أعطى جسمه الشريف بعض الراحة في تعريسه ذاك، وهكذا يكون الذين هم على صلاتهم يحافظون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

المَبْحَثُ الثَّانِي

(الزَّكاة)

وفيه أربعة مطالب:

١ ـ تعريفها وبيان علاقتها بالأخلاق .

٢ ـ طيب النَّفس بإخراجها .

٣ ـ عدم المنِّ بها .

٤ ـ تحرِّي أصنافها .

المَطْلَبُ الأوَّل

تعريف الزَّكاة :

الزَّكاة لغة: النماء والزيادة، يقال: زكى الزرع ، والأرض تزكو زُكواً: إذا هي نمت، وزكَّاه الله تعالى وأزكاه: أنماه وجعل فيه بركة، وزكى الرجل يزكو زُكُوّاً: صلح وتنعم.

والزكاة صفوة الشيء، وما أخرجته من مالك لتطهره به(١)، قال ابن الأثير: "الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح، قال: وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث، إلى أن قال: فالزكاة طهرة للأقوال، وزكاة الفطر طهرة للأبدان"(٢) .

أما في الشرع: فهي عبارة عن اسم لأخذ مال مخصوص من مال مخصوص على وجه مخصوص يصرف لطائفة مخصوصة(٣) .

وذلك المال المخصوص المأخوذ منه هو القدر المخرَج من مجموع المال من ربع العشر أو نصفه أو العشر .

وأما المال المخصوص: فهو المال الزَّكَوي البالغ نصابا .

والوجه المخصوص: هو الكيفية التي تخرج بها الزكاة من شروطها وأسبابها وآدابها .

والطائفة المخصوصة: هم الأصناف الثمانية المبينين في آية الصدقة(٤) .

علاقة الزكاة بالأخلاق :

وبالإضافة إلى أن الزكاة ركن من أركان الإسلام، وتحقق هدفاً كبيراً من أهدافه في تكافل المجتمع المسلم، فإنها وسيلة كبرى من وسائله في تطهير النفس البشرية من رذائل الأخلاق وسيء الأعمال، لإن من أمهات رذائل الأخلاق التي تنشأ منها أخلاق سيئة كثيرة: (حبُّ المال حُباً جما) إذ ينشأ من ذلك الشح والبخل والتَّقتير والسرقة والنهب ...

---

(١) المصباح المنير ١٧٢/١، وتاج العروس ١٦٤/١٠، مادة (زكى) .

(٢) النهاية ٣٠٧/٢ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١١٤، والمجموع للإمام النووي ٣٢٥/٥ .

(٤) انظر حاشية الباجوري على ابن قاسم ٢٦٠/١ .

وغير ذلك من القبائح المادية .

وهذه الأخلاق يمقتها الإسلام، لأنها تُخرج المسلم عن نقآء إسلامه وإيمانه، فعمل على علاجها ليعود للمسلم صفاؤه ونقاؤه وسمو خلقه، وذلك بوسائل كثيرة من أهمها: دعوته إلى إخراج بعض ماله للمحتاجين من إخوانه المسلمين، إما على سبيل الإيجاب، أو الندب، لينازع شح نفسه في الإمساك حتى ترتاض على العطاء والبذل، فيخرج من أدوء الداء وهو البخل، ويسد حاجة ذوي الحاجة من إخوانه فيطهرهم من رذيلة الحقد والحسد، فتزكوأخلاق المجتمع المسلم، ويسلم إسلامهم وإيمانهم مما يضعفه أو يذهبه بالكلية، وتلك الدعوة في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا أنفِقُوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ ..﴾[سورة البقرة:٢٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ يأيُّها الذين آمَنوا أنفِقوا من طَيِّباتِ ما كسَبتم وممَّا أخرجنا لكُم من الأرض ..﴾[سورة البقرة:٢٦٧] .

وقوله عز شأنه: ﴿ آمِنوا با للهِ ورسولِه وأنفِقوا ممَّا جعلكم مستَخلَفين فيه فالَّذين آمَنوا منكم وأَنفقوا لهم أجرٌ كبير﴾[سورة الحديد:٧](١) .

إلى غير ذلك من الأوامر المتكررة والنداءات المتتالية الداعية إلى البذل والعطاء ليزكِّي الإنسان نفسه، ويطهر مجتمعه .

بيان القرآن الكريم تزكية النفس بالزكاة :

ولما كانت النفوس قد لا تستجيب لتلك النداءات المتكررة لما جبلت عليه من حب المال، جعل الإسلام الزكاة ثاني أركانه التي يبنى عليها، والتي لا يتحقق إسلام أحد ولا إيمانه إلا بها، وجعلها قرينة الصلاة التي هي عماد الدين وقرنها بها في نحو من ثمانين آية على نحو قوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاة﴾[سورة البقرة:٤٣] .

ثم مع ذلك بين لهم سر إيجاب الزكاة ليكون حافزا لهم ، ومشجعا على المبادرة بها

---

(١) انظر حجة ا لله البالغة لولي ا لله الدهلوي ٢/١٠٠ .

والإتيـان بها كـاملة طيبة بـهـا نفوسهـم، وراغبة في أدائها، وذلك بنحـو قولـه تعـالى: ﴿ خذ من أموالِهم صدقةً تُطهِّرُهـم وتُزكّيهم بها ﴾[سورة التوبة:١٠٣]، والمعنى: خذ يـا محمـد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعضا من أموالهم تكون مُطهِّرة لهم من الذنوب، ومن حـب المال الذي أَودَى بهم إلى التخلف عن طاعة الله ورسوله في الخروج إلى الجهاد.

﴿ وتـزكّيهم بها ﴾ : أي عن سائر الأخلاق الذميمة التي حصلت لهـم بسبب حـب المال (١).

والأمر (خذ) تكليف لرسول الله صلى الله عليـه وسـلم باعتبـاره إمـام المسـلمين فهـو تكليف لكل إمام مسلم بعده.

ونحـــو هذه الآيـة قـــول الله جـل ذكـره: ﴿ وسيُجنَّبُها الأتقى * الـذي يُؤتِـي مالـه يتزَّكى ﴾[سورة الغاشية:١٧،١٨] . حيث دلت الآية بأسلوبها الخبري، على أنه يحصـل بإيتـاء المال تزكية للنفس كبيرة، لأنها أثنت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي نزلت فيه الآية، على إنفاقه في سبيل الله لتخليص المستضعفين من العذاب(٢)، ووعدتـه بتجنيبـه عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقى.

---

(١) محاسن التأويل ٣١٢/٨، وهذا بناء على أحد التوجيهين في إعراب الفعلين تطهرهم وتزكيهم، وهـو أنهمـا في محل نصب صفة لصدقة، أي صدقة مطهرة لهم مزكيـة، والآخر: همـا في محـل نصـب علـى الحـال مـن المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم، والتقدير: خذها مطهِّراً لهـم ومزكِّيـاً لهـم بهـا، ورجـح الفخـر الرازي الوجه الأول قائلا: وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة أوساخ الناس، فإذا أخـذت الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ، فكان اندفاعها جاريا مجرى التطهير .

قلت: وعلى الوجه الثاني فإنها تفيد أيضا أنه يحصل لهم تطهير وتزكية ببذلهم المال سـواء مـن نزلـت فيهـم الآية، أو غيرهم إذ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن يخلفه في أمته مِن بعده، إذ العبرة بعمـوم اللفـظ لا بخصوص السبب، وانظر تفسير القرطبي ٢٤٩/٨، وتفسير الفخر ١٧٩/١٦ .

(٢) حكى الفخر الرازي في تفسيره الكبير ٢٠٤/٣١ إجماع المفسرين على نزول الآية في أبـي بكـر رضـي الله عنه ، وانظر أسباب النزول للواحدي ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧، وتفسير ابن كثير ٥٢١/٤ .

وقد بينت الآية الكريمة سبب نيله هذين الأمرين العظيمين: النجاة والتزكية،بأنه بذله المال ابتغاء وجه ربه الأعلى .

ولا غرو في أن يكون بذل المال موصلا إلى مثل هذه المراتب، فإن بذل المال يعني انتصارا على النفس التي أحضرت الشح بحبها المال حبا جما، وحبها العاجلة دون الآجلة، وقد قال الله جل شأنه: ﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هـمُ المفلِحـون ﴾[سورة الحشر:٩] (أي من يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق، فهو الفائز بالثناء العاجل والثواب الآجل)(١) .

تحذير القرآن الكريم من الشح وبيانه سوء عاقبته :

ولذلك نجد القرآن الكريم قد حمل حملة شعواء على من غلب عليهم الشح فحملهم على سفك الدماء أو استحلال الحُرَم، فذمهم، وبين ما أعد لهم من مصير سيء وعذاب أليم، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ والَّذين يَكنزون الذَّهَب والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيلِ الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها في نارِ جهنَّم فُتكوَى بها جِباهُهُم وجُنوبُهم وظُهورُهم هذا ما كَنَزتُم لأنفسِكم فذُوقوا ما كنتُم تكنِزون ﴾[سورة التوبة:٣٤، ٣٥] .

وقوله جل وعلا: ﴿ قل إن كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرُتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كَسادَها ومساكنُ ترَضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه فتربَّصوا حتى يأتيَ الله بأمرِه والله لا يَهدِي القومَ الفاسقين ﴾ [سورة التوبة:٢٤] .

وقوله تعالى: ﴿ ولا يَحسَبَّن الذين يَبخَلون بما آتاهم اللهُ من فضلِه هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوَّقون ما بخلوا به يوَم القيامة ﴾[سورة آل عمران:١٨٠] .

وفي مثل هذه الآيات ما يكفي زاجرا ورادعا للنفس الأمارة بالسوء إن هي ألقت السمع

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٧٢٦ .

وهي شهيد،فإنها حينئذ ستعرف قدر الدنيا وما يعدلها من المال، وأنها لن تغني عنها من عذاب ا لله تعالى شيئا إن هي لجَّت في الاغترار بها .

وبذلك تنجو بإذن ا لله تعـالى مـن تبعـات حـب المـال، وتطهـر النفـس مـن الرعونـات وتزكو الأخلاق في السلوك والمعاملات، ويزكو المال بالنماء والزيادات.

كما قال تعالى: ﴿ تطهِّرُهم وتزكِّيهم بها ﴾ [التوبة١٠٣]

آداب إخراج الزكاة :

ومن المعلوم أن الزكاة لا تجلب هذا الأثر العظيم إلى النفس البشرية إلا إذا كانت على وفق مراد الشرع في اخراجها وذلك يتحقق بثلاثـة أمـور نتكلـم عنهـا في المطـالب الآتيـة بإيجاز .

المطلب الثاني: طيب المال المنفق :

فيخرجها مما يحب لا من خسيس المال ورديئه؛لأن ا لله تعالى طيـب لا يقبـل إلا طيبـا، وقد ندب إلى ذلك القرآن الكريم فقال: ﴿ يا أيُّهـا الذيـن ءامنـوا أنفِقـوا مـن طيِّبـاتِ مـا كسبتم ومِمَّا أخرجنَا لكمَ من الأرضِ ولا تيَمَّمُوا الخبيثَ مِنه تُنفِقـون ولسـتُم بآخذيـه إلا أن تُغمِضوا فيـه واعلمـوا أنَّ ا للهَ غـنيٌّ حميـد ﴾[سورة البقرة: ٢٦٧]، والإنفـاق عـام يشـمل الواجب والمستحب، فالآية الكريمة ترشد بأسلوب الأمر إلى نوع المال المنفَق بأن لا يكون من الرديء، ومالا يقبله المنفِق نفسُه لو عرض عليه، وأن يكون من الحلال أما الحرام فهـو خبيث(١)، وقد نهى ا لله عن التصدق منه، وقال أيضا: ﴿ قل لا يَستوِي الخبيثُ والطَّيـبُ ولو أعجَبك كثرةُ الخبيث ﴾[سورة المائدة:١٠٠]، وهذا حكم عام في نفـي المسـاواة عنـد ا لله بين الرديء والجيد من الأشخاص والأعمال والأموال،فجعل العـبرة هـي الـرداءة والجـودة، دون القلة والكثرة؛فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، (والآية تحمل ترغيبا في

(١) كما فسره به عبد الرحمن بن زيد بن أسـلم، والقـول الأول: أنـه الـرديء. ا.هـ زاد المسـير لابـن الجـوزي ٣٢٢/١ .

صالح العمل والإنفاق من حلال المال)(١) .

المطلب الثالث: عدم المنّ بها :

لأن المنّ بالصدقة عامة يحبطها، وحيث صارت كذلك فلن تحقق الهدف منها في تزكية النفس حينئذ، ولذلك حذّر الله تعالى من إحباط ما قد بذله المرء ونازع نفسه في إخراجه، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تُبطِلُوا صَدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالَّذي يُنفق مالهَ رِئَاءَ النَّاس ولا يُؤمن با للهِ واليومِ الآخِر فمثلُه كمثلِ صَفوانٍ عليه تُرابٌ فأصابه وابلٌ فترَكه صَلداً لا يَقدِرون على شيءٍ ممـا كسَبُوا والله لا يَهدي القومَ الكافرين ﴾ [سورة البقرة:٢٦٤] ,

وهذا نهي من الله تعالى عن المنّ،والنهي هنا يقتضي التحريم كما أوضحته السنة المطهرة(٢)، ثم لم يكتف بذلك بل زاد الأمر إيضاحا وجلاء حيث شبه المانّ بالمرائي بصدقته، ولا ريب أن الذي يرائي بصدقته أسوأ حالا من المتصدق بالمن؛ لأن المشبه به أقوى حالا من المشبه كما هو معلوم، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿ ولا يُؤمن با للهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ ثم ضرب مثل ذلك المرائي بالإنفاق بقوله: ﴿ فمثلُه كمثلِ صفوان ﴾ لإبراز حقيقة أمر المرائين من أن أعمالهم تضمحل عند الله فلا يجد المرائي بالإنفاق يوم القيامة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٦٣ بتصرف .

(٢) روى الإمام مسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية رقم ١٠٦، وأبو داود في اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار رقم ٤٠٨٧، ٤٠٨٨، والترمذي في البيوع، باب فيمن حلف على سلعة كاذبا رقم ١٢١١، والنسائي في البيوع، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب ٢٤٥/٧، كلهم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب" .

ثواب شيء من نفقته(١) .

وكذلك المانُّ بصدقته فإنه لا يجد أثر الصدقة في صحيفة عمله؛لأن المنَّ بها محاها فيصبح من الخاسرين، وما كان سيصير كذلك لو أنه جرَّد نفسه من رعوناتها، إذ هي التي جعلته يرى في نفسه الفضل والطَّوْل على الفقير المعطَى، وأنه محسن إليه وله عليه فضل (ولو تجرد من ذلك لرأى أن الفقير يأخذ ذلك حقا مفروضا من الله تعالى فله فضل لقبوله حق الله تعالى منه الذي هو طهرته ونجاته من النار، ولو لم يقبل منه ذلك لبقي مرتهنا به)(٢) .

وعليه أن يتذكر ما أعده الله للمنفقين غير المانّين من ثوابه العظيم الذي أفاده قوله جل شأنه: ﴿ الَّذين يُنفِقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتبعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذىً لهم أجرُهم عندَ ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنُون ﴾[سورة البقرة:٢٦٢] .

وإن كانت نفسه قد أشربت بالمِنَّة والشعور بالفضل فالأولى له أن يكف عن الإنفاق إلا ما وجب، وليتحلى بتأديب الله تعالى القائل: ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعُها أذى والله غنيٌّ حليم ﴾[سورة البقرة:٢٦٣] .

<u>المطلب الرابع</u> : أن يتحرى لصدقته موضعا أهلا لها يكون سببا في زكاء صدقته.

ولأهمِّية هذا الموضع فقد تولى الله عز وجل بيانه بنفسه،خشية أن تخطيء الصدقة صاحبها فلا يحصل بها الغرض المقصود،ولا تتحقق منها الغاية المرجوَّة، فقال تعالى مبينا ذلك: ﴿ إنَّما الصَّدقاتُ لِلفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهم وفي الرِّقاب والغارمينَ وفي سبيلِ الله وابنِ السبيل ..﴾[سورة التوبة:٦٠] .

قالوا: ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات، فليراع خصوص تلك الصفات قدر الوُسع، لأنه أجزل للأجر، ومن تلك الصفات:

الأولى: أن يطلب الأتقياء؛لقوله صلى الله عليه وسلم: "لاتصاحب إلا مؤمنا، ولا

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين ٤/١١٨ .

(٢) انظر الإحياء ١/١٩٤ .

يأكل طعامك إلا تقي"(١)، لأن التقي يستعين به على التقوى فيكون المتصدق شريكا له في طاعته بإعانته إياه .

الثانية: أن يكون من أهل العلم فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

الصفة الثالثة: أن يكون صائنا لفقره، ساترا لحاجته، كاتما للشكوى كما قال الله تعالى: ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافاً﴾[سورة البقرة:٢٧٣] .

الصفة الرابعة: أن يكون ذا عائلة أو محبوسا لمرض أو دين فهذا من المحصرين والتصدق عليه إطلاق لحصره .

الصفة الخامسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة(٢) ، كما جاء في الحديث(٣) ، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى وستأتي الإشارة إلى ذلك في مبحثه إن شاء الله تعالى(٤) .

الصفة السادسة: أن يكون من أهل الجهاد في سبيل الله تعالى لأن نفقة الجهاد تضاعف

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يؤمر بأن يجالس رقم ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن رقم ٢٣٩٥، وقال الترمذي: حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحمد في المسند ٣٨/٣، وابن حبان ٣٨٣/١، والحاكم في المستدرك ١٢٨/٤ وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) انظر الإحياء للغزالي ١٩٦/١، ١٩٨، ومختصر منهاج القاصدين للمقدسي ص ٣١، ٣٢ .

(٣) عند أبي داود في الصوم، باب ما يفطر عليه برقم ٢٣٥٦، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذوي القربى برقم ٦٥٨، من حديث سلمان بن عامر الضبي يرفعه قال: الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القربى الرحم اثنتان، صدقة وصلة" وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة ٦٠٤/١ برقم ١٩٣٩ .

(٤) انظر ص ٧٤٨ .

إلى سبعمائة ضعف(١)، ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا، كما جاء في الحديث(٢).

فعلى المرء المسلم أن يحرص في إيصال صدقته إلى أهل هذه الصفات لتكون ذات أثر أكبر في التزكية والتطهير، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع .

فإذا كانت الزكاة مستوفية لهذه المطالب آتت ثمارها من التطهير للنفس البشرية من رذائل الأخلاق المالية، وتزكيتها بكريم الأخلاق وجميل الخصال التي أرادها ا لله تعالى من المؤمنين،وجعلها غاية من غاية بعثة خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم .

وهو ما حصل ويحصل للمؤمنين الذين يؤدونها على تلك الكيفية كما هو معلوم ومشاهد وا لله أعلم .

---

(١) كما جاء في حديث خُريم بن فاتك رضي ا لله عنه قال: من أنفق نفقة في سبيل ا لله كتبت له بسبعمائة ضعف" أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل ا لله برقم ١٦٢٥، والنسائي في الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل ا لله ٣٧/٦، وقال الترمذي عنه: حديث حسن .

(٢) عند البخاري في الجهاد، باب فضل من جهز غازيا في سبيل ا لله ٣٢/٤، ومسلم في الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل ا لله برقم ١٨٩٥، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي ا لله عنه أن رسول ا لله عليه وسلم قال: "من جهز غازيا في سبيل ا لله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا" .

تطبيق النبي صلى ا لله عليه وسلم للزكاة

ذلك ما يندب إليه القرآن من الأخلاق الفاضلة في أداء الزكاة، وهو كما علمت دعوة إلى البذل والعطاء، من طيب المال، من غير منٍّ ولا أذى، وتحريا لذوي الحاجة الضعفاء ... ، وهو ما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم في كل المعاني المتقدمة بل أكبر من ذلك مما يعجز القلم عن التعبير عنه، فقد كان عليه الصلاة والسلام مثالا أعلى للبذل والعطاء، والإنفاق الشامل حتى ما كانت تجب عليه زكاة لأنه لا يُبقي شيئا يأتي عليه اليوم،فضلا عن الشهر، فكيف بالحول؟بحيث كان أجدر الناس بقول القائل:

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمُنا مرّت إلى طُرق الخيرات تستبق
لا يألف الدّرهم المضروب صُرَّتنا لكن يمُرُّ عليها وهو منطلِق

كما سيتبين ذلك جليا في مبحث كرمه صلى ا لله عليه وسلم من الباب الثالث إن شاء ا لله تعالى .

لذلك فإن التطبيق العملي لأداء الزكاة من فعله صلى ا لله عليه وسلم متعذّر.

غير أنه يتجلى في أقواله الشريفة الكثيرة، في كل ما مضى من المعاني القرآنية الجليلة في هذا الجانب من أحكام وأخلاق، وهي تمثل ما كان عليه صلى ا لله عليه وسلم من الخُلُق العظيم في العطاء والجود، بأوفى صورة وأكمل بيان، سأقتطف منها نماذج قليلة للاستدلال بها على ما سواها ...

أخباره صلى ا لله عليه وسلم بإيجاب الزكاة :

فمن ذلك أقواله صلى ا لله عليهه وسلم في أن الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة ومنها قوله:

١- "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إلـه إلا ا لله ، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان"(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/١٠، ومسلم فيه، بباب أركان الإسلام برقم ١٦، من حديث عبد ا لله بن عمر رضي ا لله عنهما .

فجعل الزكاة أحد الدعائم التي بني عليها الإسلام، والتي لا يكون الإنسان مسلما إلا بتحقيقها .

٢ـ ولما بعث معاذا إلى اليمن قال له: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا ا لله، وأني رسول ا لله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن ا لله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن ا لله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ..."(١) .

فعدَّ أركان الإسلام وذكر ثالثها الزكاة، وبين له مصرفها، فدل على أن من أُدى هذه الأركان فقد تحقق إسلامه، وأوجب لنفسه الفوز والظفر بالجنة .

وذلك ما أخبر به عليه الصلاة والسلام الرجل الذي التزم بأداء هذه الأركان الخمسة.

٣ ـ فإنه جاء إليه وقال: "يا رسول ا لله دُلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: تعبد ا لله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولَّى قال: "من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا"(٢) .

وأما من لم يُقم هذه الأركان أو واحدا منها، فإنه يكون قد أوبق نفسه كما تدل عليه أحاديث كثيرة، ومنها مما يتعلق بما نحن فيه من الزكاة:

١ ـ قوله صلى ا لله عليه وسلم: "ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدِّي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكوى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٢٠٦/٥، وفي الزكاة، باب وجوب الزكاة ١٣٠/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ١٣٠/٢، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة برقم ١٤، من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار"(١) .

وفي هذا من الترهيب والتحذير من التفريط في أداء الزكاة ما تقشعرُّ منه الجلود، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم :

٢ ـ "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زَبيبتان (٢) يطوَّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا يحسَبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم اللهُ من فضلِه هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوَّقون ما بخلُوا به يومَ القيامة ﴾(٣) [سورة آل عمران:١٨٠] .

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة معلومة .

بيانه صلى الله عليه وسلم لما في الزكاة من تطهير للنفس والمال :

وقد بين عليه الصلاة والسلام ما تفعله الزكاة من التطهير للنفس من رذائل أخلاقها، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لمن جاء يسأله قائلا: إنِّي ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضِرة(٤)، فأخبرني كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "تخرج

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الزبيبة: نكتة سوداء فوق عين الحية، وقيل: هما نقطتان تكتنفان فيها، وقيل: هما زبدتان في شدقيها" ا.هـ النهاية ٢/٢٩٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ١٣٢/٢، وفي تفسير سورة آل عمران، باب: ﴿ ولا يحسبن ...﴾الآية، وفي تفسير سورة التوبة، باب ﴿ والذين يكنزون الذهب ...﴾الآية، ومسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧ .

(٤) قال في النهاية ٣٩٩/١: "الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه" ا.هـ .

الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهِّرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل"(١) .

فأعلمه أن الزكاة طهرة له، أي: تطهره من تبعات المال في دينه وأخلاقه، وأفاده أن الزكاة تزكي الأخلاق وتهذب النفس، وهو ما دلت عليه آية التوبة السابق ذكرها .

ندبه صلى الله عليه وسلم إلى طيب المال المزكِّي :

ولأجل ما ذكر ندب صلى الله عليه وسلم المزكِّي أن يطيب نفسه بإخراج ما وجب عليه إخراجه؛ لأنه لا يخرجه إلا لتزكية نفسه ومجتمعه، وتطهير ماله وتنميته، وذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

١ - :ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان من عبد الله وحده، وعلم أن لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدةً(٢) عليه كل عام، ولم يعط الهَرِمة(٣)، ولا الدرِنَة(٤)، ولا المريضة، ولا الشرَطَ اللئيمة(٥)، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره"(٦) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث في هذا الحديث على طيب النفس في الزكاة،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٣٦٣، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٦/٣ إلى الطبراني في الأوسط من حديث أنس، وقال: ورجاله رجال الصحيح، وكذا قال المنذري في الترغيب ٥١٦/١ .

(٢) الرافدة: من الرِّفد وهو الإعانة، يقال: رفدته أرفده: إذا أعنته، أي: تعينه نفسه على أدائها. النهاية ٢٤١/٢.

(٣) أي: الكبيرة .

(٤) أي: الجرباء .

(٥) أي: رذال المال، وقيل: صغاره وشراره. النهاية ٤٦٠/٢ .

(٦) أخرجه أبو دود في الزكاة، باب في زكاة السائمة برقم ١٥٨٢ منقطعا، لكن قد وصله الطبراني في المعجم الصغير ٢٠١/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٩٥/٤، كما أوضح ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني في الصحيحة ٣٨/٣ رقم ١٠٤٦، قال: ورجاله ثقات .

وإخراج الوسط الذي ليس كريما على صاحبه حتى يضر به، ولا رديئا بحيث يرغب عنه الآخذ لرداءته أودمامته.

٢ ـ ونحو هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة، من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه"(١) .

تحذيره عليه الصلاة والسلام مما يبطل الصدقة :

فإذا كان باذل الزكاة على ذلك الحال من إخراج الوسط من ماله، وهو طيب النفس، كانت الزكاة جالبة ذلك الأثر من التطهير والتزكية، لذلك فعليه أن يحافظ على بقاء أثره فلا يبطله بالمن والأذى كما حذره الله تعالى منه ونهاه عنه .

١ ـ وقد حذره النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أيضا فقال: "ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال الراوي: فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال: المسبِلُ، والمنّان، والمنفِق سلعته بالحلِف الكاذب"(٢) .

وفي هذا الحديث من التحذير ما ترتعد من هوله الفرائص، ويُذهِلُ الألباب، لما فيه من عظيم العذاب المترتب على المنِّ .

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ٥٢/١ إلى الطبراني في الأوسط من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: وإسناده جيد .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان تغليظ تحريم الإزار، والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف برقم ١٠٦، أوبو داود في اللباس برقم ٤٠٨٧، ٤٠٨٨، باب ما جاء في إسبال الإزار، والترمذي في البيوع، باب فيمن جاء فيمن حلف على سلعة كاذبا برقم ١٢١١، والنسائي في البيوع، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب ٢٤٥/٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

٢ ـ وقال أيضا: "لا يدخل الجنة منَّانٌ، ولا عاق، ولا مُدمِن خمر"(١) .

فانظر كيف انقلبت الحسنة سيئة كبيرة توبق صاحبها في جهنم، وذلك لمَّا يتبعها من مَنٍّ وأذى عياذا با لله من ذلك .

ندبه صلى ا لله عليه وسلم لأن يتحرى للصدقة محلاً صالحاً :

وكما ندب أمته وحثها على الحفاظ على ما يبقى للصدقة أثرها في التطهير للنفس والمال، وذلك بعدم المن والأذى، فإنه عليه الصلاة والسلام قد ندب الأمة أيضا لأن تتحرى مواطن صالحة للصدقة وهي التي تكون في أمس الحاجة إليه، وذلك ليعظم الأثر في التطهير والتزكية، وقد بيَّن النبي صلى ا لله عليه وسلم ذلك في أحاديث كثيرة منها قوله :

١ ـ "لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سويّ"(٢)، وذو المرة السوي هو القوي السليم، وذلك لأنه قادر على أن يعف نفسه بالكسب الحلال، فهو إما أن يكون كاسبا لما يغنيه بالفعل، أو بالقوة، وفي كلا الحالين لا تصادف محلا جديرا بالعطاء، وأيضا لئلا يكون في ذلك تشجيعا له على البطالة وترك العمل، فيعيش عالة على المجتمع .

٢ ـ وقد طبَّق النبي صلى ا لله عليه وسلم هذا المبدء بنفسه، حيث جاءه رجلان في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع النظر إليهما وخفضه فرآهما جَلْدين فقال: "إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقويٍّ مكتسب"(٣) .

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة، باب الرواية في المدمنين في الخمر ٣١٨/٨، من حديث عبد ا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما، والدارمي في السنن ١١٢/٢، وابن حبان ١٦٣/٥، وأحمد في المسند ١٦٤/٢، ٢٠١، وهو حديث حسن لشواهده الكثيرة، انظر السلسلة الصحيحة للألباني ٢٨٦/٢ برقم ٦٧٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغني برقم ١٦٣٤، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة برقم ٦٥٢، من حديث عبد ا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما، وقال: حديث حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين برقم ١٦٣٣، والنسائي في الزكاة، باب مسألة القوي =

فبين لهم عدم استحقاقهما لأخذ شيء من الصدقة، وعدم حل ذلك لهما، غير أنه لكرم أخلاقه خيّرهما في الأخذ إن أرادا بعد أن بين لهما الحكم الشرعي .

٣ ـ وقد بين عليه الصلاة والسلام بعض الأصناف الذين يُعطون من الصدقة، حتى لا تخطىء موضعها، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهداها المسكين للغني"(١) .

٤ ـ وندب أن تكون إلى ذي القرابة القريبة؛ لأنهم أولى الناس بالمعروف فقال صلى الله عليه وسلم: "الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصِلة"(٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المعلومة في كل جزئية من جزئيات هذا المبحث، وهي تدل على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من العلم بمبلغ الأثر الفى تحدثه الزكاة في التطهير والتزكية والنماء للبشرية أفرادا وجماعات .

ولذلك كان يأمر ويندب ويحذر أمته بكل ما فيه تقويم لهذه الشعيرة الإسلامية حتى يتكامل ثمرها على الوجه الأفضل والنحو الأعدل .

وسيأتي مزيد بيان لهذا المبحث، في الباب الثالث عند الحديث عن خلق كرمه صلى الله عليه وسلم، فنذر الحديث والإتمام إلى ذلك المبحث لشدة الحاجة إليه هناك وعظم مناسبته، وبالله التوفيق .

= المكتسب ٩٩/٥، من حديث عبيد بن عبد الله بن الخيار، وإسناده صحيح كما بينه الألباني في الإرواء ٣٨١/٣ .

(١) أخرجه مالك في الموطأ مرسلا، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها ٢٦٨/١، وأبو داود في الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني برقم ١٦٣٥مرسلا كذلك، ووصله أبو داود في الحديث التالي له برقم ١٦٣٦ من حديث أبي سعيد بإسناد صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٧٣وهو حديث حسن أو صحيح .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

(الصِّيام)

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في تعريف الصيام وبيان علاقته بالأخلاق .

المطلب الثاني : عناية القرآن الكريم بالصيام

المطلب الثالث : إيجاب الصيام ليكون كفارة على الإساءة .

المَطْلَبُ الأوَّلُ

تعريف الصِّيام وبيان علاقته بالأخلاق

الصيام لغة: الإمساك عن الشيء والترك له، ومنه قيل للصمت: صوم؛ لأنه إمساك عن الكلام، قال ا لله تعالى: ﴿ إنّي نَذرتُ للرحمن صومًا فلن أكلِّمَ اليومَ إنسياً ﴾[سورة مريم:٢٦] . قال أبو عبيدة(١): كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم"(٢) .

أما شرعاً فهو: عبارة عن إمساك مخصوص؛وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النّية(٣) .

ويقال أيضا: الإمساك عن المفطّرات الحسية والمعنوية جميع النهار بنيَّة .

علاقة الصيام بالأخلاق :

الصوم من شرائع الإسلام العظيمة التي شرعها ا لله تعالى للأمة الإسلامية كما شرعه على من قبلها، وهو من الشرائع الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها على مكارم الأخلاق من القناعة والزهد والأمانة،والبعد عن رذائلها من الجشع والخيانة والسباب والفواحش التي تنافي الصوم .

قال العلامة جمال الدين القاسمي(٤): "إعلم أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفِطر المستقيمة شرعه ا لله لعباده رحمة لهم، وإحساناً إليهم وحميَّة وجُنة، قال: فإن مقصود الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطمها عن المألوفات، وتعديل قوّتها

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي اللغوي البصري، كان من أئمة العلم بالأدب واللغة، توفي سنة ٢٠٩هـ. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٣٩٥، والاعلام ٢٧٢/٧ .

(٢) الصحاح ١٩٧٠/٥ مادة (صام)، وانظر التفسير الكبير ٦٨/٥ .

(٣) التعريفات ص ١٣٦ .

(٤) صاحب محاسن التأويل في التفسير، وقواعد التحديث وغيرهما، كان إمام الشام في عصره توفي سنة ١٣٣٢هـ. انظر الأعلام ١٣٥/٢ .

الشهوانية لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسَورتها، ، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد، بتضييق مجاري الطعام والشراب، وحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحها، وتلجم بلجامه فهو لجام المتقين،وجُنّة المجاهدين، ورياضة الأبرار المقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئا، إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطّلع عليه سواه"(١) .

قلت: وهذا ما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ كما كُتِب على الَّذين من قبلِكم لعلَّكم تتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٨٣] .

إذ دلت الآية على أن الصوم يورث التقوى، كما يفيده تعليل فريضة الصوم به، والمعنى: ليحصل لكم التقوى بالصوم فإنه يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى،فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوِّن لذات الدنيا ورياستها، ويكسر شهوة البطن والفرج، وذلك جامع لأسباب التقوى، قال الفخر الرازي: "فيكون معنى الآية : فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي"(٢) .و لعلَّ في مقام الله جل جلاله تفيد الوجوب، لأنها وإن كانت للتَّرجي والإطماع في أصل وضعها، إلا إنه إطماع من كريم فيجري مجرى وعده المحتوم ووفاؤُه"(٣) .

والتقوى التي يثمرها الصوم قد علَّق الله تعالى عليها خيرات عظيمة، وسعادات جسيمة في كتابه العزيز، منها: معيَّتُه التي تعني الحفظ واللُّطف كما قال تعالى: ﴿ واتقوا

---

(١) محاسن التأويل ٧٤/٣، وانظر من حكم الشريعة وأسرارها لحامد محمد العبادي ص ١٠٤ ـ ١٠٨ .

(٢) التفسير الكبير ٧٠/٥ .

(٣) تفسير النسفي ٢٩/١ .

ا لله واعلموا أنَّ ا لله معَ المتقين ﴾[سورة البقرة:١٩٤] .

ومنها: العلم اللَّدُنّي كما قال جل شأنه: ﴿ واتَّقوا ا للهَ ويعلِّمُكم ا للهُ ﴾[سورة البقرة:٢٨٢] .

ومنها: المخرج من كل شدة، وتيسير الرزق من حيث لا يحتسب المرء كما قال تعالى: ﴿ ومن يتقِ ا للهَ يجعلْ لَه مخرجاً*ويرزقْهُ من حيثُ لا يحتسب ﴾[سورة الطلاق٢،٣] .

ومنها: تيسير كل أمر عسير كما قال تعالى: ﴿ ومن يَتَّقِ ا للهَ يجعل له من أمره يُسراً ﴾ [سورة الطلاق:٤] .

ومنها: تكفير السيئات وتعظيم أجر الحسنات كما قال سبحانه: ﴿ ومن يتَّقِ ا للهَ يكفِّرْ عنه سَيِّئاتِهِ ويُعظِمْ له أجراً ﴾[سورة الطلاق:٥] .

إلى غير ذلك من الخيرات الجسيمة المترتبة على التقوى التي أشار إليها القرآن الكريم(١) والتي جعل الصيام من أسباب حصولها، لكونه موجبا لاتقاء المعاصي؛ لأنه يعدِّل القُوى الطبيعية التي هي داعية الفساد، فيرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملَكية، والانتفاض من غبار الكُدُرات الحيوانية(٢) .

المطلب الثاني: عناية القرآن الكريم بالصيام

ولأجل ذلك الأثر العظيم الذي يثمره الصوم في زكاء الأخلاق، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة إيجابا له في رمضان وفي غيره، وحثا عليه، وتنويها بأهله في آيات كثيرة .

إيجاب الصيام في القرآن الكريم:

أما إيجاب الصيام فإنه لما كان على ذلك النحو من عظمة الأثر في تزكية الأخلاق، وترويض النفس على مكارمها، وكان شاقاً على النفوس لما فيه من كبح لجماحها،

---

(١) انظر بعضا من تفصيل ذلك في النصائح الدينية مثلا ص ٦-٨ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٨/١ .

واسترسالها في اللذات والشهوات، أو لما يشغلها عنه واجبات الحياة، المقتضية لإشباع البطن بما تحتاجه من الأكل ونحوه، فكانت الدواعي إلى تركه قائمة وكبيرة، مع عظيم أهميته وبالغ أثره وكبير ثمرته .

لما كان الأمر كذلك، جعل الله تعالى الصيام فريضة إلزامية، وركنا رابعا من أركان الإسلام فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ كما كُتِبَ على الَّذين من قبلِكم لعلكم تتَّقون * أيَّاماً معدوداتٍ فمَن كان منكم مريضاً أو على سَفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر وعلى الَّذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكِين فمن تطَوَّع خيراً فهو خيرٌ له وأن تصومُوا خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلمون * شهرُ رمضانَ الَّذي أُنزلَ فيه القرآنُ هدىً للنَّاس وبيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان فمن شهِد منكم الشَّهر فليصُمْه ومن كان مريضاً أو على سَفرٍ فعِدَّةٌ من أيَّام أُخَر يُريدُ اللهُ بكم اليُسر ولا يُريد بكم العُسر ولِتُكمِلُوا العِدَّة ولِتُكبِّروا اللهَ على ما هداكم ولعلَّكم تشكرون ﴾[سورة البقرة:١٨٣-١٨٥] .

ففي هذه الآيات يبين الله تعالى لعباده أنه افترض عليهم الصيام في أيام معدودات قلائل، هي شهر رمضان، الذي اختصه من بين الشهور بإنزال القرآن فيه، وبليلة القدر التي هي خير من ألف شهر .

وقد بين افتراضه عليهم أولا بأسلوب الخبر، وثانيا: بصيغة الأمر، وذلك للدلالة على أهمية ذلك المفترَض وحتمِّيته، ولذلك لم يكن لأحد عذر في ترك صيام هذا الشهر إلا إلى بدل من صيام أيام أخر، أو فدية إطعام بعدد الأيام عند العجز عن الصيام كلِّيةً، لكِبَرٍ أو مرض مُزمِن لا يُرجى برؤه، وفي تكرار التنصيص على ﴿ عِدةٌ من أيَّام أخر ﴾ عند العجز عن صيام أيام رمضان كلها أو بعضها، دلالة على تأكيد طلب الشارع له، وعدم تنازله عن مطالبة المسلمين به إلا في حالة العجز المستمر من كبر أو مرض أو حمل أو إرضاع، كما دلت عليه السنة، فعندئذ أجاز الانتقال إلى الفدية، وذلك لما في الصوم من عظيم الفائدة في إصلاح النفس البشرية واستقامة أحوال الأمة الإسلامية .

حثه عليه :

ولذلك لم يفتأ يذكّرهم بهذه الفائدة حيث يقول في عِلّيّة الصوم ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ ﴿ لعلّكم تشكُرون ﴾ ، ويرشد أهل الأعذار بترك الصيام بقوله: ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلَمون ﴾، أي عظيمَ الأجر وجليلَ ثمرة الصوم في استقامة الأحوال وكرم الأخلاق .

ويقول لهم: ﴿ يريدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يُريد بكم العُسْرَ ﴾ للدلالة على أن ما حمله على الترخيص بالإفطارعند الأعذار، إلا إرادة اليسر بهم تمشّيًا مع أصل منهجه في تيسير الشريعة، وإلا لم يكن ليعدل عن طلبه بالذات حتى عند العجز عنه، لما يعلمه فيه من عظيم الأجر والأثر في الدنيا والآخرة والله أعلم .

المطلب الثالث: إيجابه في غير رمضان ليكون كفارة على الإساءات :

ولما كان الصيام بهذه المثابة من عظيم الفائدة وجزيل العائدة، اختاره الشارع لأن يكون كفارة وجبرا لبعض الإساءات المخِلّة بالدين، التي قد يرتكبها المرء في حياته في عباداته أو معاملاته أو سلوكه، وذلك ليهذّب النفوس ويربّيها على عدم العودة إلى مثل تلك الإساءات، لما في الصوم من كبح لزمام النفس الأمّارة بالسوء، وإعادة لها إلى الطهارة والنقاء والتزكية، إن كان مستوفيا لشروطه وآدابه الآتي بيانها في التطبيق إن شاء الله تعالى .

ففي ما يتعلق يالإساءة في العبادات، وذلك في الحج، أو جبه في موضعين:

الموضع الأول: في الإساءة في الحج بارتكاب محظور من محظورات الإحرام كالحَلق ونحوه، أو قتل صيد الحرم، أو أي صيد بري وهو محرم .

الموضع الثاني: عند الترفّه في الحج بالتمتع أو القِران(١) حيث يعجز عن الهدي .

أما الموضع الأول، وهو الإساءة في الحج بفعل محرّم من محرماته التي هي من باب

---

(١) التمتع: هو الإحرام بالعمرة في أشهر الحج ثم الحج في ذلك العام، والقران: أن يحرم بالحج والعمرة معا .

الإزالة أو الترفُّه كالحلق والطيب ونحوهما(١)، فقد أوجب الله تعالى جبر ذلك بواحد من ثلاثة أشياء على التخيير: الصيام أو الإطعام أو الذبح، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ فمن كان منكم مرِيضًا أو به أذىً من رأسِه ففِديةٌ من صِيام أو صَدقة أو نُسك ﴾[سورة البقرة:١٩٦] .

فجعل الصيام أولها؛ لأنه أعظم الثلاثة أثرا في استقامة السلوك في المستقبل، إضافة إلى عظم أجره، وهذا فيما إذا كانت الإساءة بفعل شيء يتعلق بجسده .

أما إذا كانت الإساءة بفعل محرم من محرمات الإحرام المتعلقة بغيره، مما يؤذِن انتهاكُها بعدم تعظيمه لشعيرة الحرم أو الإحرام، وذلك كقتل صيد البر وهو محرِم، أو قتل صيد الحرم مطلقا،فقد أوجب الله تعالى واحدا من ثلاثة أمور مرتبة: هديا بالغ الكعبة إن كان الصيد مما له مثل في بهيمة الأنعام ، فإن لم يكن له مثل فيقوِّم الصيد اثنان ذوا عدل، ويخرج القيمة فيشتري بها طعاما يصرفه على مساكين الحرم، لكل مسكين مدٌّ .

فإن عجز عن ذلك عدل إلى الصيام فيصوم بعدد الأمداد التي تبلغها القيمة المقدرة للصيد مهما بلغت كثرة، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تقتُلوا الصَّيد وأنتم حُرُمٌ ومن قتَله مِنكم متعمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قتَل من النَّعَم يَحكُمُ به ذوا عدلٍ منكم هدياً بالغَ الكعبة أو كَفَّارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلك صِياما لِيذُوقَ وبَال أمرِه عفا اللهُ عمَّا سلَف ومن عاد فينتَقمُ اللهُ منه والله عَزيز ذُو انتقام ﴾[سورة المائدة:٩٥] .

فجعل الصيام واحدا مما يُفدى به عن تلك الإساءة، وجعله منوطا بعدد الأمداد التي كان يمكن للقيمة المقدرة لو وجدت أن تشتريها، ومعلوم أنه قد يكون الطعام رخيصا كما في هذه الأيام، فكم تبلغ الأمداد لو كانت القيمة مائة أو مائتين أو أكثر ؟ لا سيما مع ارتفاع أسعار مثل هذه الحيوانات البرية من صيد ونحوه كما هو معلوم وملموس .

لذلك كان هذا الجزاء وبالاً على صاحبه،أي ثقيلا وشديدا عليه، ولكنه يتلاءم مع سوء الصنيع الذي اقترفه من هتك حرمة الحرم أو الإحرام .

---

(١) من لبس ودهن وحلق وقلم الأظفار، وموضع بحث هذه المسألة معروف في كتب الفقه والمناسك. وانظر الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي ص ٥٢٩-٥٣٨ .

وإنما اختار ا لله هذا لجزاء الثقيل ليكون ثوابه جابرا لما انتهك من حرمة، وليقوِّم سلوك المرء مستقبلا، ولذلك إذا لم يستقم سلوكه بعد هذا الجزاء المؤلم الثقيل فعاد إلى انتهاك حرمة الإحرام، فإن ا لله تعالى قد آذنه بعقوبة لا طاقة له بها، وهي الانتقام ﴿ ومن عاد فينتقمُ ا لله منه ﴾ لأنه بعدئذ يكون معوجَّ السلوك، لا يصلح إلا بالجزاءات الرادعة المربِّية، وصدق ا لله إذ يقول: ﴿ ومن أحسنُ مِن ا لله حُكماً لِقومٍ يُوقنون ﴾[سورة المائدة:٥٠] .

أما الموضع الثاني، وهو ما إذا عجز عن هدي التمتع ومثله القران، فإن ا لله تعالى قد جعل له بدلا عن ذلك، وهو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده كما قال سبحانه: ﴿ فمن تَمَتَّع بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتيسَرَ من الهدي فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ وسبعةٍ إذا رجعتُم تِلك عشْرةٌ كامِلة ذلك لمن لم يكنْ أهلُه حاضِري المسجدِ الحرام ﴾[سورة البقرة:١٩٦] .

فجعل الصيام بدلا عن الهدي عند فقده أو العجز عنه، لما في الصيام من الكفاية والسداد لما يؤديه الهدي من الجبران، ولذلك قال: ﴿ كاملة ﴾ "أي: كاملة في الثواب لسدها مسد الهدي في المعنى الذي جعلت بدلا عنه"(١) .

فانظر كيف جعل الصيام جابرا لما يقع في النسك من تقصير أو إساءة، وذلك لما في الصوم من الوفاء بذلك النقص لعظيم أجره، ولما فيه من تعديل للخلق وتقويم له، فيحمل صاحبه إلى عدم العودة إلى مثل تلك الإساءة أو التقصير، لما يورث في صاحبه من التقوى.

إيجاب الصيام على الإساءة في المعاملات الاجتماعية:

وكما أوجب ا لله تعالى الصيام على الإساءة في بعض العبادات وهي الحج، فكذلك أوجبه على الإساءة في بعض ما يجري بين المسلمين من المعاملات وذلك كالإساءة بالقتل، أو الظهار، أو الحنث باليمين .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢/٨٠، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٥/١٥٨ .

فإن الله تعالى أوجب على الإساءة في هذه الأشياء كفارة لتكون جابرة لعظم تلك الذنوب ومقومة لأخلاق المسلم وسلوكه وجعلها موازية في الشدة لعظم الجرم الذي اقترفه لتكون كفيلة بتقويم خلقه، وجابرة لعظم ذنبه .

١ - فالقتل جريمة كبيرة يقترفها المرء في حق أخيه، توجب له المقت والغضب، أو التخليد في النار، لذلك أوجب الله تعالى فيه القصاص إن كان عمدا عدوانا، أو الدية إن رضي أولياء المقتول بها، وبالإضافة إلى الدية أوجب الله تعالى الكفارة العظمى، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز عنها وجب الانتقال إلى صيام شهرين متتابعين، لا يقطعهما بفطر يوم واحد، فإن قطعهما بفطر يوم انقطع التتابع، ووجب الاستئناف، ما لم يكن هناك عذر شرعي مبيح للفطر كالحيض والنفاس مثلا، وسواء في هذه الكفارة القتل العمد والخطأ، وقتل المسلم أو الذمي، فيجب في كل بالإضافة إلى الدية إن لم يكن قصاص، تلك الكفارة لقوله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾[سورة النساء:٩٢] .

فانظر كيف انتقل القرآن الكريم بالكفارة من العتق عند العجز عنه لتعذر الحصول عليه أو على قيمته إلى الصيام وأي صيام ؟ إنه صيام شهرين كاملين متتابعين، أي لا يفصل بينهما فطر، وذلك لتستل منه النزعة الوحشية، وتزكو أخلاقه، ولا ريب فإن صيام ستين يوما متتابعة صياما كاملا محافظا فيه على الآداب، كفيل بإعادة المرء إلى سلوك الإسلام وأخلاقه الحميدة، فإنه يحصل مثله بشهر، فكيف إذا كان الصيام شهرين متتابعين ؟

٢ - والظهار - وهو قول الرجل لامرأته:أنت علي كظهر أمي،أو نحوه،جريمة كبيرة(١)

---

(١) ممن عدها كبيرة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ٥٣/٢، والألوسي في تفسيره روح المعاني ٥/٢٨/١٠، بل قال: إنه أخطر من كثير من الكبائر، إذ قضيته الكفر، لولا خلو الاعتقاد عن ذلك، واحتمال التشبيه لذلك وغيره. ا.هـ .

سماه ا لله تعالى ﴿ منكراً من القول وزوراً ﴾ لأنه إحالة حكم ا لله وتبديله بدون إذنـه، لذلك كانت كفارته إذا لم يتبعه فورا بالطلاق، كفارة عظمى وهي تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، كما بين ا لله تعالى ذلك بقوله: ﴿ والذين يُظاهرون من نسائِهم ثم يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ من قبـل أن يَتماسَّا ذلكم تُوعظونَ به وا للهُ بما تعْملون خبير * فمن لم يجد فصيـامُ شـهرين مُتَتَـابعين مـن قبل أن يَتماسَّا فمن لم يستطعْ فإطعامُ ستِّينَ مسـكيناً ذلـك لتُؤمِنـوا بـا لله ورسـولِه وتلـك حدودُ ا لله وللكافرين عذابٌ أليم ﴾[سورة المجادلة:٣-٤] .

فأوجب ا لله عز وجل عند العجز عن تحرير الرقبة لفقدها أو فقد ثمنها، أو ارتفاعه عن حده، الانتقال إلى صيام شهرين متتابعين، وذلك لما في هذا الصيـام مـن الوفـاء بجبر تلـك الإساءة لعظم أجره، ولما فيه من تقويم للسلوك، وتهذيب للأخلاق، ولذلـك اشـترط فيـه التتابع حتى يؤتي ثماره في التزكية .

ولما كان الظهار قـد يقـع مـن الكبـار الذيـن قـد يعجـزون عـن القيـام بصيـام شـهرين متتابعين، جعل ا لله تعالى لهم مندوحة في الانتقال إلى إطعام ستين مسكينا .

بخلافه في القتل الذي غالبا ما يكون من الأقوياء، فإن ا لله لم ينص فيه علـى بـدل عـن الصيام، لما يريده لهم من التزكية في الأخلاق، لأن تجرأهم على القتل يـدل علـى انحطـاط أخلاقهم، وإن كان خطأ، فإنه يدل على التهاون في الحذر والاحتياط لحماية النفس وا لله أعلم .

٣ ـ واليمين ـ وهو الحلف با لله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته الأخرى ـ حقـه أن يحفظ، لما في حفظه من إشعار بتعظيم ا لله تعـالى وتبجيلـه، وكـثرة الحلـف تؤذن بـأن القلب غير عامر بتعظيم ا لله وإجلاله كما ينبغي.

وقد أمر ا لله تعالى المؤمنين بـأن يحفظـوا أيمـانهم فقـال: ﴿ واحفظُـوا أيمـانَكم ﴾[سـورة المائدة:٨٩]، وحفظها هو أن يضِن بها ولا يبذلها في كل أمر، أو بأن يبرَّ فيها ما استطاع إذا لم يفت بـهـا خير، أو أن يكـفـر عند الحنث(١)، ونهاهم عن كثرة الحلف فقال:

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ١٦١ .

﴿ ولا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانِكم أن تبرُّوا وتتَّقوا ﴾[سورة البقرة:٢٢٤] ، وقال: ﴿ ولا تتخذوا أيمانَكم دخَلاً(١) بينكم فتزِلَّ قدم بعد ثُبوتها ﴾[سورة النحل:٩٢] .

فإذا لم تفد هذه التوجيهات الإلهية من أوامر ونواهي، فحقه أن يزجر، وذلك إذا لم يف بيمينه، وحنث فيها، بأن يكفر عن يمينه بما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ لا يُؤاخذُكم الله باللَّغو في أيمانِكم ولكن يؤاخِذُكم بما عقَّدتم الأيمانَ فكفَّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين من أوسطِ ما تُطعمون أهلِيكم أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ذلك كفارةُ أيمانِكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانَكم كذلك يُبيِّنُ الله لكم آياتِه لعلَّكم تشكرون ﴾ [سورة المائدة:٨٩] .

فجعل الصيام كفارة لليمين عند العجز عن الإطعام أو العتق، وذلك لما في الصيام من فضل يجبر الإساءة التي حصلت في عدم الوفاء باليمين، وهو يهذب النفس ويزكي أخلاقها في تعظيم الله تعالى وإجلاله كما يجب أن يكون على المؤمنين، على ما مر تقريره .

فترى أن الله تعالى أوجب الصيام في مثل هذه الإساءات التي قد تحصل من المرء مما يكون في عباداته أو معاملاته أو سلوكه، وجعله قرين المال الذي يكون إخراجه في مثل هذه الأحوال على هيئة عتق أو إطعام، زاجرا للنفس على العود إلى مثل تلك الإساءة لما جبلت عليه النفس من الشح في المال، فله أبلغ الأثر في استقامة الأخلاق والسلوك، وجعل الصوم بدلا عنه؛ لأنه يؤدي ما تؤديه الكفارة بالمال من تقويم الأخلاق "فإنه يُعدل القوى الطبيعية التي هي داعية الفساد، فيرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة، إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية"(٢) .

---

(١) أي: فساد أو خديعة .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٨/١ .

تنويه القرآن العظيم بالصائمين والصائمات :

ولما له من ذلك الأثر العظيم، والأجر الجسيم، كان تنويه القرآن الكريم بالمؤدين له، في أوقات وجوبه، والمكثرين منه فيما سوى ذلك، تنويها عظيما حيث كان يذكرهم على سبيل المدح والثناء والإشادة، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدِّقين والمتصدِّقاتِ والصَّائمين والصائماتِ والحافِظين فروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرينَ الله كثيرا والذَّاكراتِ أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

فذكر الصائمين والصائمات ضمن أولئك الذين زكت أخلاقهم من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وامتازوا بالنبوغ في الأخلاق العظيمة التي سرد ذكرها على سبيل المدح والثناء والامتنان .

وإنما ذكر الصائمين والصائمات في سياق تعداده لأهل تلك المكارم الأخلاقية من قنوت وصدق وصبر وخشوع وكرم وعفاف وذكر لله، لأن الصيام الكامل يورث كل ذلك؛ لأن مثل تلك المكارم الأخلاقية العظيمة، إنما هي من ثمار التقوى التي يورثها الصوم، فلذلك سيق في عدادها كأنه واحد منها، والله أعلم .

ولما كان الصيام بتلك المثابة، اختصه الله تعالى لنفسه بالإضافة إليه كما جاء في الحديث القدسي: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به.."(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣١/٣، ومسلم في الصيام، باب حفظ اللسان برقم ١١٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تطبيق النبي صلى ا لله عليه وسلم للصيام

ولما كان الصيام له تلك المكانة عند ا لله تعالى، وله ذلك الأثر في التزكية، كان أحرص الخلق عليه، أكثرهم تُقى، وأعظمهم خلقا، وهو سيدنا ومولانا محمد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم،فكان يصوم صياما يعجز عنه غيره بلا ريب، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة تدل على إكثاره منه، وحثه عليه، وتبيينه لآدابه وأحكامه، بحيث ينوء بها الحصر هنا .

إكثاره صلى ا لله عليه وسلم من الصيام :

فعن كثرة صيامه تحدثنا عائشة رضي ا لله عنها وتقول:

١ - "كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، قالت: وما رأيت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم استكمل صيام شهر قطُّ إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صياما منه في شعبان"(١) .

٢ - وقال أنس رضي ا لله عنه: "ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائما إلا رأيته، ولا مفطرا إلا رأيته، ولا من الليل قائما إلا رأيته، قال: ولا مسست خزَّة ولا حريرا ألين من كف رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم"(٢) .

٣ - وكذا قال ابن عباس رضي ا لله عنهما: "ما صام النبي صلى ا لله عليه وسلم شهرا كاملا قط غير رمضان، ويصوم حتى يقول القائل: لا وا لله لا يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا وا لله لا يصوم"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان ٣/٥١، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي صلى ا لله عليه وسلم في غير رمضان برقم ١١٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي صلى ا لله عليه وسلم ٣/٥٠، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي صلى ا لله عليه وسلم في غير رمضان برقم ١١٥٨ واللفظ للبخاري .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، الباب السابق، ومسلم فيه كذلك برقم ١١٥٧ .

فهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يصورون لنا صيام النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان من الكثرة بحيث يقول الناظر له، والمتأمل لحاله: إن الصيام دأب له وعادة، أو الإفطار كذلك لكثرة مايصوم وكثرة ما يفطر .

(وذلك لأنه كان يصوم تارة من أول الشهر، وتارة من وسطه، وتارة من آخره، فكان من أراد أن يراه في وقت من أوقات الشهر صائما فراقبه المرة بعد المرة فلا بد أن يصادفه صائما، على وفق ما أراد أن يراه)(١) .

صيامه صلى الله عليه وسلم أياما بعينها :

صيامه الاثنين والخميس:

وكان مع ذلك يصوم أياما بعينها من الأسبوع أو الشهر أو السنة .

١ ـ "فكان عليه الصلاة والسلام يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس"(٢)،

٢ ـ ويقول كما في رواية أخرى: "تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم"(٣) .

صيامه ثلاثة أيام من الشهر :

٣ ـ وسئلت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من

---

(١) انظر فتح الباري ٤٧/٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم، باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس برقم ٧٤٥ من حديث عائشةرضي الله عنها، والنسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠٢/٤، ٢٠٣، وابن ماجه في الصيام، باب صيام الاثنين والخميس برقم ١٧٣٩، وقال عنه الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه .

(٣) أخرجها الترمذي في الباب السابق برقم ٧٤٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي إسناده محمد ابن رفاعة ، وهو مقبول كما في التقريب برقم ٥٨٧٩، ولكن للحديث شواهد ترقيه إلى مرتبة الحسن بل الصحة انظر إرواء الغليل ١٠٢/٤ ـ ١٠٤ .

كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت: نعم، قيل لها: من أي أيام الشهر كان يصوم ؟ قالت: لم يكن يبالي من أي أيام الشهر يصوم"(١) .

٤ ـ وقالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من الشهر: السبت والأحد والاثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخميس"(٢) .

٥ ـ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من غرَّة كل شهر ثلاثة أيام"(٣) .

٦ ـ وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر"(٤) .

وأيام البيض: هي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري .

وكان يوصي بذلك أصحابه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه :

٧ ـ "أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام"(٥) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على مواظبته صلى الله عليه وسلم على صيام أيام

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر برقم ١١٦٠، وأبو داود في الصوم، باب من قال: لا يبالي من أي الشهر برقم ٢٤٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصيام، باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس برقم ٢٧٤٦، وقال عنه: حديث حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم، باب في صوم الثلاث من كل شهر برقم ٢٤٥٠، والترمذي فيه، باب ما جاء في صوم الجمعة برقم ٧٤٢، والنسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠٤/٤، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٤) أخرجه النسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ١٩٨/٤، ١٩٩، وإسناده حسن .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ٥٣/٣، ومسلم في الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى وأنَّ أقلها ركعتان برقم ٧٢١، ٧٢٢ .

بعينها من كل شهر، وهي تدل على حرصه صلى ا لله عليه وسلم على الصيام ومواظبته عليه، ومحبته له .

٨ - ولقد دل على ذلك أيضا قول أبي الدرداء(١) رضي ا لله عنه: "كنا مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في سفر في يوم حار، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وعبد ا لله بن رواحة"(٢) .

فكونه صلى ا لله عليه وسلم يحرص على الصيام في السفر، وهم في تلك الحالة من الحر، وقد أباح ا لله تعالى الإفطار فيه بقوله سبحانه: ﴿ فَمن كان مِنكُم مريضاً أو على سَفَرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر ﴾[سورة البقرة:١٨٤]، فكونه يصوم والحال ماذكر يدل دلالة واضحة على عِظم رغبته في الصوم، كما يدل على أنه صلى ا لله عليه وسلم كان يأخذ نفسه بعزائم الأمور، ما لم يغلّب جانب بيان الشرع، فإنه حينئذ يأخذ بالرخص وما فيه رفق بالمسلمين كما فعل في غزوة الفتح، وكانت في رمضان من العام الثامن، حيث صام حتى بلغ الكَدِيْد(٣)، ثم أفطر وأفطر الناس معه(٤) .

مواصلته صلى ا لله عليه وسلم للصوم :

ولتلك الرغبة الكاملة والمحبة العظيمة من النبي صلى ا لله عليه وسلم للصوم، كان

---

(١) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، صحابي جليل، أسلم يوم بدر، وشهد أحدا وأبلى فيها بلاء حسنا، وكان عابدا ، مات في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه. انظر: الاستيعاب ١٨٥/٥، والاصابة ٤٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر ٤٤/٣، ومسلم في الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم ١١٢٢ .

(٣) جاء تفسيره في الرواية نفسها عند البخاري بأنه: ماء بين عسفان وقديد، وفي مراصد الاطلاع ١١٥٢/٣: على اثنين وأربعين ميلا من مكة .

(٤) كما جاء في رواية البخاري في الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر ٤٣/٣، ومسلم في الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم ١١١٣، من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما .

يواصل الصوم الأيام بالليالي "ليوفر ساعات ليله ونهاره للعبادة"(١)، والأدلة على ذلك كثيرة :

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والوصال، إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلَفوا(٢) من العمل ما تطيقون"(٣) .

٢ - وعن أنس رضي الله عنه قال: واصل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر شهر رمضان، فواصل ناس من المسلمين، فبلغه ذلك فقال: "لو مُد لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع المتعمِّقون تعمُّقهم(٤) ، إنكم لستم مثلي،أو قال: لست مثلكم،إني أظل يطعمني ربي ويسقيني"(٥) .

أي: يجعل فيَّ قوة الطاعم الشارب، ولهذا لم يؤثر الصيام على جسده الشريف كما هو الحال عند غيره من سائر المؤمنين، فقد كان يصوم من غير أن يتسحر، فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت :

٣ - دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: هل عندكم من شيء ؟ فقلنا: لا، قال: فإني إذا صائم، ثم أتانا يوما آخر فقلنا: يا رسول الله أُهدي لنا حَيس، فقال: أرِنيه فلقد أصبحت صائما فأكل"(٦) .

---

(١) قاله ابن القيم في زاد المعاد ٣٢/٢ .

(٢) يقال: كلفت بهذا الأمر أكلَفه، إذا ولعت به وأحببته .ا.هـ، النهاية ١٩٦/٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام، باب التنكيل لمن أكثر الوصال ٤٩/٣، ومسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٥ .

(٤) المتعمق: المبالغ في الأمر المتشدد فيه الذي يطلب أقصى غايته، النهاية ٢٩٩/٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب الوصال٤١/٣، ومسلم في الصوم، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٤ .

(٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال برقم ١١٥٤، وأبو داود في =

٤- وفي رواية قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتيني فيقول: أعندك غداء ؟ فأقول: لا، فيقول: إني صائم، قالت: فأتاني يوما فقلت: يا رسول الله إنه قد أهديت لنا هدية، قال: وما هي ؟ قلت: حَيْس، قال: أما إني قد أصبحت صائما ثم أكل"(١) .

فهكذا كان صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت رغبته فيه .

وما ذلك إلا لما يعلمه في الصوم من عظيم الفضل، وكبير الأجر، وبليغ الأثر في تهذيب النفس، وتزكية الخُلق، وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بلسانه الشريف ليحثهم عليه ويرغبهم فيه .

من أقواله صلى الله عليه وسلم الدالة على فضل الصوم والمرغبة فيه :

وأقواله في ذلك كثيرة جدا، ومن ذلك في بيان فضله: قوله عليه الصلاة والسلام :

١ - "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه"(٢) .

ومعنى إيمانا: تصديقا واعتقادا بأحقِّية فرضية صومه، ومعنى احتساباً: طلب الثواب من الله(٣) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خَريفا"(٤)، أي: مدة سير سبعين عاما .

= الصوم، باب الرخصة في النية في الصيام برقم ٢٤٥٥، والترمذي في الصوم، باب صوم التطوع بغير تبييت برقم ٧٣٢، ٧٣٣، والنسائي في الصوم، باب االنية في الصيام ١٩٣/٤ .

(١) هذه رواية الترمذي في الباب السابق برقم ٧٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣٣/٣، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح برقم ٧٦٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) فتح الباري ٢٥٠/٨ .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله ٣٢/٤، ومسلم في الصوم، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه برقم ١١٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

٣ ـ وقوله فيما يرويه عن ربه عز وجل: "كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان؛ فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلوف(١) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك"(٢) .

حثه صلى الله عليه وسلم على فضل صيام أيام بعينها :

وكان عليه الصلاة والسلام يبين فضل صيام أيام بعينها كيوم عرفة ، ويوم عاشوراء، وست أيام من شوال، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ "ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، صيام عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله"(٣) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم في صيام ست من شوال: "من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فذلك صيام الدهر"(٤) .

أي: أجره كأجر صيام سنة كاملة لأن الحسنة بعشر أمثالها .

إلى غير ذلك من حثه صلى الله عليه وسلم على صيام أيام بعينها مما هو مبين في مظانه

---

(١) هو تغير ريحه من ترك الأكل والشرب .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣١/٣، ومسلم في الصيام، باب حفظ اللسان برقم ١١٥١ رقم حديث الكتاب ١٦٤، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام ، باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يو عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس برقم ١١٦٢، من حديث أبي قتادة، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل صوم عرفة برقم ٧٤٩، وفي الحث على صوم عاشوراء برقم ٧٥٢ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان برقم ١١٦٤، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال برقم ٧٥٩ .

بيانه صلى الله عليه وسلم لما في الصوم من تزكية للأخلاق :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين لأمته ما يفعله الصوم من تزكية للأخلاق، ويحثهم على ما يعين على ذلك فيقول :

١ - "الصيام جُنة"(١) .

ومعنى كونه جُنة: أي وقاية تقي صاحبها ما يؤذيه من الشهوات(٢) .

وذلك لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، فإذا كف المرء نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساترا له عن النار في الآخرة(٣) .

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينهى أمته عن أن تهتك أستاره وتفعل ما يفسد هذه الوقاية من المحرمات فيقول :

٢ - ".. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث(٤) يومئذ ولا يسخب(٥) فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم.."(٦) .

٣ - ويقول: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"(٧) .

وذلك لأن المقصود من شرعية الصوم ليس هو نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣١/٣، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام برقم عام ١١٥١، وخاص ١٦٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٠٨/١ .

(٣) انظر فتح الباري ٢٣٦/٨ .

(٤) المراد بالرفث هنا: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا وعلى الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مطلقا، ويحتمل أن يكون لما هو أعم منها، الفتح ٢٣٧/٨ .

(٥) أي: لا يصيح .

(٦) هو تتمة للحديث السابق عند البخاري، وإحدى رواياته عند مسلم برقم خاص ١٦٣ .

(٧) أخرجه البخاري في الصيام، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ٣٣/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة بالسوء، فإذا لم يحصل ذلك لا ينظر الله إليه نظرة قبول"(١) ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

٤ - "رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"(٢) .

٥ - وفي حديث آخر قال: "رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر"(٣) .

والمعنى: أن من الناس من لم يستفد من صومه، فلم يؤثر فيه تهذيبا للنفس ، وتزكية للأخلاق، وذلك من لم يصن صومه عن مفسدات آثاره الحسية أو المعنوية، فراح يرفث ويفسق، وكان عليه إذا أراد أن ينال ثمرة الصوم وأجره أن يصونه عن اللغو والرفث والفسوق والعصيان كما قال صلى الله عليه وسلم :

٦ - "ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل: إني صائم، إني صائم"(٤) .

والمعنى: أن الصوم لا يكون بالإمساك عن الأكل والشرب فقط، بل لا بد أن يصحبه أيضا إمساك عما ذكر من اللَّغو والرفث؛ لأن ذلك من غايات الصيام المهمَّة، والله الموفق والهادي لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو .

---

(١) فتح الباري ٢٥٣/٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام ٥٣٩/١ برقم ١٦٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن خزيمة في الصيام ٢٤٢/٣ برقم ١٩٩٧، والحاكم في المستدرك ٤٣١/١، وقال: صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة ٣٠١/١ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٢٤٧ .

(٤) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢٤٢/٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن حبان في آداب الصوم ١٩٨/٤ برقم ٣٤٧٠ الإحسان،والحاكم في الصيام ٤١٠/١، وقال: صحيح على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي .

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

(الحجُّ)

وفيه مطالب :

١ ـ تعريفه وبيان علاقته بالأخلاق .
٢ ـ الابتعاد فيه عن الرفث والفسوق .
٣ ـ الإكثار من ذكر الله تعالى فيه .
٤ ـ التقرب فيه إلى الله بالهدي ونحوه .
٥ ـ تعظيم حرمات الله تعالى فيه .

المطلب الأول: تعريف الحج :

الحج لغة: القصد للزيارة، يقال: رجل محجوج أي: مقصود، وقد حج بنو فلان فلانا: إذاأطالوا الاختلاف إليه(١) .

وفي الشرع: "قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة، في زمن مخصوص بشروط مخصوصة"(٢) .

علاقة الحج بالأخلاق :

الحج من أعظم العبادات التي ترمي إلى نزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق، وذلك لما فيه من أحكام وآداب، ورياضات روحية ونفسية، تجعل النفس ترتاض على مكارم الأخلاق، وتبعد عن رذائلها التي حظرت فيه على وجه الخصوص، فهو كسائر العبادات التي جعلها الله تعالى أساسا للتربية، وغرس الأخلاق الفردية والاجتماعية؛ السلوكية والتعاملية .

لا جرم فقد قال الله تعالى: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرض فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحجّ وما تفعَلُوا من خيرٍ يَعلمْهُ اللهُ وتزوَّدوا فإنَّ خير الزَّادِ التَّقوى واتقونِ يا أُولِي الألبابِ ﴾[سورة البقرة:١٩٧] .

فإن هذه الآية فيها الحث على الأخلاق الجميلة والتمسك بالآداب الحسنة، والاحتراز عما يحبيط ثواب الطاعات(٣) ، وذلك بالصبر والإخلاص والاستعلاء على شهوات الجسد، وإنفاق المال فيما يحبه الله، والتخلص من الكبر والعجب والغرور والنفور التام عن مساوىء الأخلاق من رفث وفسوق وجدال ومراء وغير ذلك مما سيأتي بيانه في المطالب الآتية :

---

(١) الصحاح مادة (حج) ٣٠٣/١، والمفردات للراغب ص ١٠٧ .

(٢) التعريفات ص ١٢، والتوقيف للمناوي ص ٢٦٨، وأنيس الفقهاء للقونوي ص ١٣٩ .

(٣) التفسير الكبير ١٦٦/٥ .

المطلب الثاني: الابتعاد فيه عن منكرات الأخلاق من الرفث والفسوق والجدال

لما كان الحج مبنيا على اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، فيأتون من كل فج عميق إلى مكان واحد، وفي موسم واحد، وكان هذا الاجتماع العظيم أعظم اجتماع إسلامي وبشري على وجه الأرض، ومثل هذا الاجتماع العظيم مظنة لأن يجري فيه الاختلاف، أو نحوه من مساوىء الأخلاق وذلك لكثرة الجمع ذاك، مع ضيق المساحة، وحرارة الطقس غالبا، وكثرة الاحتكاك بين أفراده في المعاملات والمخاطبات في المساجد والطرقات .

لما كان حال الحج ما ذكر، كان أجدر بأهله المجتمعين لأدائه أن يكونوا فيه متحلين بكمال الأخلاق في سلوكهم وتعاملهم حتى يؤدوا هذا النسك العظيم،الركن الخامس من أركان الإسلام على أكمل وجه، ويجنوا منه أينع الثمار .

وهذا ما عني به القرآن الكريم، فألزم مؤدِّيه به وذلك حين قال: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج.. ﴾[سورة البقرة:١٩٧] .

فمنع أن يكون في الحج أي شيء يجر إلى مساوىء الأخلاق من أي جهة كان انبعاثه، عن طريق الشهوة أو رقة الدين أو الغضب ..، وجاء ذلك بأسلوب النفي "للمبالغة في النهي والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون"(١) .

والرفث: كلمة جامعة لكل ما يفسد الحج، أو لا يليق لمن كان متلبسا بالحج بقوله أو فعله لحرمة الحج(٢) .

والفسوق: الخروج عن حدود الشرع وارتكاب المحظورات المحرمة في الحج من قتل صيد وحلق شعر ونحوهما، والمعاصي كلها لا يختص منها شيء دون شيء .

والجدال: الخصام مع الخدم والرفقة،والمماراة مع الناس للتغالب وحظ النفس،حتى

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨٦/٢/١ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٨٧/٢ .

يؤدي إلى الغضب(١) .

فنهى الله تعالى عن هذه الأمور الثلاثة التي تنشأ عنها مساوىء الأخلاق بذلك الأسلوب البالغ في الدلالة كما علمت، ثم أكد على مضمون تلك المنهيات بقوله: ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ يعلمْه الله ﴾ "إذ فيه حث على الخير عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام: الحسن، ومكان الفسوق: البر والتقوى، ومكان الجدال: الوفاق والأخلاق الجميلة"(٢) .

والالتزام بمضمون هذه الآية ممن يحج بيت الله طول فترة الحج من حين الإحرام إلى حين الفراغ من أداء المناسك، مع كثرة نزعات النفس والشيطان إلى عصيان الله تعالى بالوقوع في حمأة تلك المساوىء؛ يُرَوِّضُ النفس على الرُّقِيِّ بها إلى مكارم الأخلاق ومعاليها .

ولا بد للحاج من الالتزام بذلك إذا أراد بحجه وجه الله تعالى؛ لأن حجه لا يكون مبرورا، ولا مكفرا لسيئاته، بل قد لا يكون صحيحا إلا إذا التزم بمضمون هذه الآية، كما دلت على ذلك السنة المشرفة التي منها قوله صلى الله عليه وسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"(٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(٤) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ؟ فقال: "الإيمان بالله

---

(١) البحر المحيط ٨٧/٢، وروح المعاني ٨٦/٢/١ .

(٢) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي ١٥٢/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحج ١٦٤/٢، ومسلم في الحج، باب فضل الحج والعمرة برقم ١٣٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في الحج، باب العمرة ٢/٣، ومسلم في الحج، باب فضل الحج والعمرة برقم ١٣٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: جهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور"(١).

فبين في الحديث الأول ثمرة عدم الرفث والفسوق في الحج من أنها تصيِّر الحاج نقيا من الذنوب والآثام كحاله يوم ولادته،كما بين الحديث الثاني أن الحج المبرور لا تقتصر فائدته على تكفير لبعض الذنوب، بل لا بد أن يبلَغ بصاحبه الجنَّة(٢) .

والحج المبرور الذي رتب عليه ذلك الثواب والإكرام هو الذي لا يخالطه إثم من حين الإحرام إلى حين التحلل(٣) .

أما الحديث الثالث: فقد أبان عن مرتبة الحج المبرور، ودل على أن مرتبته عظيمة، إذ جعله النبي صلى الله عليه وسلم تاليا لمرتبتي الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله، وفضل تينك المرتبتين معلوم ومشهور، وقد قرن بهما الحج المبرور لتعلم منزلته منهما .

وعندئذ فلا يسع المسلم بعد معرفة ذلك الفضل إلا أن يسعى إلى تحصيله ليسعد بأثره، وليس هناك من سبيل إلى تحصيله إلا أن يصير حجه مبرورا، وذلك بالبعد عن المعاصي والآثام التي منها الرفث والفسوق والجدال وغيرها .

ومعلوم أن المسلم لا يهدف من حجه إلا أن يكون مبرورا،ليطهر نفسه من الآثام والذنوب التي قد اكتسبها، لا سيما إن كان قد تجشَّم مصاعب كثيرة بدنية ومالية ونفسية؛ لأنه إن لم ينل ذلك فإنه سيرى أنه قد خسر مراده من حجه، وهو ما لا يريده المسلم لنفسه، وعليه فإنه سيحرص على المحافظة على حجه محافظة شديدة إلى أن يفرغ من أعماله، وذلك بالالتزام بالأخلاق المرضية والآداب الشرعية حتى ينال ثواب الحج المبرور .

وإذا ما فعل ذلك فإنه سيكون قد ارتاض على مكارم الأخلاق في فترة ليست قصيرة

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحج المبرور ١٦٤/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) القرى لقاصد أم القرى ص ٣٤ .

(٣) الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي ص ١٥ .

مما يجعل أمامه نموذجا يحتذى، ويسهل عليه السير على ذلك المنهج في بقية حياته، وإذا ما سار عليه بقية حياته فإن ذلك علامة بر حجه، إذ علامة (ذلك أن يرجع خيرا مما كان ولا يعاود المعاصي)(١)، وكم من عباد الله رجعوا من حجهم بحال أحسن من الحال التي كانوا عليها قبله، واستُدل بذلك على أوبهم بربح عظيم، من ذلك المشهد العظيم، الذي جعل الله تعالى من غاياته أن يصدُر الحاج منه بمنافع عظيمة دينية ودنيوية، حيث قال جل ذكره: ﴿ وأذِّنْ في النَّاسِ بالحجِّ يأتُوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍ عميق * ليَشهدُوا منافعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامٍ معلوماتٍ على ما رَزقهم من بهيمةِ الأنعام ﴾[سورة الحج:٢٧،٢٨] .

ولا ريب أن تزكية النفس وسمو الخلق اللذين يكتسبهما الحاج في حجه، ويؤثران عليه في بقية حياته هما من أجل المنافع وأعظمها بركة في دينه ودنياه .

المطلب الثالث: الإكثار من ذكر الله تعالى فيه

وذلك لأن ذكر الله تعالى في الحج على الدوام يجعل الإنسان في حصن منيع من الوقوع في المناهي التي تذهب برَّ الحج أو تفسده بالكلية، لأنه بالأذكار يتذكر عظمة الله وعظمة المكان الذي يعيش فيه، فلا يقدم عندئذ على ارتكاب مخالفة أو إخلال بأدب .

وقد جعل القرآن الكريم من أهداف الحج وغاياته ذكر الله تعالى حيث قال: ﴿ ليَشهدُوا منافعَ لهم ويذكرُوا اسمَ اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعام ﴾[سورة الحج:٢٨] .

وقال أيضا: ﴿ ولكلِّ أمةٍ جعلنا منسكاً ليذكرُوا اسمَ الله على ما رزَقهم من بهيمةِ الأنعام فإلهُكم إلهٌ واحد فله أسلموا وبَشِّر المخْبتين * الَّذين إذاذُكِر اللهُ وجلت قلوبُهم ﴾[سورة الحج: ٣٤،٣٥] .

وقال أيضا: ﴿ فاذكُروا اللهَ عندَ المشعرِ الحرامِ واذكُروه كما هداكم وإنْ كنتُم من

(١) انظر الإيضاح ص ١٦، والقرى ص ٢٤ .

قبله لمن الضَّالين * ثم أفيضُوا من حيث أفاضَ النَّاسُ واستغفِروا ا للهَ إنَّ ا لله غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:١٩٨،١٩٩] .

وقال سبحانه: ﴿ واذكروا ا للهَ في أيَّامٍ معدوداتٍ ﴾[سورة البقرة:٢٠٣] .

فكل هذه الآيات تدل على أن المقصود الأهم من شرعية المناسك والنسك هو ذكر ا لله تعالى وتعظيمه وشكره،لما لذكر ا لله تعالى من أثر في إصلاح النفوس واستقامة الأخلاق، وقد أوضحت ذلك السنة المطهرة، ففي الحديث عن عائشة رضي ا لله عنها قالت: سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "إنما جُعل الطَّواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر ا لله تعالى"(١) أي: لأن يذكر ا لله تعالى في هذه المواضع المباركة .

فدل الحديث على أن الغاية من إقامة هذه الشعائر هي ذكر ا لله تعالى، فإذا كان ذكر ا لله هو الغاية من الحج، فإن من فرط فيه فقد فرط في لُبِّه وسره وغايته، لذلك نرى أن الشارع قد أفعم أعمال الحج بالأذكار من حين التَّلبس به إلى حين الفراغ منه، حيث جعل لكل زمان ومكان ذكرا يشغل المرء به نفسه ويناجي به ربه، من تلبية وأذكار في الطواف والسعي وغيرهما، وتهليل وتكبير وأذكار عامة وخاصة، واختُصَّ من هذه الرحاب أمكنة يستجاب فيها الدعاء والذكر(٢)، فعلى الحاج أن يحرص على الإكثار من ذكر ا لله تعالى، وليحذر من الغفلة فإن بذكر ا لله تطمئن القلوب، وتستقيم الأخلاق، وحري بأمر هذه ثمرته أن يحافظ عليه أبدا .

ولذلك أمر ا لله تعالى به بعد الفراغ من المناسك، ليظل المسلم على عهد الاستقامة والصلاح، ويواصل المسيرة في درب التقوى والفلاح، فقال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم مناسكَكَم فاذكُروا ا لله كذكرِكم آباءَكم أو أشدَّ ذكرا ﴾ ثم بين أصناف الناس في

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك، باب في الرَّمَل رقم ١٨٨٨، من حديث عائشة رضي ا لله عنها، والترمذي في الحج، باب ما جاء كيف يرمي الجمار رقم ٩٠٢ وفيه عنده ذكر "رمي الجمار" بدل الطواف، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) انظر الإيضاح للنووي ص ٢٧١ بحاشية ابن حجر .

الاستجابة إلى هذا الأمر الكريم فقال: ﴿ فمِن النَّاسِ من يَقولُ ربَّنا آتِنا في الدّنيا وماله في الآخرةِ من خَلاق * ومنهم من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخِرة حسنةً وقنا عذابَ النار * أولئِك لهم نصيبٌ مما كسبُوا والله سريعُ الحساب ﴾[سورة البقرة:٢٠٠- ٢٠٢].

فبين جل شأنه أنهم فريقان: أحدهما قصر دعاءه على طلب الدنيا فحظه منها متاع زائل ثم ليس له في الآخرة من نصيب .

والآخر جمع في طلبه بين خيري الدنيا والآخرة فجمع الله له ذلك ، والله ذو الفضل العظيم .

﴿ من كان يُريدُ حرثَ الآخرةِ نَزد له في حَرثِهِ ومن كان يُريدُ حرثَ الدُّنيا نؤتهِ منها وماله في الآخِرة من نصيب ﴾[سورة الشورى:٢٠] .

المطلب الرابع: التقرب فيه إلى الله تعالى بالهدى

"لأن في ذلك تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل، وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل"(١) .

لذلك عني القرآن الكريم بالهدى وتحدث عنه حديثا مستفيضا، وأوجبه تارة، وندب إليه أخرى في غيرما آية .

فأوجبه بمثل قوله: ﴿ وأتمّوا الحجَّ والعمرةَ لله فإن أُحصرتم فما اسْتيسر من الهَدي ولا تحلِقوا رءوسَكم حتى يَبلُغَ الهديُ مَحِلَّه فمن كان منكم مريضًا أو به أذًى من رأسِه ففِديةٌ من صيامٍ أو صدَقةٍ أو نُسك فإذا أمنتُم فمن تمتَّع بالعمرةِ إلى الحجِّ فما استيسرَ من الهدي ﴾[سورة البقرة:١٩٦]الآية .

فتضمنت الآية إيجابه في ثلاثة مواضع؛ عند الإحصار وهو الحبس عن دخول مكة ، وعند الحاجة إلى حلق الرأس أو تغطيته، وعند التمتع بالعمرة إلى الحج .

ودلت السنة على إيجابه كفارةً في مواطن أخرى كثيرة تعلم من كتب المناسك خاصة،

---

(١) الإحياء ٢٣٨/١ .

وكتب السنة والفقه عامة، وأوجبه كذلك عند التعرض للصيد واصطياده في الحرم أو الإحرام حيث قال سبحانه: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تقْتُلوا الصَّيدَ وأنتم حُرُمٌ ومن قَتله منكم متعَمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النَّعَم يحكم به ذَوا عدلٍ منكم هَدْيًا بالغَ الكعبة ﴾ [سورة المائدة:٩٥] .

أما ندبه إليه فقد كان في معرض الامتنان على إسداء الله هذه النعمة لعباده، وقد تحدثت عن ذلك سورة الحج بإسهاب، ومن حديثها عنه قوله تعالى: ﴿ ليشهدُوا منافعَ لهم ويذكُروا اسمَ الله في أيَّامٍ معلوماتٍ على ما رزَقهم من بهيمةِ الأَنعام فكُلوا منها وأطعِموا البائسَ الفقير ﴾[٢٨]، وقوله: ﴿ ذلك ومن يُعظِّم شعائرَ الله فإنها مِن تقوى القلوب * لكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمًّى ثم مَحِلُّها إلى البيتِ العتيق * ولكلٍّ أمةٍ جَعَلْنا منْسكاً ليذكُروا اسمَ الله على ما رزَقهم مِن بهيمةِ الأنعام ﴾[٣٢-٣٤]، وقوله جل شأنه: ﴿ والبُدنَ جعلناها لكُم من شعائرِ الله لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسمَ الله عليها صوافَّ فإذا وَجَبَتْ جُنوبُها فكلُوا منها وأطعِموا القَانعَ والمُعترَّ كذلك سخَّرناها لكم لعلَّكم تشكُرون * لن يَنالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن ينالُه التَّقوى منكم كذلك سخَّرها لكم لِتكَبِّروا الله على ما هداكم وبشِّر المحسنين ﴾[سورة الحج:٣٦،٣٧] .

ويُرى أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح بهيمة الأنعام في هذه السورة وغيرها، وذلك للامتنان على الخلق بعظيم هذه النعمة التي أسداها لعباده "ولا سيما العرب إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لما قامت لهم قائمة؛ لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة"(١) فالمِنَّة تعظم في حقهم لذلك، هذا من حيث هي منّة .

لكنها في الحج لها معان أخرى جليلة ودقيقة قد يقف العقل حائرا إذا ما حاول إدراكها، وإذا ما حاول جاهدا أن يدرك شيئاً من تلك المعاني التي يحملها سوق الهدي

---

(١) محاسن التأويل ١٢/٢٠ .

والتقرب بها إلى ا لله تعالى، فإن غاية ما يقدر أن يقف عليه مثلي،هو أن في ذلك إشارة إلى ثمرة قهر النفس إذا ما عارضت داعي ا لله تعالى، كما حدث لنبي ا لله إسماعيل عليه السلام الذي دحض نفسه وأسقط حقها في الحياة،حينما عارضتها إرادة ا لله من أبيه بأن يتقرب بابنه إلى المولى جل وعلا شكرا على إنعامه عليه ببناء بيته العظيم، فطاوع الأمر الإلهي، وسلم نفسه لأبيه ليتصرف فيه بما أمر، ولما علم ا لله صدقه وقهره لنفسه وهواه فداه بذبح عظيم، كما قال ا لله جل ذكره: ﴿ فلمَّا أسلما وتلَّه للجبِينِ * وناديْنَاهُ أن ياإبراهيمُ * قد صدَّقت الرُّؤيا إنَّا كذلك نَجزي المحسنين * إنَّ هذا لهو البَلاءُ المبين * وفديناه بذِبحٍ عظيم ﴾[سورة الصافات:١٠٣-١٠٧] .

فالحاج حينما قهر نفسه عن خلودها إلى الراحة والدَّعة وأتم نسكه كان قد أدى عملا عظيما يستوجب الشكر لمن وهبه ذلك التوفيق، وقد بين الخالق نوع الشكر المراد منه هنا من أنه قربانٌ يقدمه لخالقه ومالكه كما فعل أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وأصبح شرعا لمن بعده بإقرار شريعتنا له وندبها إليه .

وإضافة على ذلك فإن في تقديم الهدي تلبية لدعاء إبراهيم عليه السلام لذريته، وساكني هذا البلد الأمين في أن يتولى ا لله جل جلاله إطعامهم، إذ لا حيلة لهم في كسب طعامهم؛ لأنهم بواد غير ذي زرع ، فاستجاب ا لله تعالى دعاءه، وجعل ذلك عن طريق قاصدي بيته العظيم، ويؤكد ذلك قوله تعالى ممتنا على ساكني مكة بعظيم نعمته عليهم: ﴿ .. الَّذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ﴾[سورة قريش:٤] .

المطلب الخامس: تعظيم حرمات ا لله تعالى فيه

وذلك باستشعار عظمة هذه البقاع الطاهرة، والمشاعر المقدسة الشريفة التي حرمها ا لله يوم خلق السمٰوات والأرض، وتذكُّر أن المرء وهو في فِناء الملك يكون أكثر تعظيما له منه إذا كان في غير ذلك الموطن، وإساءته الأدب فيه يجعله أكثر تعرضا للعقاب منه في غيره، لأن إساءته وهو في ذلك المكان يشعر بعدم المبالاة بالملك واستخفافه به ﴿ ولِلهِ المثَلُ الأعلى ﴾[سورة النحل:٦٠]، إذ ﴿ ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السَّميع البصير ﴾ [سورة

الشورى:١١]، ولذلك نجد أن الله تعالى قد آذن من يسيء أدبه في حرمه وفناء بيته بالعقاب الشديد حيث قال: ﴿ ومن يُرِد فيه بإلحادٍ بظُلمٍ نُذقْه من عذابٍ أليم ﴾[سورة الحج:٢٥]، والإلحاد:هو الميل عن القصد، وهو شامل لكل معصية لأن الآية عامة(١) .

فترى أن الله تعالى قد توعد صاحب الإرادة السيئة بالعذاب الأليم كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: "لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه، ولو هم بقتل رجل بمكة وهو بِعَدَن أَبْيَن(٢) لعذبه الله جل وعز ثم قرأ: ﴿ ومن يُرد فيه بإلحاد ...﴾الآية(٣) .

فإذا كانت المؤاخذة تتم في مكة المكرمة بمجرد الإرادة، فكيف بمن اقترف الذنب بالفعل، ولذلك جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لَخطيئة أصيبها بمكة أعز علي من سبعين خطيئة أصيبها برُكبة"(٤) ، وكان يقول أيضا: "يا معشر قريش الحقوا بالأرياف فهو أعظم لأخطاركم وأقل لأوزاركم"(٥) .

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن مقامه بغير مكة فقال: مالي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات"(٦) وكان قد خرج من مكة فأقام بالطائف حتى توفاه الله تعالى .

ولذلك كره جماعة من السلف منهم أبو حنيفة رحمه الله تعالى، كرهوا الجوار بمكة لخوف الملل وقلة الاحترام، وخوف ارتكاب ذنب هنالك، فإن المعصية فيها ليست كغيرها،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٩٤/٣ .

(٢) المدينة المعروفة في جنوب اليمن، ونسبت إلى أبين وهو رجل من حمير؛ لأنه أول من سكنها، وللفرق بينها وبين عدن لاعة بقربها، انظر تاج العروس ٢٧٥/٩، ومعجم البلدان ٨٩/٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣٩٣/٣، قال ابن كثير: وإسناده صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ا.هـ تفسير ابن كثير ٢١٥/٣ .

(٤) تأريخ مكة للأزرقي ١٣٤/٢، وركبة: مفازة على يومين من مكة، وعن الأصمعي أنها بنجد، وانظر: مراصد الاطلاع ٦٢٩/٢ .

(٥) تأريخ مكة للأزرقي ١٣٤/٢ .

(٦) إعلام الساجد في أحكام المساجد للزركشي ص ١٢٨ .

ولتهييج الشوق إليها بسبب فراقها(١) .

ولا بدع فقد قال الله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظّم حُرُماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربّه ﴾ [سورة الحج:٣٠]، أي فالتعظيم خير له من التهاون بشيء منها، وحرمات الله هي ما أمر به من المناسك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي جميع المناهي في الحج: فسوق وجدال وجماع وصيد، وتعظيمها أن لايحوم حولها(٢) .

قال القرطبي: "الحرمات المقصودة هاهنا: هي أفعال الحج المشار إليها في قوله: ﴿ ثُمَّ لِيقضُوا تَفثهم ..﴾الآية، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع كما قاله ابن زيد وغيره(٣) .

وقال الله تعالى: ﴿ ذلك ومن يعظّم شعائرَ اللهِ فإنّها من تَقوى القلوب ﴾[سورة الحج:٣٢]، وشعائر الله تعالى هي: مواضع الحج كلها من منى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، كما قاله جمع من السلف(٤)، ويدل له قوله تعالى: ﴿ إنّ الصَّفا والمروةَ مِن شعائرِ الله ﴾[سورة البقرة:١٥٨]، أو هي الهدايا خاصة لأنها من معالم الحج وشعائره كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائرِ الله ﴾[سورة الحج:٣٦](٥) .

قال ابن جرير: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن تعظيم شعائره وهي ما جعله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئا، قال: فتعظيم كل ذلك من تقوى القلوب وحق على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك"(٦) اهـ .

---

(١) القرى لقاصد أم القرى ص ٦٦١ .

(٢) روح المعاني ١٤٦/١٧/٦ ، والتفسير الكبير ٣١/٢٣ ، وتفسير القرطبي ٥٤/١٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٥٤/١٢ .

(٤) انظر روح المعاني ١٥٤/١٧/٦ .

(٥) محاسن التأويل ٢٥/١٢ .

(٦) تفسير ابن جرير ١٥٧/١٧، وانظر زاد المسير ١٦٤/١ .

تطبيق النبي صلى ا لله عليه وسلم للحج

بعد أن فرض ا لله الحج على عباده بادر النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى الحج من غير تأخير(١) . فحج حجته الوحيدة الشهيرة المسمّاة بـ"حَجة الوداع" في العام العاشر من هجرته المباركة، ولم يحج حجة سواها بعد فرضه.

وقد بين لأمته الحج الذي أراده ا لله تعالى من عباده بفعله وقوله الكريمين في هذه الحجة .

١ـ وقال لأصحابه الكرام: "خذوا عني مناسككم،لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه"(٢) . وقد أخذ عنه الصحابة الكرام رضوان ا لله عليهم مناسك الحج وبينوها لمن وراءهم كما هو معلوم من كتب المناسك وفي كتب السنة المشرفة في كل صغيرة وكبيرة.

وكان مما بينوه لنا من مناسكه في الحج ذكر ا لله تعالى والتقرب إليه بالهدى والأضاحي وتعظيم الحرم والمشاعر...

٢ـ فقد روى جابر بن عبدا لله . رضي ا لله عنهما في حديثه الطويل الذي وصف فيه حَجة النبي صلى ا لله عليه وسلم: أن أول ما تلبس به من أمر المناسك هو ذكر ا لله تعالى، حيث قال في حديثه ذاك: "فأهلّ بالتوحيد:لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .."(٣) .

(١) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد ٢/١٠١ـ١٠٢، وحجة الوداع لمحمد زكريا الكاندهلوي ص ٢٤ـ٢٥

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر برقم ١٢٩٧، وأبو داود في المناسك، باب رمي الجمار برقم ١٩٧٠، والنسائي في الحج، باب الركوب إلى الجمار واستضلال المحرم ٥/٢٧٠ .

(٣) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى ا لله عليه وسلم تاما برقم ١٢١٨، وكذا أبو داود في المناسك، باب صفة حجة النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ١٩٠٥، والنسائي في مواضع كثيرة مفرقا =

٣- وكذا قال عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما(١) .

٤- وفي رواية له قال: كان عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه يهل بإهلال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من هؤلاء الكلمات ويقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك، والرغباء إليك والعمل"(٢) .

٥- ولزم النبي صلى ا لله عليه وسلم تلبيته(٣) هذه لا سيما إذا لقي رَكبا أو علا أَكَمة، أو هبط واديا، أو كان في دبر الصلوات المكتوبات، أو آخر الليل(٤) .

٦- وكان إذا رأى شيئا يعجبه قال: "لبيك إن العيش عيش الآخرة"(٥) .

٧- وإذا فرغ من تلبيته "سأل ا لله مغفرته ورضوانه واستعاذ برحمته من النار"(٦) .

= وابن ماجه في المناسك، باب حجة رسو ا لله صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٠٧٤ .

(١) انظر البخاري في الحج، باب التلبية ٢/١٧٠، ومسلم في الحج، باب التلبية وصفتها برقم ١١٨٤ .

(٢) أخرجها مسلم في الكتاب والباب السابقين برقم ١١٨٨ .

(٣) كما جاء في حديث جابر عن أبي داود .

(٤) كما جاء في حديث جابر رضي ا لله عنه من رواية ابن عساكر في تخريج أحاديث المهذب، كما قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/٢٣٩ وقال: في إسناده من لا يعرف، قال الحافظ: وروى الشافعي عن سعيد بن سالم عن عبيد ا لله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنه كان يلبي نازلا وراكبا ومضطجعا، انظر الأم ٢/١٥٧ .

(٥) أخرجه الشافعي في الأم ٢/١٠٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٤٥ من رواية مجاهد مرسلا، ورواه الحاكم متصلا من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي ا لله عنهما أن النبي صلى ا لله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال: لبيك قال: إن الخير خير الآخرة، وقال: حديث صحيح، وأقره الذهبي، المستدرك ١/٤٦٥، ورواه ابن خزيمة في المناسك من صحيحه ٤/٢٦٠ برقم ٧٠٩ كرواية الحاكم. وانظر خلاصة البدر المنير ١/٣٦٠ .

(٦) أخرجه الشافعي في الأم ٢/١٥٧ من حديث خزيمة بن ثابت، وفي إسناده صالح بن محمد بن أبي زائدة أبو واقد الليثي وهو مدني ضعيف كما في التلخيص ٢/٢٤٠ من طريق إبراهيم بن أبي يحيى وهو ثقة عند =

٨ـ ويقول لأصحابه: "أفضل الحج العجُّ والثَّجُّ"(١) ، والعج هو: رفع الصوت بالتلبية، والثَّج هو: سيلان دماء الهدي والأضاحي(٢) .

أما في الطواف والسعي فقد كان صلى الله عليه وسلم يقطع التلبية فيهما ويأتي بأذكار أخرى .

٩ـ فعن عبدالله بن السائب(٣) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الطواف ما بين الركنين: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"(٤) ، وكان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول: "لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير" يصنع ذلك ثلاث مرات ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك. كما جاء في حديث جابر بن عبدالله في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم(٥) .

= الشافعي، ضعيف عند الجمهور، غير أنه لم يتفرد به بل تابعه عليه عبد الله بن عبد الله الأموي .
أخرجه البيهقي في السنن ٤٦/٥ .

(١) أخرجه الترمذي في الحج برقم ٨٢٧ باب ما جاء في فضل التلبية والنحر ، وابن ماجة في المناسك برقم ٢٩٢٤، والحاكم في المناسك ٤٥٠/٣، وصححه وأقره الذهبي، كلهم من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) النهاية لابن الأثير مادة (ثج) ٢٠٧/١، و(عج) ١٨٤/٣ .

(٣) ابن أبي السائب المخزومي المكي، له ولأبيه صحبة، وكان قارىء مكة، توفي في إمارة ابن الزبير وصلى عليه ابن عباس سنة بضع وستين. انظر الإصابة ٣٠٤/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في المناسك ، باب الدعاء في الطواف برقم ١٨٩٢، وعبد الرزاق في المصنف ٥٠/٥، والطبراني في الدعاء برقم ٨٥٩، وفي إسناده عبيد مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ في التقريب رقم ٤٤٠٦ مقبول، وبقية رجاله ثقات .

(٥) وقد تقدم تخريجه من حديث مسلم وغيره .

١٠- وإذا سعى في بطن المسيل قال: "اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم"(١) .

١١- وفي حديث جابر رضي الله عنه في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم قال: ".. ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ ﴿ إنَّ الصَّفا والمروةَ مِن شعائرِ الله ﴾[سورة البقرة:١٥٨] ثم قال: "أبدأُ بما بدأ الله به"فبدأ في الصفا فرقَى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبَّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" ثم دعا بين ذلك، قال هذا ثلاث مرات، الحديث(٢) .

وكان يقول:

١٢- "إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله تعالى"(٣) .

١٣- أما في عرفة فقد روى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى بسنديهما إلى عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إن أسامة - يعني ابن زيد - كان رِدف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل - يعني ابن عباس - من المزدلفة إلى منى، قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حتى رمى جمرة العقبة"(٤) .

١٤-غير أنه لم يكن مقتصرا في هذا الموقف العظيم على التلبية، فقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أفضل الدُّعاء دعاءُ يوم عرفة وأفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء برقم ٨٦٩، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو صدوق، لكن اختلط جدا و لم يتميز حديثه فترك، التقريب برقم ٥٦٨٥، فالحديث ضعيف لأجله .

(٢) تقدم تخريجه من حديث مسلم قريبا .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه قريبا **ص٣٠٨**

(٤) أخرجه البخاري في الحج، باب التلبية والتكبير عند غداة النحر ٢٠٤/٢، ومسلم في باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة برقم ١٢١٨ .

: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"(١) .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: "كنت رِدف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات فرفع يديه يدعو فمالت به ناقته فسقط خطامها فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى"(٢) .

١٥ ـ أما في المزدلفة فبعد أن صلى الفجر ركب ناقته القصواءحتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلّله ووحّده، ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا.

ثم دفع قبل أن تطلع الشمس إلى منى ، فلما وصلها رمى جمرة العقبة وكبر وهلّل، وكان يكبر مع كل حصاة(٤) ، ولم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة (٤) .

١٦ ـ وأخرج البخاري(٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ثم يتقدم فيُسْهِل(٦) فيقوم مستقبل القبلة طويلا ويدعو ويرفع يديه ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل فيقوم

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ١/١٦٨ في القران، وفي الحج ١/٢٩٢ بتنوير الحوالك مرسلا، ونقل السيوطي عن ابن عبد البر قوله: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندا من وجه يحتج به، وقد جاء مسندا من حديث علي في الدعاء للطبراني برقم ٨٧٤، قال السيوطي: وأبي هريرة أخرجه هو ـ أي حديث أبي هريرة ـ وحديث ابن عمرو: البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٠٧٢، وحديث علي؛ ابن أبي شيبة وبقي بن مخلد والجندي في فضائل مكة، ا.هـ تنوير الحوالك ١/١٦٨ .

قلت: ورواه الترمذي موصولا في الدعوات من حديث عبد الله بن عمرو برقم ٣٥٧٩ بإسناد حسن فهو شاهد له ويتقوى به إلى درجة الحسن، وله شاهدان آخران عند الطبراني في الدعاءبرقم ٨٧٤، ٨٧٥ .

(٢) أخرجه النسائي في الحج، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة ٥/٢٥٤ ورجال إسناده ثقات .

(٣) كما جاء في حديث جابر وقد تقدم تخريجه .

(٤) كما جاء في حديث ابن عباس عند مسلم برقم ٢٨١ .

(٥) في الحج ، باب إذا رمى الجمرتين يقوم ويسهل مستقبل القبلة ٢/٢١٨ .

(٦) أي: يسير في السهل .

مستقبل القبلة، ثم يدعو ويرفع يديه ويقوم طويلا، ثـم يرمـي الجمـرة ذات العقبـة مـن بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف. ويقول: هكذا رأيـت رسـول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم يفعله" .

١٧ - وفي رواية قال: "كان النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا رمى الجمرة التي تلي مسجد منى يرميها بسبع حصيات، يكبر كلما رمى بحصاة، ثم تقدم أمامها فوقف مستقبل القبلـة رافعا يديه يدعو، وكان يطيل الوقوف، ثم أتى الجمرة الثانية، وذكر نحو ذلك"(١) .

١٨ - وكان يقول: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر ا لله"(٢) .

كذلك كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في إقامـة ذكـر ا لله تعالى في الحـج:جـدا واجتهادا، وطول قيام وتضرع .

أما التقرب فيه إلى ا لله تعالى بالهدي والأضاحي فقد فعل النـبي صلـى ا لله عليـه وسـلم من ذلك الشيء العظيم :

١ - حيث بلغ مجموع الهدي الذي ساقه النبي صلى ا لله عليه وسلم معه، والذي قدم به علي رضي ا لله عنه مائة من الإبل، نحر ثلاثا وستين بدنة بيـده الشـريفة، ثـم أعطـى عليـا فنحر ما غبر وأشركه في هديه(٣) .

٢ - ولم يكتف بذلك بل ضحَّى عن نسائه بـالبقر(٤)، ولقـد كـان يرسـل بـالهدي مـن المدينة في السنين الأولى التي لم يحج فيها كما ثبت في البخاري ومسلم من حديث عائشة

---

(١) أخرجه البخاري في باب الدعاء عند الجمرتين ٢١٩/٢ من حديث عبد ا لله بن عمر رضي ا لله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، مـن حديـث نبيشـة الهـذلي رضـي ا لله عنـه برقـم ١١٤١ .

(٣) كما جاء في حديث جابر، وفي حديث علي رضي ا لله عنه عند البخاري ٢١/٢ .

(٤) كما ثبت في البخاري، كتاب الحيض، باب كيف كان بدأ الحيض ٧٨/١، وفي الحـج، بـاب ذبـح الرجـل البقر عن نسائه ٢٠٩/٢، من حديث عائشة رضي ا لله عنها .

رضي الله عنها قالت :

"فَتَلْتُ قلائد(١) بُدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بِيدَيَّ، ثم أشعرها(٢)، وقلَّدها ثم بعث بها إلى البيت، وأقام بالمدينة فما حرُم عليه شيء كان له حلالا". وفي رواية: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدي من المدينة فأفتِل قلائد هديه، ثم لا يجتنب شيئا مما يجتنب المحُرِم"(٣) .

أما تعظيمه صلى الله عليه وسلم للحرم والحج : مشاعره وزمانه، فيدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته في عرفة :

١ - إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا،في شهركم هذا،في بلدكم هذا"(٤) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"(٥) .

٣ - وقوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: "إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعضد

---

(١) جمع قلادة وهو ما يربط في العنق، ويفعل ذلك بالهدي للدلالة على أنها هدي مسوق إلى الحرم، ليعلم فلا يعترض عليه .

(٢) إشعار البدن: هو أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها، ويجعل ذلك علامة لها تعرف به أنها هدي .

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب تقليد الغنم ٢٠٨/٢، وفي الأضاحي، باب إذا بعث بهديه ١٣٣/٧، ومسلم في الحج، باب استحباب بعث الهدي إلى الحرم برقم ١٣٢١ واللفظ لمسلم .

(٤) كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه الطويل الآنف الذكر

(٥) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢٥٣/٣، وأبو داود في الجهاد، باب صلح العدو برقم ٢٧٦٥، من حديث عروة بن الزبير ومروان .

شوكه، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه"(١) .

فهذه الأحاديث تدل على مبلغ تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لمكة ومشاعرها، ولا غرو فقد قال عليه الصلاة والسلام يوم أن خرج منها مهاجراً:

٤ ـ والله إنك لأحب البلاد إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"(٢).

وحيث إنها أحب البلاد إلى الله تعالى كان لها ذلك التقدير والتقديس، وكل ذلك نابع من كمال أخلاقه وعظمتها مع الله تعالى ومع خلقه ومع شعائر دينه، فلذلك برز فيه ذلك التعظيم والإجلال في هذا النسك لله تعالى ولشعائره العظام، في عبادته وسلوكه وتعامله، وهو بذلك يعلم الناس ما ينبغي أن يكون عليه حجهم ونسكهم، ويقول: "خذوا عني مناسككم"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحرم ١٨١/٢، وباب لا يعضد شجر الحرم، وباب لاينفر صيد الحرم ١٧/٣-١٨، وغيرها من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في الحج ، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام برقم ١٣٥٣ واللفظ له .

(٢) أخرجه الترمذي في المناسك، باب فضل مكة برقم ٣٩٢٥ من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري، وقال: حسن غريب صحيح، وابن ماجة في المناسك، باب فضل مكة برقم ٣١٠٩ من حديث صفية بنت شيبة، وأحمد في المسند ٣٠٥/٤، وله شاهد من حديث ابن عباس عند أبي يعلى قال الهيثمي في المجمع ٢٨٦/٣: ورجاله ثقات .

(٣) تقدم تخريجه من حديث مسلم في أول التطبيق ٣١٤.

الفَصْلُ الثَّانِي

أخلاق القرآن في نوافل العبادات
والتطبيق النبوي لها

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التهجد والقيام .

المبحث الثاني : الذّكر .

تمهيد في تعريف النفل وبيان علاقته بالأخلاق :

تعريف النَّفْل :

النفل في اللغة: الزيادة(١) .

وفي الشرع: الزيادة على الفرائض والواجبات، ومنه نافلة الصلاة(٢) .

"وسمِّيت صلاة التطوع ونحوها نافلةً ونفلا؛ لأنها زيادةٌ أجرٍ لهم على ما كتب من ثواب ما فرض عليهم"(٣) .

علاقة النوافل بالأخلاق :

لما كانت الفرائض التعبدية من أهم عوامل تزكية الأخلاق، وكانت تلك الفرائض لا تسلم غالبا من النقص وعدم الكمال؛ لما يعتري صاحبها من إخلال بمستحباتها وآدابها، فيذهب منها كمال أجرها وعظيم أثرها، لمَّا كان أمر الفرائض ما ذكر، شرع الله في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ما يجبر ذلك النقص، ويتمم كمالها، ويعظِم آثارها، ويزكِّي ثمارها، وذلك بشرع نوافل معيَّنة لكل فريضة، تؤدِّي ذلك الغرض الحميد(٤)، كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئ قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل منها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر أعماله على ذلك"(٥) .

---

(١) لسان العرب ١١/٦٧١ .

(٢) المفردات للراغب ص ٥٠٣، وأنيس الفقهاء ص ١٠٤ .

(٣) تاج العروس ٨/١٤٢ .

(٤) انظر طرح التثريب للحافظ العراقي ٣/٣٤ .

(٥) أخرجه أبو داود في إقامة الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل صلاة يتمها صاحبها تتم من تطوعه برقم ٨٦٤ من حديث أبي هريرة، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة برقم ٤١٣، وابن ماجة في الصلاة، باب ما جاء أول ما يحاسب العبد الصلاة برقم ١٤٢٥، وقال عنه الترمذي: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٥٧١

والحديث وإن ورد فيه ذكر الصلاة فقط، فإن بقية الفرائض مثلها، بدليل قوله : "ثم تكون سائر أعماله على ذلك" ، وبدليل الرواية الثانية عند أبي داود(١) وابن ماجه(٢) وفيها: "ثم الزكاة مثل ذلك ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" أي إن انتقص فريضة من سائر الأعمال تكمل من التطوع .

ولذلك ندب الشارع الحكيم إلى نوافل لكل أنواع العبادات لا تخفى معرفتها إجمالا أو تفصيلا على أحد، لتتمم تلك النوافل الفرائض التعبدية، ورتب على ذلك ثوابا جزيلا قرنه بعمل كل نافلة(٣) .

وأيضا ليتحقق ما الحديث بصدده من الحفاظ والاستمرار على المعاني الأخلاقية التي يكتسبها المسلم من فرائض الإسلام التعبدية .

فالإكثار من نوافل الصلاة مثلا تنمّي ملكة الابتعاد عن الفحشاء والمنكر التي تنهى عنها الصلاة، فكلما أكثر من الصلاة مع المحافظة على أدابها، ازداد بعدا عن الفحشاء والمنكر لتجدد آثارها على النفس بين الحين والآخر، ولضيق الوقت عن أن يتفرغ لمنكرات الأخلاق .

وكثرة الصدقات تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ملموسا، إذ تستل من النفس وصمة الشح والبخل والأثرة، وتعودها على حسن الظن با لله والتوكل عليه والإيمان بوعده ووعيده.

وكثرة الصيام تريّض النفس على زكاء الخلق ومحاربة الهوى وقهر النفس، ومضايقة مجاري الشيطان، والشعور بحاجة الآخرين، وإجلال نعم ا لله تعالى على العبد .

وكثرة الحج والاعتمار تنمّي تزكية النفس، وسمو الخلق في الابتعاد عن الرفث

---

(١) في الباب السابق ذكره رقم ٨٦٥ من حديث تميم الداري رضي ا لله عنه .

(٢) في الباب السابق أيضا برقم ١٤٢٦، ولفظه: "ثم يعمل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك" .

(٣) من أحب الوقوف على شيء من ذلك فلينظر في كتاب النوافل من الترغيب والترهيب للمنذري ٣٩٦/١ - ٤٧٩ أو نحوه .

والفسوق والجدال، والمحافظة على الجوارح أن تقترف إثما أو تجره إلى مسلم .

كما أنهما يرسخان تعظيم شعائر الله ، التي هي من دلائل التقوى، وامتلاء القلب بجلاله وهيبته. ويدل على ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه جل شأنه: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أَحبَّ إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"(١) .

فانظر كيف كانت النوافل سببا لأن ينال العبد من ربه محبته التي ترتب عليها تلك المنح الجليلة الإلهٰية لعبده؛ من المعونة والنصر والتأييد والتسديد والعصمة، والحماية ... وغير ذلك مما تعجز عن بيانه العبارة؛لأنها أمور إلهٰية تعجز عن إدراك كنهها الأذهان، أو يصورها البيان،وينال ذلك كله بسبب تقربه إلى الله تعالى بالنوافل، فنقلته من طور محبَّة العمل - التي هي الفرائض - إلى محبة الله جل وعلا لذاته، فأَناله كل ذلك التفضل والإنعام .

وما ذلك إلا لأنه أصبح زاكي الخلق مع الله تعالى فغدا مراقبا لله تعالى في حركاته ولحظاته وخطراته كأنه يراه، وانتقل بذلك من دائرة الإيمان إلى دائرة الإحسان، التي هي عبادة الله كأنك تراه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٢) .

ولذلك يقول الغزالي رحمه الله: "وكلَّما كانت العبادة بطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ" قال: "وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات"(٣) .

---

(١) رواه البخاري وتقدم تخريجه وبيان معناه في مبحث (المحبة) ص٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٢٠/١، ومسلم فيه برقم ٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) إحياء علوم الدين ٥١/٣ .

هذا ولما كانت النوافل كثيرة، والحديث عنها جميعا يفضي إلى الإطالة، والخروج عن حد الاختصار المتوخَّى في الكتاب كله، لذا سأقتصر في حديثي عن نوافل العبادات على مبحثين مهمين طالما عُني القرآن الكريم بهما وهما: التهجد، والذكر، لما لهما من عظيم الأثر في تزكية الأخلاق، وبالله التوفيق .

* * *

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

(التهجد والقيام)

التهجد عند أهل اللغة يعني: التيقظ والسهر، والهجود: النوم، يقال: تهجد: إذا سهر، وهجد: إذا نام(١) فهو من الأضداد .

وفي الشرع: الاستيقاظ من النوم للصلاة بالليل، ويطلق على نفس الصلاة بعد القيام من النوم ليلا، يقال: تهجد: أي صلّى بالليل بعد الاستيقاظ(٢) .

مكانة التهجد في النوافل :

وهو من النوافل التي عني بها القرآن الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح عناية كبيرة لعظم ثوابه وكبر أثره في الدنيا والآخرة .

تنويه القرآن الكريم بأهل التهجد :

ومن ذلك قول الله تعالى منوها بالمتهجدين ومُثنيا عليهم: ﴿ تَتَجافَى جنوبُهم عن المضاجِع يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً ﴾[سورة السجدة:١٦] .

والمراد بالتجافي هنا: هو القيام لصلاة التهجد بالليل كما فسَّره حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر(٣) فأصبحت يوماً قريبا منه ونحن نسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: "لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يُطفيء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا ﴿ تَتَجافى جنوبُهم عن المضاجِع ﴾ حتى بلغ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١٨٤/٤، وانظر مختار الصحاح ص ٦٩٠، والمصباح المنير ٣٠٦/٢ .

(٢) روح المعاني ١٣٨/١٥/٥، والتفسير الكبير ٣٠/٢١ .

(٣) وذلك في غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، كما جاء صريحا في بعض الروايات الأخرى، انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٥/٣-٤٦٠ .

﴿ يعملون ﴾[سورة السجدة:١٥، ١٦](١) .

ومن ذلك قوله تعالى واصفا حال أهل الجنة، وما هم فيه من النعيم، ومبينا سبب نيلهم ذلك النعيم فقال: ﴿ إنَّهم كانوا قبلَ ذلك محسِنين * كانوا قليلاً من اللَّيل ما يَهجعون * وبالأسحارِ هم يَستغفِرون ..﴾الآيات[سورة الذاريات:١٦-١٨] .

فقد بينت الآية سر نيلهم ذلك الفضل العظيم أنه بسبب إحسانهم ثم فسرت الإحسان بأمور : أولها: أنهم ﴿ كانوا قليلاً من اللَّيل ما يَهجعون ﴾ أي: ينامون، بمعنى: أنهم ينامون قليلا من الليل، ويصلون أكثره، وقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يفعلون ذلك حتى نزلت الرخصة في قوله تعالى: ﴿ فتابَ عليكم فاقرؤوا ما تيسَّر من القرآن ..﴾ [سورة المزمل:٢٠](٢) .

ومن تنويه الله جل وعلا بشأنهم قوله سبحانه: ﴿ أمَّن هو قانتٌ آناء اللَّيل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه قل هل يَستوي الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون ﴾ [سورة الزمر:٩]، حيث وصف الله تعالى القائمين بالليل على ذلك الوصف بـ"العلم" وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وقارن بينهم وبين اللاهين اللاعبين فقال: ﴿ هل يَستوي الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون ﴾؟ أي: لا يستوون، "والمعنى: أن من هو هكذا عالم قانت مطيع، لا يستوي مع من هو غافل نائم ليله أجمع"(٣) .

قالوا: "وإنما كان المطيع هو العالم؛ لأن العلم هو الذي رسخ في القلب، وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه"(٤)، كما قالوا: "إنما العلم الخشية"، وإنما العلم ما نفع، ولهذه المسألة مزيد بحث في الباب الخامس إن شاء الله تعالى .

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة برقم ١٦١٦ وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣٦/١٧ .

(٣) إتحاف السادة المتقين ١٨٣/٥ .

(٤) محاسن التأويل ١٩٩/١٤ .

ومن تنويهه تعالى بقائمي الليل قوله جل وعلا: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الَّذين يَمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبَهم الجاهلونَ قالوا سلاماً * والَّذين يَبيتُون لربِّهم سُجَّداً وقياماً ﴾ [سورة الفرقان:٦٣،٦٤] .

حيث أضافهم إليه ووصفهم بالعبودية له، وذلك من أشرف الصفات، إذ المرء يشرف بشرف من ينتسب إليه ، وليس للمرء كرامة أكبر من أن ينتسب لله تعالى .

ثم وصفهم بإحدى عشرة صفة، ابتدأها بصفتي التعامل مع الخلق والخالق، فهم مع الخلق متواضعون، وعن جهالهم حالمون، ومع الخالق عاملون ناصبون، إذا أدركهم الليل يبيتون بين قائم وساجد، فأثابهم الله تعالى على ذلك بما أخبر عنه بقوله: ﴿ أولئك يُجزَون الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تحيَّةً وسلاماً * خالدين فيها حسُنت مستَقراً ومُقاماً ﴾ [سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

(أي: يجزون الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها بهذه الطاعات المباركات)(١) .

ذلك هو حديث القرآن عن المتهجدين، وقد رأيتَ أن الله تعالى أنزلهم منزلة رفيعة وأثابهم ثوابا كبيرا على مكابدة الليالي في القيام، وهجرهم النوم الذي هو راحة الأجسام، فأثيبوا بما يليق بكرم الملك العلام، وهو ثواب لا تدرك مداه الأحلام كما قال تعالى: ﴿ فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[سورة السجدة:١٧] .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٨٣/١٣ .

تطبيق النبي صلى ا لله عليه وسلم للتهجد

إذا كان التهجد في حق سائر الأمة مندوبا، فإنه في حق النبي صلى ا لله عليه وسلم واجب، أوجبه عليه ا لله دون سائر أمته، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ ومن اللَّيل فتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يبعثَك ربُّك مقاماً محموداً ﴾[سورة الإسراء:٧٨]، ومعنى نافلة لك: أي فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك،(١) وهي خصوصية تكليف زائد، ونصب دائم وانقياد بالغ لله عز وجل، دون سائر أمته(٢)، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يا أيُّها المزَّمل * قم الليل إلا قليلا * نصفَه أو انقُص منه قليلا * أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً ﴾[سورة المزمل:١-٤] .

فترى أن ا لله تعالى يأمره بقيام الليل بصيغة الأمر الجازم، بخلافه مع سائر المؤمنين، فإنما كان تحبيذا وتنويها كما علمت .

١ ـ وقد لبَّى النبي صلى ا لله عليه وسلم نداء ربه خير نداء، وقام لله حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا"(٣) .

٢ ـ وقد بينت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي ا لله عنها لمن سألها عن قيام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، وكيفية قيامه وقدره فقالت له: ألست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ؟ فقال: بلى، فقالت له: إن ا لله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه حولا، وأمسك خاتمتها اثنتي عشر شهرا في السماء حتى أنزل ا لله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة، قال السائل:

قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، فقالت: كنا نعد

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٨٢ .

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ٢٢٩/٢، وتهذيبها للتليدي ص ٤٠٢ .

(٣) متفق عليه، تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٠ .

له سواكه وطهوره فيبعثه الله ماشاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات لا يجلس فيها إلا في الثامنة فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليما يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعد ما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بُنَيّ، قالت: فلمّا أسن النبي صلى الله عليه وسلم وأخذه اللَّحم(١) أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه الأول، فتلك تسع يا بُني، قالت: وكان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلّى من النهار ثنتي عشرة ركعة، قالت: ولا أعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلّى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهرا كاملا غير رمضان"(٢) .

فهذه أجمع الروايات في قيام النبي صلى الله عليه وسلم، وقد دلت على مبلغ اهتمامه بالتهجد والمداومة عليه، وما ينبغي أن يكون عليه حال المتهجد من الخشوع، والإقبال على الله تبارك وتعالى .

٣ - ولم يكن قيام النبي صلى الله عليه وسلم كقيام أي أحد، فإن ما كان يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم قد لا يقدر عليه غيره، فقد حدَّث ابن مسعود رضي الله عنه أنه "قام يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة، فأطال، قال: حتى هممت بأمر سُوء، قيل له: وما هممت به ؟ قال: هممت أن أجلس وأَدعه"(٣) .

فترى أن ابن مسعود رضي الله عنه كاد أن يعجز لولا تصبُّره وتحامله على متابعة النبي صلى

---

(١) أي: كثر لحمه، وهي كثرة نسبية لما كان عليه حاله قبلُ، فهي لا تنافي ما ثبت أنه كان معتدل الجسم .

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦، وهو تتمة للحديث المتقدم تخريجه في أول الرسالة الذي أجابت فيه عائشة رضي الله عنها سائلها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر ص ٦٥ .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل ٦٤/٢، ومسلم في المسافرين، باب استحباب طول القراءة في صلاة الليل برقم ٧٧٣ .

ا لله عليه وسلم في قيامه، وهو العابد القانت، بينما النبي صلى ا لله عليه وسلم لم يكن عنده شيء من ذلك الشعور؛ "لأن وقوفه في تهجده هو استعذاب لمناجاة ا لله تعالى واستغراق فيها، مع الخشوع والتدبر اللذين أذهلاه عمّا به، وغلبا على بوادر الألم الناشىء من طول الوقوف"(١) .

٤ ـ ولقد أوضحت الروايات الأخرى مبلغ طول مناجاته لربه ... فعن حذيفةَ بن اليمان(٢) رضي ا لله عنه قال: "صليت مع النبي صلى ا لله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح (البقرة)، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح (النساء)، فقرأها، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربِّيَ العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع ا لله لمن حمده، ثم قام قياما طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبا من قيامه"(٣) .

٥ ـ وعن زيد بن خالد الجُهَني(٤) رضي ا لله عنه قال: "قلت لأرمُقَنَّ(٥) الليلة صلاة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فصلَّى ركعتين خفيفتين، ثم صلَّى ركعتين طويلتين، ثم

---

(١) انظر فقه السيرة للغزالي ص ٢٠٨ .

(٢) العبسي حليف الأنصار، اسم أبيه حِسل، وإنما لقبوه لكونه حالف اليمانية وهم الأنصار، يعد حذيفة من كبار الصحابة، ومن السابقين إلى الاسلام، كان صاحب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، أخبره بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، كما صح في مسلم، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي ا لله عنه، انظر الاصابة ٣١٧/١، والاستيعاب بهامشها ٢٧٧/١ .

(٣) أخرجه مسلم في المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل برقم ٧٧٢، والنسائي في الافتتاح، باب تعوذ القارىء إذا مر بآية عذاب ١٧٦/٢، وباب مسألة القارىء إذا مر بآية رحمة ١٧٧/٢ .

(٤) صحابي مشهور شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، مات سنة ٧٨ هـ بالمدينة، الاصابة ٥٦٥/١ .

(٥) يقال : رمقه يرمقه: إذا لحظه لحظا خفيفا، القاموس ٢٣٧/٣ .

صلّى ركعتين هما دون اللتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين هما دون اللّتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين هما دون اللتين قبلهما، ثم صلّى ركعتين هما دون اللّتين قبلهما، ثم أوتر، فذلك ثلاث عشرةَ ركعة"(١) .

٦ ـ ولم يكن قيامه صلى الله عليه وسلم مجرد قيام ليقرأ وردا، أو ليفرغ من سورة أو سورتين كما يفعل بعض الناس، وإنما كان يقرأ قراءة تأمل وتدبر، فربما كان يقوم بآية واحدة في بعض الليالي يرددها في قيامه كله، كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت "قام رسول الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة"(٢) .

٧ ـ وعن أبي ذر(٣) رضي الله عنه قال: "صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد ﴿ إن تُعذّبهم فإنّهم عبادُك وإن تَغفر لهم فإنّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾[سورة المائدة:١١٨] قال: فلما أصبح قلت: يا رسول الله ، مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحتَ تركع بها وتسجد بها ؟ قال: إني سألت الله عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا"(٤) .

فهذه بعض الروايات في تهجده صلى الله عليه وسلم، وهي تدل على جده واجتهاده في قيام الليل، ورغبته فيه، ولا غرابة في ذلك فقد كانت الصلاة قرة عينه كما علمت من

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في الليل برقم ٧٦٥، وأبو داود في الصلاة، باب صلاة الليل برقم ١٣٦٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في قراءة الليل برقم ٤٤٨، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح .

(٣) الغفاري : جُندب بن جنادة ، صحابي مشهور، من السابقين إلى الإسلام، وقصة إسلامه ثابتة في الصحيحين، غير أن هجرته تأخرت، فلم تتهيأ له الهجرة إلا بعد بدر وأحد، ومناقبه كثيرة، مات سنة ٣٢هـ. انظر الإصابة٤/٦٣، والاستيعاب بهامشها ٤/٦١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة برقم ١٣٥٠، وأحمد في المسند ٥/١٥٦، والحاكم في الصلاة ١/٢٤١، وصححه وأقره الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/٢٤٢: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

الحديث السابق ذكره(١) .

ولقد كان يقوم ذلك القيام وهو يطمع فيما أعده الله له، ووعده به من المقام المحمود الذي بشر به عقب أمره له بالتهجد حيث قال له: ﴿ ومن الَّليل فتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يبعثَك ربُّك مقاماً محموداً ﴾[سورة الإسراء:٧٩]، وهو المقام الذي يَغبِطُه عليه الأوَّلون والآخِرون(٢)، والذي ندب أمته إلى أن تسأله من الله تعالى(٣) .

فلما كان ذلك هو الجزاء وذلك هو الثواب، لم يبال صلى الله عليه وسلم بمكابدة الليالي، بل صار ذلك محبوبا لديه؛ لأنه يؤدي إلى أمر محبوب له عليه الصلاة والسلام، وهو طاعة الله تعالى ، وشكر نعمه، والوفاء ببعض فضله عليه، والنفس إذا عرفت ما تطلب هان عليها ما تبذل ، ورضي الله عن عبدِ الله بن رَواحة(٤) إذ يقول في تهجده عليه الصلاة والسلام :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه	إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوُبنا	به موقناتٌ أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبَه عن فراشه	إذا استُثقلت بالمشركين المضاجعُ
وأعلم علماً ليس بالظن أنني	إلى الله محشورٌ هناك وراجع (٥)

---

(١) في الصلاة ص ٢٥٣.

(٢) كما جاء في حديث الشفاعة،عند أحمد ١/ ٣٩٩.

(٣) كما جاء في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله عليه وسلم: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، حلت له الشفاعة يوم القيامة"، البخاري في الأذان، باب الدعاء عند النداء ١/ ١٥٠ .

(٤) ابن ثعلبة بن امرىء القيس الخزرجي الأنصاري، أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد السابقين إلى الإسلام، كان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدرا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة، وهو ثالث أمرائها رضي الله عنه. انظر الإصابة ٢/ ٣٠٦ .

(٥) انظر ديوانه ص ١٦٢ .

أقواله صلى ا الله عليه وسلم في التهجد وفضله :

وكل ما مضى مما كان عليه رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم من الحرص على التهجد والمحبة له، وطول الوقوف فيه، يدل على فضله وعظيم أثره، وهو ما كان يعبر عنه النبي صلى ا الله عليه وسلم بلسانه ليحث أمته عليه، ويرغبهم فيه، وذلك كقوله :

١ - "أفضل الصيام بعد رمضان شهرُ ا الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"(١) .

٢ - وقوله صلى ا الله عليه وسلم: "إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل ا الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة"(٢) .

والقيام بالليل لصلاة التهجد سبب لإدراك هذه الساعة، فإنه إذا واظب على قيام الليل يدرك ذلك لا محالة، لذلك ندب الصحابة والمؤمنين عامة إلى الحرص على التهجد والمواظبة عليه، وذلك بمثل قوله عليه الصلاة والسلام لعلي وفاطمة رضي ا الله عنهما:

٣ - "ألا تصليان"(٣) .

٤ - وقوله لعبد ا الله بن عمرو رضي ا الله عنهما: "يا عبد ا الله لا تكن مثل فلان،كان يقوم الليل فترك قيام الليل"(٤) .

٥ - وقوله في حق عبد ا الله بن عمر رضي ا الله عنهما: "نعم الرجل عبد ا الله لو كان يصلي بالليل" فكان عبد ا الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا"(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم برقم ١١٦٣، من حديث أبي هريرة رضي ا الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب في الليل ساعة يستجاب فيها الدعاء برقم ٧٥٧، من حديث جابر ابن عبد ا الله .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي صلى ا الله عليه وسلم على صلاة الليل ٦٢/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل ٦٨/٢، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر برقم ١١٥٩ .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد، باب فضل قيام الليل ٦١/٢، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضل عبد ا الله بن عمر برقم ٢٤٧٨ .

٦ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام للمؤمنين عموما: "أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(١) .

ولقد كان لحضّه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل أبلغ الأثر في نفوس أصحابه، استجابة له ومحبة ورغبة، فدعا الحال إلى أن بين عليه الصلاة والسلام الكيفية التي ينبغي لهم أن يحرصوا عليها في القيام،والقدر الذي ينبغي أن يُواظبوا عليه، وذلك حتى لا يجهدوا أنفسهم، فتضعف قواهم البشرية ثم يعجزون عن القيام بالواجبات الأخرى، فبين ذلك في أحاديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما"(٢) .

٢ ـ وذلك هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما بينه لمن تقالّوا عبادتهم، فأحبوا أن ينقطعوا للعبادة، فقال أحدهم: "أمَّا أنا فأصلِّي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قُلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنِّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"(٣) .

فكان صلى الله عليه وسلم يحبِّذ المداومة على قيام الليل من غير أن يصل المرء بنفسه إلى حد الإجهاد، لأن السر كامن في المواظبة، لا بالعناء الذي يفضي إلى الفتور ثم الانقطاع، كما قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٢، تحت رقم ٢٤٨٥ وصححه،

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب من نام عند السحر ٦٣/٢، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر برقم ١١٥٩، وخاص ١٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح ٢/٧، ومسلم فيه، باب استحباب النكاح برقم ١٤٠١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

٣ - "أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"(١) .

٤ - أما ترك القيام كلِّيةً فقد كان يذم فاعله، فقد ذُكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح، فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه"(٢) يعني فلم يسمع نداء المولى في الثلث الأخير من الليل وهو يقول:

"هل من سائل فيُعطَى، هل من داع فيُستجاب له، هل من مستغفر فيُغفر له، حتى ينفجر الصبح" كما جاء في الحديث القدسي(٣) .

٥ - وقد كان عليه الصلاة والسلام يحذر أمته من ذلك فيقول: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عقدة، فإن صلى انحلَّت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"(٤) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يتهجد ويحث عليه، وينوه بفضله، وذلك لما كان عليه من صدق العبوديَّة وكمال الخشية لله جل وعلا، وعظيم المحبة له، والمعرفة به سبحانه وتعالى .

وكل ذلك يدل على كمال أخلاقه وعظمتها مع المولى جل وعلا، بحيث حملته عظمة أخلاقه على الجد والتَّفاني في عبادته، بحيث قام ذلك القيام حتى تفطَّرت قدماه، ولمَّا نوقش في ذلك علَّه أن يخفف عن نفسه وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم

---

(١) متفق عليه، تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الاستقامة ص٦٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه ٦٦/٢، ومسلم في المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح برقم ٧٧٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٦٦/٢، ومسلم في المسافرين برقم ٧٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٦٥/٢، ومسلم في المسافرين، باب من نام الليل أجمع برقم ٧٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من ذنبك وما تأخر؟ أجابهم بقوله: "أفلا أكون عبدا شكورا"(١) .

فهو نصب لأداء شكر النعمة الجسيمة التي أنعم بها عليه، وقد فعل ما تعجز عن مثله البشر، فصلاة ربي وسلامه عليه .

---

(١) متفق عليه، وقد تقدم غير مرة .

المَبْحَثُ الثَّاني

(الذِّكر)

من أجلِّ ما يهذب الأنفس ويزكِّي الأخلاق: ذكرُ الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ولذكرُ اللهِ أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] "أي أن ذكر الله أكبر ناهٍ عن الفحشاء والمنكر لأنه يكون في سائر الأحوال، دون الصلاة فإنها تكون في وقت دون وقت"(١) .

وطالما كان المرء في ذكر الله تعالى فإنه لا يقدم على عصيان ربه،أو التخلق بأخلاق لا ترضيه.

(لأنه بذكر الله يَرطَبُ قلبه ويلين،كما قال تعالى: ﴿ أفمَن شَرح اللهُ صدرَه للإسلام فهو على نورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذِكر اللهِ أولئِك في ضَلالٍ مبين ﴾[سورة الزمر:٢٢] وإذا كان الصدر منشرحا بالنور كان القلب رطبا، والأركان ليِّنة، فإذا قدتها إلى أمر الله انقادت، وإذا لم يكن هكذا كان القلب قاسيا والأركان يابسة، فإذا قدتها لم تنقد)(٢) .

ولذلك ندب الله تعالى إلى ذكره، والإكثار منه في سائر الأحوال، ورتب على ذلك المثوبات العظيمة والمكرمات الجزيلة.

والآيات الكريمات والأحاديث النبويات على ذلك متظاهرات، تنصيصا أو إشارات سنذكر بعضا منها هنا :

أما القرآن الكريم فقد تحدث عن الذكر في آيات كثيرة، وكلها تعود إلى عشرة أوجه، ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين، وهي:

الأول: الأمر به مطلقا كقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كثيراً ﴾

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزي ١١٧/٣، وقيل في معناه غير ذلك، انظر كتب التفسير، ومدارج السالكين ٤٢٦/٢ .

(٢) أسرار الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص ٩،٨ بتصرف يسير .

أو مقيدا كقوله سبحانه: ﴿ وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الأحزاب:٤١، ٤٢]

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، بقوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالَّذين نسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم أولئِك هم الفاسقون ﴾[سورة الحشر:١٩] .

الثالث: تعليق الفلاح باستدامة ذكره بقوله تعالى: ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تُفلحون ﴾[سورة الجمعة:١٠] .

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات ...﴾ إلى قوله: ﴿ والذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره بقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ الله ومن يَفعل ذلك فأولئِك هم الخاسِرون ﴾ [سورة المنافقون:٩] .

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له فقال تعالى: ﴿ فاذكُروني أذكُرْكم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢] .

السابع: الإخبار بأنه أكبر من كل شيء بقوله تعالى: ﴿ ولَذكرُ اللهِ أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] .

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وحج فقال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم الصلاةَ فاذكرُوا الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم ﴾[سورة النساء:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ فإذا قُضيتِ الصَّلاة فانتشِروا في الأرضِ وابتَغوا من فضلِ اللهِ واذكرُوا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون ﴾[سورة الجمعة:١٠] ، و قال تعالى: ﴿ ولتكمِلُوا العِدَّةَ ولتكبِّروا اللهَ على ما هَداكم ولعلَّكم تشكُرون ﴾[سورة البقرة:١٨٥] ، و قال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم مناسكَكم فاذكُروا اللهَ كذِكركم آباءَكم أو أشدَّ ذكراً ﴾[سورة البقرة:٢٠٠] .

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الألباب دون غيرهم فقال سبحانه: ﴿ إنَّ في خلقِ السَّموات والأرضِ واختلاف الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب * الَّذين يذكُرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ﴾[سورة آل عمران:١٩٠،١٩١] .

العاشر أنه جعله قرين الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح لقوله تعالى: ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ لذكري ﴾[سورة طه:١٤]، وقرنه بالصيام، وبالحج ومناسكه كما علم مما تقدم .

وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً فاثبتوا واذكُروا اللهَ لعلَّكم تُفلِحون ﴾[سورة الأنفال:٤٥](١).

ومن خلال هذه الوجوه نعلم أن الذكر له شأن عظيم في حياة المسلم في استقامة أمر دينه ودنياه، لأن الله تعالى قد ناطه بكل شيء مما به يستقيم الحال والمآل،كما علم من الوجوه السابقة، ولذلك يقول ابن القيم عنه: "هو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن مُنعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد له قبورا، وهو عمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا" إلى أن قال: "وهو جِلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء"(٢) .

ولا ريب في هذا كله، فإن الله تعالى قد قال: ﴿ الذين آمنوا وَتطمئِنُّ قلوبُهم بذكر الله ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوب ﴾[سورة الرعد:٢٨]، أي: تأنس به ويحصل لهم به الفرح والسرور ولا يجدون معه وحشة ولا انزعاجا ولا يأسا في هذه الحياة، كالذي يجده الغافل عن ذكر الله، "ولعمر الحق إنه ليس هناك أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس بالله تعالى، إذ ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بخالق الكون"(٣) .

ولذلك كان المعنى المتبادر من عدم ذكر الله تعالى هو نسيانه سبحانه وتعالى للعبد

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٤٢٤-٤٢٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٢٣ .

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٠ .

الذي نسيه، والذي رتب الله تعالى عليه خسران الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ ومن أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُه يومَ القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتُنا فنسِيتها وكذلك اليوم تُنسَى ﴾ [سورة طه:١٢٤-١٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكرِ الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [سورة المنافقون:٩]، وقال سبحانه: ﴿ ولا تكونوا كالَّذين نسُوا الله فأنساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسِقون ﴾[سورة الحشر:١٩]

"وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها وهلكت وفسدت ولا بد"(١) .

ما أعده الله تعالى للذاكرين :

أما الذاكرون له سبحانه فإنه قد أعد لهم نعيما مقيما وثوابا عظيما، وحسبهم شرفا وفضلا أنهم استوجبوا ذكر الله لهم كما قال تعالى: ﴿ فاذكروني أذكُرْكُم واشكروا لي ولا تكفُرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢]، فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة وحدها لكفى بها فضلا وشرفا "لأن ذكر الله للعبد يَعني إثابته والثناء عليه وإظهار الرضى عنه والإكرام له وثبوت منزلته عنده سبحانه"(٢) كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني،فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأخير منهم" الحديث(٣) .

فترى أن الله تعالى قد أثبت معيَّته للذاكرين، وهي معيَّة عامة تقتضي صلاح دينه ودنياه، قال الإمام النووي: "أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية" قال: "وأما قوله

---

(١) الوابل الصيب ص ٥٩ .

(٢) التفسير الكبير ٤/١٤٤ .

(٣) متفق عليه تقدم تخريجه في مبحث الرجاء ص١٣٤

تعالى: ﴿ وهو معَكم أينما كنتم ﴾ فمعناه: بالعلم والإحاطة"(١) .

ولذلك ندب النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى الذكر والإكثار منه في كل وقت، وعلى كل حال .

فقد جاء رجل إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم وقال له: يا رسول ا لله إن شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال له النبي صلى ا لله عليه وسلم: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر ا لله"(٢) .

وروى جابر رضي ا لله عنه عن النبي صلى ا لله عليه وسلم قال: "ما عمل آدمي عملا أنجى له من العذاب من ذكر ا لله تعالى، قيل: ولا الجهاد يا رسول ا لله ؟ قال: ولا الجهاد في سبيل ا لله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع"(٣) .

وجاء في حديث آخر عنه صلى ا لله عليه وسلم أنه قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا: بلى، قال: ذكر ا لله" فقال معاذ بن جبل: ما شيء أَنْجَى من عذاب ا لله من ذكر ا لله"(٤) .

---

(١) شرح مسلم ٢/١٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء، باب ما جاء في لفظ الذكر برقم ٣٣٧٥ من حديث عبد ا لله بن بسر، وقال: حسن غريب، وابن ماجه ١٢٤٦/٢ في الأدب برقم ٣٧٩٣، وأحمد في المسند ١٨٨/٤، وابن حبان في صحيحه ٩٢/٢ الإحسان، والحاكم ٤٩٥/١، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٦/١٠، والمنذري في الترغيب ٣٩٦/٢ إلى الطبراني في الأوسط والصغير، وقالا: رجاله رجال الصحيح، وله شواهد كثيرة من حديث ابن عباس، ومن حديث أبي سعيد الخدري ، ومن حديث أبي الدرداء، ومن حديث معاذ رضي ا لله عنهم. انظر مجمع الزوائد ٧٦/١٠-٧٩ .

(٤) رواه الترمذي في الدعاء برقم٣٣٧٧، وابن ماجه في الأدب، باب فضل ذكر ا لله برقم ٣٧٩٠، والحاكم في المستدرك ٤٩٦/١، وأحمد ٤٤٦/٦، والطبراني في الدعاء برقم ١٨٧٢، وحسنه المنذري في الترغيب ٣٩٥/٢، والهيثمي في المجمع ٧٦/١٠، كلهم من حديث أبي الدرداء رضي ا لله عنه، وصححه الألباني =

فانظر كيف كانت منزلة الذكر عند الله تعالى، وذلك لأن الذاكر يستغرق لُبُّه وعقله وحواسه في جلال الله تعالى، فيقوده ذلك إلى فعل كل عمل صالح، ولا يستعظم شيئا فيه قربة لله، وإن كان خوض غمار الموت في ساحات الجهاد .

فهذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على فضل عظيم للذاكرين بسبب عمل يسير في مظهره، كبير في مَخبره، وهو يسير على من يسره الله تعالى عليه ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذِّكر فهل من مُدَّكر ﴾[سورة القمر:١٧] .

ولذلك كان من لم يوفق له، أو من لم يثابر عليه، فاقداً لسر الحياة والعبودية الحقة، ولقد شبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالميت،وذلك فيما رواه أبو موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه مثل الحي والميت"(١) .

"فشبه النبي صلى الله عليه وسلم الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة، وغير الذاكر بالميت الذي ظاهره عاطل وباطنه باطل"(٢) ، وذلك دليل على أن الذكر هو شريان الحياة الروحية، فمن فقده فكأنه جسد بلا روح، وفي هذا الأسلوب من الحث على الذكر والمداومة عليه ما فيه كفاية لمن علم وفهم، لأنه لا يريد أحد أن يعيش حياة جوفاء، فيفقد سر وجوده، ولهذا كان المثابرون على ذكر الله تعالى أدرى الناس بسر الذكر، وقد لزم من ذلك فوزهم بالأجر الكبير الذي تحدث عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له: جُمْدان(٣)، فقال: سيروا، هذا جمدان سبق المفرِّدون، قالوا: وما

= في تعليقه على المشكاة برقم ٢٢٦٩، ويشهد له الحديث الأول، وأحاديث أخرى كثيرة. انظر مجمع الزوائد ١٠/٧٦-٧٩ .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى ٨/١٠٧، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته برقم ٧٧٩، واللفظ للبخاري .

(٢) فتح الباري ٢٣/٢٤٧ .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ١/٢٩٢: "هو جبل على ليلة من المدينة" .

المفرِّدون يا رسول الله ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات"(١) .

وفي رواية(٢) قالوا: يا رسول الله، وما المفرِّدون ؟ قال: "المستَهتِرون(٣) بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا" .

وبالجملة ففضائل الذكر أكبر من أن تجمع في هذا الموضع،فبحسبنا ما تقدم ذكره .

وإذا كان محل ذكر الله عز وجل ما وصفت، كان على العبد أن يحافظ عليه ولا يخل به ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهو في الحقيقة متيسر لكل أحد لأن أنواعه كثيرة فمهما فتر الإنسان من ذكر عدل إلى ذكر آخر، وإذا لم يحفظ ذكرا فهو يحفظ آخر .

فتلاوة القرآن ذكر، والاستغفار ذكر، والدعاء ذكر، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك من الذكر(٤) .

غير أنه يتفاوت ذكر عن ذكر في الأجر والثواب كما سيأتي بيانه، وسأتحدث عن بعض أنواع الذكر هذه بشيء من التفصيل فيما يأتي :

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٦٧٦ .

(٢) عند الترمذي في الدعوات، باب في العفو والعافية برقم ٣٥٩٦ .

(٣) أي: المولعون به والمواظبون عليه عن حب ورغبة فيه. النهاية لابن الأثير ٥/ ٢٤٢

(٤) انظر تحقيق ذلك في فتح الباري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى ٢٤٥/٢٣، والأذكار للإمام النووي ص ١٧ .

١ ـ تلاوة القرآن :

من أفضل أنواع الذكر تلاوة القرآن(١) لأن الله تعالى أمر بذكره سبحانه، وسمى القرآن ذكرا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ ذلك نتلوه عليكَ من الآياتِ والذِّكر الحكيم ﴾[سورةآل عمران:٥٨] ، وقوله: ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافِظون ﴾[سورة الحجر:٩]، وقوله سبحانه: ﴿ إنْ هُو إلَّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ﴾[سورة يس:٦٩]، وقوله سبحانه: ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مُدَّكر ﴾[سورة القمر:١٧] .

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن تلاوة القرآن الكريم من الذكر؛ لأن الله تعالى سماه ذكرا، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فالتالي له ذاكر بلا شك .

أما فضل التلاوة والتالين فهو فضل كبير دلت عليه آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الكثيرة .

أما آيات الكتاب ففي مثل قوله جل شأنه: ﴿ إنَّ الذين يتلُون كتابَ اللهِ وأقاموا الصَّلاة وأنفقُوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تَبُور * لِيُوفِّيَهم أجورَهم ويزيدَهم مِن فضلِه إنَّه غفورٌ شكور ﴾[سورة فاطر:٢٩،٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: "أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله"، ثم قال: "ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيُوفِّيهم أجورَهم ويزيدَهم مِن فضله ﴾، قال: "أي ليوفيهم ثواب ما عملوه، ويضاعف لهم بزيادات لم تخطر لهم" .

ثم نقل عن قتادة(٢) قوله: "كان مطرِّف(٣) رحمه الله تعالى إذا قرأ هذه الآية يقول:

---

(١) كما صرح بذلك الإمام النووي رحمه الله في الأذكار ص ١٢٩ كتاب تلاوة القرآن .

(٢) ابن دعامة السدوسي البصري، أحد الأعلام، كان أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئا إلا حفظه، ولد أكمه سنة ٦٠هـ، ومات سنة ١١٧ هـ، تهذيب الأسماء واللغات ١/٥٧، وطبقات الحفاظ للسيوطي رقم ١٠٤.

(٣) ابن عبد الله بن الشِّخِّير العامري البصري، كان أحد الفضلاء الثقات الودعين العقلاء الأدباء، قال عنه في التقريب رقم ٦٧٠٦: ثقة عابد فاضل، مات سنة ٩٥هـ، وانظر طبقات الحفاظ رقم ٥٢، وشذرات الذهب ١/١١٠ .

هذه آية القُرَّاء"(١) .

وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿ لَيسُوا سواءً من أهلِ الكِتاب أمَّةٌ قائمةٌ يَتلُونَ آيـاتِ ا لله آناءَ الليل وهم يَسجدون * يُؤمِنونَ با لله واليومِ الآخِـر ويـأمُرونَ بـالمعروف وَينهـونَ عـن المنكر ويُسارعون في الخـيراتِ وأولئـكَ مِـن الصَّـالحين ﴾[سورة آل عمران:١١٣،١١٤]، فقـد وصف ا لله جل ذكره الأمة التي فضلها وهي أمة الإسلام بثمان صفات:

أولاها:«أنها قائمة على دين ا لله متمسـكة بـه، ملازمـة لـه غـير مضطربـة في التمسـك به"(٢) .

وثانيها: أنها تتلو آيات ا لله آناء الليل في قيامها وتهجدهـا، وقـدم هـذا الوصـف علـى صفات أخرى خطيرة، هي الإيمان با لله واليوم الآخر..، للدلالة على مبلغ منزلة ذكر ا لله تعالى بآياته التنزيلية، ثم وصفهم بقوله: ﴿ أولئِـك مـن الصَّـالحين ﴾ أي الذيـن صلحـت أحوالهم عند ا لله ورضيهم .

وهذا وصـف في غايـة المـدح، لأن ا لله تعـالى مـدح بـه أكـابر الأنبيـاء عليهـم الصـلاة والسلام فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وغيرهم: ﴿ وأدخلنـاهـم فِي رَحمتنـا إنَّـهم مـنَ الـصَّـالحين ﴾[سورة الأنبياء:٨٦]، وقـال عـن سـليمان عليـه الصـلاة والسـلام: ﴿وأدخلني بِرحمتك في عبادِك الصَّالحين﴾[سورة النمل:١٩]، وقال عن يوسف عليـه السـلام: ﴿ توفَّني مُسلماً وألحقني بالصَّالحين ﴾[سورة يوسف:١٠١](٣) .

والآيات في هذا كثيرة، وحسـبهم شـرفا وفضـلا أن ا لله تعـالى قـرن ذكرهـم بالأنبيـاء والشهداء حيث قال: ﴿ ومن يُطِع ا للهَ والرَّسولَ فأولئِك مع الَّذيـن أنعـمَ ا لله عليهـم مـن النَّبيينَ والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحسُنَ أولئِك رفيقاً ﴾[سورة النساء:٦٩] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٥٤/٣ بتصرف يسير .

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٨٨/٨ .

(٣) التفسير الكبير ١٩٠/٨ .

٢ ـ الاستغفار :

الغفر لغة: الستر، والغفران والمغفرة من الله تعالى: هو أن يصون العبد من أن يمسه عذاب، والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفِعال(١) .

والاستغفار من أعظم الأذكار التي رتب الله عليها المغفرة الشاملة والأجر العظيم؛ لأنه يعني الاعتراف بالذنب والرجوع إلى الحق، وذلك من معالي الأخلاق ومكارمها، ولذلك ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم"(٢)، حيث "دل الحديث على محبة الله تعالى للاستغفار لأنه يظهر فيه عظم عفو الله عن المذنبين وحسن تجاوزه عنهم"(٣) .

ولا يتم ذلك إلا أن يحدث العباد ذنوبا، ثم يحدثون لها استغفارا وتوبة، فيقبل الله تعالى منهم، ويحقق وصفه الأزلي (العفوّ، الغفُور) .

لذا نجد أن القرآن الكريم عني بالحديث عن الاستغفار عناية كبيرة، أمرا به، وحضا عليه، وثناء على أهله، وتنويها بفضله وأجره،بما يفوق الحصر هنا، وهذا طرف من ذلك:

الأمر به :

فأمربه،بمثل قوله جل وعلا: ﴿ وأن استَغفِروا ربَّكم ثمَّ تُوبوا إليه يُمتِّعكم متاعًا حَسَنًا إلى أجلٍ مُسمًّى ويُؤتِ كلَّ ذِي فَضلٍ فضلَه ﴾[سورة هود:٣]، وقوله سبحانه: ﴿ واستَقيمُوا إليه واستَغفِروه ﴾[سورة فصلت:٦]، وقوله تعالى: ﴿ واستَغفِروا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ [سورة المزمل:٢٠] .

وقص من أوامر أنبياء الله تعالى ورسله لأقوامهم في هذا الذكر آياتٍ كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ وياقوم استَغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه

---

(١) القاموس المحيط ١٠٣/٢ مادة (غفر)، والمفردات ص ٣٦٢ مادة (غفر) أيضا .

(٢) أخرجه مسلم، وتقدم ذكره في التوبة ص١٢٩.

(٣) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية لا بن علان المكي ١٨١/٧ .

يرسلِ السَّماءَ عليكم مِدراراً ويَزدكم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم ولا تَتَولَّوا مُجرمين ﴾[سورة هود:٥٢]، وعلى لسان شعيب عليه السلام قال سبحانه: ﴿ واستغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه إنَّ ربي رحيمٌ ودود ﴾[سورة هود:٩٠]، وعلى لسان نوح عليه السلام: ﴿ فقلتُ استغفِروا ربَّكم إنَّه كان غفَّاراً * يُرسلِ السَّماءَ عليكم مِدراراً ﴾[سورة نوح:١٠،١١] .

والآيات الآمرة بذلك كثيرة معلومة، ومعلوم أن الأمر للوجوب طالما لم يصرفه عنه صارف كما هو في هذه الآيات .

الحض عليه :

وأما الحض عليه ففي آيات أخرى كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ أفلا يَتُوبونَ إلى الله ويَستَغفِرونَه والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٧٤]،وقوله تعالى: ﴿ لولاَ تَستَغفِرونَ اللهَ لعلَّكم تُرحمون ﴾[سورة النمل:٤٦]، وكقوله سبحانه: ﴿ ولو أنَّهم إذ ظَلَموا أنفُسَهم جاؤك فاستَغفَروا اللهَ واستغفر لهم الرَّسولُ لوَجدوا اللهَ توَّاباً رحيماً ﴾[سورة النساء:٦٤] .

وحضُّ الله تعالى عباده على شيء دليل محبته له، ومحبته لهم ذلك الشيء، وذلك ليُحسِن لهم الجزاء والمثوبة، وهو ما علَّل به كل الآيات الحاضَّة عليه هنا، ليزيد في حثه عليه وترغيبهم به، وذلك التعليل بالمغفرة والرحمة والتوبة، بمنزلة الوعد المؤكد من المولى الكريم بتحقيق ذلك لهم ﴿ والله لا يُخلِفُ الميعاد ﴾ .

ثناء الله تعالى على المستغفرين :

أما ثناء القرآن الكريم على المستغفرين فقد ورد في معرض ثنائه سبحانه وتعالى على المتقين عامة، والذين كان الاستغفار من أبرز سماتهم، وقد ورد ذلك في آيات كثيرات، منها قوله سبحانه: ﴿ إنَّ المتَّقين في جنَّاتٍ وعُيون * آخِذينَ ما آتاهم ربُّهم إنَّهم كانوا قبلَ ذلك مُحسنِين * كانوا قليلاً مِنَ الَّليل ما يَهجَعون * وبالأسحارِ هُم يَستَغفِرون ﴾ [سورة الذاريات:١٥-١٨] ، حيث بيَّنت الآيات طرفا من إحسانهم الذي نالوا به تلك المراتب العالية، والتي منها استغفارهم الله تعالى في وقت التجلِّيات الربانية وهي أوقات الأسحار.

وذكر نحو ذلك في سورة آل عمران حيث قال جل ذكره واصفا أولئك المتقين الذي أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجا مطهرة، ورضوانا من الله، وصفهم بقوله سبحانه: ﴿ الصَّابرينَ والصَّادِقينَ والقَانِتينَ والمُنفِقينَ والمُستَغفِرين بالأسحار ﴾[سورة آل عمران:١٧] .

وفي هذه السورة أيضا ذكر المتقين الذين أعد الله لهم جنات عرضها السموات والأرض منوها ببعض أعمالهم التي نالوا بها مرتبة التقوى فقال: ﴿ والَّذين إذا فَعلوا فاحشةً أو ظلمُوا أنفُسَهم ذكروا الله َفاستغفَرُوا لذنوبِهم ومن يَغفرُ الذُّنوبَ إلَّا الله ولم يُصِرُّوا على ما فَعلوا وهم يَعلمون ﴾[سورة آل عمران:١٣٥] .

ومعلوم أن ثناء الله على عبده يعني رضاه عنه، وإذا رضي الخالق على المخلوق، أجزل له المثوبة، وذلك هو ما تحدثت عنه الآيات السابقات وغيرها، كقوله سبحانه عقب الآية الآنفة الذكر: ﴿ أولئِك جزاؤُهم مغفِرةٌ من ربِّهم وجنَّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعمَ أجرُ العاملين ﴾[سورة آل عمران:١٣٦]، وهذه مثوبة آجلة عظيمة، وليست هي الوحيدة، بل هناك مثوبات عاجلة في الدنيا للمستغفرين، يصلح الله بها أحوالهم ويُمتِّعون متاعا حسنا، كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وأن استَغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يُمتِّعْكم مَتاعاً حسناً ﴾[سورة هود:٣]، أي: "يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، وعيشة واسعة، ونعم متتابعة إلى وقت وفاتكم"(١)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ ويا قومِ استَغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً ويَزدكم قوةً إلى قُوَّتِكم ولا تَتَولَّوا مُجرِمين ﴾[سورة هود:٥٢]، وقوله سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿ فقلتُ استغفِروا ربَّكم إنَّه كان غَفَّاراً * يُرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً * ويُمدِدْكم بأموالٍ وبَنينَ ويجعل لَّكم جنَّات ويجعل لَّكم أنهاراً ﴾ [سورة نوح:١٠-١٢] .

فإن هذه الآيات تدل على أن الاستغفار سبب سعادة الحال، ورفه البال في هذه الحياة الدنيا، وذلك لأنه يعني الرجوع والتوبة إلى الله سبحانه والاستقامة على أمره ونهيه، وقد تكفل الله تعالى لمن كان كذلك بإصلاح حاله ومآله، حيث قال جل ذكره: ﴿ مَن عمِلَ صالحا مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مُؤمن فلنُحيِيَنَّه حياةً طيِّبة ﴾[سورة النحل:٩٧]، وهو ما دلت عليه أحاديث كثيرة سيأتي ذكر بعض منها في التطبيق إن شاء الله تعالى .

---

(١) محاسن التأويل ٩/٩٣ .

٣ ـ الدعاء :

الدعاء كالنداء وزنا ومعنىً "إلا أن النداء قد يقال بـ"يا" أو "أيا" ونحو ذلك، من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم"(١)، كما أن الدعاء لا يكون في العرف إلا إذا كان من الأدنى للأعلى كنداء العبد لربه .

أما في الاصطلاح: فهو "الرغبة إلى الله فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بالسؤال"(٢) .

منزلة الدعاء :

والدعاء "أعظم مقامات العبودية، لما فيه من إظهار العبودية والذلة والانكسار والرجوع إلى الله تعالى بالكلية"(٣)، ولذلك جاء في الحديث أن "الدعاء هو العبادة"(٤) .

وذلك "لأن الداعي ينقطع أمله مما سواه سبحانه، وذلك هو حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقهما"(٥) .

ولما كان الدعاء بهذه المثابة أمر الله عباده أن يدعوه، وحذَّرهم من تركه، ورغَّبهم في الدعاء بآيات كثيرة من كتابه الكريم، وذلك لمقتضى رأفته ورحمته بعباده؛ "لأنه ليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب"(٦) .

---

(١) المفردات للراغب ص ١٦٩ .

(٢) تاج العروس ١٢٦/١٠، والمصباح المنير ٢٠٨/١ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٦/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء برقم ١٤٧٩، والترمذي في التفسر، باب ومن سورة المؤمن برقم ٣٢٤٤، كلاهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وقال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، والطبراني في الدعاء برقم ١، ٢، ٣، بأسانيد كل رجالها ثقات، ورقم ٤ بإسناد حسن، ورقم ٥، ٦، ٧، بأسانيد رجالها ثقات. انظر: الدعاء للطبراني تحقيق د/محمد سعيد البخاري ٧٨٧/٢-٧٨٨ .

(٥) اتحاف السادة المتقين ٢٩/٥ .

(٦) محاسن التأويل للقاسمي ١٠٣/٣ .

الأمر به :

فأمرهم بذلك بمثل قوله سبحانه: ﴿ وقال ربُّكم ادعوني أستَجِب لكم إنَّ الذين يستكبرونَ عن عِبادتي سَيدخُلون جهنَّم داخِرين ﴾[سورة غافر:٦٠] .

فترى أن الله تعالى أمر عباده بالدعاء، ووعدهم بالإجابة من غير شرط أو قيد، للدلالة على أن الصِّلة بين العبد والرب جل جلاله مباشرة، كما قال بعض السلف رحمهم الله تعالى: "عجيب لهذه الأمة قيل لها: ﴿ ادعُوني أستجِب لكم ﴾ أمرهم بالدعاء، ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شرط، فقال له قائل: مثل ماذا ؟ فقال: مثل قوله تعالى: ﴿ وبشّر الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات ﴾[سورة البقرة:٢٥]، فهاهنا شرط، وقوله: ﴿ وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صِدق ﴾[سورة يونس:٢]، فليس فيه شرط، ومثل قوله: ﴿ فادعُوا الله مخلِصا له الدِّين ﴾[سورة غافر:١٤]، فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ أُدعُوني أستجِبْ لكم ﴾[سورة غافر:٦٠] ليس فيه شرط"(١) ا.هـ، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدُّعاء فإن الإجابة معه"(٢) .

التحذير من تركه :

وفي الآية وعيد وتهديد لمن لا يستجيب لهذا الأمر إذ تدل على أن من لم يدع الله فهو مستكبر عن عبادته، لأن الدعاء مخُّ العبادة لكونه يدل على الاعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة لله تعالى، فكأنه قيل: "إن تارك الدعاء إنما تركه لأنه مستكبر عن إظهار العبودية لله"(٣) فاستحق أن يدخل جهنم داخرا، أي: صاغرا ذليلا، وفي الحديث: "من لم يسأل الله يَغضب عليه"(٤)، وغضبُ الله إذا حلَّ على شيء دمَّره، وقد أشار إلى هذا

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٢٧/١٥ عن خالد الربعي .

(٢) محاسن التأويل ١٠٣/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٨٠/٢٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات،باب رقم٢ برقم ٣٣٧٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،وابن ماجه =

المعنى آياتٌ كثيرة تَنعى على من لا يعرفون الله ويدعونه إلا عند الشدة وينسونه عند الرخاء، أشارت إلى مثل ما دل عليه هذا الحديث، وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائما فلمَّا كَشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍ مسَّه كذلك زُيِّنَ للمُسرفينَ ما كانوا يَعملون ﴾[سورة يونس:١٢]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإذا غَشيهم موجٌ كالظُّلل دعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّين فلمَّا نجَّاهم إلى البَر فمنهم مقتِصدٌ وما يجحدُ بآياتِنا إلَّا كلُّ ختَّارٍ كفُور ﴾[سورة لقمان:٣٢] أي: غدار لنقضه عهد الفطرة، جحودٍ لنعم الله .

ففي هاتين الآيتين ذم بليغ على من لا يعرف الله تعالى إلا عند الشدة، ووصف لهم بسوء الخلق من الغدر والإسراف، لأن سلوكهم ذلك سلوك مراوغة ناشيء عن فساد الطَّوِيَّة ونُكران الجميل الذي يترتب عليه سوء المصير، كما قال سبحانه عقب إخباره عمَّن كان ذلك حاله: ﴿ فلمَّا أنجاهم إذا هم يَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما بغيُكم على أنفُسِكم متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُكم فَنُنَبِّئُكم بما كنتُم تعمَلون ﴾ [سورة يونس:٢٣]، فسمَّى الله تعالى انحرافهم عن الفطرة بغيا، "والبغي: ضد العدل الذي هو فضيلة شاملة لجميع الفضائل، أما البغي فهو ناشيء عن غاية الانهماك في الرذائل، وصاحبه في غاية البعد عن الحق"(١) فاستحقُّوا أن يجازوا على أعمالهم، وقد نبَّه الله إلى ذلك بقوله: ﴿ فَنُنَبِّئُكم بما كنتُم تعملُون ﴾ وهذا وعيد يهزُّ الوِجدان، ويعيده إلى حظيرة الإيمان ، وإخلاص الدعاء للواحد الديان، ودوامه في السر والإعلان .

ترغيب القرآن الكريم في الدعاء :

ولهذا نجد تلطف الملك المنان بعباده، حيث يرغبهم في الدعاء بمثل قوله سبحانه: ﴿ وإذا سألَك عِبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ فليَستجيبُوا لي وليؤمنوا بي

= في الدعاء، باب فضل الدعاء برقم ٣٨٢٧، والحاكم في الدعاء ٤٩١/١، وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند ٤٤٢/٢، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٢٢٣٨، وعلى الطحاوية ص ٤٥٩ .

(١) محاسن التأويل ٢٣/٩ .

لعلّهم يَرشُدُون ﴾[سورة البقرة:١٨٦]، إذ يجيبهم الله تعالى مباشرة من غير أن يوكل إجابتهم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم كما هي العادة عند التساؤلات القرآنية، فقال سبحانه:

﴿ فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدّاع إذا دعان ﴾ وذلك "تنبيها على كمال لطفه بعباده"(١) ، وبين لهم أن في الدعاء إرشادهم وهدايتهم في أمر دينهم ودنياهم فعليهم أن يلزموه .

كما بين لهم كيف يدعونه بقوله: ﴿ وادعوه مُخلِصينَ له الدِّين ﴾[سورة الأعراف :٢٩] ؛ لأن الإخلاص سر قبول الأعمال والأقوال، وأرشدهم إلى أن يدعوه بأسمائه الحسنى بقوله: ﴿ و لله الأسماءُ الحسنى فادعُوه بها ﴾[سورة الأعراف:١٨٠]، لما تحمله من الثناء المجيد على العزيز الحميد، فيكون للدعاء أبلغ الأثر في الإجابة؛ لأن الكريم إذا أُثنيَ عليه أعطى من غير سؤال كما قال الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضك الثناء(٢)

فكيف إذا ضم إلى الثناء سؤال ؟ إنه أجدر أن يستجيب ويحقق للسائل المطلوب، وفي الحديث: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعطِي السائلين"(٣) .

---

(١) روح المعاني ٩٣/٢/١ .

(٢) عزاهما الحافظ في الفتح ١٧٣/٢٣ إلى أمية بن أبي الصلت، وهو من الشعراء الجاهليين، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لم يسلم بعد أن كاد، توفي سنة ٥ هـ. انظر الأعلام ٢٣/٢ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤١٤/١ برقم ٥٧٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم ١٣٣٧، وله شاهد عند الترمذي في الفضائل، باب ٢٥ برقم ٢٩٢٦ من حديث أبي سعيد وحسنه الترمذي، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني كما في فتح الباري ١٣٤/١١، وعند البيهقي في الشعب ٤١٣/١ برقم ٥٧٢، قال العراقي في تخريج الإحياء بهامشه ٢٩٥/١، وفي إسناده الصهباء بن أبي الصهباء، ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات، وفي التقريب =

كما علم القرآن الكريم العباد الكيفية التي يدعون بها حيث قال: ﴿ أُدعو ربَّكم تضرُّعا وخُفية إنَّه لا يُحبُّ المعتدين ﴾[سورة الأعراف:٥٥]، لأن الضراعة والإسرار يعنيان: إظهار الضعف والافتقار والتذلل إلى الملك الكريم، وذلك من مقتضيات سرعة الاستجابة، لأن العبد إذا خشع وخضع رحمه ربه، وتفضل عليه بالإجابة(١) ، كما جاء في الحديث: "إن ربكم حِييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين"(٢) .

= برقم ٢٩٣٥: مقبول اختلف فيه قول ابن حبان، ولكن بمجموع هذه الشواهد والطرق، يتقوى الحديث وينجبر ما فيه من ضعف .

(١) انظر تحفة الذاكرين ص ٣٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء برقم ٤٨٨ من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، والترمذي في الدعوات، باب رقم ١٠٥ برقم ٣٥٥٦، وقال عنه: حسن غريب، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٦٨/٢٣: وسنده جيد .

٤ ـ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير :

التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مصادر ثلاثية لسبَّح وحمَّد وهلَّل وكبَّر أي قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولكل لفظ من هذه الأذكار مدلول لغوي واصطلاحي .

فالتَّسبيح لغة: التَّنزيه، أي: تنزيهُ الله عن كل سوء على وجه التعظيم، مشتق من السَّبح وهو الجريُ والذهاب، فالمسبِّح جار في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء(١) .

وفي الاصطلاح: تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم منه نفي الشريك والصاحبة والولد وجميع الرذائل(٢)، وهو من أفضل الأذكار وأجلّها شأنا وأكبرها أثرا، لما فيه من تنزيه الله من النقائص، ومشابهة الحوادث، وتبرئته من كل عيب، وذلك هو خالص التوحيد وصفاؤه، ولذلك نال عناية كبيرة في القرآن الكريم بحيث لم يكن في الأذكار أكبر تنويها، ولا أكثر ذكرا منه .

وأجل ذلك شأنا وأعظم خطرا هو تسبيح الله نفسه، في آيات كثيرة ردا على من يعتقد في ذاته العلية نقصا أو تشبيها، كقوله تعالى: ﴿ وقالوا اتَّخذ اللهُ ولداً سبحانَه بل له ما في السمواتِ والأرضِ كلٌّ له قانِتون ﴾[سورة البقرة:١١٦]، وقوله عز شأنه: ﴿ سُبحانه وتعالَى عَمَّا يصفِون ﴾[سورة الأنعام:١٠٠]، وقوله: ﴿ لا إلَه إلاَّ هو سُبحانه عمَّا يُشركون ﴾[سورة التوبة: ٣١]، فإذا كان الله تعالى قد نزه نفسه بنفسه فجدير بالعباد وهم المتعبدون بالتوحيد وإخلاص الإيمان، أن ينزهوه دائما وأبدا؛ لأن في ذلك مرضاة لمعبودهم جل وعلا .

تسبيح المخلوقين خالقهم :

ولما كان التسبيح له تلك المكانة عند الله تعالى، كانت المخلوقات جميعها تلهج بالتسبيح والتقديس لله تعالى بفطرتها التي فطرها الله تعالى عليها، أو بتكليفه سبحانه

---

(١) القاموس ٢٢٦/١، مادة (سبح)، وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٧٦/١ .

(٢) فتح الباري ٢٤٢/٢٣ .

لعباده به، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في غيرما آية .

وكان أكثر الخلائق تسبيحا لله تعالى: الملائكة الكرام فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿يُسَبِّحونَ اللَّيل والنَّهار لا يَفتُرون﴾[سورة الأنبياء:٢٠] أي: لا يحدث لهم فتور ولا ملل منه، فهو منهم كالنَّفَس منا لا يشغلنا عنه شاغل(١)، وقال سبحانه عنهم: ﴿ وترى الملائكةَ حافِّينَ(٢) من حولِ العَرش يُسبِّحونَ بحمدِ ربِّهم ﴾[سورة الزمر:٧٥]، وقال عز شأنه: ﴿ فإنِ استكبَروا فالَّذين عندَ ربِّك يُسبِّحون له باللَّيل والنَّهار وهُم لا يَسأَمون ﴾ [سورة فصلت:٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات .

ويليهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿ فَلو لا أنَّه كان مِن المُسبِّحين * لَلَبِثَ في بَطنه إلى يومِ يُبعثون ﴾[سورة الصافات:١٤٣،١٤٤]، أي: نجاه الله تعالى من بطن الحوت لكثرة تسبيحه، فكان سببا لنجاته، مع أن له أعمالا صالحة كثيرة بمقتضى نبوته، فلم ينفعه إلا التسبيح، وكان من تسبيحه قوله: ﴿ لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانك إنِّي كُنتُ من الظَّالمين ﴾[سورة الأنبياء:٨٧] .

وسائر الأنبياء كذلك كانوا من المسبحين الله كثيرا، لعظم معرفتهم بالله تعالى، وأنه منزه عن كل نقص، فموسى عليه السلام يدعو الله تعالى بقوله: ﴿ واجعل لِي وَزيراً من أهلي * هارونَ أخي * اُشدد به أزَري * وأَشرِكه في أمري * كي نُسبِّحَك كثيراً * ونذكُرَك كثيراً ﴾[سورة طه:٢٩-٣٤] .

فهو عليه السلام يبين أن غاية بعثته هي ذكر الله كثيرا، وخص من بين أنواع الذكر: التسبيح؛ لعظم مكانته عند الله تعالى .

وزكرياء عليه السلام يقول له الله تعالى: ﴿ واذكر ربَّك كثيراً وسبِّح بالعشيِّ والإبْكَار ﴾[سورة آل عمران:٤١]، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاطبه الله تعالى وأمره

---

(١) تفسير الجلالين ٣٩/٢ .

(٢) أي مطيفين بحافّيه، أي: بجانبيه، ومنه: حف به الناس أي: صاروا في جوانبه. نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ص ٣٣٠،وص ٣٩٢ بهامش القرآن الكريم .

بالتسبيح أربع عشْرةَ مرة، في مقامات مختلفة كما سيأتي بيانها في التطبيق .

أما المؤمنون فإن الله تعالى قد جعل من غايات بعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بعد الإيمان بالله ورسوله، وتعظيم الله وتبجيله: تسبيح الله وتنزيهه كما قال جل ذكره:﴿ إنَّا أرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً * لتُؤمِنوا با لله ورسولِه وتُعزِّرُوه(١) وتُوقِّرُوه(٢) وتُسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الفتح٨-٩] .

وإذا كان التسبيح إحدى غايات بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فإن ذلك يعني أنه أمر أساسي في هذه الشريعة الغراء، ولذلك أمرهم الله تعالى به أمرا إلزاميا، فقال جل شأنه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا اذكُروا اللهَ ذكراً كثيراً * وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الأحزاب: ٤١، ٤٢] .

أي: أول النهار وآخره، والمعنى: اشغلوا ألسنتكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير(٣)، وكنَّى عن جميع الوقت بطرفيه كما يقال: شرقا وغربا لجميع الدنيا(٤) .

فترى أن الله تعالى أمر به في جميع الأوقات، وذلك لعظيم أجره، وكبير أثره في سلوك المسلم مع ربه ومع خلقه ، قال الزمخشري: "وإنما اختص ذكر التسبيح من بين أنواع الأذكار ليبين فضله على سائر الأذكار، كاختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال"(٥) .

وقد قيل: إن المراد بالتسبيح بكرة وعشيا هنا: هو صلاة الغداة وصلاة العشي،

---

(١) أي: تقووه بتقوية دينه ورسوله .

(٢) أي تعظموه، والضمير فيهما عائد إلى الله أو لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أفاده الجلال المحلى في تفسيره ٢٥٤/٢ .

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٩٧/١٤ .

(٤) روح المعاني ٩٦/٢٦/٩ .

(٥) الكشاف ٢٣٩/٣ بتصرف قليل .

وذكرت بلفظ التسبيح لأنه يطلق على الصلاة، وللتنبيه على أشرف ما فيها، وهو تنزيه ا لله تعالى ويكون الأمر حينئذ للوجوب(١) .

وعلى أي تقدير ففي الآية حث أكيد للمؤمنين على لزوم هذا الذكر والمداومة عليه في كل أوقات المرء، سواء كان استقلالا، أو ضمن الصلاة، وذلك لما يعنيه التسبيح من التنزيه لله عن كلّ نقص، وتعظيمه كما هو أهله، وهذا أمر يحبه ربُّنا ويرضاه .

ولذلك أراده من كل الكائنات الحية، والجمادات والسماوات السبع والأرض ومن فيهن من الخلائق الحية والنامية والجماد، فألهمها جميعا تسبيحه، وفطرها عليه فهي تسبِّح ا لله تعالى بلسان الحال أو لسان المقال، كما قال جل ذكره: ﴿ تُسَبِّح له السَّمٰوٰتُ السَّبعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ وإن مِن شيءٍ إلا يُسبِّح بحمده ولكن لَا تَفقهونَ تسبِيحهم إنَّه كان حليماً غفوراً ﴾[سورة الإسراء:٤٤] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وافتتح ا لله تعالى سورا عديدة بآيات في هذا المعنى كسور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وكرره في آيات أخرى كثيرة، وذلك لتأكيد هذا المعنى من تسبيح الكائنات كلها المولَى عز وجل وتقديسَه وتبجيله، وما ألهمها ا لله تعالى ذلك إلا لكبير منزلته وعظيم شأنه عنده سبحانه .

التحميد :

أما التحميد فهو مصدر حمَّد - المضعف العين - وهو قول: الحمد لله، أما مصدر حمِد - المخفف - فهو حمْد، لكن التحميد أبلغ منه لدلالته على التكثير(٢) .

ومعنى الحمد لغة: الثناء .

واصطلاحا: الثناء على ا لله بالجميل، على جهة التعظيم والتبجيل(٣) .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/١٩٨ .

(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٣ .

(٣) المصباح المنير ١/١٦٢، والبحر المحيط ١/١٤٣ .

وكثيرا ما يأتي ذكر الحمد بعد التسبيح، لاسيما في القرآن الكريم كقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ ونَحْنُ نُسَبِّح بحمدِك ونُقدِّس لك ﴾[سورة البقرة:٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿ ويُسَبِّح الرعدُ بحمدِه ﴾[سورة الرعد:١٣] وقوله: ﴿ وسبِّح بحمدِ رَّبك ﴾[سورة طه:١٣٠]، وذلك لأن إلهام التسبيح نعمة تستوجب الشكر، فيقرن الحمد به شكرا لله تعالى على التوفيق لهذه النعمة، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ ونحنُ نُسبِّح بحمدك ﴾، قالوا: أي بتوفيقك وإنعامك، قالوا: والحمد هو الثناء، والثناء ناشيء عن التوفيق للخير(١)، وفي الحديث: "الحمد رأس الشكر، ما شَكَرَ الله عبدٌ لا يحمده"(٢) قالوا: وإنما كان رأس الشكر؛ لأن فيه إظهار النعمة، والإشادة بها، ولأنه أعم منه فهو شكر وزيادة(٣) .

وكما اقترن ذكر الحمد بالتسبيح في آيات كثيرة،فقد تجرد عنه في آيات كثيرة أيضا، لأنه يكون في مقابل النعم، ونعم الله كثيرة، فكل نعمة تستوجب حمدا وشكرا، فكان يرد ذكره في القرآن عقبها تارة، وابتداء من غير سبق نعم تارة أخرى، للدلالة على استحقاق الله تعالى للحمد، وإن لم يكن في مقابل نعمة، إذ هو المحمود على كل حال، وذلك كقوله تعالى:﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ والألف واللام فيه للاستغراق أو للجنس والمعنى: أن الحمد والثناء كله حق لله وملكه، فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه، وأنواع آلائه(٤) .

وقد حمد الله تعالى نفسه بهذه الآية في تسعة مواضع من كتابه العزيز(٥)، وفي ضمنه

---

(١) روح المعاني ١/٢٢٢ .

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ٥/٥٠ ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/٥٥٢ برقم ١٣٧٢ .

(٣) النهاية لابن الأثير ١/٤٣٧ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١/٢١٩ .

(٥) هي فواتح سور : الفاتحة، والأنعام، وآية (٤٥) منها، وآية (٧٥) من النحل، وفاتحة الكهف، وسبأ، وفاطر، وآخر الصافات، وآية (٦٥) من الزمر .

أمر عباده أن يثنوا عليه خيرا، فكأنه قال: قولوا: الحمد لله(١) .

وقد ورد الأمر به صريحا في آيات منها قوله تعالى: ﴿ وقُلِ الحمدُ للهِ الَّذي لم يَتَّخذ ولداً ... ﴾[سورة الإسراء:١١١]، وقوله سبحانه: ﴿ فقُلِ الحمدُ للهِ الذي نجَّانا من القومِ الظالمين ﴾[سورة المؤمنون:٢٨]، وقوله عز شأنه: ﴿ قُل الحمدُ للهِ بل أكثرُهم لا يعقلون ﴾[سورة العنكبوت:٦٣] .

والخطاب بهذه الصيغة وإن كان موجها للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن أمته تدخل فيه لأن أمرَ المتبوع أمر للتابع، كما هو مقرر في علم الأصول ما لم تقم قرينة على التخصيص .

وقد حمده بهذه الصيغة الأنبياء والمؤمنون ، فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿ الحمدُ للهِ الذي وهب لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربي لسميعُ الدُّعاء ﴾[سورة إبراهيم:٣٩]، وداود وسليمان عليهما السلام قالا: ﴿ الحمدُ لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾[سورة النمل:١٥] .

أما المؤمنون فهو ثناؤهم في الجنة على الله سبحانه وتعالى كما حكى القرآن عنهم أنهم يقولون: ﴿ الحمدُ للهِ الَّذي هدانا لِهذا وما كُنَّا لِنهتَديَ لولا أن هَدانا الله ﴾[سورة الأعراف:٤٣]، وأنهم يقولون: ﴿ الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحَزَن إن ربَّنا لغفورٌ شكور ﴾[سورة فاطر:٣٤]، وأنهم يقولون: ﴿ الحمدُ لله الذي صدَقنا وعدَه وأورثَنا الأرضَ نتبوأُ من الجَنَّة حيثُ نشاء فنِعم أجرُ العاملين ﴾[سورة الزمر:٧٤]، وأن آخر دعواهم فيها ﴿ أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾[سورة يونس:١٠]، مما يدل على عظيم مكانة هذا الذكر والثناء، ولهذا يقول الحافظ ابن كثير عند آية يونس المذكورة: "وهذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المداء، قال: ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ الكتابَ ﴾[سورة الكهف:١]، و ﴿ الحمدُ لله الذي خلقَ السَّموات والأرض ﴾

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري ١/٦١ .

[سورة الأنعام:١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، قال: ولهذا جاء في الحديث: "أن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس"(١) .

التهليل والتكبير :

التهليل مصدر هلَّل إذا قال: لا إلٰه إلا ا لله، قال الأزهري: لا أراه مأخوذاً إلا من رفع قائله صوته(٢) .

وهذا أفضل الأذكار لقول النبي صلى ا لله عليه وسلم: "أفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي(٣) لا إلٰه إلا ا لله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"(٤) .

وذلك لأن هذه كلمة التوحيد الموجبة للسعادة،والمنقذة من الشقاوة، وقد سمَّاها ا لله تعالى: كلمة التقوى، وكلمته العليا، وكلمته الباقية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وألزمهم كلمةَ التَّقوى ﴾ [الفتح:٢٦] قال مجاهد: كلمة التقوى: لا إلٰه إلا ا لله، وقال تعالى: ﴿ وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى ﴾ يعني الشرك ﴿ وكلِمةُ ا لله هي العُليا ﴾[سورة التوبة:٤٠]، هي لا إلٰه إلا ا لله، وقال سبحانه: ﴿ وجعلَها كلمةً باقية ﴾[سورة الزخرف:٢٨]، يعني لا إله إلا ا لله ، وقال عز شأنه: ﴿ ولهُ المثل الأعلى ﴾[سورة الروم:٢٧] أي: التوحيد والخلق والأمر، ونفي كل إلٰه سواه، وترجم عن هذا كله بـ "لا إلٰه إلا ا لله (٥)، فلهذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٠٨/٢ . والحديث المشار إليه أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها وأهلها برقم ٢٨٣٥ من حديث جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما .

(٢) تاج العروس ١٧١/٨ .

(٣) أي: أكثر ثوابا وأقربه إجابة. تنوير الحوالك ١٦٨/١ .

(٤) تقدم تخريجه في الحج مرسلا وموصولا ص ٣١٨

(٥) شرح السنة للبغوي ٥٣/٥ بتصرف يسير .

كله كان الذكر بلا إله إلا ا لله أفضل الأذكار كما قال النبي صلى ا لله عليه وسلم .

أما التكبير فهو مصدر كبَّر يكبر - المضعَّف العين - إذا قال: ا لله أكبر .

ومعناه: أعظم وأعز وأجلُّ، فهي جملة تدل على أن ا لله أعظم من كل عظيم، وإثبات الأعظمية له سبحانه في هذه الكلمة كناية عن وحدانيته بالإلهية، لأن التفضيل يستلزم نقصان ماعداه، والناقص غير مستحق للإلهية(١)، فهي كلمة توحيد وإثبات عظمته تعالى دون من سواه، ولهذا ورد الأمر بها في العبادات من صلاة وصيام وحج ..

أما الصلاة وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، فإنها لا تفتتح إلا بالتكبير، ولا تنعقد إلا بتكبيرة الافتتاح، ثم إن سائر التنقلات في أركانها تصحب بالتكبير عدا ركن الاعتدال ، وذلك لأن المصلي يحرم عليه بالتكبير ما كان حلالا له قبله من مفسدات الصلاة، وجعل فاتحة الصلاة ليستحضر المصلي معناه الدال على عظمة من تهيأ لخدمته حتى تتم له الهيبة والخشوع، قالوا: ومن ثم زيد في تكراره ليدوم استصحاب ذلك في جميع الصلاة(٢) .

وأما الصيام فقد شرع التكبير عند انقضاء شهره شكرا لله تعالى على إتمام نعمته على عبده بإتمام شهر الصيام والتوفيق له(٣) كما قال تعالى: ﴿ ولِتُكمِلُوا العِدَّةَ ولِتُكَبِّرُوا ا للهَ على ما هداكم ولعلَّكم تَشكُرون ﴾[سورة البقرة:١٨٥] .

وأما الحج فقد شرع التكبير فيه عند الفراغ من معظم أعماله ابتداء من يوم العيد إلى آخر أيام التشريق، عند رمي الجمرات وعقب الصلوات، وعند ذبح الهدي ..، شكرا لله تعالى لإتمام هذه الشعيرة العظيمة كما قال ا لله تعالى: ﴿ واذكروا ا للهَ في أيَّامٍ مَعدُودات ﴾ [سورة البقرة:٢٠٣]، والأيام المعدودات هي أيام التشريق، وذكر ا لله فيها يكون بالتكبير كما بينته السنة المشرفة، وشرعه كذلك لغير الحاج مطلقا في سائر الأوقات، ومقيدا بعقب الصلوات مما يدل على مكانة هذا الذكر، وعظيم منزلته عند ا لله تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢ .

(٢) فتح المعين لزين الدين المليباري ١٣٠/١ بحاشية إعانة الطالبين .

(٣) انظر التفسير الكبير ٩٣/٥ .

تطبيق النبي صلى ا لله عليه وسلم للذكر

وحيث كان الذكر عند ا لله أكبر، وثوابه أعظم وأجزل، فقد كان النبي صلى ا لله عليه وسلم أولى الناس عناية به،وإكثارا منه،حيث كان "يذكر ا لله على كل أحيانه" كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها(١) .

وقال عبد ا لله بن أبي أوفى(٢) رضي ا لله عنه: "كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يُكثر الذكر، ويُقِلُّ اللَّغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة"(٣) .

ولهذا قال ابن القيم رحمه ا لله تعالى: "كان النبي صلى ا لله عليه وسلم أكملَ الخلق ذكراً لله عز وجل، بل كان كلامه في ذكر ا لله تعالى وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله تعالى، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه،

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ٨٠/١، تعليقا بصيغة الجزم، وقد وصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ١٧٢/٢، ووصله مسلم عنها بسنده في الحيض، باب ذكر ا لله تعالى في حال الجنابة برقم ٣٧٣ .

(٢) واسم أبيه علقمة بن خالد الحارثي الأسلمي ، صحابي ابن صحابي، شهد بيعة الرضوان وخيبر وما بعدهما من المشاهد مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، وكان آخر من مات من الصحابة بالكوفة سنة ٨٧هـ، تهذيب الأسماء واللغات ٢٦١/١، والإصابة ٢٧٩/٢ .

(٣) أخرجه النسائي في الجمعة، باب ما يستحب من تقصير الخطبة ١٠٩/٣، والدارمي في سننه ٣٥/١، المقدمة، والحاكم في المستدرك ٦١٤/٢، وابن حبان في صحيحه ١١٢/٨ من الإحسان، والطبراني في المعجم الصغير ١٤٤/١، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وتبعه الألباني في تعليقه على المشكاة ١٦٢٢/٣، برقم ٥٨٣٣، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني قال: وإسناده حسن ا.هـ، مجمع الزوائد ٢٣/٩ .

فكان ذاكرا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائما وقاعدا، وعلى جنبه، وفي مشيه، وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامته"(١) .

وقد حفظ لنا أئمة الإسلام كل ذلك في كتب السنة المشرفة من جوامع وسنن ومسانيد وأجزاء وغيرها، أو في مدونات خاصة بالأذكار أو الشمائل .

وسأذكر جانبا من تلك الأذكار: تلاوة أو استغفارا أو تسبيحا وتحميدا أو تهليلا وتكبيرا أو دعاء، ليعلم حاله صلى الله عليه وسلم من خلق التضرع والافتقار إلى الله عز وجل .

أما التلاوة: فقد كان صلى الله عليه وسلم تاليا لكتاب الله كما أمره الله بذلك حيث قال له: ﴿ ورتّلِ القرآنَ ترتيلاً ﴾[سورة المزمل:٣]، وقال سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم:﴿ إنَّما أُمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذِه البلدةِ الّذي حرَّمها وله كلُّ شيءٍ وأُمرتُ أن أكونَ من المسلمين * وأن أتلُوَ القرآنَ ...﴾[سورة النمل ٩١،٩٢] .

١ - فكان يتلوه حق تلاوته في سائر أحيانه، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَحجُبه أو قال: لا يحجزه شيء عن قراءة القرآن إلا الجنابة"(٢)، وذلك ابتداء من عند نزوله، حيث كان يبلغه إلى أمته إثر تنزُّله عليه، ويتلوه على كتبة الوحي، ويأمرهم بوضع كل آية مما نزل عليه في مكانها المناسب .

٢ - وقد بلغ من الحرص على تلاوته والتثبت منه، ومحاولة حفظه، أن كان يتلوه أثناء

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣٦٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الجنب يقرأ القرآن برقم ٢٢٩، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال برقم ١٤٦، والنسائي في الطهارة، باب حجب الجنب عن قراءة القرآن ١٤٤/١، وابن ماجه في الطهارة ١٩٥/١، والآجري في أخلاق أهل القرآن ص ١٥١ رقم ٧٦، وابن خزيمة ١٠٤/١، والحاكم ١٠٧/٤، وأحمد في المسند ٧٤/١، ١٠٧، ١٢٤، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

تنزله عليه، مما كان يوليه عناء وشدة(١) حتى قال ا لله جل ذكره لـه: ﴿ لا تُحرِّك بـه لسانك لتعجلَ به * إنَّ علينا جمعَه وقرآنَه * فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنَه * ثُـمّ إنَّ علينـا بيانـه ﴾ [سورة القيامة:١٦-١٩]، وقـال لـه أيضا: ﴿ ولا تعجـلْ بـالقرآنِ مـن قبـل أن يُقضَـى إليـك وحيُه ﴾[سورة طه:١١٤]، فكان هذا تطمينا لقلبه بضمان حفـظ القـرآن الكريـم في صـدره الشريف، فترك بعد ذلك هذا الأسلوب "فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده ا لله عز وجل" كما جاء في حديث ابن عباس المشار إليه .

٣ ـ أما تلاوته بعد ذلك فقد كان يتلوه في الصلوات كما تقدم في التهجد، حيث كان ربما قرأ الطوال في ركعة(٢)، وما من صلاة إلا وهو صلى ا لله عليـه وسـلم يقـرأ فيهـا مـا تيسر من القرآن قليلا أو كثيرا، كما هو معلوم من كتب السنة .

٤ ـ وكان إذا جاء رمضان، نزل جبريل مـن السـماء فيدارسـه القـرآن كمـا قـال ابـن عباس رضي ا لله عنهما: "كان رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلـم أجـود النـاس، وكـان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جـبريل" قـال: وكـان يلقـاه كـل ليلـة مـن رمضـان فيدارسه القرآن .."(٣) .

---

(١) كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري في بدء الوحي ٦/١، وفي فضائل القـرآن ٢٤/٦، قـال: كـان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه ... إلى أن قال: فأنزل ا لله عليه: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال ابن عباس: جمعه له في صدره وتقـرأه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ثم علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جـبريل قـرأه النـبي صلـى ا لله عليه وسلم كما سمع .

(٢) كما دل عليه حديث حذيفة عند مسلم وغيره المتقدم تخريجه في التهجد، فقد دل ذلك الحديث علـى قـراءة النبي صلى ا لله عليه وسلم الثلاث السور الطوال الأولى في ركعة واحدة .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام، باب أجود ما كان النبي صلى ا لله عليه وسلم في رمضـان ٣٣/٣، ومسـلم في الفضائل، باب كان النبي صلى ا لله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة برقم ٢٣٠٨ .

٥ - وكان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان العام الذي تُوفِّي فيه عارضه مرتين كما في حديث عائشة عند البخاري(١) .

٦ - وربما كان يتدارسه مع بعض أصحابه رضي الله عنهم كما قال لابن مسعود رضي الله عنه: "اقرأ علي" فقال له: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟!"قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيفَ إذا جِئنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيد وجِئنا بكَ على هَؤلاءِ شهيدا ﴾[آية:٤١]، فقال: "حسبُكَ الآن" قال ابن مسعود: فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرِفان"(٢) .

٧ - بل كان لا ينام حتى يقرأ حظا من القرآن كما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تنزيل السجدة وتبارك الملك"(٣) .

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم كان "لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل"(٤)، وهناك روايات أخرى كثيرة .

٩ - وإذا استيقظ أول ما يبدأ به أن يقرأ العشر الآيات خواتيم سورة آل عمران، كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة نومه في بيته صلى الله عليه وسلم عند خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وفيه: "فنام رسول الله صلى الله عليه

---

(١) في الاستئذان ٧٩/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب قول المقرىء للقارىء: حسبك ٢٤١/٦ .

(٣) رواه الترمذي في الدعوات، باب ٢٢ برقم ٣٤٠٤، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٢٠٧، والدارمي ٥٥/٢، وأحمد في المسند ١٤٣/٣، والحديث صحيح كما بينه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٨٥ .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات برقم ٣٤٠٥ من حديث عائشة رضي الله عنها، والحاكم ٤٣٤/٢، وأحمد في المسند ٦٨/٦،١٢٢، وسكت عنه الحاكم والذهبي والترمذي أيضا، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٤١، ٢٤٣/٢ .

وسلم حتى إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، استيقظ رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران .."(١) الحديث .

فهذا بعض مما كان يواظب على تلاوته النبي صلى ا الله عليه وسلم في أوقات محددة، ومناسبات معينة، بَلْهَ عما كان يتلوه النبي صلى ا الله عليه وسلم في سائر أوقاته وجميع أحيانه، تلاوة عامة، أو تعليما، أو استشهادا، أو وعظا، أو غير ذلك، كما علمت مما دل غليه حديث عائشة رضي ا الله عنها الآنف الذكر، مما يدل على مبلغ شغفه صلى ا الله عليه وسلم بالقرآن وحرصه على تلاوته .

أقواله صلى ا الله عليه وسلم في الحث على تلاوة القرآن وبيان فضله :

وقد كان يدل على ذلك أيضا أقواله الكثيرة في الحث على تلاوة القرآن، وبيان فضله، وهي كثيرة جدا، فإنها تدل قبل كل شيء على مبلغ عنايته صلى ا الله عليه وسلم بالقرآن، وكمال حرصه عليه، حيث لم يفتأ يرغِّب أمته بذلك ويحثها عليه، لما يثمر ذلك من عظيم الأجر، وقوام الأخلاق، والاستقامة على الدين، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام :

١ - "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(٢) .

٢ - وكقوله عليه الصلاة والسلام: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة(٣)، والذي

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره ٥٥/١، ومسلم في صلاة المسافرين برقم ٧٦٣، والبغوي في الأنوار ٥٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٢٣٦/٦ من حديث عثمان رضي ا الله عنه .

(٣) يعني الملائكة .

يـقـرأ القرآن ويتعتع فيه(١) وهو عليه شاق له أجـران"(٢) يعـني: أجـراً لقراءتـه، وأجـراً لتعبه .

٣ - وخرج ذات يوم على أصحابه وهم جلوس في "الصُّفَّة"(٣) فقال لهم: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطحان(٤)، أو قال: العقيق(٥)، فيأتي منه بناقتين كَوْمَاوَين(٦) في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ فقال الصحابة: يا رسول الله نحب ذلك، قال: "أفلا يغدو أحدكـم إلى المسجد فيعلَمَ، أو قال يقرأ آيتين من كتاب الله، خير له من نـاقتين، وثـلاث خـير لـه من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل"(٧) .

٤- وقال في الحث على مدارسة القرآن ومذاكرته :

ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتلون كتـاب الله عـز وجـل، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السَّكِينة(٨)، وغشيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة،

---

(١) أي يتردد فيه .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٢٠٦/٦، ومسلم في المسـافرين، بـاب فضيلـة حـافظ القـرآن برقـم ٧٩٨ من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ له .

(٣) اسم موضع مظلل في مسجده صلى الله عليه وسلم، كان يقطنه فقراء المهاجرين، فلقبوا بـ"أهل الصفة" .

(٤) اسم واد في المدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثـة: بطحـان، والعقيـق، وقنـاة، ويقـع جنـوب قبـاء إلى الشـرق. مراصد الاطلاع ٢٠٤/١٤، والدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ص ١٣١ .

(٥) واد في المدينة على ثلاثة أميال منها، به أموال أهل المدينة من المزارع والبسـاتين، وبـه عيـون. انظـر معجـم البلدان ١٣٩/٤ .

(٦) تثنية كوماء، وهي الناقة المشرفة السنام عاليته. انظر النهاية ٢١١/٤ .

(٧) أخرجه مسلم في المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمـه برقـم ٨٠٣ مـن حديـث عقبـة بـن عامر رضي الله عنه، وأبو داود في الصلاة، باب ثواب قراءة القرآن برقم ١٤٥٦ .

(٨) قال النووي رحمه الله: هي شيء من خلق الله فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة .

وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عملُه(١) لم يسرع به نسبه"(٢) .

٥ - وبين لهم مقدار أجر قراءة القرآن فقال:

"من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ألم" حرفٌ، ولكنْ أَلِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ"(٣) .

٦ - كما بين لهم مبلغ منزلة القراء عند الله تعالى فقال:

"يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها"(٤) .

٧ - وبين أيضا حال من لم يقرأ القرآن، فلم يكن في جوفه منه شيء فقال:

"إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب"(٥) .

فشبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت الذي لا ساكن فيه، فيصلح خَلَله حتى خرب، وكذا الذي ليس في جوفه شيء من القرآن، فلم يكن عنده ما يزعه عن الرذائل، ويدفعه إلى الفضائل .

---

(١) أي: أن من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء ، ويقصر في العمل،ا.هـ . شرح النووي على مسلم ٢٢/١٧ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم ٢٦٩٩، وأبوداود في الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن برقم ١٤٥٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ، ما له من الأجر، برقم ٢٩١ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والدارمي في فضل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن ٤٢٩/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب استحباب ترتيل القرآن برقم ١٤٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو، والترمذي في فضائل القرآن باب رقم ١٨، برقم ٢٩١٤، وأحمد في المسند ١٩٢/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٥) أخرجه الترمذي في الكتاب والباب السابقين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما برقم ٢٩١٣، والدارمي في فضائل القرآن ٤٢٩/٢، وأحمد في المسند ٢٢٣/١، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

إلى غير ذلك من أقواله صلى ا لله عليه وسلم الشريفة، وأحاديثه المنيفة، في فضل القرآن وقارئيه وآداب تلاوته وعظيم أجره فيها والتي لا يأتي عليها الحصر في مثل هذا المبحث، وهي معلومة، ولها مصنفات مستقلة، ناهيك عن كونها في ضمن الأمهات الحديثية من جوامع وسنن ومسانيد .

استغفاره صلى ا لله عليه وسلم :

أما الاستغفار: فقد كان ديدنه ودأبه صلى ا لله عليه وسلم على الدوام، لأن ا لله تعالى قد ندبه إلى ذلك حيث قال له: ﴿ واستَغفِر لذنبِك وللمؤمنينَ والمُؤمنات ﴾[سورة محمد:١٩]، وقال له أيضا: ﴿ فسبِّح بحمدِ ربِّك واستغفره إنَّه كان توَّابا ﴾[سورة النصر:٣]، وقد بادر عليه الصلاة والسلام إلى تطبيق أوامر ربه على وجه الكمال والتمام والكثرة التي عند غيره لا ترام :

١ ـ فكان يُعد له في المجلس الواحد مائة مرة يقول فيه: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم"(١) .

٢ ـ وروى أبو هريرة رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "وا لله إني لأستغفر ا لله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة"(٢) .

٣ ـ وروى مسلم من حديث الأغر المزني رضي ا لله عنه قال: سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "إنَّه ليُغان على قلبي حتى أستغفر ا لله في اليوم مائة مرة"(٣) .

٤ ـ ولقد أثار استغفار النبي صلى ا لله صلى ا لله عليه وسلم بذلك النحو من الكثرة استغراب أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها، فسألته عن ذلك وقالت له: يارسول ا لله إني أراك تكثر قول:سبحان ا لله وبحمده،وأستغفر ا لله وأتوب إليه؟فقال صلى ا لله عليه وسلم:

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر، وتقدم تخريجه في التوبة ص٢١٨.

(٢) رواه البخاري، وتقدم تخريجه في التوبة ص ٢١٨ .

(٣) تقدم تخريجه في التوبة ص٢١٧.

"خبّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح ﴾ السورة إلى آخرها(١) .

٥ ـ وفي رواية: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده "سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن(٢) .

فهكذا كان استغفار النبي صلى الله عليه وسلم كثرة وتضرعا، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووعده بالمقام المحمود، وأن يرضيه في دار كرامته بما تقر به عينه في نفسه وأمته .

وما كان ذلك منه إلا لعظم فضل هذا الذكر، وبالغ أثره في سلوك المسلم، وكبير أجره، وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بلسانه الشريف .

أقواله صلى الله عليه وسلم في فضل الاستغفار :

وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، ومن ذلك :

١ ـ قوله عليه الصلاة والسلام: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سوة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ ٢٢/٦ووغيره، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤، وابن جرير في تفسير سورة النصر ٣٣٢/٣٠ واللفظ له .

(٢) لفظ البخاري في التفسير ٢٢٠/٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار برقم ١٥١٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أحمد في المسند ٢٤٨/١ بلفظ "من أكثر"، وابن ماجه في الآداب، باب الاستغفار برقم ٣٨١٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٤٠/١ برقم ٦٤٢، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٢٦٢/٤، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: الحكم بن مصعب الدمشقي فيه جهالة، وذلك هو حكم أبي حاتم في الجرح والتعديل ١٢٨/٣، والحافظ في التقريب ١٤٦١، لكن صحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند برقم ٢٢٣٤ بناء على أن البخاري لم يذكر فيه جرحا حين ذكره في التاريخ الكبير .

٢ ـ وقوله: "إن عبدا أصاب ذنبا ـ وربما قال: أذنب ذنبا ـ فقال: رب أذنبت ذنبا ـ وربما قال: أصبت ـ فاغفر لي، فقال ربه: "أعَلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ؟ غفرت لعبدي،ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا ـ أو أذنب ذنبا ـ فقال: رب أذنبتُ ـ أو أصبت ـ آخر فاغفره، فقال: أعَلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله،ثم أذنب ذنبا ـ وربما قال: أصاب ذنبا ـ قال: رب أصبت ـ أو أذنبت ـ آخر فاغفره لي: فقال: أعَلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء"(١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم يبين في هذا الحديث محبة الله تعالى البالغة للاستغفار،بحيث إنه سبحانه يتجاوز عن سيئات المستغفر فضلا منه وكرما، وذلك لمّا أقبل عليه العبد بذنبه وطلب منه المغفرة، وبين صلى الله عليه وسلم ذلك بأحاديث أخرى كثيرة غير هذا، تقدم ذكر بعضها في التوبة، ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم :

٣ ـ "ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ويصلي ويستغفر الله إلا غفر له، ثم قرأ: ﴿ والَّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظَلموا أنفسَهم ذَكروا الله فاستَغفَروا لِذُنوبِهم ومن يَغفرُ الذنوبَ إلا الله ﴾[سورة آل عمران:١٣٥](٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تدل على عظيم اجتهاده صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، وحثه عليه، وبيانه لفضله، وذلك لما له من أثر بليغ في محو السيئات وتزكية النفس البشرية .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب يريدون أن يبدلوا كلام الله ٩/١٧٨، ومسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت برقم ٢٧٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار برقم ١٥٢١ من حديث علي رضي الله عنه، والترمذي في تفسير سورة آل عمران برقم ٣٠٠٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء أن الصلاة كفارة برقم ١٣٩٥، وإسناده حسن .

تعليمه الأمة سيد الاستغفار :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أمته سيد الاستغفار ليحفظوه ويقولوه، فيقول :

١ ـ "سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء(١) لك بنعمتك عليّ،وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة"(٢) .

٢ ـ وبين لهم فضيلة هذا الاستغفار، بأن من قاله فمات قبل أن يصبح، أو من يومه أو ليلته، كما في رواية أخرى له(٣): دخل الجنة، وهذا فضل عظيم لهذا الذكر لا ينبغي التفريط فيه، كما بين صيغا أخرى كثيرة غير هذه تعلم من مظانها في كتب الأذكار .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم :

وأما الدعاء فقد كان له صلى الله عليه وسلم فيه شأن عظيم، حيث كان لا يخلو حال من أحواله الشريفة من دعاء خاص، ناهيك عن الأدعية العامة في سائر الأزمان والأحوال والمناسبات .

١ ـ ففي الصلاة كان يدعو عند افتتاحها بقوله: "اللهم نقّني من خطاياي كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد"(٤) .

---

(١) أي: أعترف .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل الاستغفار ٨٣/٨، وباب ما يقول إذا أصبح ٨٨/٨، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع ٢٧٩/٨، وفي عمل اليوم والليلة برقم ١٩ من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٣) من حديث بريدة عن أبيه رضي الله عنه، عند أبي داود برقم ٥٠٧، وابن ماجه برقم ٣٨٧، وابن حبان برقم ٢٣٥٣ (موارد) والحاكم في المستدرك ٥١٤/١، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم ٢٠، وقال عنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ٣٢٤/٢: حسن صحيح .

(٤) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء بعد التكبير ١٧٩/١، ومسلم في المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة برقم ٥٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٢ ـ وإذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: "اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاءُ إلى صراط مستقيم"(١) .

٣ ـ وبقوله أيضا: "اللهم أنت الملك لا إلهٰ إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت .."(٢) .

٤ ـ وفي الركوع يقول: "اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي، خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي، ومُخّي وعصَبي لله رب العالمين"(٣) .

٥ ـ وإذا رفع قال: "اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء مابينهما، وملء ماشئت من شيء بعد" .

٦ ـ وإذا سجد قال: "اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين"(٤) .

٧ ـ ويقول أيضا: "اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّه وجِلَّه، أوله وآخره، سره

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٧٠، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة برقم ٣٤٢٠، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء برقم ٧٦٧، والنسائي في صلاة الليل، باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل ٢١٢/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم من حديث علي، وتقدم في الصلاة ص٢٥٩

(٣) جزء من حديث علي السابق .

(٤) جزء من حديث علي السابق .

وعلانيته"(١).

وبعد التشهد يقول: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إلٰه إلا أنت"(٢) .

٨ - ويقول أيضا: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال"(٣) .

٩ ـ وإذا سلم قال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"(٤) .

١٠ - ويقول أيضا: "لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطِي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ"(٥) .

١١ - وإذا قام من الليل يتهجد قال: "اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيوم السمٰوات

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح، باب نوع آخر من الدعاء في السجود ٢٢٢/٢ من حديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وإسناده صحيح .

(٢) جزء من حديث علي السابق .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ١٢٢/٢، ومسلم في المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة برقم ٥٨٨، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقوله بعد التشهد برقم ٩٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩١، والترمذي في الصلاة، باب ما يقول إذا سلم من الصلاة برقم ٣٠٠، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم برقم ١٥١٣، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وورد هذا الدعاء أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي داود في الصلاة برقم ١٥١٢، وعند النسائي في السهو، باب الذكر بعد الاستغفار ٦٩/٣.

(٥) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة ٢٠٣/١، ومسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩٣، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه . والجد: الحظُّ والغنى .

والأرض ومن فيهن، ولـك الحمـد أنـت ملـك السمٰوات والأرض ومـن فيهـن، ولـك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولـك حـق، والجنـة حـق، والنـار حـق، والنبيون حق، ومحمد حـق، والسـاعة حـق، اللهـم لـك أسـلمتُ، وبـك آمنـتُ، وعليـك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت،وما أخرت، وما أسررت،وما أعلنت"(١) .

إلى غير ذلك من الدعوات الكثيرة الخاصة والعامة في الصـلاة وغيرهـا الـتي يضيـق بهـا الحصر هنا .

من أقواله صلى ا لله عليه وسلم في فضل الدعاء :

وتضرعه صلى ا لله عليه وسلم إلى ا لله تعالى بالدعاء على ذلك النحو، يدل على أهمية ذكر ا لله تعالى بالدعاء، وهو ما كان يبينه عليه الصلاة والسلام بقوله،كقوله :

١ - "ليس شيء أكرم على ا لله تعالى من الدعاء"(٢) .

٢ - وقوله: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، باب التهجد بالليل ٦٠/٢، ومسلم في المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٦٩ من حديث عبد ا لله بن عباس رضي ا لله عنهما .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء برقم ٣٧٠، وأحمـد في المسـند ٣٦٢/٢، وابـن ماجه في الدعاء، باب فضل الدعاء برقم ٢٦، من حديث أبي هريـرة رضي ا لله عنـه، وصححـه الحـاكم، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٣) أخرجه الترمذي في القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء برقم ٢١٣٩، وابـن ماجـه في الفتن، بـاب العقوبات برقم ٤٠٢٢، وأحمد في المسـند ٢٧٧/٥، والحـاكم في المستدرك ٤٩٣/١، مـن حديـث ثوبـان رضي ا لله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن غريـب، وحسـن إسناده البوصيري في المصبـاح ٣٠٢/٢ برقـم ١٤١٦ وعزاه إلى ابن حبان والنسائي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي .

وأراد بالقضاء: الأمر المقدر الذي لولا دعاؤه لحصل، ومعنى زيادة العمر: البركة فيه، أو اسـتقصاؤه أطـول الأجلين ببره .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم" فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: الله أكثر" يعني: أكثر إجابة(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، الدالة على فضل ذكر الله تعالى بالدعاء والحث عليه، والتي تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان منها في ذروة الكمال، وتمام التمام، لكمال عبوديته لله، وعظيم أخلاقه معه سبحانه وتعالى .

تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم وتحميده لله تعالى :

أما تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم وتحميده، فقد كان يقدر معرفته بالله تعالى وإجلاله له وتعظيمه إياه كما يجب له سبحانه، وبقدر ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من تلبية لأوامر الله تعالى وإرشاداته، وتطبيق لها على وجه الكمال والتمام .

وقد أمره الله تعالى ست عشرة مرة بتسبيحه يقول له فيها: ﴿ فسبِّح بحمد ربِّك وكن من السَّاجدين ﴾[سورة الحجر:٩٨]، ويقول: ﴿ وسبِّح بحمدِ ربِّك قبلَ طُلوع الشمسِ وقبلَ غُروبها ومن آناءِ اللَّيل فسبِّح وأطرافَ النَّهار لعلَّك ترضى ﴾[سورة طه:١٣٠] إلى غير ذلك.

فترى أن الله تعالى يأمره بتسبيحه في جميع الأوقات، ويريده أن يكون منشغلا بالتقديس والتنزيه له سبحانه آناء الليل، أي ساعاته المختلفة، وأطراف النهار، وهو كناية عن جميع أجزائه كما تقدم، ومعنى ذلك أن يكون مستغرقا في عبوديته لله تقديسا وتنزيها وثناءً، الليل والنهار كله، وهو ما أكدت عليه الآيات الأخرى الآمرة بمثل ذلك، فكيف يكون تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأوامر ؟ وكم يكون تسبيحه لله تعالى وتقديسه ؟

الإجابة معلومة بلا شك، وهي أنه سيكون بما يعجز عن مثله غيره، ويتميز به عمن سواه، وهو ما أفاده استغراب عائشة رضي الله عنها المار ذكره آنفا في الاستغفار، ويفيده

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب في انتظار الفرج برقم ٣٥٧٣، وأحمد في المسند ٣٢٩/٥، والطبراني في الدعاء رقم ٨٦، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب،

أيضا أحاديث أخرى كثيرة :

١ ـ منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن أقول:سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس"(١) .

فإذا كان هذا الذكر أحب إليه من الدنيا وما فيها، فكم يكون إكثاره منه ؟ وكيف يكون أداؤه له ؟ وما كان هذا الذكر محببا إليه هذا الحب إلا لمحبة الله تعالى له عن كثير من الأذكار سواه، وهو ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

٢ ـ "كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"(٢) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "أحب الكلام إلى الله تبارك وتعالى: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت ..."(٣) .

٤ ـ وقوله مخاطبا أبا ذر رضي الله عنه "ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله، إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده"(٤) .

فلما كان هذا الذكر محبوبا لله تعالى، كان محبوبا له صلى الله عليه وسلم، لأن محابه في محاب الله تعالى، ورضاه في رضاه .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم ٢٦٩٥ ، والترمذي في الدعوات، باب رقم ١٣٩ برقم ٣٥٩١ .

(٢) أخرجه البخاري في آخر جامعه، ومسلم في الباب السابق برقم ٢٦٩٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة برقم ٢١٣٧، وأبو داود في الأدب، باب تغيير الأسماء برقم ٤٩٦٠، من حيث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر، باب فضل سبحان الله وبحمده برقم ٢٧٣١، والترمذي في الدعوات، باب أي الكلام أحب إلى الله برقم ٣٥٩٣ .

ولعل هذا هو سر تكرار أوامر الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والتحميد، وهو أنه سبحانه أراد من حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون صارفا جل وقته وكامل عبوديته في أحب الأذكار إليه وهو التسبيح والتحميد، الذي يعني تنزيه الله تعالى من كل نقص، وتمجيده كما ينبغي أن يكون، وقد وفّى صلى الله عليه وسلم بذلك كأفضل ما يكون الأمر وأكمله، كما تدل عليه الأحاديث الآتية :

١ - روت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث(١) رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بُكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"(٢) .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: افتقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحَسَّسْتُ ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: "سبحانك وبحمدك لا إلٰه إلا أنت"قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك

---

(١) ابن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق أم المؤمنين رضي الله عنها، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة المريسيع من السنة الخامسة وكان اسمها برَّة، فغيره النبي صلى الله عليه وسلم إلى جويرية، وكانت أيمن امرأة على قومها ، حيث أعتق الله بزواجها منه صلى الله عليه وسلم سائر قومها الذين كانوا قد وقعوا في الرق، كما سيأتي إيضاحه في النكاح، وتوفيت سنة ٥٠. تهذيب الأسماء ٣٣٦/٢، والإصابة ٢٦٥/٤، والاستيعاب ٢٥٨/٤ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٦ .

لفي آخر"(١) .

أي: أنها في غَيْرتها سابحة، فتظن أن النبي صلى الله عليه وسلم تركها، وذهب إلى امرأة أخرى، والحال أنه عليه الصلاة والسلام مستغرق في مناجاة الله وتمجيده وتسبيحه وتقديسه .

٣ - وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: "سُبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح"(٢) .

٤ - وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذا الدعاء: "اللهم ربنا لك الحمد ملءَ السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد"(٣) .

٥ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال: "اللهم ربنا لك الحمد ملءً السَّمٰوات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعدُ، أهلَ الثناء والمجد أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود برقم ٤٨٥، والنسائي في الافتتاح ٢٢٥/٢، وأبو داود في الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود برقم ٨٧٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود برقم ٤٨٧، وأبو داود في الصلاة ، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده برقم ٤٨٧٢، والنسائي في الافتتاح ٢٢٤/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم ٤٧٦، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم ٨٤٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة في الباب السابق برقم ٤٧٧، وأبو داود كذلك برقم ٨٤٧، والنسائي في الافتتاح، باب ما يقول في قيامه ذلك ١٩٨/٢،١٩٩ .

فانظر كيف كان تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم لله تعالى وحمده وتبجيله، فهو بلا ريب تسبيح وتحميد بقدر تلك الأوامر المتكررة له من الله تعالى به .

فضل هذا الذكر :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين فضل هذا الذكر، وذلك في أحاديث كثيرة منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم لمن جاؤوا إليه قائلين: ذهب أهل الدُّثور(١) بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يُصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجُّون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلِّمكم شيئاً تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "تسبِّحون وتحمدون وتكبِّرون دُبر كلِّ صلاة ثلاثا وثلاثين"(٢) .

٢ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "الطُّهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان"(٣) .

٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبد(٤) البحر"(٥) .

٤ - وقوله صلى الله عليه وسلم: "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرِست له نخلة في الجنة"(٦) .

---

(١) جمع (دثر) وهو المال الكثير. النهاية ٢/١٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة ٢٠٢/١، ومسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء برقم ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٤) أي: رغوته .

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح ١٠٧/٨، ومسلم في الذكر برقم ٢٦٩١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم ٦٠ برقم ٣٤٦٤، من حديث جابر رضي الله عنه، وابن حبان =

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، وحسب هذا الذكر فضلا أنه أحب الأذكار إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فالمشتغل به يرشح نفسه لمحبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم .

تهليل النبي صلى الله عليه وسلم :

أما التهليل والتكبير فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم شيء كثير عملا وندبا، ومن ذلك :

١ ـ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "لا إلٰه إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده"(١) .

٢ ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قَفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبّر ثلاث مرات ثم يقول: "لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"(٢) .

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس"(٣) .

٤ ـ وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر"(٤) .

= في صحيحه رقم ٢٣٣٥ موارد، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، والحاكم في المستدرك ٥٠١/١، وقال: على شرط مسلم .

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق ١٤٢/٥، ومسلم في الذكر ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم ٢٧٢٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين .

(٣) أخرجه مسلم وتقدم قريبا ٣٧٩

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٦/٤، قال المنذري في الترغيب ٤٢٤/٢: ورواته محتج بهم في الصحيح، من حديث رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ - وقال عليه الصلاة والسلام: "أفضلُ الدعاء الحمد لله، وأفضل الذكر لا إلٰه إلا الله"(١) .

إلى غير ذلك مما تقدم بعضه في التسبيح وغيره .

فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم من عبادة الذكر، الذي به تطمئن القلوب، وتزكو النفوس، والذي جعله الله تعالى أكبر من كل شيء سواه، لما له من جزيل الأجر، وعظيم الأثر في تمحض العبودية ودوام التعلق بالألوهية العلية، والتي كان من أجلها ذكر الله تعالى للذاكرين، ذكرا يوصلهم إلى أوج السعادة، ومنتهى الغاية .

ومن كل ما تقدم علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سيدَ الذاكرين لله تعالى والذاكرات، كيف لا وهو المبين للأذكار التي يذكر الله تعالى بها، فلا يذكر الله تعالى إلا بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأن الأذكار من أجلّ العبادات وأعظمها شأنا عند الله تعالى، فلا تؤخذ إلا عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه هو المبلغ عن الله والموضح لشرع الله عز وجل .

وحيث كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، فلا بدع أن تكون أذكاره على ذلك النحو كمالا وتضرعا وإخباتا وكثرة ...

، كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة السابقة في سلوكه بنفسه،وهديه لأمته بقوله، والتي هي بمثابة النماذج لما سواها مما لم أذكره من الدلائل الكثيرة على ذلك .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في دعوة المسلم مستجابة برقم ٣٣٨٣، وابن ماجه في الأدب، باب فضل الحامدين برقم ٣٨٠٠، وابن حبان في صحيحه ١٤/٢ الإحسان، والحاكم في المستدرك ٥٠٣/١، والطبراني في الدعاء برقم ١٤٨٣، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وحسنه الحافظ في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار ص ٥٨ .

البَابُ الثَّالثُ

الأخلاقُ القرآنيَّة السُّلوكيَّة
والتَّطبيقاتُ النَّبويَّة لها

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الأخلاق السُّلوكيَّة الذَّاتيَّة .

الفصل الثاني : الأخلاق السُّلوكيَّة المتعدِّية .

تمهيـــــد :

إن السلوك(١) الذاتي والاجتماعي يعد محور القيم الأخلاقية لدى علماء الأخلاق والسلوك، لما لـه من الأثر البيّن في سلوك الإنسان في حياته كلها، فإن المرء لا يعرف مدى تخلّقه بالأخلاق الحسنة أو ضدها إلا إذا نُظِر إلى صدقه وصبره، وتواضعه، وحيائه، وزهده، وإلى أمانته، ووفائه، وحلمه، وعفوه، ورحمته، وكرمه ... إلى آخر المكوِّنات الأخلاقية الذاتية، فإن كان ذا خلق رفيع تجلَّت فيه هذه الخِلال بأبهى صورها، فيعد عندئذ من أهل مكارم الأخلاق .

وإن لم تبرز فيه هذه الخلال، أو ظهر بضدها عُدَّ من سيئي الأخلاق وأراذل البشر، أو شواذهم، أو رعاعهم .

لذلك نجد أن علماء السلوك لا يكادون يُغفلون مثل هذه الأخلاق جملة وتفصيلا عند حديثهم عن مكارم الأخلاق؛ لأنها عندهم كناصية الفرس لسائر الخلال الأخلاقية الأخرى، بل إن كثيرا منها إنما هي وسائل لتخدم هذه الأخلاق السلوكية .

والأخلاق الإسلامية المستقاة من معين الكتاب والسنة تؤكد هذه الحقيقة، بل هي تعتبر الأخلاق السلوكية جوهر مكارم الأخلاق التي تدعو إليها .

فإن الأخلاق الإيمانية والاعتقادية قائمة بين المرء وربه، لا يكاد يطَّلع عليها أحد.

والأخلاق التعبدية هي في الحقيقة وسائل تثمر في تنمية هذه الأخلاق السلوكية حينما يُؤتى بها على وجهها، ويحافظ عليها .

والأخلاق الاجتماعية قائمة على هذه الأخلاق السلوكية، فحينما يتحلَّى المرء بها، أورث مجتمعه الفضيلة، وحينما يتجرد عنها، أورث مجتمعه رذائل كثيرة، وإذا صار المجتمع كله متجردا عنها كان مجتمعا لا وزن له في المعايير الأخلاقية، والحضارة الإسلامية العريقة.

---

(١) السلوك : هوسيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، ويقال : فلان حسن السلوك، أو سيء السلوك .ا.هـ . المعجم الوسيط ١/٤٤٥ .

فبهذا علمت أن الأخلاق السلوكية هي روح الأخلاق كلها ومعيار القيم الأخلاقية، ولهذا أولى القرآن الكريم والسنة المطهرة هذه الأخلاق السلوكية عنايتهما الفائقة من حيث الحث عليها، أمرا وترغيبا وتنويها، وتحذيرا من ضدها؛ نهيا وتنفيرا وذما ...

ولما كانت هذه الأخلاق منها ما هو ذاتي بمعنى أنها تكون في سلوك المرء في نفسه غريزة تظهر من ملامحه وتصرفاته، سواء كان هناك تعامل في المجتمع للمرء بحيث تظهر آثارها، أو لم يكن هناك تعامل، فإنها تعلم من مخايل المرء وسمته، وهي ما أسميناها بـ"الأخلاق الذاتية" .

ومنها ما هو اجتماعي فلا يظهر أثرها إلا في التعامل والاختلاط، فعندئذ تنعكس تلك الأخلاق السلوكية على من يعامله المرء ذو الخلق الكريم، فيكون أمينا له، وفيًّا في عهوده ووعوده، حليما عن زلته عافيا عنها وصافحا .. إلى غير ذلك من الأخلاق الكريمة التي تنشأ من التعامل بين الناس، وهي ما أسميناها بـ"الأخلاق الاجتماعية" .

لذلك قسمنا هذه الأخلاق إلى فصلين كما ترى، نظراً لهذه المعاني الدقيقة في هذه الأخلاق السلوكية، وهذا أوان تبيينهما :

فأقول وبا لله التوفيق :

الفَصْلُ الأَوَّلُ

في الأخــلاق السُّـلوكيَّة الـذَّاتيَّـة

وفيه خمسة مباحث :

١ ـ الصدق .

٢ ـ الصبر .

٣ ـ التواضع .

٤ ـ الحياء .

٥ ـ الزهد .

المَبْحثُ الأَوَّلُ

(خلق الصدق)

الصدق في اللغة:

قال ابن فارس: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة الشيء قولا وغيره، ومنه قولهم رمح صدق أي: صلب، ومن ذلك الصدق الذي هو خلاف الكذب، سموه بذلك لما في الصدق من قوة وصلابة في نفسه، بخلاف الكذب فإنه لا قوة له"(١) .

أما في الاصطلاح: فهو الإخبار عن الشيء على ما هو به في الواقع(٢) .

منزلة هذا الخلق بين الأخلاق السلوكية :

والصدق خلق عظيم يتوقف عليه صحة كثير من الأخلاق القولية والعملية بل الإيمانية، إذ يفتقر صحتها إلى الصدق كالخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة ونحوها، فهو شامل إذا لصدق اللسان، وصدق النية والإرادة، وصدق العزم والوفاء به، وصدق الأعمال، وصدق مقامات الدين(٣) ، ولذا كان محل عناية القرآن الكريم، فلقد استفاض الحديث عنه فيه، من حيث الأمر به، والنهي عن ضده، وبيان عظيم منزلة أهله عند الله تعالى، والتنويه بهم ، وبيان ما أعد لهم من الأجر والكرامة، وتبيينه لمواطن الصدق، وتفنيده لمزاعم مدعيه بغير حق، وغير ذلك كثير مما نوجزه فيما يلي :

الأمر بالصدق :

أما الأمر به ففي مثل قوله جل وعلا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[سورة التوبة:١١٩]، والمعنى: كونوا مثلهم في صدقهم، وهذا أمر إلزام يوجب على المسلمين التحلي بهذا الخلق العظيم أيا كان حاله، حتى استدل به على عدم جواز الكذب في موضع من المواضع لا تصريحا ولا تعريضا(٤)، وذلك لما فيه من مبالغة في

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣٣٩/٣، مادة (صدق)، والقاموس المحيط ٢٥٢/٣ .

(٢) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٦ .

(٣) انظر الإحياء ٣٣١/٤-٣٣٥ حيث جعل الصدق داخلا في هذه المراتب الست .

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي ٤٥/١١/٤ . والصواب جواز ذلك في مواضع، كإصلاح ذات البين، وفي الحرب، وحديث الزوج مع زوجته لإرضائها ما لم يكن ذلك في إضاعة واجب لها .

الدلالة على الالتزام بالصدق حيث عدل عن قوله: "اصدقوا" إلى قوله: ﴿ كونوا مع الصادقين ﴾ للدلالة على أن المجتمع المسلم شأنه أنه مجتمع صدق دائم، وأن على كل مسلم أن يتخلق بخلق هذا المجتمع الصالح، فالأمر بالكون معهم أبلغ في التزام الصدق من الأمر المباشر "اصدقوا" مثلا، والله أعلم .

النهي عن الكذب وذمه :

كما فهم الأمر بالصدق أيضا من النهي الأكيد عن نقيضه وهو الكذب، وذمه ذما بالغا في آيات عدة، وهذه طريقة قرآنية عجيبة في تقرير المعاني والأحكام والأخلاق، وتثبيتها في نفوس المؤمنين، حيث ينوع الأساليب في ذلك حتى تفهم حق الفهم، وتستأصل كل عذر، فتقوم الحجة على الناس بشتى الأساليب .

أما النهي عنه ففي آيات منها قوله تعالى: ﴿ ولا تقولوا لِما تصِفُ ألسِنَتِكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتفتروا على اللهِ الكَذبَ إنَّ الذين يَفترون على الله الكذبَ لا يُفلِحون ﴾ [سورة النحل: ١١٦]، والآية وإن تحدثت عن الكذب عن الله تعالى والحلال والحرام، فإن النهي وارد عن الكذب من حيث هو، والكذب عن الله هو أحد أنواعه، وإن كان أشد أنواع الكذب لعظيم مفسدته .

ومنها قوله تعالى: ﴿ ولا تقفُ ما ليسَ لك به علمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئِك كان عنه مسئولاً ﴾[سورة الإسراء:٣٦]، وهذا نهي صريح عن الكذب؛ لأن تتبع المرء ما لا علم له به، والحديث به هو عين الكذب .

وأما ذم المتحلين به ففي آيات عدة منها قوله تعالى: ﴿ إنَّما يفتري الكذبَ الَّذين لا يُؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولئك هم الكاذبون ﴾[سورة النحل:١٠٥] .

والآية وإن كانت في صدد الحديث عن الذين يكذّبون بآيات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، إلا أن دلالتها على ذم الكذب من حيث هو،واضح لاشتراك الاسم في الكل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إنَّ الله لا يهدِي مَن هو مُسرِفٌ كذَّاب ﴾[سورة غافر:٢٨]، ومعنى لا يهديه: لا يصلح عمله ولا يسدد خطاه، وقد سمَّى الله تعالى الكذب إثما مبينا، وذلك

في قوله: ﴿ انظر كيف يَفترونَ على ا للهِ الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً ﴾[سورة النساء:٥٠] .
إلى غير ذلك من الآيات التي تحمل وعيدا شديدا للكاذبين .

وهذه الآيات بمفهومها تحث على الصدق وترغب فيه؛ لأنه إذا كان مصير الكاذبين هو ذلك، فإن النجاء في لزوم الصدق الذي هو نقيض الكذب، والذي أعد ا لله تعالى لأهله أجرا عظيما .

عِظَمُ منزلة أهل الصدق عند ا لله تعالى :

أما منزلة أهل الصدق عند ا لله تعالى: فهي عظيمة،قد رفع شأنها وأعلا مكانتها، ولا غرو فإن الصدق من صفات ا لله تبارك وتعالى كما قال تعالى: ﴿ قل صدقَ ا للهُ فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾[سورة آل عمران:٩٥]، وقال جل وعلا: ﴿ ومن أصدقُ من ا لله حديثاً ﴾[سورة النساء:٨٧]، ﴿ ومن أصدقُ من ا لله قيلاً ﴾[سورة النساء:١٢٢] إلى غير ذلك .

وقد اشتق للمحافظ على هذا الخلق هذا الوصف الذي هو من أوصافه سبحانه وتعالى، وذلك للدلالة على علو منزلة الصادقين وعظيم شأنهم لدى رب العالمين .

ولذلك كان الصدق من أبرز صفات الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم ا لله تعالى في معرض الثناء والمدح كقوله سبحانه: ﴿ واذكر في الكتابِ إبراهيمَ إنَّه كان صدِّيقاً نبياً ﴾ [سورة مريم:٤١]، وقوله تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدِّيقاً نبياً ﴾ [سورةمريم:٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿ يوسف أيُّها الصِّديقُ ﴾[سورة يوسف:٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿ واذكر في الكتابِ إسماعيلَ إنَّه كان صادقَ الوعدِ وكان رسولاً نبياً ﴾[سورة مريم:٥٤]، وقوله عز شأنه ﴿ وصدقَ ا للهُ ورسولُه ﴾[سورة الأحزاب:٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿ هذا ما وعد الرَّحمن وصدقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

فكفى بالصدق شرفا وفضلا أن يكون وصفا لله تعالى ولأنبيائه الكرام ثم يوصف به بعد ذلك أهله من المؤمنين .

التنويه بأهل هذا الخلق في القرآن الكريم :

وقد نوه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق، فذكر عددا منهم بهذا الوصف على سبيل المدح والثناء والإشادة فذكر منهم:

١ ـ المؤمنون با لله واليوم الآخر، المؤدون لشعائر الإسلام الذين دل عليهم قوله تعالى: ﴿ ولكنَّ البِرَّ من آمن بـا للهِ واليومِ الآخر ...﴾ الآية الآنفة الذكر إلى قوله سبحانه: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ .

وقد انتظم في سلك هذه الآية عدد كثير ممن آمن با لله وصدق المرسلين .

وكما قال تقدست أسماؤه: ﴿ إنما المؤمنون الذّين آمنوا بـا للهِ ورسولِه ثـمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ ا لله أولئك هم الصَّادقون ﴾[سورة الحجرات:١٥].

٢ ـ ومن هؤلاء:المهاجرون إلى ا لله الذين اضطُهِدوا في دينهم وأموالهم الذين قال ا لله تعالى عنهم: ﴿ للفقراءِ المهاجرين الّذين أُخرجوا من دِيارهم وأموالِهم يَبتَغون فضلاً من ا لله ورضواناً وينصُرونَ ا للهَ ورسولَه أولئِك هم الصَّادقون ﴾[سورة الحشر:٨] .

فإن هؤلاء جميعا نالوا شرف هذا الوصف واستحقوا أجره ومثوبته، بل إنَّ بعضهم نال الذروة العليا منه، التي جعلها ا لله تعالى علَما على كِرام خلقه وهم: (الصِّديقون) أي المبالغون في التصديق كأنبياء ا لله تعالى الذين وصفهم ا لله بذلك كإبراهيم وإدريس ويوسف عليهم السلام وقد تقدم ذكرهم .

٣ ـ بل ناله غيرهم من غير الإنبياء كمريم عليها السلام التي قال ا لله تعالى عنها: ﴿ وأُمُّه صدِّيقة ﴾[سورة المائدة:٧٥]،وكبعض المؤمنين الذين قال ا لله تعالى عنهم: ﴿ والَّذين آمنوا با للهِ ورسلِه أُلئِك هم الصِّديقون ﴾[سورة الحديد:١٩] .

٤ ـ ومنهم على التحديد سيدنا أبو بكر الصديق رضي ا لله تعالى عنه لِما ثبت تسميته به في الحديث(١) مما جعل بعض المفسرين يحمل قوله تعالى: ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدق

---

(١) أخرج البخاري في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي ا لله عنه من حديث أنس رضي ا لله عنه ١١/٥ أن النبي صلى ا لله عليه وسلم صعد أحدا وأبوبكر وعمر وعثمان رضي ا لله تعالى عنهم فرجف بهم، فضربه النبي صلى ا لله عليه وسلم برجله وقال: "أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان" وكان علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه يحلف أن ا لله أنزل اسم أبي بكر الصديق من السماء، رواه الطبراني ورجاله ثقات كما قال في مجمع الزوائد ٤٤/٩، ونقله ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢٣٦/١ .

وصدّق به أولئك هم المتّقون ﴾[سورة الزمر:٣٣] على أبـي بكـر رضـي ا لله عنـه، حيـث رأوا من أن فاعل "صدق" هو أبو بكر الصديق رضي ا لله عنه(١) .

وهذا تفسير متّجه، وإن كان الأولى حملها على العموم، ويدخل فيهـا سيدنا أبـو بكـر رضي ا لله عنه دخولا أوليا، لأنه أول من صدق بالنبي صلى ا لله عليه وسلم مـن الرجـال، وكما قـال عليـه الصـلاة والسـلام: "كـان النـاس يقولـون لي كذبـتَ ويقـول أبـو بكـر: صدقت"(٢) فهو أول صدّيقي هذه الأمة بغير جدال .

ما أعده ا لله تعالى لأهل هذا الخلق من الأجر :

وقد أعد ا لله تعالى لمن كان من أهل هذا الخلق الكريم جزيل أجره ومثوبتـه كمـا قـال جـل ذكـره : ﴿ إنَّ المسـلمينَ والمسـلماتِ والمؤمنـينَ والمؤمنـاتِ والقـانتينَ والقانتـاتِ والصَّـادقينَ والصادقـاتِ والصَّـابرينَ والصَّـابراتِ والخاشـعينَ والخاشـعاتِ والمتَصدِّقـينَ والمتُصدّقاتِ والصَّائمينَ والصَّائماتِ والحافظينَ فروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرين ا للهَ كثيراً والذَّاكراتِ أعدَّ ا لله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

وكما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ ومن يُطعِ ا للهَ والرَّسـولَ فـأولئك مـع الَّذيـن أنعـمَ ا لله عليهم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحينَ وحَسُن أولئِك رفيقاً ﴾[سورة النساء:٦٩].

حيث قرن الصديقين بالنبيين وأردفهما بالشهداء والصالحين، ومراتب هـؤلاء معلومـة، ثم إنهم جميعا شملهم إنعام ا لله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة بسـائر الإنعامـات الظـاهرة والباطنة والحسية والمعنوية كما يقتضيه تعميم الإنعام المستفاد من عـدم تقييـده بنـوع مـا، لتذهب النفس في تفسيره أي مذهب .

بيان القرآن الكريم لمواطن الصدق :

أما مواطن الصدق، فكما أسلفت بأنه يشمل مقامات الإيمان، ويشمل الأقوال والأعمـال الصادرة من الإنسان .

---

(١) كما أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٤/٣، عن علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه .

(٢) سيأتي تخريجه ص ٤٠٧

كما قرر ذلك الراغب الأصفهاني حيث قال عن الصدق والكذب: (أصلهما في القول، ثم قال: وكلاهما يستعمل في الاعتقاد أيضا، كقولهم : صدق ظنه واعتقاده وكذبا، ويستعملان أيضا في أعمال الجوارح نحو: صدقوهم القتال وكذبوهم)(١) .

أما مقامات الإيمان وشعبه من إخلاص واستقامة ومحبة ورجاء ونحوها، فإنها كلها تفتقر إلى الصدق في دعواها، فلا يصح شيء منها إذا لم يكن المرء صادقا في هذه الأخلاق الإيمانية، فالإخلاص والصدق روح ذلك كله .

والقرآن الكريم دل على ذلك في آيات كثيرة من أجمعها قوله جل وعلا: ﴿ ليس البِرَّ أن تولُّوا وجوهَكم قِبَل المشرقِ والمغرِب ولكنَّ البِرَّ من آمنَ با لله واليومِ الآخِر والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذَوي القُربَى واليتَامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرِّقابِ، وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ والمُوفونَ بعهدِهم إذا عاهدُوا والصَّابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ أولئِك الَّذين صدقُوا وأولئِك هم المتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

قال ابن القيم: "فهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة،وأنه هو مقام الإسلام والإيمان"(٢) يعني: حيث سمَّى ا لله تعالى القائمين بأمور الإيمان والإسلام وبعض شعب الأخلاق:صادقين، وهذه الأمور قولية وعملية وعقدية، وقد شملها جميعا وصف الصدق .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ليَجزي ا للهُ الصَّادقين بصدقِهم ويعذِّبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عليهم ﴾[سورة الأحزاب:٢٤]، حيث قسَّم ا لله تعالى الناس إلى قسمين: صادق ومنافق، والصادقون: هم المؤمنون؛ لأن الصدق أساسه الإيمان، وضدهم : المنافقون؛ لأن الكذب أساسه النفاق .

فوصف ا لله تعالى المؤمنين بالصدق؛ لأنهم حققوا أركان الإيمان والإسلام تحقيقا

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٧٠ بتصرف .

(٢) مدارج السالكين ٢٦٩/٢ .

كاملا، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه من قبل، ولا أدل على ذلك من صدقهم مع الله تعالى في الجهاد في غزوة الأحزاب التي نزلت السورة التي فيها هذه الآية فيها، مع ما أصابهم من البلاء فيها، فلم يتزعزعوا عن إيمانهم، والعزم على ملاقاة عدوهم، ولا عن اليقين والتوكل على ربهم .

فكانوا جديرين بالتنويه بهم في مثل هذه الآية، وبذلك الجزاء العظيم الذي وعدهم الله تعالى به، وأبهم حقيقته لتذهب النفس في تصوره أي مذهب .

الصدق في الأعمال :

وهذه الآية كما تدل على الصدق في الإيمان، فإنها تدل أيضا على الصدق في الأعمال، فإنها تتحدث عن الجهاد الذي هو أفضل الأعمال، كما علمت .

ونحو هذه الآية في المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ من المؤمنينَ رجالٌ صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم من قَضى نحبَه ومنهم مَن يَنتظِر وما بدَّلوا تبدِيلا ﴾[سورة الأحزاب:٢٣] حيث دلت هذه الآية الكريمة على صدق أنس بن النضر(١) رضي الله عنه في الجهاد، وفاء بما كان قد عاهد الله عليه، كما جاء في حديث البخاري وغيره(٢) .

ونحوها أيضا قوله سبحانه: ﴿ فإذا عزمَ الأمرُ فلو صدقُوا اللهَ لكان خيراً لهم ﴾[سورة محمد:٢١] حيث خصت مدعي الإيمان والراغبين في الجهاد أن يصدقوا في مواطن البأس والقتال، والجهادُ من أجلِّ أعمال الجوارح وعزم القلوب والنيات .

الصدق في القول :

أما الصدق في القول فهو أصل هذا الخلق كله كما علمت من تعريفه، ومن كلمة

---

(١) ابن ضمضم الخزرجي الأنصاري عم أنس بن مالك رضي الله عنهما، غاب عن قتال بدر فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، ووفى بذلك يوم أحد بعد أن انكشف الناس فقتل فوجد فيه بضع وثمانون بين ضربة بسيف أو طعنة برمح. انظر تهذيب الأسماء ١٢٨/١، والإصابة ٧٤/١، والاستيعاب ٧٠/١ .

(٢) انظره فيه ١٤٦/٦، وانظر تفسير ابن كثير ٤٧٥/٣، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٦٥ .

الراغب الآنفة، لذلك فكل الآيات المتحدثة عنه فهي تتحدث عن الصدق في القول حديثا أوليا، لذلك فلا داعي للتنصيص على أدلته هنا مع ما مضى وما سيأتي بيانه .

امتحان مدَّعِي الصدقَ كذبا :

ولما كان الصدق خلقا كريما محببا إلى النفوس، وتدعو إليه الفطرة كان محلا لأن تتجاذبه الدعاوى فيدعيه الصادق والكاذب كما قالوا :

وكلٌّ يدَّعي وصلاً لليلى ... وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا

فكان لا بد من تمييز الصادقين عن الكاذبين حتى لا يتطاول على هذا الخلق من ليس من أهله، وذلك بامتحان المدعين له لينجلي أمرهم في المجتمع فلا يُغتَرّ بدعواهم فيه، ولكيلا ينالوا المكانة التي ينالها أهل الصدق .

وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب مع كثير من مدعي الصدق حيث تحداهم أن يبرهنوا على مزاعمهم بما يطلبه منهم مما يستطيع فعله الصادقون حقا، وذلك كقوله تعالى لليهود حينما زعموا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، فقال لهم الله تعالى: ﴿ فتمنَّوا الموتَ إن كنتُم صادِقين ﴾[سورة البقرة:٩٤] فكان عليهم أن يفعلوا ذلك لو كانوا صادقين، لكنهم بهتوا وسُقِط في أيديهم؛ لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون، ولو كانوا صادقين في دعواهم العريضة تلك لما ترددوا في تمني الموت لأنه حينئذ لا يحول بينهم وبين نعيم الدار الآخرة إلا الموت، والنفس إذا علمت أنها آيلة إلى النعيم لا تتردد في السير الحثيث إليه، وقد ورد بأسانيد صحيحة(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم لو تمنوه لما بقي منهم أحد .

وقد أخبر الله جل ذكره عن حالهم ذاك فقال عقب الآية السابقة: ﴿ ولن يَتمنَّوهُ أبداً بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين ...﴾[سورة البقرة:٩٥] .

وكم في القرآن الكريم من ابتلاءات لمدعي الصدق تدحض مزاعمهم، وتبطل أمانيهم، وهم غالبا من اليهود والنصارى والمنافقين الذين هم أكذب الناس كما هو معلوم، وذلك

---

(١) كما قال ذلك ابن كثير في تفسيره ١/١٢٧ .

كقوله تعالى لليهود والنصارى حينما قالوا: ﴿ لن يدخلَ الجنَّة إلا من كان هُوداً أو نصارى ﴾ فرد عليهم الله تعالى بقوله: ﴿ تلك أمانيُّهم ﴾ ثم طلب منهم برهانا على دعواهم تلك فقال: ﴿ قل هاتوا برهانَكم إن كنتُم صادقين ﴾[سورة البقرة:١١١] .

وحينما زعم اليهود أن لحوم الإبل كانت محرمة على عهد إبراهيم وبنيه عليهم السلام قال لهم الله تعالى: ﴿... قل فأتُوا بالتَّوراة فاتلُوها إن كنتُم صادقين ﴾[سورة آل عمران:٩٣].

وحينما قال المنافقون: إن سبب موت إخوانهم في غزوة أحد هو خروجهم مع النبي صلى الله عليه وسلم للقتال وقالوا: ﴿ لو أطاعونا ما قُتِلُوا ﴾ قال لهم الله تعالى: ﴿ قل فادرأوا عن أنفسِكم الموتَ إن كنتُم صادقين ﴾[سورة آل عمران:١٦٨] .

وحينما زعم كفار مكة زعمهم المعروف في تكذيب القرآن وادعاءهم أنه مفترى قال لهم الله تعالى: ﴿... فأْتُوا بسورةٍ مثله وادعُوا من استَطعتُم من دون اللهِ إنْ كنتُم صادقين ﴾[سورة يونس:٣٨] .

إلى غير ذلك من الآيات المتحدية لزاعمي هذا الخلق العظيم، ليثبتوا صدق دعواهم بما اختبرهم الله عز وجل به، وسرعان ما ينكشف الزيف، وينقشع البهرج، فيُقصون عن ادعاء هذا الخلق العظيم، وتبقى مكانته مصونة لأهله يتفيأون ظلاله في الدنيا بالمكانة العليا في المجتمعات، وفي الآخرة بالثواب العظيم .

تمثل خلق الصدق في النبي صلى ا لله عليه وسلم

وإذا كان الصدق خلقا تدعو إليه الفطرة وتحبذه، ولو لم يكن هناك شرع يدعو إليه ويرغب فيه، فإن كل ذي فطرة سليمة يحافظ عليه ويلتزم به في كل شئونه .

وقد اشتهر بعض أشراف العرب بذلك قبل الإسلام لأغراض دنيوية واعتبارات اجتماعية، حيث كان إذا عُلم عن أحدهم كذبة سقط من اعتبارهم، وانتزعت الثقة منه، فكان ذلك زاجرا لهم عن اقتراف الكذب،وباعثا لهم على تحري الصدق ولو في ظاهر الأمر، كما دل على ذلك موقف أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه مع هرقل ملك الروم حينما سأله هرقل عن النبي صلى ا لله عليه وسلم فقال: "فوا لله لولا الحياء من أن يأثروا علي الكذب لكذبت عنه"(١). وذلك يعني أن الصدق لم يكن خلقا متمكنا فيه حيث كانت نفسه تخالجه إلى مجانبته لولا مكانته الاجتماعية .

أما النبي صلى ا لله عليه وسلم وهو من أوسط العرب نسبا، فقد تمثل فيه هذا الخلق بأبهى صوره منذ بزوغ نجمه ونعومة أظفاره، فما كان يعرف في أوساط قومه إلا بالصادق الأمين، ولمّا يوح إليه بعد .

وما كان صدقه لأغراض شخصية أو اجتماعية، إنما كان صدقا فطريا خلقه ا لله تعالى فيه، ليؤهله لما يقصده منه، من حمل الرسالة الخاتمة المفضلة العامة للبشرية .

وقد شهد له بهذا الخلق العظيم: ا لله خير الشاهدين، كما شهد له بذلك أعداؤه، وشهد له به المؤمنون في مواقف متعددة ومقامات مختلفة .

---

(١) والقصة بطولها رواها البخاري في أول صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي ٧/١، قال الحافظ في الفتح ٧٢/١، وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق أو بالعرف، قال: وفي قوله يأثروا دون قوله: يكذبوا، دليل على أنه كان واثقا منهم بعدم التكذيب أن لو كذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي صلى ا لله عليه وسلم،لكنه ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذابا .

شهادة ا لله تعالى لنبيه صلى ا لله عليه وسلم بخلق الصدق :

أما شهادة ا لله تعالى لسيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم بهذا الخلق العظيم بخصوصه، زيادة على شهادته سبحانه له بعظمة الأخلاق عامة، فهي شهادات حسية ومعنوية .

أما الشهادات الحسية ففي آيات من كتابه المبين منها قوله سبحانه: ﴿ وصدق ا للهُ ورسولُه ﴾[سورة الأحزاب:٢٢]، وقوله: ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدق وصدَّق به أُولئك هم المتقون ﴾[سورة الزمر:٣٣] والذي جاء بالصدق كما يدل عليه سياق هذه الآية هو نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم، وقد شهد لما جاء به من عنده سبحانه أنه صدق، ويلزم من صدق ما أتى به، صدقه هو في نفسه، إذ لا يأتي بالصدق إلا كامل الصدق .

وقوله تعالى في حقه وفي حق إخوانه المرسلين عامة: ﴿ هذا ما وعدَ الرَّحمٰن وصدَقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة سيأتي بيانها في الأخلاق الواجبة للنبوة(١) .

أما الشهادة المعنوية فهي تأييده سبحانه وتعالى له بالمعجزات الكثيرة كالقرآن الكريم، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع، وتكثير الطعام، والإخبار بمغيبات كثيرة... وتأييده له بالنصر على الأعداء على قلة جنده وضعف عدته في معركة إثر معركة، ولقاء بعد لقاء، وكل ذلك منزل منزلة قول مرسله تبارك وتعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني. إذ أن تأييده بذلك كله وهو يدعي أنه مرسل من عند ربه، وهو على مسمع من ربه سبحانه ومرأى، وهو جل شأنه لا يزال يؤيده بكل ذلك؛دليل على كمال صدقه، إذ لو كان بخلاف ذلك لما أيده، ولفضح أمره للملأ، كما هي سنته في الكاذبين عنه سبحانه .

فهذه هي شهادة ا لله تعالى لنبيه محمد صلى ا لله عليه بهذا الخلق بخصوصه، كما شهد له به ضمن شهادته بعظمة أخلاقه عامة، والصدق في مقدمة تلك الأخلاق .

---

(١) من الباب الخامس ص٩٨٩.

شهادة أعدائه صلى ا لله عليه وسلم له بالصدق :

أما شهادة الأعداء للمرء بما فيه من أخلاق عظيمة أو نحو ذلك مما لا يوافق أهواءهم مع عِدائهم له، فهي من أعدل الشهادات؛ لأن الطباع في الغالب مجبولة على غمز من يعاديها، وطمس محاسنه أو التقليل من شأنها، ويحاول الأعداء فعل ذلك بالحق والباطل بقدر ما لديهم من قوة، كما قال الشاعر :

إن يسمعوا سبة طاروا بها فرحا مِنِّي وما علموا من صالح دفنوا

فإذا لم يقدروا على دفن تلك المكارم، كان ذلك من أعدل الشهادات وأزكاها كما قالوا:

... وا لفضل ما شهدت به الأعداء .

وأعداء النبي صلى ا لله عليه وسلم كانوا بهذه المثابة، حيث لم يقدروا على غمطه في أخلاقه العظيمة، بل اضطروا إلى بيانها والشهادة بها في مواقف عديدة، ولو أنهم قدروا على غمزه ولمزه بشيء ولو قليل في أخلاقه لكفاهم ذلك في صد الناس عن دعوته ويسر لهم الجهد الذي بذلوه في ذلك :

١ - فأبو سفيان لما سأله هرقل عن صدقه وقال له: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان: لا، هكذا يشهد له بهذه الحقيقة التي لا تُغالَب، فعندئذ قال له هرقل: "وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على ا لله"(١) .

والمعنى: أنه لو كان متهما بالكذب، لظهر ذلك من كذبه على الناس، إذ لا يمكن أن يكذب على ا لله ولا يكذب على الناس، لأن الكذب على الناس أهون من الكذب على ا لله تعالى، فكيف يترك الأهون ويعمد إلى الأشد ؟ فاستدل على صحة نبوته بهذا الخلق العظيم، وهكذا كانت أخلاقه منبئة عن نبوته وهي علم من أعلامها، وذلك عندما تجد عقولا نيرة خالية عن الكبر والعناد، أما إذا كابرت وعاندت، فإنه لا ينفع مع ذلك برهان، كما

---

(١) تقدم تخريجه قريبا ص ٣٩٨

كان من أهل مكة حينما أقام عليهم النبي صلى ا لله عليه وسلم الحجة بما يعلمونه عنه من صدق وأمانة ... وكمال في الأخلاق، وأذعنوا لذلك وأقروا له بها، فدعاهم إلى الإيمان به وبما جاء به:عاندوا وتنكروا لتلك الحقيقة وقالوا: ﴿ اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾[سورة الأنفال:٣٢] .

٢ فعن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتَك الأقربين ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤] خرج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف:ياصباحاه، فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا !!، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" .

وفي رواية قال لهم: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا !!، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"(١) .

هكذا يعترف له قومه أجمعون بالصدق، وعدم عثورهم على ما يناقض هذا الخلق عنه، وهم وإن لم يكونوا قد ناصبوه العداء آنذاك، إلا أن هذه الشهادة وغيرها ظلت قائمة لا ينازعون فيها،و لم يسحبوها حينما جاهرهم بالدعوة فناصبوه العداء، وقد حرصوا بعد ذلك على صد الناس عن الإيمان كل الحرص، وبذلوا كل جهد، غير أنهم لم يقدروا أن ينالوا من صدقه وأمانته وعفافه ... كما علمت عما قريب من موقف أبي سفيان مع هرقل، وحتى قال أبو طالب في لاميته المشهورة التي قالها إبّان المقاطعة التي ضربوها عليه وعلى قومه بني هاشم، لعدم كفهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عن دعوته، أو تخليهم عنه، قال لهم مذكرا بحاله وأخلاقه:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب   لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة "الشعراء" ١٤٠/٦، وفي تفسير سورة "تبت" ٢٢١/٦، ومسلم في الإيمان، باب ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ برقم ٢٠٨، من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما .

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ١٦/٢ .

فهم يعلمون هذه الحقيقة حقا، ولكن تعاموا عنها، وأعماهم الباطل والكبر والعناد، كما قال ا لله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا ﴾[سورة النمل:١٤] وكما قال: ﴿ فإنّهم لا يُكذّبونك ولكن الظّالمين بآياتِ ا لله يجحدون ﴾ [سورة الأنعام:٣٣].

لذلك لما لجوّا في هذا العناد ذهبوا يبحثون عما يقولون ليثنوا به الناس عن الإيمان، واختاروا بعد التفكير والتقدير والنظر والتروي، أن يقولوا عن القرآن أنه "مفترًى" وأنه "إفك" وأنه "سحر يؤثر"، حينئذ صاروا أضحوكة للناس ولا سيما العقلاء منهم حيث سفهوا مقالاتهم هذه ،

٣ ـ فقد قال لهم النضر بن الحارث(١): "يا معشر قريش إنه وا لله قد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدَثا، أرضاكم عقلا، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه(٢) الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر؟ لا وا لله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن؟ لا وا لله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وحالهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر؟ لا وا لله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها:هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم:مجنون؟ لا وا لله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، ثم قال لهم: يا معشر قريش، انظروا في شأنكم فإنه وا لله لقد نزل بكم أمر عظيم"(٣) .

فهذا كلام النضر بن الحارث الذي كان شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي

---

(١) ابن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، كان أحد وجوه قريش وشجعانها، وهو ممن بالغ في أذية النبي صلى ا لله عليه وسلم بمكة، ولما كانت وقعة بدر كان حامل لواء قريش، وكان في مكة يعارض النبي صلى ا لله عليه وسلم في القرآن بأخبار ملوك فارس وفلاسفتها، ولما ظفر به النبي صلى ا لله عليه وسلم في بدر أمر بقتله صبرا. معجم البلدان لياقوت الحموي ١١٢/١، وسيرة ابن هشام ٥٤/٣ .

(٢) الصدغ: ما بين العين والأذن، ويسمى الشعر المتدلي في هذا الموضع صدغا. مختار الصحاح ص ٣٥٩، والمصباح المنير ٣٥٩/١ .

(٣) والقصة رواها ابن هشام في السيرة ٣٨/٢ مع الروض الأنف، والبيهقي في الدلائل ٢٠١/٢ .

رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم، وينصب له العداوة(١) .

وكذا قال غيره كلاما نحو ذلك من إثبات صدق النبي صلى ا الله عليه وسلم، وكماله الخِلقي والخُلقي، كالوليد بن المغيرة(٢)، وعتبة بن ربيعة(٣) وغيرهما .

وأنزل ا الله في ذلك قرآنا يتحداهم فيه بمعارضة القرآن الذي أرادوا من خلاله أن يخدشوا في كمال النبي صلى ا الله عليه وسلم الخُلقي حيث نسبوا إليه افتراءه، وذلك بأن يبرهنوا على صدق مزاعمهم الآثمة تلك،فقال ا الله جل ذكره: ﴿ وإن كُنتُم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا فأتُوا بسورةٍ من مثلِه وادعوا شهداءَكم من دونِ ا للهِ إن كنتُم صادقين ﴾ [سورة البقرة:٢٣]، فلما عجزوا عن ذلك تنزَّل التَّحدي معهم إلى أن يأتوا ﴿ بعشرِ سِورٍ من مثله مُفتَريات ﴾[سورة هود: ١٣]، ولما عجزوا عن ذلك تنزل معهم إلى أن يأتوا ﴿ بسورة مثله ﴾ كما في آية سورة يونس، ثم تنزَّل معهم إلى أقل درجات التحدي وهي الإتيان بسورة ﴿ من مثله ﴾ أي: مماثلة له في بعض نواحيه الإعجازية فقط، كما في آية سورة البقرة(٢٣) وأمرهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من أهل الفصاحة واللسن،فقال لهم: ﴿ وادعوا شهداءَكم مِن دُون ا الله إن كنتُم صادقين ﴾[سورة البقرة:٢٣]، وقال: ﴿وادعوا من اسْتطعتُم من دون ا الله إن كنتُم صادقين﴾[سورة يونس:٣٨] .

ولكن هيهات أن يستطيعوا أي شيء من ذلك؛ لأنه كما قال ا الله تعالى: ﴿ ما كان حديثاً يُفترَى ولكن تصديقَ الَّذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾[سورة يوسف:١١١]، وكما قال سبحانه: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفتَرَى من دونِ ا الله ولكن تَصديق الَّذي بين يَديه وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين ﴾ [سورة يونس:٣٧] .

وكذلك ختمت المرحلة الرابعة والأخيرة من التحدي بقوله تعالى: ﴿ فإنْ لَم تَفعلوا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٠٢ .

(٢) انظر الدلائل للبيهقي ٢/٢٠٠ .

(٣) انظر الدلائل للبيهقي ٢/٢٠٣ .

ولن تفعلوا ﴾[سورة البقرة:٢٣]، وهو حكم بالعجز الأبدي عليهم بعد التدرج في مراحل التحدي، وحيث تبين لهم أنه خارج عن طاقاتهم وقدراتهم، ودحضت مزاعم الأفّاكين منهم في التشكيك في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم،لم يبق معهم إلا سلاح العناد والمكابرة، وهو سلاح المكابر المغلوب بالحجة والبرهان،البعيد عن مكارم الأخلاق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ فإنّهم لا يُكذّبونكَ ولكنَّ الظّالمين بآياتِ الله يَجحدون ﴾[سورة الأنعام:٣٣] .

٤ ـ وقد روى ابن جرير رحمه الله تعالى عند تفسيره هذه الآية، من طريق أسباط عن السدي قال: لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زُهرة، إن محمدا ابن أختكم فأنتم أحق من كفَّ عنه، فإنه إن كان نبيا لم تقاتلونه ؟ وإن كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِب محمد صلى الله عليه وسلم رجعتم سالمين، وإن غلَب محمد فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئا، قال: فيومئذ سُمّي الأخنس، وكان اسمه أبي، قال: فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟، فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللّواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله: ﴿ فإنّهم لا يُكذّبونكَ ولكنَّ الظّالمين بآيات الله يَجحدون ﴾ قال: "فآيات الله: محمد صلى الله عليه وسلم"(١) .

٥ ـ وأخرج ابن جرير أيضا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى﴿فإنهم لا يكذبونك ...﴾(٢) .

---

(١) جامع البيان ١٨١/٧، وذكره ابن كثير في تفسيره ١٣٠/٢ معزوا إليه .

(٢) جامع البيان ١٨٢/٧، وعزاه الشوكاني إلى الترمذي برقم ٣٠٦٤، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه،والحاكم ٣١٥/٢،وصححه على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأنهما لم يخرجا لناجية راويه عن =

شهادة الصحابة رضي ا لله عنهم بصدقه صلى ا لله عليه وسلم :

أما شهادة الصحابة رضي ا لله تعالى عنهم على صدقه عليه الصلاة والسلام فهي شهادات عن خبرة ودراية، وإن إيمانهم به، وتصديقهم بكل ما جاء به، وطاعتهم له، وتفانيهم في الدفاع عنه، والتقرب إليه، وكمال المناصحة له .. كل ذلك في حد ذاته شهادات صادقة له صلى ا لله عليه وسلم بعظيم الصدق وكماله .

وما كان ذلك منهم إلا لما اطلعوا على أحواله، وخبروا أخلاقه وصفاته، فلما تبين لهم أنه صادق أمين، وضعوا أنفسهم وأموالهم وأرواحهم رهن إشارته، ابتغاء مرضاته ومرضاة ربه سبحانه، وكان تصديق النبي صلى ا لله عليه وسلم في كل ما يقوله هو العلامة الفارقة بين الإيمان، والكفر والنفاق، فلا يرتاب في ذلك إلا كافر أو منافق، وما ذلك عن شك في نفسه، ولكن لعناد وكبر وجحود .

كذلك كانت شهادة الحال من الصحابة الكرام رضي ا لله عنهم على عظمة خلق الصدق في النبي صلى ا لله عليه وسلم .

أما شهادة المقال منهم على ذلك فهي كثيرة :

١ - من ذلك قول خديجة رضي ا لله عنها في قصة بدء الوحي حيث قالت له صلى ا لله عليه وسلم وهي الخبيرة به: "كلاَّ أبشر، فوا لله لا يخزيك ا لله أبدا، فوا لله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسِب المعدومَ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق .."(١) .

فهذه شهادة من خبر أخلاقه وسبر أحواله صلى ا لله عليه وسلم، ولا ينبئك مثل خبير، ولذلك كانت مثل هذه الشهادات على صدقه صلى ا لله عليه وسلم من أقرب الناس إليه تعد من أبلغ الدلائل على صدق دعوته صلى ا لله عليه وسلم الرسالة، وكانت محل ثقة أعدائه .

= علي شيئا، وهو ثقة كما في التقريب برقم ٧٠٦٥، وأخرجه الضياء في المختارة، كما أفاده في فتح القدير ١١٣/٢ .

(١) متفق عليه وتقدم ذكره ص٦١ .

"فقد أجمعوا على أن من أنصع الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم كون أهله وأقرب الناس إليه هم أول من آمن به، فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا"(١) .

وقال الكاتب المستشرق الإنجليزي (هـ جي ويلز):

« إن من أرفع الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا به"(٢) .

وانظر كيف استدلت خديجة رضي الله عنها من مكارم أخلاقه التي كان متخلقا بها ولمّا يوحَ إليه بعد، على عصمة الله له من أن يمسه سوء، وهذا ما أفاده الإمام النووي رحمه الله حيث قال: "وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق، وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء"(٣) .

٢ ـ ومن أقوال الصحابة رضي الله عنهم عن صدقه صلى الله عليه وسلم ، ما كان يعبر عنه ابن مسعود رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الحال كقوله: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصَّادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ..."الحديث(٤) .

٣ ـ وكذا كان يقول أبو هريرة رضي الله عنه،كقوله: "سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الحجرة يقول: "لا تُنزع الرحمة إلا من شقي"(٥) .

---

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٣) شرح مسلم ٢/٢٠٢ .

(٤) رواه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى:﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ١٦١/٤، ومسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه برقم ٢٦٤٣ .

(٥) رواه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة برقم ٤٩٤٢، والترمذي في البر، باب ما جاء في رحمة الناس برقم ١٩٢٣، وقال: حديث حسن .

٤- وكذلك ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه من التصديق الكامل بكل ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم منذ أول دعوته، وحيث كان المشركون في مكة يكابرون في الاستجابة له، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى، وكان أبو بكر رضي الله عنه في نفر قليل من السابقين للإسلام يؤمنون بصدق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله عن ربه أو عن نفسه، كما كان منه في حديث الإسراء .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح يخبرهم بقصة الإسراء قالوا: "هذا والله الأمر المبُين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟! فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى ها هوذاك في المسجد يحدث به الناس، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه"(١) .

٥- فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظ هذه اليد للصديق رضي الله عنه حتى كان يقول:

"إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ مرتين .."(٢) .

٦ - ولقد كانت هيئته صلى الله عليه وسلم تدل على مبلغ مكانته من الصدق،ودليلا كافيا على صدق دعواه الرسالة،وأنه صادق مصدوق، يعرفه بذلك كل من صفت فكرته، وتجرد عن الأنانية، كما كان من الحَبَر عبد الله بن سلاّم(٣) رضي الله عنه، فإنه

(١) سيرة ابن هشام ١٤٢/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل ٦/٥، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) ابن الحارث الإسرائيلي، ثم الأنصاري الخزرجي بالولاء، كان أحد أحبار يهود، شهد شهادة الحق و لم =

ما إن رآه عند مقدمه المدينة حتى استيقن صدقه كما قال: "لما قدم النبي صلى ا لله عليه وسلم المدينة، كنت ممن انْجَفَلَ(١)، فلمَّا تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: "يا أيها الناس أُفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(٢) .

فلم يسعه بعد ذلك غير أن يعلن إسلامه، ويتبرأ من كيد يهود وعنادها، ففعل ذلك مقتنعا مختارا، ولقد صدق وا لله وأجاد عبد ا لله بن رواحة رضي ا لله عنه حيث قال :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبَيِّنة   كانت بديهته تنبيك بالخبر(٣)

فانظر إلى حكاية الصحابة رضوان ا لله عنهم عن صدقه صلى ا لله عليه وسلم حيث يسمونه بالصادق المصدوق، أي الصادق في نفسه، المصدوق فيما يجيء به عن ربه جل وعلا، ويرون صدقه تنبيء عنه جوارحه قبل أن تنبيء عنه أقواله .

و لم يكن ذلك مجرد تسمية أو قول، بل هي عقيدة وإيمان في قلوبهم وأنفسهم، فيصدقونه بكل ما يقوله صلى ا لله عليه وسلم ويؤمنون به، وذلك هو الواجب عليهم وعلينا وعلى سائر المؤمنين، إذا لايتحقق إيمان أحد إلا بالإيمان بكل ما يقوله النبي صلى ا لله عليه وسلم أو يفعله أو يقره، لقوله صلى ا لله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(٤) .

= يكابر أو يعاند، ونزل في فضله آيات من كتاب ا لله تعالى منها قوله تعالى: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾، وقوله: ﴿ قل كفى با لله شهيداً ومَن عنده علم الكتاب ﴾ وشهد له النبي صلى ا لله عليه وسلم بالجنة وهو حي، وتوفي رضي ا لله عنه سنة ٤٣ هـ. انظر طبقات ابن سعد ٣٥٢/٢، وتهذيب الأسماء ٢٧٠/١، والإصابة ٣٢٠/٢ .

(١) أي: اذهبوا مسرعين

(٢) حديث صحيح وتقدم في مبحث التهجد ص٣٣٦

(٣) ديوان عبد ا لله بن رواحة ص ٩٤

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة برقم ١٠٤، وفي الأنوار برقم ١٢٣٤، وعزاه ابن رجب في جامع العلوم =

وقد كان ذلك الإيمان منهم بكمال صدقه عليه الصلاة والسلام ناشئا عن خبرتهم بأحواله وأقواله،فوجدوها كلها صدقا وعدلا، لا تخرج عن ذلك في حال من الأحوال، حتى ما كان في باب الهزل .

صدقه عليه الصلاة والسلام في الجد والهزل :

١ ـ فقدكان صلى ا لله عليه وسلم لا يبرح عن الصدق حتى وإن كان ذلك فيما يرى الناس أنه لا حرج في عدم الصدق فيه وهو الهزل والمزاح، فإن الناس غالبا يتساهلون في ذلك، فيمزحون ولا يصدقون، أما النبي صلى ا لله عليه وسلم فكان على خلاف ذلك حيث "كان يمزح ولا يقول إلا حقا"(١) .

٢ ـ وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام لأخ صغير لأنس بن مالك رضي ا لله عنه يقال له أبو عمير: "يا أبا عمير ما فعل النُّغَير"(٢) اسم لطائر كان يلعب به فمات فحزن عليه .

٣ ـ وكقوله صلى ا لله عليه وسلم لرجل جاء يستحمله، أي يطلب منه بعيرا يحمله، فقال له النبي صلى ا لله عليه وسلم: "إني حاملك على ولد الناقة، فقال الرجل: يا رسول ا لله، ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال له رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: وهل تلد الإبل

= والحكم ص ٣٦٤ إلى كتاب الحجة على تاركي سلوك طريق المحجة لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، وقال ابن رجب: إسناده صحيح، وتكلم على الحديث كلاما شافيا فلينظر هناك، وهو من حديث عبد ا لله بن عمرو بن العاص .

(١) ثبت ذلك من حديث ابن عمر رضي ا لله عنه عند الطبراني في الصغير ٧/٢، قال الهيثمي في المجمع ٩٢/٨، وإسناده حسن، ومن حديث عائشة رضي ا لله عنها عند البغوي في الأنوار ٣١١، وأبي الشيخ في أخلاق النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ١٨٣، ومن حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه عند الترمذي في الشمائل برقم ٢٢٧، والبغوي في الأنوار رقم ٣١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب الانبساط إلى الناس ٣٧/٨، والترمذي في الشمائل برقم ٢٢٦، والبغوي في الأنوار برقم ٣١٤ من حديث أنس رضي ا لله عنه .

إلا النوق"(١) .

٤ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله عنه: "يا ذا الأُذنين"(٢).

٥ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم لامرأة عجوز جاءت تطلب منه أن يدعو الله أن يدخلها الجنة فقال لها: "إن الجنة لا تدخلها عجوز" فولَّت تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكارا * عُرُبا أتْرابا ﴾[سورة الواقعة:٣٥-٣٧] (٣) .

إلى غير ذلك من أقواله الصادقة في الجد والهزل بحيث لا يخرج قول من أقواله صلى الله عليه وسلم عن الصدق والحق والعدل، حتى لقد أمره الله تعالى بأن يسأله أن يجعل الصدق مصاحبا له في أقواله وأفعاله ودينه، حيث قال سبحانه: ﴿ وقُل ربِّ أدخلني مُدخلَ صِدق وأخرجني مُخرجَ صِدق واجعل لي مِن لدنْك سُلطاناً نصيرا ﴾[سورة الإسراء:٨٠]، "أي أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك، وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة،

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح برقم ١٩٩١، وفي الشمائل، باب ما جاء في صفة مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٢٢٨، وأبو داود في الأدب، باب المزاح برقم ٤٩٩٨، والبخاري في الأدب المفرد، باب المزاح برقم ٢٦٨، والإمام أحمد في المسند ٢٦٨/٣، والبغوي في الأنوار، باب في سروره وضحكه ومزاحه صلى الله عليه وسلم برقم ٣١٦، وفي شرح السنة برقم ٣٦٠٥، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ١٨٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة برقم ١٩٩٢، وفي الشمائل برقم ٢٢٥، وأبو داود في الأدب برقم ٥٠٠٢، والإمام أحمد في المسند ١١٧/٣، ١٢٧، ٢٤٢، ٢٦٠، والبغوي في الأنوار برقم ٣١٧، وفي شرح السنة برقم ٣٦٠٦، من حديث أنس ، وقال عنه الترمذي: صحيح غريب .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٢٣٠، والبغوي في الأنوار برقم ٣٢٠، من حديث الحسن مرسلا، وله شاهد من حديث عائشة عند أبي الشيخ في الأخلاق برقم ١٨٦، وحسنه الألباني في غاية المرام برقم ٣٧٥ لشاهده ذاك .

والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا في كل دخول وخروج وحركة وسكون"(١) .

وقد أعطاه الله تعالى ذلك كله، حتى امتن عليه بذلك بقوله سبحانه: ﴿ ألم نَشرح لك صدرَك * وَوَضعنا عنك وِزرَك * الَّذي أنقضَ ظَهرك * ورَفعنا لك ذِكرك ﴾[سورة الشرح:١-٤]، "فإن ذكره صلى الله عليه وسلم ارتفع بالصدق والوفاء وقيام الحجة، فما وَجد له أعداؤه كذبة، ولا زلة ولا هفوة،مع حرصهم على ذلك، وما بارت له حجة، ولا زلت له قدم، ولا أسكته خصم، مع كثرة الخصوم له، وطلب العلل وطول المجادلة"(٢) .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على خلق الصدق :

تلك هي شواهد أحواله صلى الله عليه وسلم في هذا الخلق العظيم، وقد علمت ما فيها من الدلالة على مبلغ عظمة تمثل هذا الخلق فيه، أما شواهد أقواله صلى الله عليه وسلم على ذلك فكثيرة، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"(٣) .

ففي هذا الحديث يرغب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدق ويحث عليه، ويبين فضله وثمرته، وذلك لتلتزم أمته هذا الخلق العظيم، وتتحراه في كل شئونها، ويحذر من

---

(١) التفسير الكبير ٢٢/٣٣، وانظر ظلال القرآن ٤/٢٢٤٧ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار ١/٨٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ وما ينهى عن الكذب ٨/٣٠، ومسلم في البر، باب تحريم النميمة برقم ٢٦٠٦، ٢٦٠٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه والترمذي في البر، اب ما جاء في الصدق والكذب برقم ١٩١٧ واللفظ له .

الكذب، ويبين وبيل عقابه وعظيم جزائه، وذلك لتلزم أمته الصدق وتجتنب الكذب في كل شئون حياتها .

٢ ـ وقد كانت هذه دعوته لأمته منذ بداية مبعثه، كما يدل على ذلك حديث أبي سفيان مع هرقل، حيث سأل هرقل أبا سفيان عما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبوسفيان: "يقول:اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة"(١) .

وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق كما علمت، فكانت هذه المهمة هي ديدنه وهِجِّيراه حثا وترغيبا بأحواله وأقواله .

والأقوال في ذلك كثيرة، وفيما ذكرت كفاية إن شاء الله تعالى .

---

(١) البخاري في بدء الوحي ٦/١ .

المَبْحَثُ الثَّاني

(خلق الصبر)

الصبر في اللغة: الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر أي: حبستها، ويقال: صبر الرجل يصبر صبرا فهو صابر وصبّير وصبور: إذا حبس نفسه عن الجزع، ومنه قول الله تعالى: ﴿ واصبِر نفسَك مع الَّذين يَدعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدون وجهَه ﴾ [سورة الكهف:٢٨](١) .

وفي الاصطلاح : هو "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه"(٢) .

أو هو حبس النفس عما تكره ابتغاء مرضاة الله كما قال تعالى: ﴿ والَّذين صبَروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم ﴾[سورة الرعد:٢٢](٣) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية :

وهذا المعنى هو الذي عناه القرآن الكريم عند حديثه المستفيض عن الصبر، فلقد تحدث كثيرا عن الصبر:أمرا به وحثا عليه، وتنويها به وبأهله، وتبيانا لأجره العاجل والآجل، في نحو من ست ومائة مرة(٤)، وهو العدد الذي يجعل هذا الخلق في مقدمة الأخلاق القرآنية ذات السلوك الذاتي، مما يدل على أن للصبر مكانة عظيمة في الدين، وهي المكانة التي فهمها السلف الصالح، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الصبر نصف الإيمان"(٥) ، يعني لأن أكثر أخلاق الإيمان لا تتم إلا بالصبر؛ لأنها تحتاج إلى مجاهدة حتى

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٢٩/٣ مادة (صبر)، والصحاح للجوهري ٧٠٦/٢ .

(٢) مفردات القرآن الكريم للراغب ص ٢٧٣ .

(٣) الصبر في القرآن الكريم للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠ .

(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٩٩-٤٠١ .

(٥) أخرجه البخاري في الكبير، كما عزاه إليه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٢/١، وقال: رجاله رجال الصحيح، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٤٨، ٩٧١٦، ٩٧١٧، وقال البيهقي:روي من وجه آخر غير قوي =

تصبح أخلاقا عملية للمؤمن، وهي لا تتم إلا بالصبر، ناهيك عما له من ضرورة دنيوية ودينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

قال الدكتور يوسف القرضاوي(١): "وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ما لـه من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديا ومعنويا، ويسعد فرديا واجتماعيا، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر، قال: فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيـا ولا فـلاح في الآخرة إلا بالصبر"(٢) .

تقسيمات الصبر :

للصبر تقسيمات باعتبارات مختلفة :

- فباعتبار محله ينقسم إلى قسمين: بدني، ونفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام .

- وباعتبار قوته وضعفه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: أن يكون الصبر قويا فيغلب كل دواعي الفساد والهوى .

الثاني: أن يكون ضعيفا، فتغلب دواعي الهوى والفساد ولا يستطيع مقاومتها .

الثالث: أن يكون وسطا بين القوة والضعف، فتكون الحرب بينهما سجالا، فتارة لـه وتارة عليه .

= مرفوعا، قال: والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع، وعزاه العراقي في شرح الإحياء ١٨٧/٤، إلى أبي نعيم في الحلية ٣٤/٥، والخطيب في التاريخ ٢٢٦/١٣، وقال: تفرد برفعه يعقوب بن حميد عن محمد ابن خالد المخزومي، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله

(١) عالم معاصر، وهو مفكر إسلامي كبير له مؤلفات نافعة كفقه الزكاة، ومشكلة الفقر، والخصائص العامة للإسلام، والحلال والحرام، وغيرها، عافاه الله تعالى ونفع بعلمه .

(٢) الصبر في القرآن الكريم ص ١٤ .

- أما باعتبار متعلقه فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها .

الثاني: صبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها .

الثالث: صبر على الأقدار والأقضية الإلهية حتى لا يتسخطها .

- وينقسم من حيث تعلق الأحكام به إلى خمسة أقسام :

واجب: وهو الصبر على الواجبات ، والصبر عن المحرمات، والصبر على المصائب والأقدار التي لا صنع للعبد فيها .

ومندوب: وهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، وعلى معاقبة الجاني بمثل فعله .

ومحرم: وهو الصبر عن أمر يكون فيه هلاكه إن لم يفعله، كالصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذا الصبر عن أكل الميتة عند الاضطرار، وكذا الصبر على فعل المعاصي حتى ينتهي عنها .

ومباح: وهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين .

ومكروه: وهو الصبر عما يحتاج إليه لكن لا يصل إلى حد الضرورة(١) .

وعلى أي حال فإن الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الإيمان، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه(٢) .

والذي يعنينا من هذه التقسيمات هو تقسيمه باعتبار متعلقه، فإنه التقسيم المشهور من تقسيمات الصبر عند الناس؛ لأنه هو الذي حظي بعناية القرآن الكريم في حديثه عن الصبر دون غيره، ولأن التقسيمات الأخرى إنما هي بمثابة الوسائل لهذا القسم، ولهذا فإن هذا القسم سيكون مجال بحثنا، فأقول :

لقد تعدد أسلوب ذكر الصبر في القرآن الكريم، فتارة يأمر به، وتارة يحض عليه، وتارة يعلي من شأنه وشأن أهله، وتارة يبين ما أعده الله من أجر للصابرين .

---

(١) انظر هذه التقسيمات في عدة الصابرين لابن القيم ص ١٣-٢٣ .

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٢٧٠ .

أما الأمر به فقد كان في ثلاث وعشرين آية بصيغة (اصبر) أو (اصبروا)، اختص خطاب المفرد منها بتسع عشرة مرة، ثماني عشرة منها وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، منها قوله تعالى: ﴿ واتَّبِع ما يُوحى إليكَ واصبِر حتى يحكمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكمين ﴾[سورة يونس:١٠٩]، وقوله: ﴿ واصبِر وما صبرُك إلاَّ بالله ﴾[سورة النحل:١٢٧] .

وأما خطاب الجمع فالذي وجه إلى المؤمنين عامة منه كان في أربع آيات، منها قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتَّقوا اللهَ لعلَّكم تُفلِحون ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ ... فاصبروا حتى يَحكمَ اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين ﴾ [سورة الأعراف:٨٧] .

غير أن الأمر بالصبر لم يقتصر على هذه الصيغة، بل قد جاء الأمر به بصيغة (اصطبر) وهي فعل أمر مثل (اصبر) إلا أنها تدل على شدة الصبر على الأمر الشاق؛ لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل(١) ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وقد جاء ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى هما: قوله تعالى: ﴿ فاعبده واصطَبِر لِعبادته ﴾[سورة مريم:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[سورة طه:١٣٢] .

كما ورد الأمر به مقرونا بالأمر بالاستعانة بالصلاة، ومخاطبا به المؤمنين في آيتين هما قوله سبحانه: ﴿ واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة وإنَّها لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين ﴾[سورة البقرة:٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا استَعينوُا بالصبرِ والصَّلاةِ إنَّ اللهَ مع الصابرين ﴾[سورة البقرة:١٥٣] .

فترى أن الأمر بالصبر تكرر نحوا من سبع وعشرين مرة بصيغ مختلفة، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ هو بيان أهميته للعباد، وأنه لا غنى لهم عنه لاسيما في مجال الدعوة إلى الله تعالى التي أخذت حظا كبيرا من عدد الآيات الآمرة بالصبر، وذلك لأن العباد إذا علموا أن الله عز وجل لم يكتف بالأمر بالصبر مرة واحدة، بل والى الأمر به هذا العدد كله، وفي كثير من قضاياهم الدينية والدنيوية، كان ذلك باعثا لهم على التحلي به في كل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٤٠، وأصل المادة (اصتبر) فأبدلت تاء الافتعال طاء؛ لمجيئها بعد الصاد .

قضاياهم الدينية والدنيوية التي يحمد الصبر فيها امتثالا لأوامر الله تعالى .

ولكن المولى جل وعلا لم يكتف بتلك الأوامر المباشرة، التي يأتي فيها لفظ الصبر وما تفرع منه، وإنما يأمر أيضا بالصبر بصيغ أخرى غير هذا اللفظ مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقيتُم فِئةً فاثبُتوا واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تفلِحون ﴾[سورة الأنفال:٤٥]، فالأمر بالثبات أمام الأعداء هو أمر بحبس النفس على أشق الأمور وأخطرها، وهذا صبر وزيادة .

ونحو هذا قوله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فاستَقم كما أُمِرتَ ومن تاب معك ﴾[سورة هود:١١٢]، وهذا أمر بالثبات على الاستقامة، وهو أمر بالصبر والدوام عليها حتى الممات .

وأمر بالصبر أيضا بالنهي عن نقيض الصبر من جزع واستعجال وغير ذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فاصبِر كما صَبر أُولو العزمِ من الرُّسل ولا تَستَعجل لهم ﴾[سورة الأحقاف:٣٥] وهذا أمر بالصبر، ونهي عن نقيضه، فهو توكيد للأمر، لبالغ الأهمية في مجال الدعوة والبلاغ .

ومثله قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا إذا لَقيتُم الّذين كفروا زَحفا فلا تُولُّوهم الأدبار ..﴾[سورة الأنفال:١٥]، فهذا نهي عن ترك الصبر في مواطن البأس، وعدل عن الأمر به إلى النهي عن نقيضه، لبشاعة الفرار أمام الزحف، وليقطع أي وسيلة للفرار في ميادين القتال، فهو أبلغ من الأمر بالصبر في هذا المقام، والله أعلم .

إلى غير ذلك من الآيات الناهية عن عدم الصبر .

ومعلوم أن النهي عن الشيء أمر بضده، كما يقرره الأصوليون، فتوالي هذه الأوامر، تدل على توكيد المأمور به، وأن طلب الشارع له طلبٌ جازم .

ولذلك كان الصبر على الطاعات والأوامر والنواهي والأقدار والأقضية واجبا بإجماع الأمة ؛كما قال ابن القيم، قال: "وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر"(١) .

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٥٢ .

الحث عليه :

ولما كان الصبر بهذه المثابة، حث ا لله تعالى عباده عليه، ورغبهم فيه في غيرما آية، كقوله تعالى بعد أن أباح نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر وخشية العنت: ﴿ وأنْ تَصبروا خيرٌ لكم ﴾[سورة النساء:٢٥]، أي إن تصبروا عن نكاح الإماء، فإنه خير لكم من أن تنكحوهن فيصير الولد رقيقا، وكقوله تعالى في حق الأعراب الجفاة المستعجلين في حوارهم وتخاطبهم، فلا يفرقون بين أن يكون ذلك مع آحادهم أو مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم،حيث طفقوا ينادونه من وراء الحجرات، أن يخرج إليهم فقال ا لله تعالى في حقهم: ﴿ ولو أنَّهم صبروا حتَّى تخرجَ إليهم لكان خَيراً لهم ﴾[سورة الحجرات:٥] أي أن الصبر خير لهم من سلوكهم ذاك غير اللائق بمقام النبوة العظيمة، فهو حث لهم على الصبر، وترغيب لهم فيه .

وكقوله تعالى بعد أن أباح للمؤمنين أن يعاقبوا من أساء إليهم بمثل ما جرى لهم: ﴿ولإن صَبرتُم لهو خيرٌ للصَّابرين﴾[سورة النحل:١٢٦] أي أن الصبر عن الانتقام خير منه، ولما كان النبي صلى ا لله عليه وسلم هو المعنيُّ أولا بهذا الخطاب وجهه ا لله تعالى إلى أن يحظى بهذه الخيرية؛ لأنه أولى من ينالها بقوله جل ذكره بعد ذلك الحض: ﴿ واصبِر وما صبْرُكَ إلاَّ با لله ولا تَحزن عليهم ولا تكن في ضَيقٍ مما يَمكُرون * إنَّ ا لله مع الَّذين اتَّقوا والَّذين هم محسنون ﴾[سورة النحل:١٢٧،١٢٨] .

هكذا يبين ا لله تعالى لعباده وهو العليم الحكيم أن الصبر خير لهم، وفي بيانه هذا حض لهم على التخلق به، فعلى المؤمن الذي ينشد الخير دائما أن يظفر به، فإنه ضالته التي ينشدها، ولا شك أن من يؤمن با لله تعالى وبكتابه الكريم إيمانا كاملا، لا يسعه إلا أن يبادر إلى ما رغب ا لله فيه ويعض عليه بالنواجذ .

وفي هذا الحث ما فيه كفاية للمؤمنين على أن يكون الصبر سجية لهم .

التنويه بهذا الخلق وأهله :

إلا أن ا لله تعالى رغب عباده بالتحلي به بأساليب مختلفة، ومنها تنويهه العظيم بالصبر والصابرين في القرآن الكريم، لأن في ذلك تهييجا للمؤمنين على التحلي به، أما تنويهه

بالصبر فإنه قد قرن بكثير من الأخلاق الإيمانية، والقيم الروحية العظيمة، مما يدل على أن الصبر منزل منزلتها، وذلك كاقترانه باليقين في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَجعلنا مِنهم أَئِمَّةً يَهدون بأمرنا لَمَّا صبروا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾[سورة السجدة:٢٤] .

وكاقترانه بالشكر في مثل قوله تعالى: ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكلِّ صَبَّار شكور ﴾ [سورة إبراهيم:٥] .

وبالتوكل في مثل قوله تعالى: ﴿ الَّذين صبَروا وعلى ربِّهم يَتوكَّلون ﴾[سورة النحل:٤٢] .

وبالصلاة كما في قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا استَعينوا بالصَّبر والصَّلاةِ إنَّ الله مع الصابرين ﴾[سورة البقرة ١٥٣] .

وبالتسبيح والتحميد والاستغفار كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ واصبر لِحُكم ربِّك فإنَّك بأعيننا وسبِّح بحمدِ ربِّك حينَ تقوم ﴾[سورة الطور:٤٨]، وقوله: ﴿ فاصبر إنَّ وعدَ الله حقٌّ واستغفِر لذنبِك وسبِّح بحمد ربِّك بالعشيِّ والإبكار ﴾[سورة غافر:٥٥] .

وبعمل الصالحات كما في قوله سبحانه: ﴿ إلا الَّذين صبروا وعملوا الصَّالحاتِ أولئِكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير ﴾[سورة هود:١١] .

وبالتقوى كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإن تَصبِروا وَتتَّقوا فإنَّ ذلك مِن عزم الأمور ﴾[سورة آل عمران:١٨٦] .

وبالحق كما في قوله تعالى: ﴿ وَتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصَّبر ﴾[سورة العصر:٣] .

وبالرحمة كما في قوله تعالى: ﴿ ثم كان مِن الَّذين آمنوا وَتواصوا بالصَّبر وَتواصوا بالمَرحمة ﴾[سورة البلد:١٧] .

وبالجهاد كما في قوله تعالى:﴿ ولَنبلونَّكم حتَّى نعلَم المُجاهدين مِنكم والصَّابرين ﴾ [سورة محمد:٣١] .

فاقترانه بهذه الأخلاق الإيمانية والسلوكية الفردية والاجتماعية يدل على ارتباطه بها، وأنه أسٌّ في نجاح التحلي بها، إذ لولاه لما قدر المرء على مجاهدة نفسه حتى تصبح الأخلاق الكريمة خلقا لديه .

وحيث كان وسيلة إلى نجاح المرء في التحلي بتلك الأخلاق والقيم الإسلامية العظيمة، فإنه يُعطي حكم وشرف كل فضيلة منها؛فإن الوسائل لها حكم المقاصد كما هو مقرر، ولأن كل أمر حسي أو معنوي إنما يشرف بشرف من تعلق به، فهو بذلك يكون قد حوى فضل تلك الفضائل كلها .

وأما تنويه القرآن الكريم بالصابرين فهو تنويه عظيم لأن ا لله عز وجل أثبته لكثير من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام على سبيل الإشادة بهم، والثناء عليهم لتحليهم بهذا الخلق العظيم، وذلك كأيوب ويعقوب ويوسف وإسماعيل وأولي العزم من الرسل سلام ا لله عليهم أجمعين، فإن ا لله تعالى قد أثنى عليهم جميعا، وخص خلق الصبر منهم بالثناء، مع ماهم من كثير من الفضائل الخلقية، وذلك دليل على بروزه فيهم وعلى أهمية الصبر وعظيم منزلته، ومما قصه ا لله تعالى عن صبرهم قوله سبحانه: ﴿ وأَيُّوبَ إذ نادى ربَّه أنِّي مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحمُ الراحمين * فاستَجبنا له فَكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً من عندِنا وذكرى للعابدين * وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل كلٌّ من الصَّابرين * وأدخلناهم في رحمتِنا إنَّهم من الصَّالحين ﴾[سورة الأنبياء:٨٣-٨٦] .

وقوله في أيوب عليه السلام: ﴿ إنَّا وجدناه صابراً نعم العبدُ إنَّه أوَّاب ﴾[سورة ص ٤٤]، وكان قد صبر على ضره الذي مسه من غير أن يجزع أو يتسخط .

وقوله في يعقوب ـ عليه السلام ـ على لسانه: ﴿ فصبرٌ جميلٌ وا لله المستعانُ على ما تصفِون ﴾[سورة يوسف:١٨]، وبلاؤه قد كان عظيما، إذ احتيال أولاده على فلذة كبده وأحب أولاده إليه لم يكن سهلا، فقد ابيضت عيناه من البكاء عليه، ولكنه صبر على قضاء ا لله .

وكقوله في يوسف عليه السلام: ﴿ قال أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ ا لله عَلينا إنَّه من يتَّق وَيصبِر فإنَّ ا لله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾[سورة يوسف:٩٠]، ومعلوم أن مكر إخوته به لم يكن سهلا، فقد كان يراد منه إهلاكه، فعدم الانتقام منهم بعد تمكنه منهم صبر وحلم عظيمان .

وكقوله في إسماعيل عليه السلام على لسانه: ﴿ قال يا أبتِ افعل ما تُؤمَر ستجِدُني إن

شاءَ الله من الصَّابرين ﴾[سورة الصافات:١٠٢]، وقد صبر على أمر لا يكاد يقدر عليه أحد إلا نبي، إذ قدم نفسه طوعا لأبيه ليقدمه قربانا إلى الله تعالى امتثالا لأمره سبحانه وتعالى .

وقد صبر أبوه من قبل على أكبر من صبره، وذلك حينما صبر على أعدائه في باطلهم حين ألقوه في النار،مع قدرته على التخلص منها بعون من عرض عليه النصرة من الملائكة كما جاء في بعض الآثار(١)، ولكنه أبى أن يستعين إلا بالله،وصبر على كيدهم حتى أنجاه الله منها، وجعلها عليه بردا وسلاما، واستحق بذلك أن يكون أسوة لمن بعده في الصبر العظيم، وأن ينوه بصبره ذاك، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتأسى به وبإخوانه من أولي العزم في صبرهم فقال سبحانه: ﴿ فاصِبر كما صَبر أولُو العزمِ من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥]، وأولو العزم هم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ وإذ أَخذنا من النَّبيين مِيثاقهم ومنكَ ومِن نُوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى بنِ مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة الأحزاب:٧] .

وقد كان لكل واحد منهم موقف عظيم من مواقف الصبر، فنوح مكث يدعو قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما وهو صابر على أذاهم لا يصده ذلك عن دعوتهم إلى الحق.

وموسى عليه السلام صبر على بني إسرائيل، وعنتهم وعنادهم وأذاهم وقسوتهم، وغيره مما هو معلوم مما قصه الله تعالى عنهم في كتابه الكريم، فصبر صبرا لا يقدر عليه غيره .

وعيسى بن مريم عليه السلام واجه مثل ذلك من العنت من بني إسرائيل، بل وأكبر منه حيث نالوا من عرض أمه، وهي العفيفة البريئة البتول، وكادوا له كيدا، فأرادوا أن يقتلوه فنجاه الله منهم ﴿ وما قتلُوه وما صلبُوه ولكن شُبِّه لهم ﴾[سورة النساء:١٥٧] .

أما محمد عليه الصلاة والسلام، فإن صبره لم يكن بأقل من صبر هؤلاء جميعهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، بل إن صبره صلى الله عليه وسلم يوازي مجموع صبرهم جميعا

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١٦٧/١ .

إن لم يكن فائقا عليه كما سيأتي بيانه في التطبيق إن شاء الله تعالى .

وهكذا كان الصبر شعار الرسل كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فصبَرُوا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتَّى أتاهم نصرُنا لا مُبدِّل لكلماتِ الله ﴾[سورة الأنعام:٣٤]، فإذا كان أنبياء الله تعالى وصفوته من خلقه وأكرمهم لديه، يصبرون هذا الصبر في السراء والضراء وحين البأس، فإن غيرهم من المؤمنين أجدر بهم أن يتأسوا بهم فيه، ويصبروا كصبرهم؛ لأنهم يعلمون مكانة رسل الله تعالى عند الله تعالى، وأن الله تعالى أكرم من أن يرد دعواتهم لو دعوه في أن يفرج عنهم ما بهم، ويرتاحوا من عناء أعدائهم وظروف حياتهم، ولكنهم آثروا الصبر على ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، لاسيما وأن الله تعالى قد قص لنا من أحوالهم في هذا المقام ما يثبت به أفئدة المؤمنين، فلا شك أن في ذلك كله حث بليغ للمؤمنين على الصبر؛ لأن التأثر بما قصه الله عنهم من أحوالهم بليغ أيضا، لاجرم فقد قال الله تعالى: ﴿ وكلًّا نقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسل ما نُثبِّتُ به فؤادك ﴾[سورة هود:١٢٠] .

فمن علم بذلك كله كان قد تجمع لديه حوافز عظيمة ومغريات كثيرة على التحلي بالصبر في كل شئونه وأحواله، ويسهل عليه مقاومة نفسه على التحلي بالصبر إذا صاحبه عون الله تعالى .

الثناء على الصابرين :

وعندئذ يكون حريا بالثناء العظيم الذي أثنى الله به على الصابرين في آيات كثيرة من القرآن الحكيم كقوله سبحانه: ﴿ وبشِّر المُخبِتين * الَّذين إذا ذُكر اللهُ وجِلَت قلوبُهم والصَّابرين على ما أصابهم والمُقيمي الصلاةِ وممَّا رزقناهم يُنفِقون ﴾[سورة الحج:٣٤،٣٥]، حيث إن الله ذكرهم في معرض الثناء، وشهد لهم بالإخبات، وهو التواضع والإخلاص .

وحيث أثنى عليهم في معرض تعداده لأهل البر الذين منهم: ﴿ الصَّابرين في البأساءِ والضَّراء وحينَ البأس ﴾ .

والذين شهد ا لله لهم بأنهم أهل الصدق والتقوى، حيث قال: ﴿ أولئِك الّذين صَدقوا وأولئِك هم المتقون ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

وفي ضمن تعداده لأخلاق المؤمنين ومقاماتهم الدينية حيث قال: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقين والصَّادقات والصَّابرين والصابرات ...﴾ إلى أن قال: ﴿ أعدَّ ا لله لهم مغفرةً وأجرا عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

وكما أثنى عليهم بأنهم أهل العزائم كما قال سبحانه: ﴿ وإن تَصبروا وتَتّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور ﴾[سورة آل عمران:١٨٦]، وقد تكرر هذا الثناء عليهم ثلاث مرات في القرآن، مما يدل على أن أهل العزائم هم أهل الصبر والمصابرة .

وهذا فضلا عما يعمله هذا الثناء في النفس من أثر على حب التحلي بخلق الصبر، فيكون حافزا ومغريا آخر على التحلي به .

الترغيب بالصبر :

غير أن هناك مغريات أخرى على التحلي بالصبر والثبات عليه، وهي ما أعده ا لله تعالى للصابرين من الأجر العظيم، والجزاء في الدنيا والآخرة، وهو أجر عظيم لم يجعله ا لله تعالى لشيء من الطاعات والقربات، كيف لا وقد قال سبحانه: ﴿ إنَّما يُوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب ﴾[سورة الزمر:١٠]، فما من جزاء وثواب إلا وهو بحساب ومقدار إلا الصبر فإنه يكون بغير حساب، أي هو أجر لا يهتدي إليه حساب الحساب(١) .

ولذلك لما كان الصوم من الصبر كان جزاؤه كذلك، كما جاء في الحديث: "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"(٢) وقال تعالى:﴿ولنَجزينَّ الذين صبروا أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾[سورة النحل:٩٦] ، ومن أحسن ما كانوا يعملونه: الصبر الذي سيق الثناء والمدح عليه، وقال تعالى: ﴿ وبشِّر الصَّابرين * الَّذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجِعون * أولئِك عليهم َصلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾ [سورة البقرة:١٥٥-١٥٧] .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ص٦٠٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وتقدم في الصوم ص٢٩٩

فانظر إلى عظيم الجزاء الذي دلت عليه هذه الآية، حيث رتب الله تعالى على الصبر ثلاثة أمور عظيمة:

أولاها: صلوات الله تعالى عليهم التي تعني التزكية والمغفرة، ولم تكن واحدة بل صلوات، صلاة بعد صلاة .

وثانيها: الرحمة التي تعني اللطف والإحسان .

وثالثها: أنهم مهتدون، أي إلى الحق والصواب، وهذا إخبار من الله تعالى في إثبات الهداية لهم بأسلوب القصر الحقيقي "ومن أثبت الله له الهداية فلن يضل أبدا"(١) .

فترى أن الله تعالى قد رتب على الصبر ثلاث جزاءات، كل واحد أعظم من الآخر، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "نعم العدلان ونعمة العلاوة"(٢)، ويعني بالعدلين: الصلوات والرحمة، والعلاوة: إثبات الهداية .

وقد بين الله سبحانه وتعالى طرفا من النعيم الذي أعده للصابرين من عباده بمثل قوله سبحانه: ﴿ وجزاهم بما صَبروا جنَّة وحريرا ﴾[سورة الإنسان:١٢]، وقوله سبحانه: ﴿ أولئك يُجزون الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تَحِيَّةً وسلاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥]، وقوله عز شأنه: ﴿ والملا ئكة يَدخلون عليهم من كل باب* سلامٌ عليكم بما صَبرتُم فنِعم عُقبَى الدَّار ﴾ [سورة الرعد:٢٣،٢٤] .

وقوله جل وعلا: ﴿ ثم كان مِن الذين آمنوا وَتواصوا بالصَّبر وَتواصوا بالمرحمة * أولئِك أصحابُ الميمنة ﴾[سورة البلد:١٧،١٨] .

وقد علم ما أعده الله لأهل اليمين من آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين * في سدرٍ مَخضود * وطَلح مَنضود ... ﴾[سورة الواقعة:٢٧-٣٨] .

ـ وهذا كله في الآخرة، أما في الدنيا فإن الله تعالى قد ناط بالصبر أمورا أخرى كثيرة من أمور الدنيا منها النصر على الأعداء كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ فإنْ يَكُن منكم

---

(١) البحر المحيط ٤٥٢/١ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢٢١/٢ برقم ١٥٨٧ .

مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذنِ الله والله مع الصَّابرين ﴾ [سورة الأنفال:٦٦] .

- و ناط به الحفظ من كيدهم كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وإن تَصبروا وتتَّقوا لا يضرُّكم كيدُهم شيئًا إن الله بما يَعملون مُحيط ﴾[سورة آل عمران:١٢٠] .

- و ناط به المدد بجند الله وهم الملائكة في قتال الكفار كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ بلى إن تَصبروا وتتَّقوا ويأتُوكم من فورِهم هذا يُمدِدْكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾[سورة آل عمران:١٢٥] .

- كما أنه يورث الإمامة في الدين والدنيا كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وجَعلنامنهم أئِمةً يهدون بأمرِنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾[سورة السجدة:٢٤] .

وهذا كله في الدنيا كاف لأن يكون حافزا للمؤمنين على التحلي به، ناهيك عن نعيم الآخرة الذي تقدم الحديث عنه، وعن معية الله للصابرين التي نطقت بها الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الله مع الصابرين ﴾[سورة البقرة:١٥٣]، وتكررت أربع مرات، وهي المعية التي تعني النصر والتأييد والحفظ والرعاية للصابرين على كل أمر يصبرون عليه في أمر الدين والدنيا، والتي يكون بها عز الدارين، وناهيك أيضا عن محبة الله تعالى التي ينالها الصابرون والتي دل عليها قوله سبحانه: ﴿ والله يُحبُّ الصابرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٦] وقد مضى معنى ما تعنيه محبة الله تعالى لعبده من خلال حديث "لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه ..."(١) .

إلى غير ذلك من حديث القرآن عن الصبر في مقامات مختلفة .

---

(١) انظر ص٣٢٥

تمثل خلق الصبر في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد علمت أن خلق الصبر تجلى بأبهى صوره في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، حيث مرتبك نماذج ممن أثنى الله تعالى عليهم بهذا الخلق العظيم، وتقدمت الإشارة إلى بعض مواقفهم في دعواتهم أقوامهم إلى الله، وما أولاهم ذلك من عناء وشدة وابتلاء، ما كان لهم من وسيلة يتدرعون بها حتى يتمكنوا من أداء واجبهم سوى وسيلة الصبر على سفهاء أقوامهم، وظروف حياتهم، فلما صبروا على ما أوذوا وتحملوا أعباء دعوتهم، نجحوا في إبلاغ أقوامهم ، وهداية من كتب الله له الهداية منهم، وما من نبي إلا وقد كان موقفه من خلق الصبر مضرب المثل .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر رسل الله تعالى دعوة وبلاغا وجهادا، ومن ثم كان أكثرهم ابتلاء وإيذاء وأعداء، منذ بزوغ فجر دعوته إلى أن لحق بربه جل وعلا .

﴿فقد لقي بمكة من قريش وغيرهم ممن كان يدعوهم إلى الله أو يطلب منهم حمايته ليؤدي رسالة الله، ما يشيب النواصي، ويهد الصياصي، وهو مع ذلك صابر صبر المستعلي، وثابت ثبات المستولي﴾[1] .

وكذلك بعد أن هاجر إلى المدينة، لقي من المنافقين واليهود والمشركين عامة ما لا يقل عما لقيه بمكة من الأذى، وهو صلى الله عليه وسلم لا تزيده تلك المحن والشدائد إلا إصرارا وثباتا، ومازال ذلك دأبه حتى أتاه اليقين بعد أن مكنه من إقامة دينه الذي ارتضاه لعباده أيما تمكين .

ولولا صبره العظيم على ذلك كله لما نجح ذلك النجاح الباهر في دعوته الأمم إلى الله تعالى، وإقامة شرعه فيهم، بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ضعيفهم نهب قويهم، ودياناتهم طوع أهوائهم وشياطينيهم .

وعند تسريح النظر في أطوار دعوته صلى الله عليه وسلم وحياته يعلم مدى الصبر العظيم الذي تحلى به في دعوته إلى الله تعالى،والذي تغلب به على ظروف الحياة العربية

---

(١) انظر أعلام النبوة للماوردي ص ٢٨٣ .

في وقتها، وهذه قطاف من ثمار ذلك التسريح .

١ ـ أما صبره في دعوته إلى ا لله، فقد كان من أوائل بدء الدعـوة إلى ا لله تعـالى، إذ مـا كاد الخبر يشاع عند قومه من أنه يدعو الناس إلى عبادة ا لله وترك عبـادة الأوثـان، حتـى نصبوا له العداء، فرموه بكل ما قدروا أن يرموه بـه مـن السـحر والكهانـة والشـعر والجنون، وغير ذلك مما درجوا على التفوه به زورا وبهتانـا، وهـو الـبراء مـن ذلـك كلـه، وكان مع ذلك صابرا محتسبا، غير أن القرآن الكريم كان يذب عنـه افـتراءهم، ويدحـض عنه أباطيلهم، فتبوء أقوالهم بالخيبـة والخسـران، وصـور هـذا كلـه واضحـة ومعلومـة مـن القرآن الكريم في آيات متكررة كثيرة، ومعلوم أن الشـريف القـدر،العظيـم الهمـة،الكريـم المحتد، لا يقـدر علـى تحمـل ذلـك؛ لأن قـول الـزور والبهتـان يـنزل علـى مسـامعه وقلبـه كالصواعق، فتهد كيانه، وتشعل فؤاده، لأنه يعلم براءة نفسـه، وعـزة أصلـه، ثـم هـو بمـا يمتلكه من إحساس مرهف يضيق صدره بما يقولون، وتتأزم نفسه عند سماع تلك الأقـوال الباطلة الآفكة، لاسيما إن كانت من أنـاس يعرفونـه كمـا يعرفـون أبنـاءهم وأنفسـهم في صدقه وأمانته وشرف نسبه ونُبل مقصده، ولا ريب في هذا فإن الأمر كما قال الشاعر :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

أو كما قال الآخر :

جراحات السنان لها التئام   ولا يلتام ما جرح اللسان

ولكن أسلوب الإيذاء هذا وإن كان شديدا بالغ الشدة، إلا أنهـم لم يكتفـوا بـه لبـلادة طباعهم، وقساوة قلوبهم، فلم يشتفوا به، فذهبوا يطوِّرونه إلى ما يرونه شفاء لصدورهـم، وذلك بإيذائه جسديا، ـ بأبي هو وأمي صلى ا لله عليه وسلم ـ وذلك منذ أن مـات عمـه أبوطالب، فلقد أُخذ بتلابيبه حتى سقط على ركبتيه، ووضِع سلَى الجزور(١) علـى ظهـره الشريف ـ بأبي هو وأمي صلى ا لله عليه وسلم ـ وهـو سـاجد، ورمـي بالحجـارة حتـى أدميت قدماه، ودبر قتله في مكيدة عظيمة، وشق وجهه، وكسرت ثنيتاه، إلى غير ذلك

---

(١) سلى الجزور: هو روثه، والجزور: الجمل .

مما هو معلوم، وسأورد بعضا منه هنا :

أ - فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى من حديث عروة بن الزبير(١) رحمه الله قال: سألت ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط - لعنه الله - فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم، قال: ﴿ أتقتلونَ رجَلا أن يقولَ ربِّيَ اللهُ ... ﴾(٢) الآية[سورة غافر:٢٨] .

٢ - وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، أو أبي بن خلف، شك الراوي، قال الراوي: فرأيتهم قتلوا يوم بدر، فألقو في بئر غير أمية أو أبي تقطعت أوصاله فلم يلق في البئر"(٣) .

٣ - وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن الحارث(٤) رضي الله عنه قال: قلت

---

(١) ابن العوام بن خويلد الأسدي، التابعي الجليل، أحد فقهاء المدينة السبعة، أخذ العلم عن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته عائشة رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومات سنة ٩٤ هـ، طبقات ابن سعد ١٧٨/٥، وتهذيب الأسماء ١٢٣/١، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٢١/٤-٤٣٧.

(٢) البخاري في مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ٥٨/٥ .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ٥٧/٥، ومسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين برقم ١٧٩٤، واللفظ للبخاري .

(٤) الغامدي، يكنى أبا المخارق، يعد في الحمصيين، قاله ابن السكن، له ترجمة في الإصابة ٢٧٥/١، وأسد الغابة بهامشها ٢٩٠/١، وتجريد أسماء الصحابة للذهبي ٩٧/١ رقم ٩١٦ .

لأبي ما هذه الجماعة ؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىء لهم، قال: فنزلنا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان، وهم يردون عليه، حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه.أقبلت امرأة قد بدا نحُرها تحمل قدحا ومنديلا فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال: "يابُنية خمِّري عليك نحرك ولا تخافين على أبيك. قلنا من هذه ؟ قالوا: هذه زينب(١) بنته"(٢) رضي الله عنها .

٤ - وعن أنس رضي الله عنه قال: " لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادي: " ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله فقالوا: من هذا ؟ فقالوا : أبو بكر المجنون فتركوه وأقبلوا على أبي بكر"(٣) .

- هكذا عانى صلى الله عليه وسلم من قومه الشدة والأذى وهو رسول الله حقا، أكرم عند الله تعالى من أن ينال مثل هذه القسوة والفظاظة والغِلظة، غير أنه صبر على ذلك كله طوعا في ذات الله تعالى، فلما أيس من نجاح دعوته في قومه مع ما هم عليه من العداء والإيذاء، طمع في أن ينصره قوم آخرون من غير قومه، فعمد إلى الطائف رجاء أن يأووه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم، لأنهم: "كانوا أخواله ولم يكن بينه وبينهم عداوة"(٤) . إلا أنهم ردوا عليه أقبح رد وأشده .

---

(١) زينب بنت سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هي كبرى بناته وأول من تزوج منهن، ولدت قبل البعثة بمدة، وزوجها من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع العبشمي، وتوفيت في أول سنة ثمان من الهجرة، الإصابة ٣١٢/٤ ومعها أسد الغابة .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤/٦ إلى الطبراني من غير أن يعزوه إلى أحد كتبه بالتعيين، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وعزاه الحافظ في الإصابة ٢٧٥/١ إلى البخاري في التاريخ، وإلى أبي زرعة، والبغوي ، وابن أبي عاصم، والطبراني .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠/٦ إلى أبي يعلى والبزار، وقال: الزيادة فتركوه ...الخ عند البزار، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح .

(٤) إمتاع الأسماع للمقريزي ص٤٩، وخؤلته بأهل الطائف من الرضاع؛ لأن مرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة السعدية من هوازن .

١ـ فقد أخرج الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب(١)، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك،وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئا"(٢) .

وسأذكر هنا سياق ابن هشام لقصة عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على أهل الطائف كما رواها عن ابن اسحاق فقد قال: "فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وأخواه: مسعود، وحبيب، قال: فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله تعالى، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام،والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمْرُط(٣) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا

(١) هو جبل مطل على عرفات، ويقال له أيضا: قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد كما في معجم البلدان ٣٣٢/٤، قلت وهو بحذاء وادي السيل وموضع الميقات منه معروف الآن .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء ١٣٩/٤، ومسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين برقم ١٧٩٥، واللفظ لمسلم .

(٣) أي: يمزقها .

من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، قال ابن هشام: وقد قال لهم فيما ذكر لي: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّي، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيُذئِرهم ذلك عليه(١)، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حَبَلَة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلَّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهَّمني ؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبَك أو يحل علي سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ..."(٢) .

"وأقام عليه الصلاة والسلام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهرا، لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد أُخرج من بلدنا والحق بمحابِّك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرجمونه بالحجارة حتى إن رجليه لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شِجاجا قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وهو محزون ..."(٣) .

---

(١) أي: يجرئهم عليه .

(٢) تقدم ذكره وتخريجه ص٨٣ .

(٣) ذكر ذلك ابن الجوزي في الوفاء ٢١٢/١ من طريق محمد بن عمر الواقدي، وأسنده ابن سعد في الطبقات ٢١١/١ بإسناده إلى محمد بن جبير بن مطعم، فهي طريق ثانية تعضد طريق الواقدي على أن الواقدي وإن كان متروكا في باب الرواية إلا أنه في باب السيرة يقبل مثله على ما تأصل في علوم الحديث من عدم اشتراط الصحة لما كان في باب السير .

٢ ـ وجاء في بعض الرويات أنهم "تهزَّأوا به وأفشوا في قومهم الذي راجعوه به، وقعدوا له صفين على طريقه،فلما مرَّ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعها إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدُّوها حتى أدموا رجليه، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ..."(١) .

فانظر أي عناء أكبر من هذا العناء الذي تراكم من الرد القبيح وإغراء السفهاء به، وإشاعة أمره للأعداء وهو مع ذلك يراود في إهلاكهم حتى يستريح من عنائهم فيأبى، ويظل صابرا على ما هو فيه(٢) .

٣ ـ وليت الأمر وقف عند هذا الحد من الأذية والعداء، إلا أن الأشرار لم يكتفوا بذلك بل لقد رأوا أنه لا يروي غليلهم إلا أن يقتلوه ويتوزع دمه بين القبائل ـ بنفسي هو وأبي وأمي صلى ا لله عليه وسلم ـ، فلما أجمعوا أمرهم على ذلك آذنه ا لله بالهجرة،وأنه لا مطمع للبقاء في دار قومه أو في هدايتهم وهم على هذا الوضع .

وقصة تآمرهم على قتله صلى ا لله عليه وسلم في دار الندوة وحضور إبليس هذا التآمر مشهورة في كتب السيرة وشهرتها تغني عن ذكرها هنا(٣). وقد أشار ا لله تعالى إليها بقوله: ﴿ وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتُلوك أو يُخرجوك ويمكرونَ ويمكرُ ا لله وا للهُ خير الماكرين ﴾[سورة الأنفال:٣٠] .

٤ ـ ولما هاجر صلوات ا لله وسلامه عليه إلى المدينة لم يقل صبره عما كان عليه حال أمره

---

(١) ذكر ذلك البيهقي في الدلائل ٤١٥/٢ من رواية ابن شهاب .

(٢) والحكمة من طلب النبي صلى ا لله عليه وسلم الحماية من هؤلاء هي ما ذكرها ابن الجوزي في الوفاء ٢١٦/١ بقوله: "إحداهما: اختبار المبتلى ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء فيؤدي القلب ما كلف من ذلك . والثانية: بث الشبهة في خلال الحجج ليثاب المجتهد في دفع الشبه" .

(٣) انظر مثلا سيرة ابن هشام ٢٢١/٢ ـ ٢٢٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤٦٥/٢ ــ ٤٧٠، وطبقات ابن سعد ٢٢٧/١ ـ ٢٢٨، وغيرها .

في مكة. فلئن كان في مكة صابرا على المشركين فحسب، فإنه في المدينة قد صبر على منهم أكثر أذية وعددا وطوائف؛ إنهم المنافقون، واليهود، والمشركون، فقد كانت كل واحدة من هذه الطوائف تكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته كيدا وتصطنع له أذية لاتألو جهدا في ذلك، وهو يتلقى ذلك كله بقلب راسخ بالإيمان واثق بنصر الله، وجأش لا يتزعزع من حوادث الأعداء وكيد الألداء .

٥ ـ أما المنافقون فقد كان الصبر عليهم مُرًّا، إذ لا حيلة له صلى الله عليه وسلم معهم غير الصبر؛ لأنهم يزعمون الإسلام، ويظهرون الولاء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهم في الحقيقة يبطنون الكفر ويتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الدوائر، وهم عيون للأعداء الخارجين يتتبعون عورات المسلمين، ويخططون للقضاء عليهم، ولكن ذلك في السر، إذ لا يعلم ذلك أحد إلا الله تعالى ثم رسوله صلى الله عليه وسلم بإعلام الله تعالى له .

ولطالما كان المسلمون يكتشفون رائحة النفاق من أحدهم، فيستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتله فيقول عليه الصلاة والسلام: "... لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"(١) إن ذلك الصبر لا متنفس فيه، وهو أشد ما يكون على المرء، وسأذكر هنا قصة واحدة تبين مدى صبره صلى الله عليه وسلم على أذى المنافقين .

فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد(٢) رضي الله عنه أن

---

(١) كما أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقين ١٩٣/٦، ومسلم في البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما برقم ٢٥٨٤ من حديث جابر رضي الله عنه ..

(٢) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن مولاه، وابن مولاته، وحبه وابن حبه، أمَّره النبي صلى الله عليه وسلم على جيش وجهه إلى الروم، وفي الجيش عمر وغيره من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من المدينة، توفي أسامة سنة ٥٤هـ، انظر: طبقات ابن سعد ٦١/١، وتهذيب الأسماء ١١٥/١ .

النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكَاف، تحته قطيفةفدَكِيَّة(١)، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادة(٢) في بني الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، قال: فلما غشيت المجلس عُجاجة الدَّابة(٣)، خمرَّ عبد الله بن أبي أنفه ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء - يريد النبي صلى الله عليه وسلم - لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، قال: فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخففهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: "أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال:كذا كذا، فقال سعد رضي الله عنه: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة أن يتوجوه فيعصِّبوه بالعصابة - أي يجعلوه ملكا عليهم - فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، قال: فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم"(٤) .

فانظر أي صبر يقدر على مثله أحد بيده القدرة على عقاب مثل هذا القائل غير النبي

---

(١) القطيفة هي كساء له خمل، ونسبتها إلى فدك؛ لأنها تصنع هناك، وهي تبعد عن المدينة مسافة يومين.

(٢) ابن دليم بن حارثة الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء وسيد الخزرج، وأحد الأجواد، كان يلقب بـ"الكامل" لأنه كان يكتب ويحسن العوم والرمي، وتوفي بالشام سنة خمس عشرة على خلاف في ذلك، انظر طبقات ابن سعد ٣/١٣، والاصابة ٢/٣٠، وبهامشها الاستيعاب ص ٣٥، وتهذيب الأسماء ١/٢٦٢ .

(٣) هو ما ارتفع من غبار حوافرها .

(٤) أخرجه البخاري في المرضى، باب عيادة المريض راكبا وماشيا وردفا على الحمار ٧/١٥٣، ومسلم في الجهاد، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٨ .

صلى ا لله عليه وسلم إذ يتجرأ هذا الحلف على الانتقاص من النبي صلى ا لله عليه وسلم وهو ذو الجناب العظيم، ويصده عن دعوته، وهو المأمور بالبلاغ المبين .

٦ ـ وأما اليهود فقد كان صبر النبي صلى ا لله عليه وسلم عليهم شديدا، إذ أنهم أهل خديعة ومكر وحقد دفين، فإنهم لم يكتفوا بكتم صفاته التي يجدونها في التوراة، والتي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، والتي لو بينوها للناس لدخلوا في دين ا لله أفواجا من أول دعوته صلى ا لله عليه وسلم؛ لأن الكل كان يسلم لليهود بأنهم أهل كتاب، وأن لهم علما برسل ا لله، فلو أنهم صدقوا ما عاهدوا ا لله عليه من بيان صفاته صلى ا لله عليه وسلم للناس، وأشهروا ذلك في المجتمعات، لما تردد أحد في الاستجابة له صلى ا لله عليه وسلم .

بيد أنهم غيروا صفاته عليه الصلاة والسلام، وجحدوا نبوته، وأغروا به المشركين وقالوا لهم: "إنكم أهدى سبيلا من محمد وأصحابه" مما كان له أثر عائق في صد الناس عن دين ا لله تعالى، ومشجع لهم على عداوة المؤمنين، كل ذلك والنبي صلى ا لله عليه وسلم صابر على معاملتهم وعلى خيانتهم وما يتوقعه من غدرهم .

حتى حكم ا لله بينه وبينهم وذلك في يوم قريظة حين حكم سعد بن معاذ(١) بحكم ا لله تعالى بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم(٢)، لما نقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وظاهروا المشركين يوم الأحزاب على قتاله صلى ا لله عليه وسلم .

وأجلَى من أجلَى منهم من بني قينقاع وبني قريظة، ثم فتح خيبر فأبقى أهلها إلى حين .

---

(١) ابن النعمان ابن امرىء القيس الأوسي الأنصاري ، سيد الأوس، كان من أعظم الناس بركة في الإسلام، ومن أنفعهم لقومه، شهد بدرا وأحدا والخندق وأصيب فيها بسهم كان سبب وفاته بعد أن حكم في بني قريظة، ومناقبه كثيرة، انظر: طبقات ابن سعد ٤٢٠/٣، وتهذيب الأسماء ٢١٤/١، والإصابة ٣٨/٢، والاستيعاب ٢٧/٢ .

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى ا لله عليه وسلم من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ١٤٣/٥، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتل من نقض العهد برقم ١٧٦٩، وما شئت من كتب السير .

٧ - وأما صبره عليه الصلاة والسلام على المشركين في العهد المدني فلم يكن كصبره عليهم في العهد المكي، فإن صبره عليهم في هذا العهد كان صبرا في ميادين القتال والمنازلة، صبرا على كلوم الأسنة والرماح والسيوف الذي ينفد معها صبر أولي العزم والقوة .

لكن النبي صلى ا لله عليه وسلم لم ينفد صبره، ولم ينثن عزمه، وهو يخوض معركة بعد أخرى، ويجهز جيشا تلو آخر، حتى آتاه ا لله الفتح المبين والعز والتمكين .

ولقد نال من ذلك أذىً كبيرا، حيث كسرت رباعيته، وشج وجهه الشريف في غزوة أحد وأثخنته الجراحة - بنفسي هو وأبي وأمي وما ملكت يداي صلى ا لله عليه وسلم - وهو مع ذلك صابر محتسب، لا يلوي، ولا يولي الأدبار، كما يفعل كبار الأبطال، فلم يزد على أن قال: "اشتد غضب ا لله على قوم فعلوا بنبيه - وأشار إلى رباعيته -"(١).

أو أن قال: "كيف يفلح قوم شجُّوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى ا لله، فلم يلبث أن أنزل ا لله عليه: ﴿ ليس لك من الأمْرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يُعذِّبَهم فإنَّهم ظالمون ﴾"(٢)[سورة آل عمران:١٢٨] يعاتبه ا لله على ذلك ، ومنه تعلم أن صبره عليه الصلاة والسلام كان مراداً لله تعالى لعظم قدره عنده، لأن الامتحان والبلاء على قدر المنزلة كما جاء في الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب ما أصاب النبي صلى ا لله عليه وسلم من الجراح يوم أحد ١٢٩/٥، ومسلم في الجهاد، باب اشتد غضب ا لله على من قتله رسول ا لله صلى ا لله عيه وسلم برقم ١٧٩٣ من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء ١٢٧/٥، تعليقا، ومسلم مسندا في الجهاد، باب غزوة أحد برقم ١٧٩١ من حديث أنس رضي ا لله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء من رواية مصعب بن سعد عن أبيه برقم ٢٣٩٨، وقال الترمذي: حسن صحيح، والدارمي في الرقاق ٣٢٠/٢، وابن ماجة في الفتن، باب الصبر على البلاء برقم ٤٠٢٣، وقال البوصيري في الزوائد ٣٠٢/٢: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرجه البخاري ترجمة في كتاب الطب ١٤٩/٧، والحاكم في الرقاق ٣٠٧/٤،وصححه، وسكت عنه الذهبي =

وحديث: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء .."(١) .

ولعل هذا هو سر تكرار أوامر الله عز وجل له صلى الله عليه وسلم بلزوم الصبر كما في قوله تعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ واصبر وما صبرُكَ إلا با لله ﴾[سورة النحل:١٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾[سورة طه:١٣٠]، وقوله عز شأنه: ﴿ فاصبر إنَّ وعد الله حقٌّ ﴾ [سورة الروم:٦٠]، وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ واصبر لحكم ربِّك فإنَّك بأعيُنِنا ﴾[سورة الطور:٤٨]، إلى غير ذلك .

وقد لبَّى تكليف ربه بذلك وطبقه أيما تطبيق، كما علمته من خلال هذه المواقف العظيمة المقتطفة من مواقفه الكثيرة في الصبر في كل مجالات الحياة، إذ لم يكن صبره صلى الله عليه وسلم قاصرا على عناء الدعوة والجهاد، بل وعلى لأواء الحياة كذلك .

٨ - صبره صلى الله عليه وسلم على لأواء الحياة وشدتها:

فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لقد أُخِفتُ في الله، وما يخاف أحد، وقد أوذيت في الله، وما يُؤذَى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لي طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال"(٢) .

ولعل صبره عليه الصلاة والسلام على مقاطعة قريش الاقتصادية له صلى الله عليه

= وأخرج الحاكم أيضا نحوه من حديث فاطمة بنت اليمان في الطب ٤٠٤/٤، وأخرجهما معا البيهقي في شعب الإيمان ١٤٢/٧ - ١٤٣، برقم ٩٧٧٤، ٩٧٧٥، ٩٧٧٦ .

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء من حديث أنس رضي الله عنه برقم ٢٣٩٦، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء برقم ٤٠٣١، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤٤/٧ برقم ٩٧٨٢، وحسن إسناده الألباني في الصحيحة برقم ١٤٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم ٢٤٧٢، وقال: حسن غريب، وفي الشمائل برقم ١٣٧، والإمام أحمد في المسند ٢٨٦/٣، وابن حبان كما في موارد الظمآن برقم ٢٥٢٨، والبغوي في الأنوار برقم ٤٤٤، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٥٢٥٣: إسناده صحيح .

وسلم، ولبني عمومته بني هاشم والمطلب ثلاث سنين حتى مستهم الشـدة، لخير دليل على كمال صبره صلى الله عليه وسلم في ذات الله تعالى، وأنـه لا يبـالي بالشـدائد التي تناله في حياته؛ لأنها من الصبر الذي أكده الله تعالى عليه في خطاباته الكثيرة له صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي مزيد إيضـاح لبيـان صـبره في هـذا الجـانب، في مبحـث (زهـده عليـه الصـلاة والسلام) وفي مبحث (دعوته وبلاغه) إن شاء الله تعالى(١) .

---

(١) انظر ص١٠٦٨ من هذا الكتاب .

المَـبْـحَـثُ الثَّالثُ

(خلق التَّواضع)

التواضع في اللغة: يعني التذلل، يقال: تواضع الرجل إذا تذلل وتخاشع، أخذا من وضعه يضعه: إذا حطه؛ لأن المتواضع حط من قدر نفسه ورتبته .

ويقال: وضع الرجل يُوضع ضَعِة: أي صار وضيعا، ووضع منه فلان أي: حط من درجته وقدره(١) .

والفرق بين التواضع والضِّعة: أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضِّعة: وضع الإنسان نفسه بمحل يُزري به(٢) .

ومادة التفاعل تعني تكلف ذلك الفعل وهو هنا يعني تكلف الذل والانكسار لله تعالى وللمؤمنين، إذ لا يسمى تواضعا إلا إذا كان بإظهار الضِّعة عن علو المنصب، وهو في الحقيقة رفيع .

أما من كان وضيعا في الأصل فلا يقال لما يبديه من التذلل:تواضع، لأنه لم يتكلفه بل هو صفته، قال الراغب: "التواضع اشتقاقه من الضعة، وهو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته، وفضيلته لا تكاد تظهر في أفناء الناس(٣) لانحطاط درجتهم، وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم، قال: وهو من باب التفضل لأنه ترك بعض حقه"(٤) .

أما في العرف الشرعي: فهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق(٥)، أو هو إظهار التنزل من المرتبة لمن يريد تعظيمه(٦) .

---

(١) الصحاح للجوهري ١٣٠٠/٣، والقاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٥٤٣/٥ .

(٢) إتحاف السادة المتقين ٣٥٠/٨ .

(٣) هم الذين لا يدرى من أي قبيلة هم .

(٤) الذريعة ص ٢٩٩، وانظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٥ .

(٥) إتحاف السادة المتقين ٣٥٠/٨ .

(٦) شرح المناوي على شمائل الترمذي ص ١٢٨ .

منزلة خلق التواضع بين الأخلاق :

(والتواضع من أجل أخلاق المؤمنين؛ لأن به يعرف المرء نفسه وحقيقته، فلا يهلك بالأخلاق المنافية له كالكبر والعجب والغرور، وبذلك يسلم إيمانه وإسلامه من آفات مساوىء الأخلاق الكبيرة تلك كما لا يتم التقوى إلا بالتواضع(١)) .

ولذلك عني به القرآن الكريم عناية كبيرة حثا عليه، وتنويها بأهله، وتحذيرا من ضده .

أما الحث عليه والتنويه بأهله فقد كان في آيات كثيرة، ولكن من معنى مادة (وضع) لا من لفظها، إذ لم يرد لفظ التواضع في القرآن الكريم .

الحث عليه في القرآن الكريم :

ومما ورد في الحث عليه قوله تعالى: ﴿ ولا تَمشِ في الأرضِ مَرَحا إنَّك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾[سورة الإسراء:٣٧]، وقوله تعالى:﴿ ولا تصعِّر خدَّكَ للنَّاس ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍفَخُور * واقصِد في مشيِكَ واغضُض مِن صَوتِك إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصوتُ الحمير ﴾[سورة لقمان:١٨،١٩]

فإن هذه الآيات تنهى عن الأخلاق المنافية للتواضع من الكبر والخيلاء، إذ تبين آية الإسراء حقيقة الإنسان من أنه لم يبلغ حدا يدعوه إلى الكبر والتبختر؛ "لأنه إنما يكون بكثرة القوة، وعظم الجثة، وكلاهما مفقود في ابن آدم"(٢) فعليه إذاً أن يتخلى عن هذه الخَلَّة

وفي الآية تهكم شديد، وتقريع بليغ على من يفعل ذلك، وكفى به زاجرا لمن ألقى السمع وهو شهيد، لاسيما أن الله تعالى قد ذيل تلك النواهي بقوله: ﴿ كلُّ ذلك كان سَيِّئُه عند ربِّك مَكروها ﴾[الإسراء:٣٨] أي مبغَضا لديه، وإذا كره الله تعالى خلقا كره المتخلِّق به لأنه متصف بمساوىء الأخلاق تلك، وقد ورد "إن الله يحب معال الأمور ويكره

---

(١) انظر الأحياء للغزالي ٢٩٧/٣ .

(٢) روح المعاني ٧٥/١٥/٥ .

ساسفها"(١)، وفي رواية: "معالي الأخلاق"(٢) ، وحيث كان صاحب هذه الأخلاق مكروها عند الله تعالى، فذلك يعني أنه مبغض لديه، ومن كان كذلك فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين .

وفي الآية أيضاً دعوة واضحة إلى التحلي بمكارم الأخلاق من التواضع واللين، ومعرفة قدر النفس، لأن النهي عن الشيء، أمر بضده كما هو معلوم .

وآية سورة لقمان فيها النهي الصريح أيضا عن رُعونات النفس من الكبر والبطر والأشر والاحتقار للناس، والأمر بضده وهو التواضع والقصد في الأمور صراحة بعد أن علم بالمفهوم من النهي السابق، وذيل الله تعالى النهي والأمر بما ذيل به النهي السابق من عدم رضاه وسخطه على المتحلين بتلك الصفات، فقال سبحانه: ﴿ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُور ﴾ وعدم محبته لمن كان ذلك يعني بغضه له، كما دلت عليه الآية السابقة .

وفي هذا من الدلالة على الحث على التواضع ما فيه الكفاية للمؤمن .

التنويه بالمتواضعين :

غير أن القرآن الكريم لم يقتصر على ذلك، بل لقد نوه بالمتواضعين أيما تنويه حيث قال الله جل ذكره: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الذين يَمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطبَهم الجاهلونَ قالوا سلامًا ...﴾[سورة الفرقان:٦٣] .

فنعت الله تعالى من اختصه بالعبودية له سبحانه بنعوت كثيرة، استهلّها بنعت التواضع الذي دل عليه مشيهم في الأرض هونا، أي: بسكينة وتواضع، وتعاملهم مع من يجهل عليهم من بني الإنسان،حيث لا يجهلون عليهم بمثل جهلهم، وإنما يعرضون عن ذلك، ويخاطبونهم بما ينبغي أن يقال: وهو السلام .

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ١٩١/٨ إلى الطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: ورجاله ثقات .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع إلى الطبراني في الأوسط، من حديث جابر ومن حديث سهل بن سعد، المجمع ١٩١/٨، قال: وفيه من لم أعرفه، ولكنها تفسر الأمور الواردة في الرواية الأولى من أنها الأخلاق .

وهذا تنويه عظيم بالمتواضعين حيث وصفهم الله تعالى بالعبودية له، وذلك أعظم تشريف لهم، لأن العبودية له سبحانه، هي أشرف الأوصاف، ومن أعلى مراتب المحبين، وبذلك يتفاخرون، ولذلك يقول الشاعر المسلم :

وممـا زادنـي شـرفا وتيها ... وكدت بأخمَصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيَّرت أحمـدَ لي نبيا

ولذلك نسبت العبودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشرف مناسبة له في حياته وأعظمها، وذلك ليلة الإسراء والمعراج حيث نال أعظم التكريم، وغاية التبجيل، إذ أدناه ربُّه من حضرته، وأوحى إليه في ذلك المقام ما أوحى، ومع ذلك وصفه بالعبودية حيث قال: ﴿ سبحانَ الَّذي أسرى بعبدِه ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ...﴾ [سورة الإسراء:١]، فكفى بالمتواضعين شرفا وفخرا أن الله وصفهم بالعبودية له سبحانه.

بيان عِظم منزلة المتواضعين عند الله تعالى :

ومع ذلك فلم يقتصر التنويه بهم والثناء عليهم على ذلك، بل لقد أبان سبحانه وتعالى عن محبته لهم، ومحبتهم له حيث قال: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا من يَرتَدَّ منكم عن دينِه فسوف يأتي الله بقوم يُحبُّهم ويُحبُّونَه أذلةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرين يُجاهدون في سبيل اللهِ ولا يَخافون لَومةَ لائم ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يَشاءُ والله واسع عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] ، وقد وشَّح المحبة المتبادلة بذكر الصفات الإيمانية الموجبة لمحبته لهم، وكان من أبرز تلك الصفات اتصافهم بالتواضع المعبر عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أذلَّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ﴾، قال الحافظ ابن كثير: "هذه صفات المؤمنين الكمَّل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه كما قال تعالى: ﴿ محمَّدٌ رسولُ الله والذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم ﴾"[سورة الفتح:٢٩](١) .

وقد مضت الإشارة إلى ما تعنيه المحبة الإلهيَة للعبد من التكريم والإنعام في الدنيا والآخرة(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧٠/٢ .

(٢) انظر ص ١٩٠

فاستبان من هذه الآيات المكانة السامية للمتواضعين عند الله، وهي المكانة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "... وما تواضع أحد لله إلا رفعه"(١) .

ذم الكبر وأهله :

ولكنها تستبين أكثر عندما يُعلم الخُلق المقابل له وهو الكبر الذي حذر الله تعالى منه أيما تحذير، وأعد لأهله بئس المصير، إذ هو والتواضع على طرفي نقيض، فمن لم يكن متواضعا فهو متكبر، وقد قال الله تعالى: ﴿ إنَّه لا يُحِبُّ المستكبرين ﴾[سورة النحل:٢٣]، ومعنى ذلك أنه يبغضهم لا لذواتهم ولكن لأخلاقهم، ولما كانوا منه تعالى على ذلك الحال؛ أعد لهم عذابا أليما في الآخرة كما تحدثت عنه الآيات الكثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿ أليسَ في جهنمَ مثوىً للمتكبِّرين ﴾[سورة الزمر:٦٠]، والجواب: بلى، ومنها قوله: ﴿ ادخُلوا أبوابَ جهنَّم خالدين فيها فبِئسَ مثوى المتكبِّرين ﴾[سورة غافر:٧٦]، وإنما كان ذلك جزاؤهم لأنهم نسوا أصل فطرتهم، ونازعوا الله تعالى فيما اختص به نفسه من الكبرياء، إذ هو الكبير المتكبر المتعال وحده لا شريك له، فمن نازعه شيئا من ذلك عذبه، كما جاء في الحديث(٢)، ناهيك عما ينشأ عن الكبر من مفاسد عظيمة تحطم محاسن الأخلاق "إذ لا يقدر المتكبر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من العزة ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يداوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٥٨٨ .

(٢) الذي أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الكبر برقم ٢٦٢٠ من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئا منهما عذبته" وأخرجه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر برقم ٤٠٩٠ .

الإزراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز، وما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر والعز مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوت عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه حبة من كبر كما جاء في الحديث"(١) .

وذلك لأن الله تعالى قد طبع على قلب المتكبر كما قال جل ذكره: ﴿ كذلك يَطبَعُ اللهُ على كل قلبِ متكبرٍ جبَّار ﴾[سورة غافر:٣٥]، وحيث إنه قد طبع على قلبه فلا يدخله خير أبدا، لأن قلبه لم يعد قابلا للخيرات الإيمانية أو الأخلاقية، لاجرم فقد قال الله تعالى: ﴿ سأصرفُ عن آياتي الّذين َيتكبَّرونَ في الأرض بغيرِ الحقّ وإن يَـروا كـلَّ آيـةٍ لا يُؤمنـوا بها وإن يَروا سبيلَ الرُّشد لا يَتَّخذوه سـبيلا وإن يَروا سـبيلَ الغَيِّ يَتَّخـذُوه سَبيلا ذلك بأنَّهم كذبوا بآياتِنا وكانوا عنها غَافلين ﴾[سورة الأعراف:١٤٦] .

فلا بدع إذا أن يكون جزاؤهم ما قال الله تعالى عنه: ﴿ فاليومَ تُجزون عذابَ الهوُن(٢) بما كنتم تستكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقّ وبما كنتم تفسُقون ﴾[سورة الأحقاف:٢٠]، وذلك بخلاف المتواضعين الذين ﴿ يُجزون الغرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تحيَّـةً وسـلاما * خـالدين فيها حسُنَت مُستقرًا ومَقاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

---

(١) الإحياء للغزالي ٣/٢٩٧، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر برقم ٩١، وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الكبر برقم ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الكبر برقم ١٩٩٩، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" .

(٢) أي: الهوان اهـ، تفسير الجلالين ٢/٢٤٥

(٣) أي: الدرجة العليا في الجنة، المرجع السابق ٢/٨٨ .

تمثل خلق التواضع في النبي صلى ا لله عليه وسلم

لئن كان التواضع أحد أسس أخلاق المؤمنين، فإنه أيضا تاج أخلاق النبيين لما يعنيه من الانكسار بين يدي رب العالمين، وحسن التعامل مع المؤمنين، ولذلك أثنى ا لله تعالى به على أنبيائه فقال مثنيا عليهم: ﴿ إِنَّهم كانوا يُسارعون في الخيراتِ ويَدعونَنا رغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشِعين ﴾[سورة الأنبياء:٩٠] أي: متواضعين(١)، وهو وصف دائم لهم في العبادة، والسلوك الفردي والاجتماعي كله، ولذلك وصفهم ا لله تعالى بالعبودية له سبحانه التي تعني كمال التواضع والإخبات له جل شأنه، كما قال سبحانه: ﴿ واذكر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار ﴾[سورة ص:٤٥]، وقال عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ إنَّهما من عبادِنا المؤمنين ﴾[سورة الصافات:١٢٢]، وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿ نعمَ العبدُ إنَّه أوَّاب ﴾[سورة ص:٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات، وقال عن سيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم وعليهم أجمعين: ﴿ سبحانَ الذي أسرى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرام ... ﴾ فكلهم متحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى التي تعني كمال الخضوع والتواضع لله عز وجل ولعباده المؤمنين .

ونبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم كان في ذِروة الذُّرا من هذا الخلق العظيم في كل صوره وأشكاله، ولا غرابة في ذلك فهو الذي أدبه ربه وأحسن تأديبه، وكان مما أدبه ا لله تعالى في هذا الخلق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجًا منهم ولا تَحزن عليهم واخفِض جناحَك لِلمؤمنين ﴾[سورة الحجر:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ واخفِض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين ﴾[سورة الشعراء:٢١٥] .

وخفض الجناح كناية عن التواضع لهم، والرفق بهم(٢)، وقد قام النبي صلى ا لله عليه وسلم بذلك حق القيام حتى شهد ا لله تعالى له بذلك في غيرما آية كقوله تعالى: ﴿ فبِما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم ولو كنتَ فظًا غَليظَ القلب لانفضُّوا من حولِك ... ﴾

---

(١) تفسير الجلالين ٤٦/٢ .

(٢) روح المعاني ٨٠/١٤/٥ .

[سورة آل عمران:١٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿ لقد جاءَكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

وقد ظهر أثر هذا التواضع في كل أحواله صلى الله عليه وسلم الذاتية والاجتماعية والأسرية،وفي كل زمان ومكان بحيث لا يخلو حال من أحواله صلى الله عليه وسلم عن التواضع لله تعالى والمؤمنين .

تواضعه صلى الله عليه وسلم في ذاته :

أما تواضعه في ذات نفسه، فيشهد له ما أخرجه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر :

١ ـ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تَطرُوني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبده فقولوا:عبدُ الله ورسوله"(١) .

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك: أمِلكاً أجعلك أم عبدا رسولا ؟ فقال له جبيريل: تواضع لربك يا محمد، فقال صلى الله عليه وسلم: "بل عبدا رسولا"(٢) .

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متّى"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ ٢٠٤/٤ .

(٢) أخرجه ابن حبان ٩٥/٨ من الإحسان، وأحمد في المسند ٢٣١/٢، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢/٩ إلى أحمد والبزار قال: ورجالهما رجال الصحيح، وإلى أبي يعلى أيضا .

وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢١٣، وابن سعد في الطبقات ٣٨١/١، والبغوي في الأنوار برقم ٤١٥، وفي شرح السنة برقم ٣٦٨٣، وعزاه الهيثمي إلى أبي يعلي قال: وإسناده حسن، المجمع ٢٢/٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ١٩٣/٤، وأخرجه مسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس علسه السلام برقم ٢٣٧٧ .

وهذا من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإنه أفضل الأنبياء مطلقا كما دلت على ذلك دلائل كثيرة(١)، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم :

٤ - "لا تخيّروني على موسى، فإن الناس يَصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش،فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله"(٢).

وهذا مع علمه عليه الصلاة والسلام بأنه سيد ولد آدم كما أخبر هو عن نفسه بقوله صلى الله عليه وسلم:

٥ - "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"(٣) .

٦ - وبقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة"(٤) .

٧ - وفي رواية: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولافخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض"(٥) .

ولكنه نهى عن ذلك هضما لنفسه وتواضعا لربه وإخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه

---

(١) انظر شرح مسلم للنووي ١٣٢/١٥، وفتح الباري ٢٠٦/١٣، وللشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري عافاه الله تعالى كتاب بعنوان (دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين)، وحكى في مقدمته الإجماع عى ذلك فانظره، وانظر ص ٨،٩، على الخصوص .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب وفاة موسى وذِكرُه بعده ١٩٢/٤ من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق برقم ٢٢٧٨ من حديث أبي هريرة، وأبو داود في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام برقم ٤٧٦٣، والترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٦١٥ من حديث أبي سعيد، وفي التفسير برقم ٣١٤٨ .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء ١٠٥/٦، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) هذه إحدى روايات الترمذي للحديث السابق، وقال عنها: حسن صحيح .

عليهم أجمعين(١)، جريا على ما كان متحليا به من التواضع الجمّ وهضم النفس.

وكم له من مشاهد عظيمة تدل على مواقف عملية من لينه وتواضعه صلى الله عليه وسلم غير ما ذكر ومن أجلّ تلك المشاهد :

١ ـ أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحا منتظرا مظفّرا، دخلها "وهو مطأطئ رأسه، حتى كان يمس قادمة رحله(٢) ، كما جاء في حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما(٣)، وهو في هذا اليوم في قِمّة النصر، وأوج العزة، وهذ الحال لا تكاد تتمالك النفس معه من الفخر والخيلاء، لعظم النصر وعزته ونشوته، بل تطيش موازين الأخلاق، وينفلت زمام التّصنّع عند ملوك الدنيا وأرباب الدول، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من هؤلاء في شيء، لأنه يستشعر دائما أنه عبد الله ورسوله، وأن النصر الذي حققه ليس لنفسه حظ فيه، إنما هو من الله و لله وفي الله، وكان لهذا الشعور والإحساس في قمة الإذعان له سبحانه الذي مكّنه منه، ليزداد به زُلفى لديه، وهذا دليل جلي على ثبات أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة في جميع أحواله، وأنها لا تتغير ولا تتبدل تبعا للظروف والأحوال، وأنه في حال العسر واليسر والغنى والفقر والهزيمة والنصر سواء، مثله في ذلك كمثل كلمات الله وسننه التي لا تتبدل ﴿ ولن تجدَ لسُنّة الله تبديلا ﴾[سورة الأحزاب:٦٢] .

---

(١) انظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٢٧/٨ .

ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، ولو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي) الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله صلى الله عليه وسلم للذي قال له: يا خير البرية، فقال: ذاك إبراهيم . أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) هي الخشبة التي في مقدمة كور البعير. النهاية ٢٧/٤ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ٦٨/٥ ـ ٦٩ ، والحاكم في المستدرك ٤٧/٣، وأبو يعلى في مسنده ١٢٠/٦، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وذكره ابن إسحاق في سيرته كما في سيرة ابن هشام ٩١/٤، وعنه ابن كثير في البداية والنهاية ٢٩٣/٤ .

قال الحافظ ابن كثير: "وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم، بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود(١) يقولون:حِطَّة(٢)، فدخلوا يزحفون على أستاههم(٣) وهو يقولون: حنطة في شعره(٤)».

وقال بعضهم:(٥)«إنه لمن الميسور أن يظهر الإنسان بمحاسن الأخلاق وهو في ضيق من العيش، ومن السهل أن يظهر الحلم والتواضع في حالتي الفقر والشدة.. ولكن إذا رأينا رجلا ذا منصب رفيع يظهر التواضع في وقت يستطيع أن يكون متكبرا حق لنا أن نقول: إنه على خلق عظيم"(٦) .

وما أجمل هاتين الكلمتين الدالتين على الفارق العظيم بين الحالين، وتدرك من خلالهما عظمة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا ريب ولا امتراء .

ولقد كلمه رجل في هذا اليوم فأخذته الرعدة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "هوِّن عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد"(٧) .

فما أعظم هذا التواضع الذي يتحلَّى به النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جعله يعود

---

(١) يعني ركعا .

(٢) أي: حط عنا خطايانا .

(٣) أي: على أعجازهم .

(٤) البداية والنهاية ٤/٢٩٣ .

(٥) هو الأستاذ خوجه كمال الدين .

(٦) المثل الأعلى في الأنبياء ص ١٣٦ .

(٧) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب القديد برقم ٣٣١٢، وابن سعد في الطبقات ١/٢٣، والخطيب البغدادي في التاريخ ٦/٢٧٧، ٢٧٨ ،من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال البوصيري في مصباح الزجاجة رقم ١١٤١: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والقديد: هو اللحم المملوح المجفف في الشمس. النهاية ٤/٢٢ .

بذاكرته إلى حاله الأول من البساطة وقلة ذات اليد، ويذكر نفسه بماضيه العريق بالبساطة، وذلك ليؤنس الرجل المرهوب .

٢ - ولما حج حجته المشهورة - حجة الوداع - ومعه من المسلمين نحو مائة ألف، وهو صلى ا لله عليه وسلم إمامهم يصدرون عن أمره ونهيه، ويترقبون حركاته وسكناته ليقتدوا به في أداء المناسك، ومع ذلك فقد كان في غاية التواضع لله تعالى وللمؤمنين إذ (حج على رحل رث، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: "اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة"(١) ، (وكانت راحلته زاملته(٢))، مع كثرة ما ساق من الهدي في حجته هذه، ولا مانع من أن يجعل إحدى تلك الهدايا زاملة له، فقد كان يأمر أصحابه بذلك(٣)، ولكنه ترك ذلك تواضعا لله تعالى .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٢٣، وابن ماجه في المناسك، باب الحج على الرحل برقم ٢٨٩٠، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٢ من حديث أنس رضي ا لله عنه، وضعف إسناده البوصيري في المصباح ١٢٧/٢، لكن للحديث متابع عند البخاري وهو الحديث التالي لهذا الحديث، وقال الألباني في مختصر الشمائل ص ١٧٧ برقم ٢٨٨: "رواه الضياء - المقدسي - في المختارة من طريق أخرى عن أنس، وله شاهد عن ابن عباس، قال: وكل ذلك مخرج في الصحيحة برقم ٢٦١٧، وانظر شمائل الترمذي بتحقيق سيد بن عباس الجليمي ص ٢٧٤ - ٢٧٦ لتقف على طرقه وشواهده .

(٢) كما جاء في البخاري تعليقا بصيغة الجزم من حديث أنس في المناسك، باب الحج على الرحل ١٦٤/٢ . والزاملة: هي البعير الذي يحمل عليه المسافر متاعه، إضافة إلى راحلته التي يركبها، والمعنى: أن النبي صلى ا لله عليه وسلم كان له بعير واحد يركبه ويحمل عليه متاعه، وهذا دليل على كمال تواضعه .

(٣) كما أخرج البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول: ويلك ٤٦/٨ من حديث أنس رضي ا لله عنه، أن النبي صلى ا لله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها ويلك" وعن أبي هريرة رضي ا لله عنه نحو ذلك، وفي المسند ١٢١/١ عن علي رضي ا لله عنه نحوه .

تواضعه لله تعالى :

وكما كان صلى الله عليه وسلم متواضعا في ذات نفسه، فقد كان من أجل مظاهر تواضعه في نفسه أن يظهر هذا التواضع لخالقه جل وعلا، الذي هو أحق بأن يتواضع له تواضعا بليغا؛ لأنه هو صاحب الكبرياء والعظمة والإنعامات العظيمة المتتالية، فهو أجدر بأن تخضع الأنوف لجبروته وكبريائه، وتخضع الرقاب لعزته، وأن يظهر التمسكن بين يديه، والذل والافتقار إليه، وقد كان عليه الصلاة والسلام من التواضع لله جل وعلا على حال لم يكن عليه حال أحد قط كما علمت من حاله عند دخوله مكة فاتحا منتصرا .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم لله جل وعلا أنه كان يسجد له سبحانه في الماء والطين، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال:«حتى رأيت الطين أثر في جبهته"(١) .

وكم هناك من صور تدل على كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم لربه جل وعلا، نكتفي منها بما ذكر .

تواضعه مع أصحابه :

أما تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فإن الأخبار في ذلك تفيد أنه كان على حالة بحيث لم تعرف الإنسانية تواضعا مثله لأحد من البشر مع أصحابه ومجتمعه وأمته،

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من لم يمسح جبهته وأنفه حين يصلي ٢٠١/١، ومسلم في الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقاتها برقم ١١٦٧ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وانظر بالإضافة إلى الأدلة المسوقة هنا:شهادات المستشرقين على ذلك في الباب السادس في الأرقام التالية.٤٥٥، ١٤٠٧، ١٤٥٨-١٤٥٨

فقد كان عليه الصلاة والسلام على عظمته عند الله تعالى وعند الناس لم يكن إلا كأحدهم في كل أحواله صلى الله عليه وسلم الاجتماعية كما تدل على ذلك الدلائل الآتية:

١ - فقد كان يأتي الرجل الغريب وهو صلى الله عليه وسلم بين ظهراني أصحابه فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل، كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قالا: "فطلبنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دُكّانا(١) من طين، فكان يجلس عليه ونجلس بجانبه(٢)" .

فلم يكن يتميز عليهم بمجلس ولا هيئة، كما هو شأن أهل الدنيا، بل كان كأحدهم بحيث لا يفطن له، فلما دعت الحاجة إلى أن يجعل له علامة تميزه، لم يشأ أن تكون أُبّهة عظيمة، ولا شارة جسيمة، وإنما اكتفى بدكّة ترفعه قليلا، ومع ذلك فلم ينفرد بها، بل كان أصحابه يجلسون إلى جنبه، فأي ميزة امتاز بها صلى الله عليه وسلم عن أصحابه بعدئذ ؟ فصلى الله وسلم على سيد المتواضعين .

٢ - وعن أنس رضي الله عنه قال: "لم يكن شخص أحبَّ إليهم رؤية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك(٣)".

وهذا يدل بوضوح على كمال رغبته صلى الله عليه وسلم في التواضع مع أصحابه حيث لم يكن يقرهم على القيام له مع كمال رغبتهم في ذلك؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يرى لنفسه تميزا عليهم إلا بالرسالة والنبوة، وما زاده هذا الشرف إلا تواضعا لكرم أصله وطيب أرومته .

---

(١) الدكان: هي الدكة المبنية للجلوس عليها. النهاية ١٢٨/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر برقم ٤٦٩٨، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص ٥٠، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٦ برقم ١٤٠، وإسناد أبي داود صحيح، وقال المنذري في المختصر ٦٨/٧: وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه بتمامه من حديث أبي هريرة وحده .

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل برقم ٢٧٥٤، وفي الشمائل برقم ٣١٨، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٣ برقم ١٢٧، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٩٤٦، والبغوي في الأنوار برقم ٣٩٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، قال الألباني في مختصره للشمائل ص ١٧٨: وهو على شرط مسلم .

وكان هينا لينا حتى مع أصغر أصحابه وأقلهم شأنا، يجيب دعوتهم، ويلبي رغباتهم على أي حال كان :

٣ - فعن أنس رضي الله عنه قال: إن امرأة عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: "يا أم فلان اجلسي في أيِّ سكك المدينة شئتِ أجلسْ إليك" قال: ففعلت، فقعد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضت حاجتها"(١) .

٤ - وعنه رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها"(٢) .

٥ - وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "لو دُعيت إلى كُراع لأجبت، ولو أُهدي إلي ذِراع لقبلت"(٣) .

٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدعى إلى خُبز الشعير والإهالة السَّنخة - أي المتغيِّرة الريح - ولقد كان له دِرع عند يهوديٍّ فما وجد ما يفكها حتى مات"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس، وتبركهم به برقم ٢٣٢٦، وأبو داود في الأدب، باب الجلوس في الطرقات ٤٨١٨، والترمذي في الشمائل برقم ٣١٤، والإمام أحمد في المسند ١١٩/٣٠ ٢١٤، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٤، وفي شرح السنة برقم ٣٦٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس، وتبركهم به برقم ٢٣٢٤، والإمام أحمد في المسند ١٣٧/٣، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٥، وفي شرح السنة برقم ٣٦٧٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة، باب القليل من الهبة ٢٠١/٣، والإمام أحمد في المسند ٤٢٤/٢، ٤٧٩، ٤٨١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والكراع ما دون الركبة من الساق اهـ النهاية ١٦٥/٤

(٤) أخرجه البخاري في الرهن ١٨٦/٣، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل برقم ١٢١٥، وفي الشمائل برقم ٣١٦، والنسائي في البيوع، باب الرهن في الحضر ٢٨٨/٧، والإمام =

وقد كان من تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه لم يكن ينشغل عن أصحابه، أو ينسى من يغيب عنه منهم ، بل كان يسأل عنهم، ويعود مريضهم ويتفقد غائبهم :

٧ - فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، قال: وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، وعليه إكاف من ليف"(١) .

٨ - وعن جابر رضي الله عنه قال: "جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس براكبِ بغلٍ ولا بِرْذَونٍ"(٢) .

وكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه إذا ركب دابته لا يأنف من أن يردف أحدا معه عليها إن أمكن، وإلا تناوب معهم في الركوب عليها :

٩ - فقد تقدم معنا من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدَكيَّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج"(٣) .

١٠ - وعن أنس رضي الله عنه أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي صلى الله عليه وسلم،

= أحمد في المسند ١٣٣/٣، ١٨٠، ٢٠٨، ٢٣٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٦، واللفظ له وللترمذي في الشمائل .

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز برقم ١٠١٧، وفي الشمائل برقم ٣١٥، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٢ برقم ١٢٢، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع برقم ٤١٧٨، والبغوي في شرح السنة برقم ٣٦٧٣، وأبو داود الطيالسي برقم ٢٤٢٥، والبيهقي في الدلائل ٣٣٠/١، كلهم من طريق مسلم الأعور وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٦٦٤١، وبه أعله الترمذي، لكن للحديث متابعات عند أبي الشيخ في الأخلاق برقم ١٢٨، ١٢٩ يتقوى بها إن شاء الله تعالى .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، باب عيادة المريض راكبا وماشيا وردفا على حمار ١٥٤/٧ .

والبرذون: هو ما ليس عربيا من الخيل ا.هـ، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ٣٢ .

(٣) متفق عليه وتقدم في الصبر ص ٤٣٣.

ومع النبي صلى الله عليه وسلم صفية(١) يردفها على راحلته(٢) ...» .

١١ - وعن عبد الله بن جعفر(٣) رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء من سفر تُلقِّيَ بصبيان أهل بيته، وأنه جاء من سفر، فسُبق بي إليه، قال: فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، إما حسن وإما حسين، قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة"(٤) .

١٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كلُّ ثلاثةٍ على بعير، قال: وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وكانت إذا جاءت عُقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا: نحن نمشي عنك، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما"(٥) .

---

(١) بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها، من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران صلى الله عليهما وسلم، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة، واعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وتوفيت سنة ٣٦ هـ، ودفنت بالبقيع، انظر: طبقات ابن سعد ١٢٠/٨، وتهذيب الأسماء ٣٤٨/٢، والإصابة ٣٤٦/٤، وسيأتي ذكرها في الباب الخامس .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب قول الرجل: جعلني الله فداك ٥٢/٨ .

(٣) ابن أبي طالب رضي الله عنهما، ولد عبد الله في أرض الحبشة حيث كان أبواه مهاجرين، كان يلقب بـ"بحر الجود" لسعة كرمه، حتى قال الحافظ عبد الغني: لم يكن في الإسلام أسخى منه، يعني بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي بالمدينة سنة ٨٠ هـ، وهو ابن ثمانين سنة، انظر: تهذيب الأسماء ٢٦٣/١، والإصابة ٢٨٩/٢، والاستيعاب بهامشها ٢٧٥/٢ .

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما برقم ٢٤٢٨، وأبو داود في الجهاد، باب في ركوب ثلاثة على دابة برقم ٢٥٦٦، وابن ماجه في الأدب، باب ركوب ثلاثة على دابة برقم ٣٧٧٣، وأحمد في المسند ٢٠٣/١ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٤١١/١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤، وأبو داو الطيالسي في مسنده برقم ٢٤٢٧، وأبو نعيم =

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على تواضعه صلى الله عليه وسلم في مركوبه لله عز وجل وللمؤمنين بحيث كان لا يكاد يخلو من شريك له في دابته، يتعاقب معه، أو يردفه عليها (١) .

وهذا من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم، وهو عظيم الجناب، وأي عظيم في الدنيا يقبل أن يزاحمه أحد في راحلته،أيا كانت قرابته أو محبته غيره صلى الله عليه وسلم..!!

١٣ ـ وقد كان من تواضعه صلى الله عليه وسلم ما أخبر عنه أنس بن مالك رضي الله عنه بقوله: "إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها"(٢) .

١٤ ـ وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر، ويقلُّ اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصِر الخُطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته»(٣) .

= في الحلية ٦/٢٥٤، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٠، وعزاه الهيثمي في المجمع ٦/٧١، إلى البزار قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، إلا أن فيه عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن، وفي التقريب برقم ٣٠٥٤: صدوق له أوهام، حجة في القراءة، قال: وحديثه في الصحيحين مقرون .

(١) أخرج أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢٦٦، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠١ من حديث أنس رضي الله عنه ، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا أو سافر أردف كل يوم رجلا من أصحابه) وفي الحديث مقال .

(٢) أخرجه ابن ماجة في الزهد، باب البراءة من الكبر برقم ٤١٧٧، والإمام أحمد في المسند ٣/١٧٤ ٢١٥، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٦، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٤٧٣٤، وقال البوصيري: إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، ا.هـ، المصباح ٢/٣٣٤ برقم ١٤٨٢، ولكن يشهد له الحديث الذي قبله، وشواهده، وهذا المعنى متواتر عنه صلى الله عليه وسلم .

(٣) حديث صحيح، وتقدم في الذكر ٣٦٤.

فهكذا كان تواضعه عليه الصلاة والسلام مع أصحابه الذين يؤمهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهل رأت عيناك أو سمعت أذناك بتواضع عظيم من العظماء كتواضعه عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ؟! لا جرم: لا .

تواضعه في بيته :

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أسرته وأهل بيته، فإن المرء ليعجب من عظمته مع جنابه العظيم، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عمّا كان يعمل النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم في بيته فقالت:

١ - "يكون في مِهنة أهله - يعني: في خدمتهم - فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة"(١) .

٢ - وفي رواية قيل لها: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته ؟ فقالت: "نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصِف نعله ويُخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته"(٢) .

٣ - وفي رواية أخرى قالت: "كان بشرا من البشر؛ يفلِي ثوبه، ويحلُب شاته، ويخدم نفسه"(٣) .

فهذا نبي الله صلى الله عليه وسلم يقوم بمثل هذه الأعمال، ولا حاجة له في أن يقوم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج ١/١٦٣، وفي النفقات، باب خدمة الرجل في أهله ٧/٨٥، وفي غيرهما .

(٢) أخرجها الإمام أحمد في المسند ٦/١٢١، ١٦٧، ٢٦٠، وابن حبان في صحيحه ٨/١١٩ الإحسان، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٨، وفي شرح السنة ٣٦٧٥، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ١١، ١٢، ١٣، ومعنى يخصف نعله: أي يصلحها بخيط ونحوها وهو الضم والجمع .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/٢٥٦، وابن حبان ٢١٣٦ كما في الموارد، والترمذي في الشمائل ٣٢٥، والبيهقي في الدلائل ١/٣٢٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٩٠، وهذا الحديث روي من غير وجه، وهو يشهد لبعضه بعضا، وأصله في البخاري كما علمت .

بها إلا لكمال تواضعه؛ لأن العمل هذا كان يمكن أن يقوم به أمهات المؤمنين، أو أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مواليه بكل رغبة، ولكنه صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يقوم به بنفسه؛ لكمال تواضعه، فهل بعد هذا من تواضع ؟! .

تواضعه في لباسه :

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم تواضعه في لباسه؛ لأن التواضع في اللباس هو من مظاهر التواضع الكامن في القلب، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"من ترك اللباس(١) تواضعا لله وهو يقدر عليه، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها"(٢) .

وجاء عنه أنه قال: "البَذاذة من الإيمان"(٣)، والبذاذة: هي التواضع في اللباس، والرضا بالدون من الثياب(٤) .

فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يرضى بالأقل من الثياب، كما قال القاضي عياض(٥) رحمه الله تعالى: "كان يلبس ما وجده فيلبس في الغالب؛ الشملة(٦)، والكساء

---

(١) أي: لبس الثياب الحسنة الفاخرة المرتفعة القيمة، تحفة الأحوذي ١٨٣/٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٣٩، برقم ٢٤٨١ من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وحسنه .

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه برقم ٤١٦١، وابن ماجه في الزهد برقم ٤١١٨، والحاكم في المستدرك ٩/١، والطبراني في الكبير ٢٣١/١، والأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم ١٣، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٤١ مصححا له .

(٤) قاله الأصبهاني في الترغيب ٣٦/١، والذهبي في تلخيص المستدرك ٢٩/١، وفي النهاية لابن الأثير ١١٠/١ نحوه .

(٥) هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي، إمام بارع متفنن، متمكن في علم الحديث والأصولين والفقه والعربية، له مصنفات في كل نوع من العلوم المهمة، من أجلها: الشفاء في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، توفي سنة ٥٤٤ هـ، بمراكش، انظر: تهذيب الأسماء ٤٣/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٥/١٢، وتذكرة الحفاظ ١٣٠٤/٤ وغيرها .

(٦) هو كساء يتغطى به، ويتلفف فيه، وهي شبه العباءة، وكل كساء خشن فهو شملة، النهاية ٥٠١/٢، وشرح الشفاء للقاري ٤٧٥/١ .

الخشن(١)، والبرد الغليظ(٢)، ويقسم على من حضره؛ أَقبية(٣) الديباج المخوَّصة بالذهب(٤)، ويرفع لمن لم يحضر(٥)" ثم قال: "إذ المباهاة في الملابس، والتزين بها ليست من خصال الشرف، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه"(٦) .

---

(١) كما دل على ذلك حديث الشيخين؛ البخاري في الخمس، باب ما ذكر من درع النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه وسيفه ... ٤/١٠١، ومسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٠، عن أبي بردة قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن ، وكساء من التي يسمونها الملبدة، فأقسمت بالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض في هذين الثوبين)، وحديثها أيضا الذي ستأتي الإشارة إليه في مبحث الأمانة ص ٥٢٥ رقم (٢) ، الذي جاء فيه: كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبان خشنان غليظان، فقلت: يا رسول الله، إن ثوبيك هذين خشنان غليظان ترشح فيهما فيثقلان عليك ...

(٢) كما دل على ذلك حديث أنس في قصة جذب الأعرابي له صلى الله عليه وسلم، وسيأتي في مبحث حلمه صلى الله عليه وسلم .

(٣) جمع قباء بالمد، وهو المخيط من اللباس، والديباج: نوع من أقبية الحرير .

(٤) أي: المنسوجة بأعلام من ذهب كالخوص .

(٥) ثبت ذلك في صحيح البخاري كتاب اللباس ١٨٦/٧، ٢٠٠، وصحيح مسلم في الزكاة برقم ١٠٥٨، وأصحاب السنن؛ أبو داود في اللباس برقم ٤٠٢٨، والترمذي في الأدب برقم ٢٨١٨، والنسائي في الزينة ٢٠٥/٨، من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبية فلم يعط مخرمة منها شيئا، فقال مخرمة: يا بني انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فانطلقت معه فقال: ادخل فادعه لي، قال مخرمة: فدعوته له، فخرج وعليه قباء منها فقال: (خبأت هذا لك) قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة .

وفي رواية قال: يا بني ادع لي النبي صلى الله عليه وسلم قال: فأعظمت ذلك، وقلت: أدعو لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: يا بني ليس بجبار، قال: فدعوته، فخرج وعليه قباء من ديباج مزرور بالذهب، فقال: "يا مخرمة هذا خبأناه لك" .

(٦) الشفاء في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ٩٥/١ .

قلت: وهذا هو الحال الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما تدل عليه الأدلة الآتية :

١ ـ فقد "كان أحب الثياب إليه القميص"(١)، كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها(٢) .

والقميص اسم لما يلبس من المخيط، الذي له كمان وجيب، يلبس تحت الثياب، ولا يكون من صوف(٣)، "وإنما أحبه لما فيه من مزيد الستر لإحاطته بالبدن بالخياطة، بخلاف الرداء والإزار والشَّملة ونحوها مما يشتمل به، مما يحتاج إلى ربط أو إمساك أو لف أو عقد، إذ ربما غفل عنه لابسه بخلاف القميص"(٤) .

٢ ـ وسئل أنس رضي الله عنه عن أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الحِبَرَة(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في القميص برقم ٤٠٢٥، والترمذي فيه أيضا، باب ما جاء في القميص برقم ١٧٦٢، ١٧٦٣، ١٧٦٤، وفي الشمائل برقم ٥٣، ٥٤، ٥٥، وأحمد في المسند ٣١٧/٦، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٢٤١، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤١، وابن ماجه في اللباس، باب ما جاء في القميص برقم ٣٥٧٥، والحاكم في المستدرك ١٦٢/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٤٦ .

(٢) هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية، كنيت بـ "أم سلمة" بابنها سلمة بن أبي سلمة رضي الله عنها وعنه، أسلمت قديما، وهاجرت الهجرتين إلى الحبشة، والثالثة إلى المدينة، ولها قصة مثيرة الحزن في هجرتها إلى المدينة، وكانت أم سلمة من أجمل النساء وأعقلهن، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة زوجها من جرح أصابه في إحدى السرايا، وذلك سنة أربع من الهجرة، وتوفيت سنة ٦٢ هـ، انظر: طبقات ابن سعد ٨٦/٨، وتهذيب الأسماء ٣٦١/٢، والإصابة ٤٥٨/٤، والاستيعاب ٤٥٤/٤ .

(٣) كما في القاموس المحيط ٣١٥/٢ .

(٤) أفاده المناوي في شرحه على شمائل الترمذي بهامش جمع الوسائل شرح الشمائل لملا علي قاري ١٠٨/١ .

(٥) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرد والحبر والشملة ١٩٨/٧، ومسلم في اللباس والزينة، باب فضل لباس الثياب برقم ٢٠٧٩ .

والحِبَرة: بوزن عِنَبة، برد يمان من قطن، أو كتان مخطط(١) .

فهذان النوعان من الثياب كانا أحبَّ الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

٣ ـ فكان له قميص قطني قصير الطُّول، قصير الكمين(٢) .

٤ ـ وكان إذا لبس القميص أطلق أزراره(٣) .

وهذا يدل على تواضعه وعدم تأنقه في ملبسه وإصلاحه على جسده طالما وقد وارى ما يحتاج إلى مواراته من جسده .

وقد كان يلبس غير هذين النوعين من اللباس مما هو على مثل هذه الشاكلة من التواضع .

٥ ـ فقد خرج ذات يوم إلى المسجد وعليه مُرط مرحَّل(٤) من شعر أسود، كما روت عائشة رضي الله عنها(٥) .

---

(١) النهاية لابن الأثير ٣٢٨/١، والمصباح المنير ١٢٨/١ .

(٢) كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عند أبي الشيخ في الأخلاق ص ١٠٥ برقم ٢٤٥، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٥، وشرح السنة ٢٢/١٢، وفي إسناده مسلم الأعور، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٦٦٤١، لكن لحديثه شاهد يجبره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي الشيخ برقم ٢٥١، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٨ .

(٣) كما جاء في حديث معاوية بن قُرة عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله عليه وسلم في رهط من مزينة، فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم، قال الراوي: فما رأيت معاية قط في شتاء ولا حر إلا مطلق أزرارهما .

أخرجه أبوداود في اللباس، باب حل الإزار برقم ٤٠٨٢، وأحمد في المسند ٤٣٤/٣، ١٩/٤، ٣٥/٥، وأبوالشيخ في الأخلاق ص ١٠٧، برقم ٢٥٤، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٣، وفي شرح السنة برقم ٣٠٨٤ والترمذي في الشمائل برقم ٥٧ ص ٧١، وعزا الألباني تصحيحه إلى ابن حبان يعني في صحيحه ٤٠١/٧ من الإحسان، وصححه هو في مختصر الشمائل ص ٤٦ برقم ٤٨ .

(٤) المرط: كساء من صوف أو خز يؤتزر به، وتتلفع بـه المرأة، والمرحل: الذي نقش فيه تصاوير الرحال، المصباح المنير ٢٣٤/٢، والنهاية ٢١٠/٢ .

(٥) أخرجه مسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس والاقتصار على الغليظ منه واليسير برقم ٢٠٨١ .

٦ - وعنها رضي ا لله عنها أنها أخرجت ذات يوم كساء ملبَّداً(١)، وإزارا غليظا، فقالت: قبض رسول صلى ا لله عليه وسلم في هذين"(٢) .

فهكذا كان تواضع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في ثيابه مع قدرته على أن يلبس أفخر الثياب وأحسنها كما علمت قبل، ولكنه مع ذلك كان يلبس ثيابا حسنة للجمعة والعيدين وتلقّي الوفود(٣) ، لأن ذلك هو اللائق في هذه المقامات .

ومع ما كان يلبس من الثياب المتواضعة، إلا أنه كان أحرص الناس على نقائها ونظافتها:

١ - فعن عائشة رضي ا لله عنها قالت: "جعلت لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها، فلما عرق وجد ريح الصوف قذفها، قالت: وكان يحب الريح

---

(١) أي: مرقعا .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب الأكسية والخمائص ٧/١٩٠، ومسلم فيه، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٠ .

(٣) فقد أخرج مسلم في صحيحه في اللباس برقم ٢٠٦٩: أن أسماء بنت أبي بكر رضي ا لله عنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية - نسبة إلى كسرى ملك الفرس - لها لِبنة ديباج - أي رقعة في جيب القميص - وفرجيها مكفُوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة رضي ا لله عنها، حتى قبضت، فلما قبضت قبضتُها وكان النبي صلى ا لله عليه وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها .

وعن جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما، قال: كان للنبي صلى ا لله عليه وسلم برد أحمر يلبسه في العيدين والجمعة، أخرجه أبو الشيخ ص ١١٩ رقم ٢٩٥، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧٢، والبيهقي في السنن ٣/٢٨٠ .

وعن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يلبس يوم العيد بردة حمراء" أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق ص ١٢٠، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢/٢٠١ إلى الطبراني في الأوسط قال: ورجاله ثقات . وانظر: أبواب لباسه صلى ا لله عليه وسلم في كتب الشمائل تجد الكثير من الأدلة على ذلك .

الطيبة"، وفي رواية قالت: "ما أحسنها عليك !! يُشرب بياضك سوادها، وسوادها بياضك"(١) .

فانظر كيف تجرد من هذه البردة التي كانت أعجبته لما وجد منها ريحة الصوف ، لأنه لا يفضل شيئا على نقاوة الثوب وطيب الرائحة، وبذلك كان يأمر أصحابه وأمته:

٢ ـ فقد رأى يوما رجلا وعليه بُردان وقد أخْلقا(٢)، فنظر إليه فقال:"أماله ثوبان غير هذين ؟"قيل: بلى له ثوبان في العَيْبة، قال:"فادعُه فليلبسهما" فلما ولّى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما له ضرب الله عنقه ؟ أليس هذا خيرا؟" فسمعه الرجل فقال: في سبيل الله يا رسول الله، فقال:"في سبيل الله"(٣) .

٣ ـ وقال أيضا: "إن الله يحب أن يَرى أثر نعمته على عبده"(٤) .

٤ ـ وخاطب أحد أصحابه بقوله : "إذا آتاك الله مالاً فلْيُر أثر نعمة الله

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في السواد برقم ٤٠٧٤، وأحمد في المسند ١٣٢/٦، ١٤٤، ٢١٩، ٢٤٩، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ١١٩ برقم ٢٩٣، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧٨، كلهم من طريق قتادة بن دعامة عن مطرف، وقتادة مدلس من مدلسي المرتبة الثالثة، كما في تعريف أهل التقديس رقم ٩٢، وهي المرتبة التي لا تقبل روايات أهلها إلا إذا صرحوا بالسماع، وهو ما لم يحصل هنا حيث عنعنه، وبقية رجاله ثقات .

والبردة: هي الشملة المخططة، وقيل: هي كساء أسود مربع. النهاية ١١٦/١، والمصباح المنير ٤٩/١ .

(٢) أي: بليا .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب اللباس ٢١٤/٢ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، بإسناد منقطع، ولكنه وصله الحاكم في المستدرك ١٨٣/٤، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وإسناده حسن .

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، من حديث عمرو بن شعيب برقم ٢٨١٩، وقال عنه: حديث حسن .

عليك وكرامته[١]»

مما يدل على أنه صلى ا لله عليه وسلم كان يحبِّذ وسط الأمور كما هو نهجه في كل شيء؛ لأن الإفراط في البذاذة فيه أيضا شهرة وتزكية، فطريق النبي صلى ا لله عليه وسلم أعدل وأتقى[٢]، حيث كان يؤثر التواضع في نوع الثياب والملابس، ويحرص على نظافتها، وحسن رائحتها، وجمال منظرها .

وهكذا فليكن حال المتواضعين، جعلنا ا لله منهم بمنه وكرمه آمين .

(١) أخرجه النسائي في الزينة، باب ذكر ما يستحب من لبس الثياب، وما يكره منها ١٩٦/٨، وأحمد في المسند ٤٧٣/٣، والحاكم في المستدرك ١٨١/٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وقال الألباني في غاية المرام ص ٦٣ رقم ٧٥ عن إسناد أحمد: إسناده صحيح على شرط مسلم، من حديث أبي الأحوص عن أبيه بإسناد صحيح .

(٢) انظر شرح شمائل الترمذي للمناوي والقاري ١١٩/١ .

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

(خُلق الحياء)

الحياء لغة: الانقباض والانزواء .

قال الراغب: "الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك.يقال: حييَ فهو حيِيٌّ، واستحيا فهو مستحي، وقيل: استحى فهو مستح" .

واشتقاقه من الحياة؛ لأن الحِيِّ يكون متنكس القوة، منتقص الحياة، لما يعتريه من الانكسار والتغيير(١) .

وحكى الإمام النووي عن الواحدي قوله: "قال أهل اللغة: أصل الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب، فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة"(٢) .

ويقال في تعريفه أيضا إنه "تغير وانكسار يعرض للإنسان من تَخَوّف ما يُعاب به ويذم عليه"(٣)، ويقال أيضا إنه: "ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة"(٤)، وقيل غير ذلك .

وهذه التعاريف كلها متقاربة المعنى ، وإن اختلفت عباراتها وألفاظها .

أما في الشرع فهو: «خلق يبعث على تجنّب القبيح، ويحضُّ على ارتكاب الحسن، ويمنع من التقصير في حق ذوي الحق»(٥) .

منزلة الحياء في مكارم الأخلاق :

والحياء من أجل مكارم الأخلاق؛ لأنه يدل على طهارة النفس، وحياة الضمير ويقظة

---

(١) المصباح المنير للفيومي ١٧٣/١، والمفردات للراغب ص ١٤٠ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٧٩/٣ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٧٩/٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٢/٢ .

(٤) ميزان العمل للغزالي ص ٨٧ .

(٥) جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري مع شرح المناوي ص ١٧٣، ١٧٤ .

الوازع الديني ومراقبة الله تعالى، إذ من لم يكن ذا حياء "لم يُقْرِ الضيفَ، ولم يف بالوعد، ولم يؤد الأمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر عورة، ولا امتنع عن فاحشة، وكثير من الناس - لولا الحياء الذي فيه - لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقا، ولم يصل له رحما، ولا برَّ له والداً... فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني - وهو رجاء عاقبتها الحميدة - وإما دنيوي علوي - وهو حياء فاعلها من الخلق - وقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق، وإما من الخلائق لم يفعلها صاحبها"(١) .

«وعلى حسب حياة القلب تكون قوّةُ خلق الحياء، فكلَّما كان القلب أحيا كان الحياء أتم، وقلة الحياء من موت القلب والروح»(٢) .

«وهو من شعب الإيمان؛ لأنه يكون باعثا على أفعال البر، ومانعا من المعاصي» (٣) .

ولهذا كان من الأخلاق العليا التي كان للقرآن الكريم بها عناية عظيمة، حيث تحدث عنه بالنسبة لله تعالى، وبالنسبة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالنسبة لبعض المؤمنين .

الحياء في جنب الله تعالى :

أما الحياء في جنب الله تعالى فقد تحدث عنه القرآن الكريم في أكثر من آية، حيث قال الله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ لا يستحييْ أنْ يضربَ مثلاً ما بَعُوضةً فما فوقَها فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلا يُضِلُّ به كثيرا ويَهدي به كثيرا وما يُضلُّ به إلا الفاسقين ﴾[سورة البقرة:٢٦] .

وحيث قال سبحانه: ﴿ والله لا يَستحيِيٌ من الحق ﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

والملاحظ أن نسبة الحياء إلى الله تعالى في القرآن الكريم جاء بأسلوب النفي لمناسبة المقام الذي تحدثت عنه الآيات الكريمات .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٧٧/١ .

(٢) مدارج السالكين ٢٥٩/٢ بتصرف يسير .

(٣) شرح مسلم للنووي ٥/٣ .

فإن الآية الأولى نزلت ردا على من أنكر على الله تعالى ضرب الأمثال بضعيف مخلوقاته كالعنكبوت والذباب، حيث قالوا: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، وجاء أن المشركين قالوا: ما بال العنكبوت والذباب يذكران، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الله لا يَستحيي أن يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ...﴾(١)، لإفادة أنه سبحانه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها(٢)، لأن الكبير والصغير بالنسبة له في الخلق سواء من حيث تساويها في الضعف عنده سبحانه(٣)، ومن حيث تشابهها في إعجاز الخلق .

أما الآية الثانية فإنها نزلت لبيان الحق الذي غاب عن بعض الصحابة، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم بيانه لهم، لأنه يتعلق بذاته الشريفة، فآثر تحمل تبعاته، وإن كان فيه مشقة عليه من باب هضم حقوق نفسه، على ما سيأتي بيانه .

وأبان الله هذا الحق لعباده ليلتزموه بقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخُلوا بيوتَ النبي...﴾ إلى قوله: ﴿ والله لا يَستحيي من الحقّ ﴾ والمعنى: أن إخراجكم حق لا يتركه الله تعالى(٤) ، والحق لا يستحيي من بيانه وإعلانه، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار، ترجيحا منه للعفو عن حقه على المؤاخذة به، فإن الله لا يستحيي من الحق؛ لأن أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه وتعالى ﴿ والله يقولُ الحقَّ وهو يَهدي السبيل ﴾(٥)[سورة الأحزاب:٤] ، فلهذا جاء الحياء في جناب الله تعالى في القرآن الكريم منفيا .

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١/١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٦٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١/٣٦٠ .

(٤) تفسير ابن جزي ٣/١٤٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٢/٨٨ .

على أن بعض أهل التأويل قد استشف من نفي الحياء عنه سبحانه في هاتين الآيتين صحة نسبته له ؛ لأنه في العرف لا يسلب الحياء إلا عمن هو شأنه[١] ، وهو ما أثبتته السنة المشرفة في غير ما حديث :

منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل ليستحيي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين"[٢] وهو من صفات الكمال في حقه سبحانه نثبتها له على مراده من غير تكييف ولا تمثيل .

(وقد تعددت أقوال المفسرين في الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى نفيه، فقيل: معنى لا يستحيي: لا يترك، فعبر بالحياء عن الترك؛ لأنه من ثمرات الحياء؛ لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب .

وقيل المعنى: لا يخشى، وسميت الخشية حياء؛ لأنها من ثمراته أيضا .

وقيل المعنى: لا يمتنع، وكل هذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى، وهذه التأويلات هي على مذهب من يرى التأويل في الأشياء التي موضوعها في اللغة لا ينبغي أن يوصف الله تعالى به)[٣] .

قال الألوسي: "وبعضٌ - وأنا والحمد لله منهم - لا يقول بالتأويل، بل يمر هذا وأمثاله مما جاء عنه سبحانه في الآيات والأحاديث على ما جاءت، ويكل علمها بعد

---

(١) انظر روح المعاني ١/٢٠٦، والتحرير والتنوير ١/٣٦١ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٣٥، وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان برقم ٢٣٩٩ كما في الموارد، ابن أبي شيبة في المصنف ١/٣٤٠، والطبراني في الدعاء برقم ٢٠٢، وقال الحافظ في الفتح ١١/١٤٣: سنده جيد، هو من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١/١٢١ .

التنزيه عما في الشاهد إلى عالم الغيب والشهادة"(١) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأما حياء الرب تعالى من عبده، فذاك نوع لا تدركه الأفهام، ولا تكيِّفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال"(٢) .

الحياء في جنب الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما حديث القرآن الكريم عن الحياء في الجناب النبوي فهو ما جاء في سياق آية الأحزاب السابقة، حيث أشار الله تعالى إلى حيائه العظيم بقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تَدخلوا بيوتَ النَّبي إلا أن يُؤذَنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظِرين إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتشِروا ولا مُستأنسين لحديث إن ذلكم كان يُؤذي النَّبيَّ فيَستحيي منكم والله لا يَستحيي من الحق ...﴾[سورة الأحزاب:٥٣]، وسيأتي الحديث عن هذه الآية عند الحديث عن تمثل هذا الخلق في النبي صلى الله عليه وسلم قريبا إن شاء الله تعالى .

الحياء في مقام المؤمنين :

وأما حديث القرآن عن الحياء عند بعض المؤمنين، فذلك عند حديثه عن ابنة نبي الله تعالى شعيب عليه السلام والتي آلت زوجا لنبي الله موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿ فجاءته إحداهما تَمشي على استحياءٍ قالت إنَّ أبي يَدعوك ليَجزيَك أجرَ ما سقيتَ لنا فلما جاءه وقصَّ عليه القَصصَ قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين ﴾[سورة القصص:٢٥].

وهذا تنويه عظيم بهذا الخلق الكريم من هذه الفتاة المؤمنة بنت نبي وزوجة نبي بأبلغ عبارة تعبر عن الحياء، وهي لفظ (الاستحياء)،إذ الاستحياء مبالغة في الحياء مثل الاستجابة مبالغة في الإجابة، وجاء منكرا لتفخيم أمره، قال الألوسي: "ومن هنا قيل: جاءت متحفِّزة، أي شديدة الحياء، ثم ذكر حديثا من طريق عبد الله بن أبي الهذيل(٣) عن عمر

---

(١) روح المعاني ٢٠٦/١ .

(٢) مدارج السالكين ٢٦١/٢ .

(٣) الكوفي، أبو المغيرة، قال الحافظ في التقريب ص ٣٢٧ برقم ٣٦٧٩: ثقة من الثالثة، مات في ولاية خالد القسري على العراق ا.هـ.

ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "جاءت مستترة بكُمِّ دِرعها على وجهها"(١) .

قلت: ولعل ذكر الحياء في القرآن في مقام المرأة دون غيرها من المؤمنين فيه دلالة على أهمية الحياء في جانب المرأة وإن كان مهما في الرجل والمرأة،إلا أنه في جانبها آكد أهمية لما يترتب على كمال حيائها من درء المفاسد الاجتماعية الناجمة عن تخلّي المرأة عن الحياء في كثير من المجتمعات المشاهدة في عصرنا، وذلك للإشارة إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة في مجتمعاتها من الحياء، بإعطاء هذا المثل الصالح للمرأة المؤمنة الصالحة ليحتذي جنس المرأة به، إذ ذكره بجانبها على ذلك الأسلوب من التنويه حافز للمرأة على التحلي به حتى تكون مثل تلك المرأة المؤمنة، وترشح لمثل ذلك الثناء .

ورود الحياء في القرآن الكريم بمعناه :

هذا عن ذكر مادة الحياء في القرآن الكريم بلفظه .

أما ذكر الحياء فيه بمعناه فذلك في آيات كثيرة جاءت تحث عليه وترغب فيه، كالآيات الدالة على اطلاع الله على العبد في جميع أحواله وتقلباته، وفي نفسه وسلوكه، وذلك ليستحيي عن معصيته إذا علم اطلاعه عليه ومراقبته إياه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يعلمُ خائِنةَ الأَعيُن وما تُخفِي الصُّدور ﴾[سورة غافر:١٩]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تَعمَلون من عمل إلا كُنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضُون فيه ﴾[سورة يونس:٦١]، وقوله سبحانه: ﴿ ألم ترَ

---

(١) روح المعاني ٧/٢٠/٦٤، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٤ .

والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠/٦٠ من طريقين .

وأخرج ابن جرير أيضا بإسناده إلى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) قال: ليست بسلفع من النساء خرَّاجة ولأَّجة، واضعة ثوبها على وجهها تقول: (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)، وذكره من عدة طرق بألفاظ متقاربة .

وعزا ابن كثير هذا الأثر إلى ابن أبي حاتم، وقال: هذا إسناد صحيح، ثم نقل عن الجوهري قوله: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريَّة السليطة، ومن النوق: الشديدة ا.هـ، تفسير القرآن العظيم ٤/٣٨٤، وانظر الصحاح للجوهري ٤/١٢٣١ .

أنَّ الله يعلمُ ما في السَّموات وما في الأرضِ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا ثُمَّ يُنبِّئُهم بما علموا يومَ القيامة إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم ﴾[سورة المجادلة:٧] .

وذكر ابن مفلح(١) في تأويل قوله تعالى: ﴿ ولباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ ﴾[سورة الأعراف:٢٦] فقال: قالوا: هو الحياء، وقالوا: الوقار من الله(٢) .

فإن هذه الآيات وغيرها تذكِّر المرء باطلاع الله تعالى عليه في كل حال من أحواله، وإذا ما تذكر المرء ذلك فإنه يستحيي أن يرتكب أي ذنب، أو يزاول أي رذيلة حياء من الله تعالى ، وهذا أجلُّ أنواع الحياء باعتبار متعلقه، لما يترتب عليه من اجتناب رذائل الأخلاق التي نهى الله عنها، وذلك عند استشعار العبد اطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، أو استشعار عظيم إنعامه تعالى عليه، وعندئذ يحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، ويترك زينة الحياة الدنيا، ويذكر الموت والبلى كما ندب إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم(٣) .

وهذا هو النوع الذي يعنيه بعض الصالحين بقولهم في بيان معنى الحياء إنه "رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تُسمَّى الحياء" .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفي بصالحية دمشق سنة ٧٦٣ هـ، وله مؤلفات كثيرة منها: الآداب الشرعية، والفروع، وغيرها. انظر الأعلام ١٠٧/٧ .

(٢) الآداب الشرعية ٢٢٧/٢، وذُكر في معنى الآية أقوالا أخرى كثيرة، انظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢ ونحوه .

(٣) فيما أخرجه أحمد ٣٨٧/١، والترمذي في صفة القيامة، باب ٢٤ برقم ٢٤٥٨ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: (استحيوا من الله حق الحياء قال الصحابة: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله تعالى حق الحياء أن تحفظ الرأس وما حوى ...)، وقال الترمذي: إنما يعرف من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، يعني والصباح ضعيف كما في التقريب ٢٨٩٨، لكن للحديث شواهد كثيرة يعضد بعضها بعضا، انظر مجمع الزوائد ٢٨٧/١٠، والمعجم الصغير للطبراني ١٧٧/١، والحلية لأبي نعيم ٢٩/٤ .

وهناك أنواع أخرى للحياء بهذا الاعتبار وهي: الحياء من الناس، والحياء من النفس .

أما الحياء من الناس فيكون بكف الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح قولا أو عملا .

وأما الحياء من النفس فيكون بالعِفَّة وصيانة الخلوات(١) .

ولا بد من توفر الحياء في هذه المجالات الثلاث حتى يكون الإنسان حييا كاملا، لأن من استحيا من الله ولم يستح من الناس، فقد استهان بالناس، ومن استحيا من الناس ولم يستح من الله تعالى، فقد استهان بالله جل جلاله، ومن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه، هانت عليه نفسه، ومن هانت عليه نفسه لم يكن أهلا لمكارم الأخلاق"(٢) .

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى تقسيما آخر للحياء باعتبار أنواعه، فذكر عشرة أقسام فقال: "وقد قُسِّم الحياء على عشرة أقسام: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه"(٣) ثم شرح ذلك بما يطول ذكره هنا فلينظر هناك .

وبما تقدم يتبين لنا مبلغ اهتمام القرآن العظيم بخلق الحياء، وتقريره له، وتنويهه به وبأهله، وقد كان أخلق الناس اتصافا به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علمت من تقرير الحياء فيه، وكما سيأتي بيانه فيما يلي :

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٤٣ .

(٢) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٩١/١، وانظر الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٢٨٩ .

(٣) مدارج السالكين ٢٦١/٢ .

تمثل خلق الحياء في النبي صلى ا لله عليه وسلم

لا يحتاج الباحث إلى عناء إن أراد أن يعرف حياء النبي صلى ا لله عليه وسلم ومبلغ كنهه عنده؛ لأن ا لله تعالى قد وضَّح لنا في كتابه الكريم مثالا واحدا من حيائه عليه الصلاة والسلام، وذلك عندما قال سبحانه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا لا تَدخلوا بيوتَ النَّبيِّ إلا أن يُؤذن لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ ولكن إذا دُعيتم فادخُلوا فإذا طعِمتُم فانتَشِروا ولا مُستأنِسينَ لحديث إن ذلكُم كان يُؤذي النَّبي فيَستحيِي منكم وا للهُ لا يستحيِي من الحق ...﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

فإن الصورة تصبح لديه جلية، حيث يعلم أن حياءه عليه الصلاة والسلام حمله على أن يترك أخص حقوق نفسه وأهمها، فلم يجاهر أصحابه ببيانها، وإنما تحمل المشقة من جراء ذلك هضما لحقه، وإيثارا لراحة أصحابه، مما جعل ا لله تعالى يتولى بيان ذلك بنفسه إشفاقا على نبيه، وإعظاما لحقه، وتعليما لعباده كيفية التأدب مع نبيه محمد صلى ا لله عليه وسلم .

١ - وقد روى أنس رضي ا لله عنه قصة هذه الواقعة فقال:« بُنيَ على النبي صلى ا لله عليه وسلم بزينب بنت جحش(١) بخبز ولحم، قال: فأُرسِلتُ على الطعام داعيا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو ، قال: فقلت: يا نبي ا لله ما أجد أحدا أدعوه، قال ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى ا لله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة رضي ا لله عنها فقال: السلام عليكم أهلَ البيت ورحمة ا لله، فقالت: وعليك السلام ورحمة ا لله، كيف وجدت أهلك؟ بارك ا لله لك، فتقرَّى(٢) حُجَرَ نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول

---

(١) الأسدية أم المؤمنين، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، تزوجها النبي صلى ا لله عليه وسلم سنة ثلاث، وقيل: خمس من الهجرة، وكانت قبل ذلك تحت زيد بن حارثة، كما سيأتي بيانه ص٦٨٢، وتوفيت سنة ٢٠ هـ، وهي ابنة خمسين، انظر الاستيعاب ٣١٣/٤، ومعها الإصابة .

(٢) بفتح القاف وتشديد الراء بصيغة الفعل الماضي أي: تتبع الحجرات واحدة واحدة .

لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى ا لله عليه وسلم فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، قال: وكان النبي صلى ا لله عليه وسلم شديد الحياء، وفي روايه مسلم: "فجعل النبي صلى ا لله عليه وسلم يستحيي منهم أن يقول لهم شيئا"

قال: فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة، فما أدري آخبرته، أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفّة الباب(١) داخلة، وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب»(٢) .

فترى كيف حمله الحياء على عدم مواجهة أصحابه بما كان يرغب فيه من خروجهم، إيثارا بحق نفسه وراحة ضميره، حتى كان يدخل ويخرج قلقا من عدم خروجهم، ولم يستطع مشافهتهم بما يوده منهم ؛

٢ ـ لأنه صلى ا لله عليه وسلم "كان أشد حياء من العذراء في خدرها" كما جاء في الحديث(٣) ، فما كان يفصح عمّا يكرهه من أمر الدنيا، ولكن «كان إذا كره شيئا عُرف في وجهه» يعني ولا يستطيع أن يفوه به كما تبين لك من الواقع العملي في هذه القصة، والتي كانت مفعمة بالحياء من أساسها؛

٣ ـ إذ لما أمره ا لله تعالى بالزواج من هذه السيدة الطاهرة، وقد كانت زوجة لمتبنّاه زيد ابن حارثة(٤) لم يستطع مجاهرته بما أراده ا لله تعالى في شأن زواجه بها، وأن

---

(١) هي عتبته العليا، وقد تستعمل في السفلى. ا.هـ المصباح المنير ٣٠٢/١ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٩/٦، ومسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس برقم ١٤٢٩، وورد من طرق أخرى كثيرة، وبألفاظ متقاربة .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى ا لله عليه وسلم ٢٣٠/٤، وفي الأدب، باب الحياء ومن لم يواجه الناس بالعتاب ٣٥/٨، ومسلم في الفضائل، باب كثرة حياء النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٣٢٠ .

(٤) هو أبو أسامة، ابن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرىء القيس، الكلبي نسبا، القريشي الهاشمي ولاء، مولى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهو أشهر مواليه، وهبته له زوجه خديجة رضي ا لله عنها، فأعتقه وتبناه لما اختاره على أبيه وعمه، ومنا قبه جمة. انظر طبقات ابن سعد ٤٠/٣، وتهذيب الأسماء ٢٠٢/٢، والإصابة ٥٦٣/١ .

ا لله تعالى قد اختارها لنبيه صلى ا لله عليه وسلم ليبطل بذلـك عـادة الجاهلية من التبني، وتحريم أزواج المتَبَنِّينَ؛ لأنهم يعاملونهم معاملة الأولاد، فلما أنزل ا لله تعالى في ذلك قرآنا يتلى، وشرعا محكما لا يتغير، عندها لم يكن بوسع النبي صلى ا لله عليه وسلم عدم بيانـه، وإن كان في ذلك حرج عظيم له عند كثير من ضعيفي الإيمان . وقد قـص ا لله تعـالى نبـأ حيائه صلى ا لله عليه وسلم في هذه القضية، وما أبرمه فيها من قضايا فقال: ﴿ وإذ تقـولُ للذي أنعمَ ا للهُ عليه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زَوجَك واتَّـق ا للهَ وتُخفـي في نفسِـك مـا ا للهُ مبديه وتخشَى النَّاسَ وا للهُ أحقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوّجناكها لكـي لا يكونَ على المؤمنين حـرجٌ في أزواجِ أدعيـائِهم إذا قَضـوا منهُـنَّ وَطـراً وكـان أمـرُ ا لله مفعولاً ﴾[سورة لأحزاب:٣٧] .

فكان النبي صلى ا لله عليه وسلم يتحرَّج حياء من بيان ما قد أطلعه ا لله عليـه مما سيؤول إليه أمر زينب رضي ا لله عنها، لأن الناس كانوا يعدُّون ذلك أمرا كبيرا، ولكـن لما كـان شرعا محكما كان لا بد من بيانه، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وتخشـى النـاسَ وا للهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾ أي: تستحيي من قولهم: إن محمدا صلـى ا لله عليـه وسـلم تـزوج زوجة ابنه حسب ما يعهدونه ويعتقدونه(١) .

ثم أبان ا لله تعالى أن الغرض من تلك القصة كلها هو تشريع الـزواج بنسـاء المتبنِّـيْن بعـد فراقهم لهن، حيث قال تعالى: ﴿ لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهم إذا قَضَوا منهُنَّ وطَراً وكان أمرُ ا لله مفعولا ﴾ .

ولقد قضت حكمة ا لله تعالى أن لا يكون تشريع هذه المسألة إلا بهـذه الصـورة العملية؛ لأنها أبلغ في استئصال ذلك المعتقد الفاسد السائد تجاه التَّبنِّي الذي ما كان سـيُجتثُّ مـن أفئدة معتقديه إلا بمثل ذلك الأسلوب العملي، وهذا من حِكم التشريع البليغة، كما جرى مثل ذلك في مسألة فسخ الإحرام يوم الحديبية، ومسألة فسخ الحج إلى الاعتمار في حجة الوداع .

ولقـد دل رد الفعـل الـذي كـان يحـدث عنـد تلـك التشـريعات مـن قِبَـل الأنفـس الـتي

(١) انظر روح المعاني ٢٤/٢٢/٨ .

ماكانت تتوقع حصولها، دل على مبلغ صواب ذلك الأسلوب من التشريع الحكيم، ولا بدع فهو من عند الله الذي قال عن نفسه: ﴿ ألا يَعلمُ من خَلقَ وهو اللّطيفُ الخبير ﴾ [سورة الملك:١٤] .

وقد كان مفتاح هذا التشريع حياء النبي صلى الله عليه وسلم الجم الذي كان يحمله على أن لا يواجه أحدا بشيء يكرهه(١) .

٤ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ؟ ولكن يقول: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا"(٢) .

وما يحمله على عدم التصريح لهم في وجوههم إلا كمال حيائه عليه الصلاة والسلام .

فهذه الأخبار تؤكد مبلغ حيائه عليه الصلاة والسلام، وأن ذلك كان خُلقا عاما في سلوكه، ولكن ما لم يكن ذلك على حساب الحق والشرع الذي جاء به، فإنه حينئذ كان لا يستحيي من بيانه كما قال لأم سليم(٣) لما جاءت تسأله: هل على المرأة غسل إذا هي احتلمت ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا رأت الماء"، فغطّت أم سلمة رضي

---

(١) كما دل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يواجه رجلا في وجهه بشيء يكرهه" أخرجه أبو داود في الترجل برقم ٤١٨٢، باب ما جاء في الخلوق، وفي الأدب، باب حسن العشرة برقم ٤٧٨٩، والترمذي في الشمائل برقم ٣٤٧، وأبو الشيخ في الأخلاق ص٧٠ برقم ١٥٠، والبيهقي في الدلائل ٣١٧/١، كلهم من حديث سلم العلوي، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٢٤٧٣ وغيره، وفي الحديث قصة .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ٣١/٨، وفي الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم، والغلو في الدين والبدع ١٢٠/٩، وأبو داود في الأدب، باب حسن العشرة برقم ٤٧٨٨، واللفظ له، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣٢٢/١٢، رقم ١٧٦٤٩ .

(٣) اختلف في اسمها فقيل: سهلة، وقيل: أنيسة، وقيل: رميثة، وقيل: الرميصاء، بنت ملحان، أم أنس بن مالك رضي الله عنهما، كانت خالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع، وهي من فضليات الصحابيات. انظر طبقات ابن سعد ٤٢٤/٨، وتهذيب الأسماء ٣٦٣/٢، والإصابة ٤٦١/٤ .

ا لله عنها وجهها وقالت:يا رسول ا لله وتحتلم المـرأة ؟ فقـال: نعـم تَربـت يمينُـك، فبـم يشبهها ولدها ؟(١) .

فترى أن النبي صلى ا لله عليه وسلم أجابها في أمر خاص بالنساء يستحيي الرجـال مـن ذكره، و لم يقر أم سلمة زوجه على الحياء في هذا الموطن،وفيمواطن كثيرة تشبهها كان لـه مواقف نحوها من البيان، لأن الحياء في مثل ذلك يكون سببا لعدم البيان، وهـو صلـى ا لله عليه وسلم معصوم عن ذلك، إذ ما أرسله ا لله تعالى (إلا ليبين للناس ما نُزِّل إليهم) .

فلا يكون الحياء حينئذ خلقا محمودا، وهذا دليل علـى تـوازن أخلاقـه صلـى ا لله عليـه وسلم، وأن أخلاقه أخلاقا وسطا، نالت الحمد كله، والوسطية كلها، والتوازن أكمله .

حياؤه مع الخالق جل وعلا :

وإذا كان ذلك حياؤه عليه الصلاة والسلام مع الخلق، فإن حياؤه مع الخالق لا بـد وأن يكون أعظم من ذلك وأكمل، إذ أنـه سبحانه أحق بذلـك مـن خلقـه، كمـا قـال عليـه الصلاة والسلام :

"ا للهُ أحق أن يستحيا منه من الناس"(٢) .

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام حييا من ا لله أكمل الحياء .

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء لموسـى عليـه السـلام الـذي كـان يطلبه مرة بعد أخرى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف مما افترضـه علـى أمتـه صلـى ا لله عليه وسلم من الصلوات الخمسين التي كانت قد افـترضت، فمـا زال يـتردد بـين موسـى عليه السلام وربه جل وعلا، يسأله التخفيـف لأمتـه، فلمـا أكـثر الـتردد علـى ا لله يسـأله

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب الحياء في العلم ٤٣/١، ومسلم في الحيض، باب وجوب غسل المرأة بخروج المني منها برقم ٣١٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الحمام، باب ما جاء في التعري برقـم ٤٠١٧، والـترمذي في الأدب، بـاب مـا جـاء في حفظ العورة برقم ٢٧٩٤ من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وأخرجه البخاري في الغسل، باب من اغتسل عريانا وحده عنه ٧٥/١، تعليقا بصيغة الجزم .

التخفيف، قال لموسى حينئذ: «استحييت من ربي»(١)، وما حمله على الاستحياء إلا بالغ حيائه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الإلحاح في الطلب من الله تعالى مطلوب(٢) .

ولا غرو في أن يحمله الحياء من الله تعالى على ذلك، فإن الله تعالى أحق أن يستحيا منه كما جاء في الحديث الآنف الذكر قريبا .

ولذلك ندب أمته إلى الاستحياء من الله حق الحياء، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه(٣) المتقدم .

تنويهه صلى الله عليه وسلم بخلق الحياء :

وهكذا كان حياؤه صلى الله عليه وسلم شديدا في جميع أحواله وأفعاله وأقواله مع خالقه وأمته وأسرته ونفسه، ولا غرابة في أن يكون حياؤه عليه الصلاة والسلام بهذه المثابة، فإن الحياء خلق الإسلام كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام بلفظ :

١ - "لكل دين خُلق وخُلق الإسلام الحياء"(٤) .

والمعنى: أن خلق الحياء هو أبرز أخلاق الإسلام، وذلك لأنه دليل على الخيرات كما قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) والقصة رواها البخاري في عدة مواضع من صحيحه، منها: في الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة ٩٢/١، وأخرجها مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٦٣ من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) فتح الباري ٩/٣ .

(٣) انظر هامش ص٤٧١.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ باب ما جاء في الحياء ٢١٢/٢ من حديث زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه، فهو مرسل، لكنه جاء موصولا عند ابن ماجه في الزهد، باب الحياء برقم ٤١٨١ من حديث أنس بإسناد ضعيف، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من خمس طرق من رقم ٧٧١٢ إلى ٧٧١٦ وهي طرق يشد بعضها بعضا، وترقى الحديث من الضعف إلى الحسن لغيره .

٢ ـ "الحياء خير كله"، وفي لفظ: "الحياء لا يأتي إلا بخير"(١) .

لذلك كان من شعب الإيمان الوثيقة كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

٣ ـ "الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"(٢) .

٤ ـ ومن حديث ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "... الحياء من الإيمان"(٣) .

ذم من لم يتخلق بهذا الخلق :

ولذلك كان فاقد هذا الخلق فاقدا لمعيار الآداب، ومكارم الأخلاق، إذ لم يبق عنده ما يحمله على التحلي بها، أو التقيد بأحكام الشريعة وآدابها كما يدل لذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

١ ـ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(٤) .

ومعناه: (إذا لم تستح من العيب وتخش العار مما تفعله، فافعل ما تحدثك نفسك من أغراضها،سواء كان حسنا أو قبيحا، فهو توبيخ وتهديد بأسلوب الأمر الذي يراد به الخبر، لا أنه إباحة فعل ما يشاء المرء، أو أن المعنى: إذا كنت في فعلك آمنا أن تستحي منها فاصنع ما شئت، وكأنه قال: إذا كنت في أفعالك جاريا على سنن الصواب فافعل

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الحياء ٣٥/٨، ومسلم في الإيمان برقم ٣٧ من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان ١١/١، ومسلم في الإيمان أيضا، باب بيان عدد شعب الإيمان برقم ٣٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الحياء من الإيمان ١٤/١، ومسلم في الباب السابق برقم ٣٦، ونقل الحافظ في الفتح ٣٢٤/٢٢ عن أبي عبيد الهروي قوله: معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تقية، فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي ا.هـ، ونقل عن القاضي عياض قوله: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اقتصاد واكتساب وعلم ..).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ٣٥/٨، وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الحياء برقم ٤٧٩٧ من حديث أبي مسعود .

منها ما شئت)(١) .

٢ ـ كما أن فاقد الحياء يكون لا محالة بذيئا(٢)، وحيث كان كذلك فإنه قد ترشح لأن يكون من أهل النار، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذَاءُ من الجفاء، والجَفاء في النار"(٣)، والجفاء هو غلظ الطبع .

فقابل عليه الصلاة والسلام الحياء بالجفاء، للدلالة على أن فاقده، لم يبق عنده ما يزعه عن التخلي عن مساوىء الأخلاق التي منها الجفاء، والذي ينشأ عنه مساوىء أخلاقية كبيرة في السلوك الفردي والاجتماعي .

ونحو هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم :

٣ ـ "الحياء والعِيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"(٤) .

وقال الترمذي(٥) : "والعِيُّ: قلة الكلام، والبذاء: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام ويتفصَّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يرضي الله تعالى " .

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٦٣١/٣ بتصرف يسير .

(٢) البذاءة: هو الفحش في القول .

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الحياء برقم ٢٠٠٩، وأحمد في المسند ٥١١/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب العي برقم ٢٠٢٧، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٢٦٩/٥، والحاكم في المستدرك ٥٢/١، والبغوي في شرح السنة ٣٦٦/١٢، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٥) وهو محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، صاحب السنن، أحد الأئمة الثقات الجهابذة في الحفظ والإتقان، توفي سنة ٢٧٩ هـ، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٣٣/٢ ، وسير أعلام النبلاء له ٢٧٠/١٣ ونحوهما .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قابل الحياء بالبذاء، للدلالة على أن فاقد الحياء لم يبق عنده ما يزعه عن مساوىء الأخلاق ومنها البذاء الذي ينشأ عنه مساوىء أخلاقية كثيرة في القول .

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يترجم عن هذا الخلق العظيم بسلوكه وأقواله، وفي ذلك أبلغ دليل على كمال تخلقه بهذا الخلق، وعظمة بروزه فيه كما هو الشأن في سائر أخلاقه العظيمة، وكل أخلاقه عظيمة كما أخبر الله تعالى عن ذلك، وأيده الواقع، رزقنا الله التحلي بها .

المَبْحَثُ الخامسُ

(خلق الزُّهد)

الزهد في اللغة: يعني القلة، قال ابن فارس: "الزاء والهاء والدال، أصل يدل على قلة الشيء، والزهيد: الشيء القليل"، ويقال: زهد فيه وعنه زُهدا وزهادة: إذا أعرض عنه وتركه لقلّته واحتقاره(١) .

قال الراغب: "الزهيد: الشيء القليل، والزاهد في الشيء: الراغب عنه والراضي منه بالزهيد أي: القليل"(٢) .

أما في الاصطلاح: "فهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه"(٣) .

غير أن التعريف الاصطلاحي الشامل للزهد تعدد، تبعا لتعدد قائليه، واختلاف مشاربهم، فيرى بعضهم : أنه«قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء»وهذا رأي سفيان الثوري، والإمام أحمد وغيرهما .

ويرى الجنيد(٤): أنه "استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب"، وقال مرة: هو"خلُوُّ اليد عن الملك، والقلب عن التتبع"(٥) .

وقال ابن القيم: "وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد، وكلٌّ أشار إلى ذوقه، ونطق عن

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/٣٠، ومجمل اللغة ٢/٤٤٢، مادة (زهد)، وأساس البلاغة ص ١٩٧ .

(٢) مفردات القرآن ص ٢١٥ .

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص ٣٤٦ .

(٤) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، قال عنه الذهبي في السير: شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقه على أبي ثور ...، حتى كان يفتي في حلقته وله عشرون سنة، قال عنه الذهبي بعد أن نعته بما تقدم من مشيخته للصوفية: فرحمة الله على الجنيد، وأين مثل الجنيد في علمه وحاله؟!ومات سنة ٢٩٧ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٥، وتاريخ بغداد للخطيب ٧/٢٤١ .

(٥) انظر هذه الأقوال وغيرها في مدارج السالكين ٢/١٠ ، ١١ .

حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم، ثم قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة" قال: وهذه العبارة أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها"(١) .

وكل هذه الأقوال مستقاة من المدلول اللغوي الذي توحي به كلمة الزهد من القلة والإعراض، وذلك لأن الدنيا وما فيها وإن عظم وكثر في الأعين القاصرة، هو في الحقيقة حقير وزهيد بالنسبة لما عند الله، وما أعده لعباده في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء في الحديث(٢)، وكما أشار إليه الحديث الآخر: "موضع سَوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها"(٣) . فمن عرف ذلك زهد في الدنيا واحتقرها بل وبغضها إذا ما وضعها في كفة المقابلة بالآخرة، وذلك يستدعي عدم التكالب عليها والحرص عليها، كما كان عليه السلف الصالح الذين عرفوا الدنيا وحقارتها،والآخرة ومكانتها.

وقد دعتهم معرفتهم تلك إلى تحذير الناس منها، وإغرائهم بالآخرة التي هي ضرتها، وذلك من خلال أخبارهم التي نقلت إلينا في مؤلفات من عني منهم بجمعها في الكتب الخاصة بالزهد والتي تضمنت الأحاديث الكثيرة عن أعرف خلق الله بذلك وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) ناهيك عن الكتب العامة من كتب الحديث التي

---

(١) مدارج السالكين ١٠/٢ .

(٢) المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم ص**٧٧**.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ١٤٤/٤، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٤) وذلك كالزهد لعبد الله بن المبارك، ولأحمد بن حنبل، ولوكيع بن الجراح، ولأبي داود، ولأبي حاتم، وللبيهقي، وغيرها.وانظر مقدمة الزهد لوكيع بن الجراح ١٤٤/١ - ١٥٣ فقد ذكر محقق الكتاب نحواً من اثنين وستين مؤلفا في هذا المجال، عازيا مصادره في ذلك، ومبينا المطبوع منها من غيره .

لا تخلو من كتب خاصة بأحاديث الزهد تحت ذلك العنوان أو ما يؤدي معناه.

ومصدر ذلك كله ما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات الزهدية الكثيرة، فإن القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها. وذلك كقوله تعالى:

١- ﴿ إنَّما مثلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلَط به نباتُ الأرضِ ممَّا يأكلُ النَّاسُ والأنعامُ حتى إذا أخذتِ الأرضُ زخرفَها وازَّينت وظنَّ أهلُها أنَّهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغنَ بالأمسِ كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون ﴾[سورة يونس:٢٤] .

٢- وكقوله تعالى: ﴿ واضربْ لهم مثَلَ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلَط به نباتُ الأرض فأصبحَ هشيمًا تذروه الرِّياحُ وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مقتَدِرا * المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أملا ﴾[سورة الكهف:٤٥،٤٦] .

٣- وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ إعلَموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتَفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكُفَّارَ نباتُه ثم يَهيجُ فتراه مُصفَرًّا ثمَّ يكونُ حُطاما وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾[سورة الحديد:٢٠] .

ففي هذه الآيات يوضح الله تبارك وتعالى حقيقة الدنيا بأسلوب التمثيل الذي تنجلي به حقائق الأشياء انجلاء لا يبقى بعده أدنى التباس، لأن الأمثال: "قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللَّسَن ..."(١).

وبهذا الأسلوب اتضحت حقيقة الدنيا للمؤمن وأنها أحقر من أن تشغله عن أمر الآخرة لأنها إذا كانت بهذه المثابة من سرعة الفناء والزوال فلن ينخدع بها عاقل، ولا

---

(١) الأمثال القرآنية للدكتور الشريف منصور العبدلي ص ٢٢ .

يلتفت إلى زخرفها ومتاعها المتألق؛لأن هذه الآيات قد أعطته صورة غير مرضية عن الدنيا بأسلوب مؤثر جذاب، ولا شك بأن صاحب النفس الزكية النقية سيرغب عنها وينفر من فتنتها، ويقبل على ما ينفعه في حياته ومعاده وهو الآخرة وما يقربه إلى الله فيها، فإذا فعل ذلك فقد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة.

و لم يقتصر القرآن الكريم في تزهيد الناس بالدنيا على هذا الأسلوب البالغ الأثر في النفوس الزكية،بل لقد كان له أساليب أخرى كثيرة بلاغية وغيرها في تبيان هذه الحقيقة لا تقل أثرا عن ضرب الأمثال التي لا يعقلها إلا العاملون، وذلك مثل أسلوب القصر، أو الطِّباق، أو التنفير عنها، أو التقليل من شأنها، أو النهي عن التطلع لها أو الاغترار بها، أو التهديد بالعذاب للمغتر بها .

أما أسلوب القصر ففي مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾ [سورة آل عمران:١٨٥]، وكقوله سبحانه: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا لعِبٌ ولهو ﴾[سورة الأنعام:٣٢]، وكقوله جل شأنه: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا في الآخرةِ إلاَّ متاع ﴾[سورة الرعد:٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿ وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لَهوٌ ولعب ﴾[سورة العنكبوت:٦٤].

وكقوله جل شأنه: ﴿ إنما هذه الحياةُ الدُّنيا متاعٌ وإنَّ الآخرةَ هي دارُ القرار ﴾[سورة غافر:٣٩] ، وقوله سبحانه: ﴿ إنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهو ﴾[سورة محمد:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ إعلموا أنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهو وزينةٌ وتَفاخر بَينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد ﴾ [سورة الحديد:٢٠] .

وهذا الأسلوب يفيد أن الحياة ما هي إلا متاع زائل، ولعب باطل، ولهو لا فائدة من ورائه لعاقل، وغرور أوحى به الشيطان للإنسان الجاهل، فإذا كانت هذه صفاتها فكيف يُقدِّمها المؤمن العاقل على الحياة الدائمة والنعيم المقيم، والمتاع الهنيء الذي لا ينقطع، وهي الجنة المعدة للمتقين .

ويلاحظ أن القصر في الآيات المتقدمة قصر موصوف على صفة، قصرا إضافيا، لإفادة أن تلك الصفات على كثرتها ليس فيها صفة صالحة تشجع المرء، وتغريه على حبها والطمع فيها، بل إنما تزهده فيها، وترغبه فيما هو خير منها وهو الآخرة .

كما أفاده أسلوب الطِّباق الذي ذكر في بعض الآيات السابقة التي جاءت بأسلوب القصر كآية الأنعام: ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولَهو وَللدَّارُ الآخِرةُ خيرٌ للذينَ يتقون أفلا تعقلون ﴾[٣٢]، وآية العنكبوت: ﴿ وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لهوٌ ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوانُ لو كانوا يَعلمون ﴾[٦٤]، وآية غافر: ﴿ إنَّما هذهِ الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنَّ الآخرَةَ هي دارُ القرار ﴾[٣٩] .

وكما استفيد أيضا من آيات الموازنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة التي اتضح منها حقارة الدنيا وخستها بجنب الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ للناس حبُّ الشَّهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنطرةِ من الذهب والفِضَّةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا والله عنده حسنُ المآب * قل أؤُنبئكم بخيرٍ من ذلكم لِلذين اتَّقوا عندَ ربهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من الله والله بصير بالعباد ﴾[سورة آل عمران:١٤،١٥] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ أرضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾[سورة التوبة:٣٨] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ أفمن وَعدناه وَعداً حسنا فهو لاقِيه كمن متَّعناه متاعَ الحياة الدنيا ثم هو يومَ القيامة من المُحضَرين ﴾[سورة القصص:٦١] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا * والآخِرةُ خيرٌ وأبقى ﴾[سورة الأعلى:١٦،١٧] .

فإن هذه الآيات لم تبق في نفس العاقل أي قيمة للدنيا؛ لأنها بما فيها من زهرة ولذة لا تعدو كونها متاعا زهيدا سرعان ما يزول، فإذا ما قورنت بالنعيم المقيم الذي دلت عليه آية آل عمران، كانت المقارنة حينئذ شكليَّة فقط، لأنه المتاع الزائل، لا يقارن بالدائم الكامل، ولذلك كان المغتر بمتاع الحياة الدنيا بعد أن يعرف نعيم الآخرة المنشغل به عنه يُعد فاقد الوعي، وحقه حينئذ أن يتساءل عنه بأسلوب التوبيخ والتقريع، فيقال له: ﴿ أرَضيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخِرة ؟..﴾ أو يقال له: ﴿ أفَمن وَعدناه وَعداً حَسَناً فهو لاقيه كمن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدنيا؟..﴾ والإجابة لدى العاقل الموفق معلومة، فإنه لا

يرضى الحياة الدنية الفانية بدلا عن الآخرة الباقية، ولا يجهل أن من وعده الله وعدا حسنا خير ممن نال حظا زهيدا من متاع زائل .

ولا شك في ضلال من رضي بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ومعلوم أن الكثير من بني الإنسان قد اختار العاجلة وترك الآخرة لغيِّه وجهله، ولذلك كان قول الله تعالى: ﴿ كلَّا بل تُحِبُّون العاجلةَ وتَذرونَ الآخِرة ﴾[سورة القيامة:٢٠-٢١]وقوله سبحانه: ﴿ بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا ﴾[سورة الأعلى:١٦] كالنتيجة المقررة لحال الجنس البشري. وفي هذه الآيات ما فيها من التنفير من متاع الحياة الدنيا الزائل الذي يصد عن الله وعبادته، والتحقير من شأنه لمن ألقى السمع وهو شهيد .

نهي القرآن الكريم عن الاغترار بالدنيا :

ولما كانت بعض النفوس الدنية والأفهام القاصرة قدلاترى في كل ما تقدم من تزهيدما يمنعها عمَّا يوافق شهواتها من متاع الحياة الدنيا، لكونه ليس فيه نهي محض، أو حظر صريح ، غير أن الله تعالى لم يترك الأمر على ما قد يُظَن بالفهم الرديء، أو الهوى الشيطاني، إذ لو كان الأمر كذلك لم يبق من يؤثر الآجلة على العاجلة، ومن يبتغي الله والدار الآخرة، وذلك لأن الجنة حُفَّت بالمكاره، أما النار فإنها حُفَّت بالشهوات(١) .

وإنما اتخذ الله تعالى أسلوبا آخر لإنقاذ الناس من مغبَّة الخسارة التي سيواجهونها إن هم استمروا على ذلك بمقتضى رأفته ورحمته بعباده، ولطفه وخبرته بهم .

وذلك الأسلوب هو أسلوب النهي عن الاغترار بالدنيا والافتتان بها، والتحذير من زخرفها وذم من ركن إليها، ووعيد من لم يؤثِّر فيه شيءٌ من ذلك بالعذاب الأليم .

أما النهي فكما في قوله تعالى: ﴿ فلا تَغرَّنَّكُم الحياةُ الدنيا ولا يَغرَّنكم بالله الغَرور ﴾ [سورة لقمان:٣٣، وفاطر:٥] .

وحق على المؤمن أن يقف عند أوامر الله تعالى ونواهيه سواء كانت للإيجاب أو

---

(١) كما جاء في حديث البخاري في الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات ١٢٧/٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره" .

للإرشاد كما هو في هذه الآية، لأن ذلك دليل كمال الإيمان إذ عدم فعل ذلك يدل على عدم اكتراثه بتوجيهات خالقه وتعليماته .

ولكن حمل النهي في هذه الآية على التحريم يؤيده ما أعده الله من العذاب الأليم لمن غرته الحياة الدنيا واطمأن إليها وألهته عن واجباته التعبدية التي خلقه الله عز وجل من أجلها، وذلك ما يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ فمِن النَّاس من يقول ربَّنا آتِنا في الدُّنيا وماله في الآخِرة من خَلاق ﴾[سورة البقرة:٢٠٠]، وقوله سبحانه: ﴿ ... ومَن كان يُريد حرثَ الدُّنيا نُؤتهِ منها وما لَه في الآخِرة من نَصيب ﴾[سورة الشورى:٢٠]، وقوله عز شأنه: ﴿ الذين يَستحبُّون الحياةَ الدُّنيا على الآخِرة ويَصدونَ عن سبيلِ الله ويَبغونها عِوجا أولئك في ضَلال بعيد ﴾[سورة إبراهيم:٣] .

فهذه الآيات وإن لم يكن الوعيد بالعذاب من خلالها صريحا، إلا أن آيات أخرى قد تحدثت عن ذلك صراحة، و ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أولئِك الَّذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخِرة فلا يُخفف عنهم العذابُ ولا هم يُنصرون ﴾[سورة البقرة:٨٦]، وقال أيضا: ﴿ إنَّ الذين لا يرجون لقاءَنا ورَضُوا بالحياةِ الدنيا واطمأنُّوا بها والَّذين هم عن آياتِنا غافلون * أولئِك مأواهم النارُ بما كانوا يكسبون ﴾[سورة يونس:٧،٨] .

وهذه الآيات وإن كان سياق حديثها عن الكفار لأنهم هم الذين برزت فيهم هذه الصفات كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ زُيِّنَ للذين كفَروا الحياةُ الدنيا ﴾[سورة البقرة:٢١٢]، وكما قال: ﴿ قالوا شَهِدنا على أنفسِنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾[سورة الأنعام:١٣٠]، إلا أن من تخلق بأخلاقهم وتشبه بهم، يجري عليه ما يجري عليهم من العذاب غير أنه لا يخلد معهم إلا بالاعتقاد الموصل لذلك، لأن كل آية تحمل وعيدا على الكافرين، فإنها تجرُّ بذيلها إلى عصاة المؤمنين، والاغترار بالحياة الدنيا والإعراض عن الآخرة هو شأن الكافرين الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار كما قال تعالى: ﴿ من كان يُريد الحياةَ الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّارُ وحبِطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[سورة هود:١٥،١٦]، والمؤمن يقتضي منه إيمانه أن لا تكون فيه خَلَّة من

خلال الكافرين؛ لأن أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا وهم في الآخرة عنها معرضون .

الأخذ بنصيب من الدنيا لا ينافي الزهد :

هذه هي نظرة القرآن الكريم إلى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل عندما تعارض أمور الآخرة وطاعة الخالق جل وعلا، وذلك عندما تتوغل محبة الدنيا في قلب المؤمن، وتصبح عائقا له عن الطاعات والقُربات .

أما إذا لم تكن كذلك بأن كانت في يده فحسب لا في قلبه، وفي طاعة ربه لا في معصيته،فإن القرآن الكريم لم يذم الدنيا ومتاعها والحالة هذه؛ لأن هذا الحال لا ينافي الزهد فقد قال الله تعالى: ﴿ قل من حرَّم زينةَ الله التي أخرجَ لِعبادِه والطَّيباتِ من الرزق ﴾[سورة الأعراف:٣٢]، والاستفهام إنكاري معناه النفي، أي: لا أحد يحرِّم زينة الله تعالى التي خلقها لعباده في الدنيا، وكذا الطيبات من الرزق في المطعوم ونحوه مما يوصف بهذا الوصف في متاع الحياة الدنيا، ولذلك أمر الله تعالى عباده وحثهم على السعي وراء الحياة الدنيا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ ولا تَنس نصيبَك من الدُّنيا ﴾[سورة القصص:٧٧]وقوله سبحانه: ﴿ هو الذي جعلَ لكم الأرضَ ذَلولا فامشُوا في مناكِبِها وكُلوا من رِزقه وإليه النُّشور ﴾[سورة الملك:١٥] .

وكم رغَّب القرآن بالانفاق في الخير والتصدق والإحسان والجهاد بالمال ونحو ذلك، ولا يتم ذلك إلا بالكسب والادخار، والعناية بالدنيا ومصالحها، ولولا ذلك لفسدت الحياة، وشريعة الإسلام تنظر إلى الدنيا على أنها مزرعة للآخرة، وأن الدين لا يقوم إلا بعمارة الدنيا كما هو معلوم، ولكن على أن لا تكون الدنيا هي الغاية في الحياة، وإنما لتكون وسيلة للآخرة .

ولهذه النظرة جاء القرآن آمرا بالزهد في الدنيا، وآمرا بالسعي وراء ما يصلح الحياة فيها؛ لأنه لا تناقض بينهما، بل إن كلا الحالين مطلوب ومرغب فيه، وله وجه صحيح سائغ في نظره، وهو أن ما في القرآن من آيات زهديات (ليست ترغيبا بالفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء والبعد عن رذائل

البخل والشح ومسببات قسوة القلب والكبر والعجب والاستعلاء على الناس، ودعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، والالتزام بما أذن الله من كسب، وتربية على العفّة عما في أيدي الناس، والطمع بما لدى الآخرين، وعدم النظر إليه بحسد ورغبة بامتلاكه، وأن يصرف المؤمن قلبه عن التعلق بالأشياء الدنيوية لذاتها أو لِلذّاتها كي يتوجه شطر الآخرة، ومحبة الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا رأى المؤمن أن مرضاة الله تعالى تتحقق بالتخلي عن عرض الحياة الدنيا، تخلى عنه ابتغاء مرضاة الله وإيثارا لثواب الآخرة(١) .

وهذا هو ما كان يعلمه السلف الصالح من الزهد، فقد كانوا يقولون:« ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك،وأن يكون حالك في المصيبة، وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»(٢) .

وقال بشر بن الحارث(٣):« ليس الزهد في الدنيا ترك الدنيا، إنما الزهد أن تزهد في كل ما سوى الله، هذا داود وسليمان عليهما السلام، قد ملكا الدنيا، وكانا عند الله من الزاهدين»(٤) .

وإنما كان هؤلاء السلف كذلك؛ لأنهم فهموا عن الله تعالى مراده من التزهيد في الدنيا، وأن ما كانوا عليه لا ينافي الزهد، بل هم في ذلك الحال من الزاهدين؛ لأن الدنيا ليست في قلوبهم، وإنما هي في أيديهم، فهم يكسبون وينفقون في مرضاة الله تعالى .

---

(١) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ٢/٥٣٠ بتصرف يسير .

(٢) عزاه البيهقي في شعب الإيمان ٧/٤٠٥ إلى يونس بن ميسرة الجيلاني الثقة العابد الشهيد سنة ١٣٢ هـ، له ترجمة في طبقات ابن سعد ٧/٤٦٦، وحلية الأولياء ٥/٢٥٠، وتهذيب التهذيب ١١/٤٤٩، والتقريب رقم ٧٦١٩ وغيرها .

(٣) هو أبو نصر الحافي الزاهد الثقة القدوة، الجليل المشهور، مات سنة ٢٢٧ هـ، له ترجمة في طبقات ابن سعد ٧/٣٤٢، وحلية الأولياء ٨/٣٣٦، والتهذيب ٢/٤٤٤، والتقريب برقم ٦٨٠ .

(٤) الزهد الكبير للبيهقي ص ٧٤ .

وكيف لا يكونون كذلك وهم أحرص الناس على اتباع أوامر ا لله تعالى ونواهيه، واقتفاء شرع نبيه، والاهتداء بهديه .

والقرآن الكريم مليء بالحث على الادخار والانفاق في سبيل ا لله تعالى وطرق مرضاته، وفوق ذلك يثني ثناء بالغا على من يجمع بين الدنيا والآخرة، وذلك حيث يقول: ﴿ ومنهم من يَقولُ رَّبنا آتِنا في الدنيا حسَنة وفي الآخِرة حَسنةً وقنا عذابَ النَّار * أولئِك لهم نصيبٌ مما كسبوا وا لله سريعُ الحساب ﴾[سورة البقرة:٢٠١،٢٠٢] .

فإن ا لله عز وجل يثني في هذه الآية على من يطلب من ا لله الدنيا والآخرة، بخلاف من يطلب الدنيا فقط، وهم الذين قال ا لله عنهم: ﴿ فمِن النَّاس من يَقول رَّبنا آتِنا في الدُّنيا وما له في الآخرة من خَلاق ﴾[سورة البقرة:٢٠٠] .

"وقد جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا والآخرة، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل ... إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا .

وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب ... وغير ذلك من امور الآخرة الصالحة .

وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام"(١) .

وقد وعدهم ا لله تعالى بالإجابة، وكان ذكره لهم على سبيل المدح والتنويه، فدل على أن طلب الدنيا، والسعي وراءها أمر محمود، إذا لم يكن مقصودا لذاته، بل ليكون وسيلة لإصلاح الدين، وأداء واجب العبادة الذي هو الغاية من خلق الجن والإنس، وإذا لم تكن مستحوذة على القلب، بل أن تكون في اليد فقط .

وبهذا علمت أن مفهوم الزهد بمعنى رفض الدنيا بالكلية كما هو حال الرهبانية

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤٣/١-٢٤٤ .

النصرانية، وحال بعض المتصوفة، ليس هو المفهوم الإسلامي الصحيح له، وأن المفهوم الصحيح له هو ما علمته من حال السلف الصالح مما تقدم بيانه . وا لله أعلم .

ولهذا قال ابن القيم رحمه ا لله: "ليس المراد بالزهد رفض الدنيا من الملك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والنساء ما لهما، وكان نبينا صلى ا لله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وعثمان رضي ا لله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي ا لله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحا لهن وأغناهم، وكان عبد ا لله بن المبارك من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء"(١) .

وقال في طريق الهجرتين بعد أن قسّم الزهد إلى ثلاثة أقسام، وذكر القسم الأول منه وهو الزهد في الدنيا قال: "وليس المراد تخليها من اليد، ولا إخراجها وقعوده صفرا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك، قال: وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل، مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم صلى ا لله عليه وسلم حين فتح ا لله عليه من الدنيا ما فتح ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها"(٢) .

وبهذا علمت حقيقة الزهد في الدنيا، ونظر القرآن الكريم إليه، وما ينبغي أن يكون عليه الزهد .

---

(١) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٢) طريق الهجرتين ص ٢٥٢ .

تمثل خلق الزهد في النبي صلى ا لله عليه وسلم

بعد أن علمنا أن القرآن الكريم جاء بذلك التوازن الفذ بين الدنيا والآخرة ورغبات الجسد وأشواق الروح ...الخ .

نعلم أن الزهد لا يحصل إلا بالمعرفة الكاملة لهذه الدنيا وقيمتها كما روي (أُخبُر تقله)(١) .

والنبي صلى ا لله عليه وسلم كان أعرف الخلق بالدنيا ومقدارها، إذ هو القائل :

١ ـ "لو كانت الدنيا تعدل عند ا لله جَناح بَعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء"(٢) .

٢ ـ وهو القائل: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبعه في اليمّ فلينظر بم ترجع"(٣) .

٣ ـ وهو القائل: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"(٤) .

كما أن الزهد لا يتحقق إلا إذا كان بطريقة الاختيار، أما إذا كان المرء لا يجد إلا ما لا بد منه، ولكنه يتوق إلى الكثير من متاع الحياة فلا يكون زاهدا .

والنبي صلى ا لله عليه وسلم كان زهده اختياريا، فقد عُرض عليه أن تكون بطحاء

---

(١) أخرجه أبو يعلى والعسكري في الأمثال، والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء بطرق ضعيفة، انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على ا لله عز وجل من حديث سهل بن سعد رضي ا لله عنه برقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١١٠، وقال عنه الترمذي: صحيح غريب، وقال الألباني في الصحيحة رقم ٦٨٦، ٩٤٣: صحيح لغيره لشواهده .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد، باب رقم ٥١ برقم ٢٣٢٣،وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١٠٨ من حديث مستور بن شداد .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد باب رقم ١٦ برقم ٢٣٢٤ من حديث أبي هريرة .

مكة ذهبا فأبى وقال: "لا يا رب أجوع يوما وأشبع يومـا، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّع إليك، وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدُك، وأثني عليك"(١) .

٤ ـ وجاء أنه صلى الله عليه وسلم روود في أن تفتح له خزائن الأرض وقيل له : "إن شئتَ أن نُعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله" فقال: "إجمعوها لي في الآخرة" فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ تَبارك الَّذي إن شاءَ جعل لك خَيراً من ذلك جنَّاتٍ تجَري مِن تحتها الأنهارُ ويجَعل لك قُصورا ﴾(٢)[سورة الفرقان:١٠] .

٥ ـ ولذا كان صلى الله عليه وسلم راضيا من الدنيا بالكَفاف، بل وأقل منه، وزهد فيها زهدا لم يُعلم لأحد قبله ولا بعده مثله، حيث عاش عيشة الفقراء مدة حياته حتى "مات ودرعه مرهونة عند يهودي"(٣)، ومع ذلك فقد كان يُعطِي عطاء من لا يخشى الفقر، ويتمتع بالطيبات متى ما تيسرت من غير سرف ولا مخيلة، ليوضح لأمته حقيقة الزهد لتستن به فيه؛ لأنه إمام الزاهدين، وقدوة المؤمنين، وحجة الله على العالمين .

وكتب السنة المشرفة تعج بأخبار زهده صلى الله عليه وسلم في الدنيا .

فمن ذلك ما جاء في عيشه الخشن الذي عاشه في هذه الحياة اختيارا منه صلى الله عليه وسلم لذلك، ومنه :

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه برقم ٢٣٤٧ من حديث أبي أمامة وقال: حديث حسن .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦٣/٥ إلى الفريابي وابن أبي شيبة في المصنَّف وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، ولكن الحديث من مراسيل خيثمة بن عبد الرحمن، وهو ثقة كما في التقريب رقم ١٧٧٣، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣١٠/٣، والشوكاني في تفسيره ٦٤/٤، على نحو ما ذكره السيوطي، وذكره أيضا الماوردي في أعلام النبوة ص ٢٨٤ .

(٣) كما جاء في حديث البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم ٤٩/٤، ومسلم في المساقاة، باب الرهن وجوازه برقم ١٦٠٣، من حديث ابن عباس .

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: "اللهم اجعل رزق آلَ محمد قوتا"(١)، فانظر كيف يدعو الله وهو المستجاب دعاؤه، أن يجعل رزقه في هذه الحياة ما يقوت البدن، ويكف عن الحاجة، دون الزائد على ذلك .

٢ ـ وقد حقق الله له ذلك، وخرج من الدنيا و لم يشبع من خبز حنطة ثلاثة أيام تِباعا، حتى فارق الدُّنيا(٢) .

٣ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تِباعا حتى قُبِضَ"(٣) .

٤ ـ وعنها رضي الله تعالى عنها قالت: "كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا، إنما هو التمر والماء، إلا أن نؤتى باللُّحَيم"(٤) ـ تصغير لحم ـ .

٥ ـ وعنها رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير رحمه الله: "ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة في شهرين وما أُوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نارٌ، فقلت: ما كان يعيشكم ؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كان لهم منائح* وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم فيسقيناه"(٥) .

---

(١) البخاري في الرقاق، باب ما جاء في عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا ١٢٢/٨، ومسلم في الزكاة، باب في الكفاف والقناعة برقم ١٠٥٥ .

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا ١٢١/٨، ومسلم في الزهد برقم ٢٩٧٦، واللفظ للبخاري .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧١ .

(٥) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧٢، واللفظ للبخاري .

* منحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها، النهاية ٣٦٤/٤

٦ ـ وعنها رضي الله عنها قالت: "ما أكل آلُ محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر"(١) .

٧ ـ وعنها رضي الله عنها قالت: "تُوفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما في رفِّي(٢) من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رَقٍّ لي فأكلت منه حتى طال عليَّ فكلته ففني"(٣) .

٨ ـ وعنها رضي الله عنها قالت: "لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرَّتين"(٤) .

فهكذا ظل عليه الصلاة والسلام على التقلل من العيش بهذه المثابة الصَّعبة والتي كانت تفقد أحيانا، فقد كان يظل أياما وليالي طاويا على الجوع .

٩ ـ كما أخرج مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يذكر ما أصاب الناس من الدنيا فقال: "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقَلا(٥) يملأ بطنه"(٦) .

١٠ ـ وعن عتبة بن غزوان(٧) رضي الله عنه قال: "لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧١ .

(٢) هو خشب يرفع من الأرض إلى جنب الجدار، توضع عليه الأمتعة .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب فضل الفقر ١١٩/٨، ومسلم في الزهد برقم ٢٩٧٣ .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٧٤ .

(٥) الدقل: رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه لِيُبسِهِ ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا. النهاية ١٢٧/٢ .

(٦) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٨٧، والترمذي في الزهد، باب في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٧٢، والبغوي في الأنوار برقم ٤٣٥ .

(٧) صحابي ممن أسلم قديما وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا وبيعة الرضوان وما بعدهما، وكان أول من نزل البصرة، وهو الذي اختطها، وتوفي بالبصرة سنة ١٧ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٩٨/٣، وتهذيب الأسماء ٣١٩/١ .

ا لله صلى ا لله عليه وسلم ما طعامنا إلا ورق الحُبْلَة(١) حتى قرحت(٢) أشداقنا(٣)" .

١١ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي ا لله عنه نحو ذلك(٤) .

١٢ - وعن ابن عباس رضي ا لله عنه قال: "كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله، لا يجدون عشاء، قال: وكان أكثر خبزهم خبز الشعير"(٥) .

١٣ - وعن أبي هريرة رصي ا لله عنه قال: "خرج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا: الجوع يا رسول ا لله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأُ خرجني الذي أخرجكما، قوموا فقاموا معه"(٦) فأتى رجلا من الأنصار(٧) فإذا

(١) هي ثمر السمر يشبه اللوبيا، وقيل: هو ثمر العضاة. النهاية ٣٢٢/١ .

(٢) أي: تجرحت، والأشداق: جوانب الفم .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٦٧، وابن ماجه في الزهد باب رقم ١٢، برقم ٤١٥٦، وأحمد في المسند ١٧٤/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان النبي صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه يأكلون ٩٦/٧ .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٣٦٥، وفي الشمائل برقم ١٤٦، وابن ماجه في الأطعمة برقم ٣٣٤٧، وأحمد في الزهد برقم ٣٠، والبغوي في الأنوار برقم ٤٢٨، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٦) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢١٢/١٣: "هكذا هو في الأصول بضمير الجمع، وهو جائز بلا خلاف لكن الجمهور يقولون: إطلاقه على الاثنين مجاز، وآخرون يقولون: حقيقة" ا.هـ .

(٧) هو أبو الهيثم مالك بن التَّيِّهان الأوسي الأنصاري، أحد الستة الذين لقوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أول ما لقيته الأنصار، وشهد العقبة الأولى والثانية، وأول من بايعه ليلة العقبة على قول، شهد مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بدرا وأحدا وسائر المشاهد، وتوفي بالمدينة سنة ٢٠ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٤٤٧/٣، وتهذيب الأسماء ٨٠/٢ .

هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: أين فلان ؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعِذق بُسر وتمر(١) ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المُدية، فقال له رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "إياك والحلوب"(٢)، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَوا، قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لأبي بكر وعمر:"والذي نفسي بيده لتُسأَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"(٣) .

فترى أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قد عاش بأقل من الكفاف، وبأقل ما يحتاج من القوت، زهدا منه عن لذات المطعم والمشرب طالما أن حاجته منه يمكن أن تسد بالقليل، ولا غرابة في هذا فإنه صلى ا لله عليه وسلم هو القائل: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لُقيمات يُقمن صلبَه، فإن كان لا محالة آكلا فثلُثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"(٤)، فلذلك كان يكتفي باللُّقيمات إن وجدهن، وإلا بات طاويا اختيارا منه لذلك، وإلا فإنه صلى ا لله عليه وسلم أكرم على ا لله تعالى من أن يحوجه إلى طعام وشراب إن أراده، فإنه قد كان إذا ما صام وواصل صيامه أطعمه ربُّه وسقاه كما تقدم في مبحث الصوم(٥) .

---

(١) العذق: العرجون بما فيه من الشماريخ، والبسر: نوع من ثمار التمر .

(٢) أي: احذر أن تذبح شاة ذات حليب .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم ٢٠٣٨، ومالك في الموطأ في صفة النبي صلى ا لله عليه وسلم، باب ما جاء في الطعام والشراب ٢٢٥/٢، والترمذي في الزهد، باب في معيشة أصحاب النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٣٦٩ .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل برقم ٢٣٨٠، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه ٣٣١/٧، من الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٢١/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند ١٣٢/٤، وابن ماجه في الأطعمة باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع برقم ٣٣٤٩ .

(٥) انظر ص٢٩٧ من هذا الكتاب .

زهده في إدامه :

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا في طعامه .

وكذلك كان زهده في إدامه(١)، فإنه لم يكن متعدد الأنواع والألوان، ولا مقصودا ولا متحرّى فيه، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما قدِّم له بإدام أو غيره، إن وجد تمرا دون خبز أكله، وإن وجد لحما مشويا أكله، وإن وجد خبز بر أكله، أو شعيرا أكله، وإن وجد حلوى أو عسلا أكله، وإن وجد لبنا دون خبز شربه، وإن وجد خلا ائتدمه ومدحه، يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد(٢)، كما تشهد لذلك أدلة كثيرة :

١ ـ ففي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهله الإدام فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فدعا به ، فجعل يأكل به ويقول: "نعم الأُدُمُ الخَلُّ"(٣) .

٢ ـ وفي رواية قال جابر رضي الله عنه: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ذات يوم إلى منزله فأَخرَج إليه فِلقا من خبز، فقال:ما من أدم ؟ فقالوا: لا، إلا شيء من الخل، قال: فإن الخل نعم الأدم" قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال طلحة بن نافع ـ الراوي عن جابر ـ وما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر(٤) .

٣ ـ وعن أم هانيء(٥) رضي الله عنها قالت: "دخل علي رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الإدام هو ما يؤتدم به، أي يصلح به الخبز ليستساغ أكله .

(٢) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول بشرحه منتهى السول ٩٢/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، باب فضيلة الخل والتأدم به برقم ٢٠٥٢، وأبو داود في الأطعمة، باب في الخل برقم ٣٨٢٠، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل برقم ١٨٣٩، والنسائي في الإيمان، باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل خبزا بخل ١٤/٧ .

(٤) هذه إحدى روايات مسلم للحديث السابق بالرقم نفسه .

(٥) بنت أبي طالب،ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم،واسمها "فاختة" وقيل: "فاطمة"،وهي شقيقة علي بن =

وسلم فقال: هل عندكم شيء ؟ فقلت: لا، إلا كسر يابسة وخل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قرّبيه، فما أقفرَ بيت من أدم فيه خل"(١) .

٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل البطيخ بالرطب ويقول: "نكسر حرَّ هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا"(٢) .

٥ ـ وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقثّاء (٣)

فترى كيف كان عليه الصلاة والسلام من الزهادة في المطعومات والبساطة فيها، وهو الذي عرض عليه أن تبسط له الدنيا فيتمتع بما شاء من لذاتها، غير أنه أبى ذلك، ورضي بأن يعيش على حاله، يجوع فيها يوما ويشبع فيها يوما كما تقدم .

أكله صلى الله عليه وسلم من الطيبات مع ما هو عليه من الزهد:

ومع ذلك كان إذا ما تهيأ له الطعام الطيب من غير إشراف نفس أكل ما يحتاج إليه، كما علمت من قصة أبي الهيثم رضي الله عنه، ليدل بذلك على أن الزهد لا ينافيه الأكل من الطيبات التي أباحها الله تعالى لعباده بمثل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزقناكم واشكُروا لِله إن كنتُم إيَّاه تَعبدون ﴾سورة البقرة:١٧٢] .

وقد أمر الله تعالى الرسل أمر إباحة مثل ما أمر بذلك المؤمنين فقال: ﴿ يا أيُّها الرسلُ

= أبي طالب رضي الله عنه أسلمت عام الفتح، وروت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث أخرجها أصحاب الكتب الستة، وعاشت إلى ما بعد استشهاد علي رضي الله عنه وعنها، انظر الإصابة ٥٠٣/٤، مع الاستيعاب .

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل برقم ١٨٤١ وقال عنه: حسن غريب .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في الجمع بين لونين في الأكل برقم ٣٨٣٦، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في أكل البطيخ بالرطب برقم ١٨٤٣ وقال: حسن غريب .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الرطب بالقثاء ١٠٩/٧ ، ومسلم في الأشربة، باب أكل القثاء بالرطب برقم ٢٠٤٣، وأبو داود في الأطعمة، باب الجمع بين لونين في الأكل برقم ٣٨٣٥ .

كلوا من الطّيباتِ واعملوا صَالحا إنّي بما تَعملون عليم ﴾[سورة المؤمنون:٥١] والطيبات: ما يستلذ من المباحات، وقد خاطب الله تعالى الرسل كافة أن يأخذوا بأسباب التنعم لا أن يترهبوا في رفض الطيبات(١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم قد كان يمثل القرآن ويطبقه، وكأنه قرآن من البشر يمشي على الأرض، غير أن طيبات المأكولات ووفرتها التي نعهدها اليوم لم تكن في عهده صلى الله عليه وسلم، وغاية ما يمكن أن يوصف بالطيب في عهده عليه الصلاة والسلام هو اللحم وبعض الفاكهة .

١ ـ وقد كان يصيب منها النبي صلى الله عليه وسلم ما يحتاج إليه متى وجده، كما جاء في حديث الترمذي ، في الشمائل عن أبي عبيد ـ مولى للنبي صلى الله عليه وسلم ـ(٢) قال: طبخت قِدرا وكان يُعجبه الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: "ناولني الذراع، فناولته، ثم قال: ناولني الذراع، قال: فقلت: يا رسول الله وكم للشاة من ذراع؟ فقال: والذي نفسي بيده لو سكتَّ لناولتني الذراع ما دعوتُ"(٣)، ولو سكت أبوعبيد لكانت معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في تكثير عدد الذراع، ولكن اعترض فأضاع بذلك المعجزة التي كان يريد النبي صلى الله عليه وسلم إظهارها .

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٤٥٦ .

(٢) عده في مواليه صلى الله عليه وسلم ابن سعد ٦٥/٧، والحافظ في الإصابة ١٣١/٤، وابن عبد البر في الاستيعاب ١٢٩/١، والسخاوي في الفخر المتوالي ص ٦٨، وغيرهم وذكروا هذا الحديث، غير أنهم لم يترجموا له، وعزوا إلى الحاكم قوله: إنه لا يعرف اسمه .

(٣) أخرجه برقم ١٦٠، ورواته ثقات، وقد أخرجه الدارمي في سننه، باب ما أكرم به النبي صلى الله عليه وسلم في بركة طعامه ٢٢/١، وأخرجه أحمد من طريقه ٤٨٤/٣، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣١٤/٨ إليه وإلى الطبراني قال: ورجالهما رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وكذا قال الحافظ في الإصابة ١٣١/٤، وقال الألباني في مختصر الشمائل رقم ١٤٣: حديث صحيح، ورجاله ثقات غير شهر بن حوشب، وذكر له شاهدا من حديث أبي رافع مرفوعا به نحوه. ا.هـ .

وقد جاء هذا الحديث عن أبي رافع عند أحمد والطبراني من طرق، انظر مجمع الزوائد ٣١٤/٨ .

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كانت الذراع أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه كان لا يجد اللحم إلا غِبًّا، وكان يعجل إليها لأنها أعجلها نضجا"(١) .

فأفاد حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطيبات عند وجودها، بل ويتوق إليها لندرة الحصول عليها، فكان يستعجل بأكل ما يسرع نضجه وهي الذراع، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يأكل من الطيبات كلما تيسرت له .

٣ ـ فعن أنس بن ماللك رضي الله عنه أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول الله خبزا من شعير ومرقا فيه دُبَّاءٌ وقديد(٢)، قال أنس: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء حوالي القصعة، قال أنس: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ"(٣) .

٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبُّ الحلواء والعسل"(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٦١، وفي إسناده عبد الوهاب بن يحيى بن عباد وهو مقبول، وذكره ابن حبان في الثقات، وقد أخرج الحديث الترمذي في الأطعمة، باب في ما جاء أي اللحم كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٨٣٨، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، فإسناده ضعيف، لكن معناه صحيح كما تدل على ذلك الأحاديث المتقدمة في هذا الباب وغيرها، ولا يلزم من ضعف السند ضعف المتن كما لا يخفى ،والغِبُّ: اليوم بعد اليوم،

(٢) القديد: هو اللحم المملوح المجفف في الشمس .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب من تتبع حوالي القصعة ٨٩/٧، وباب الدباء ١٠٠، وباب المرق ص ١٠١، وغيرها، ومسلم في الأطعمة، باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين، وإيثار أهل المائدة بعضهم بعضا ..، برقم ٢٠٤١ .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الحلواء العسل ١٠٠/٧ .

غير أن ذلك لم يكن ميسورا في كل وقت، ولما كان الأمر كذلك، كان يأكل ما قدِّم إليه ولا يعيب طعاما، فإذا لم يألفه تركه في صمت وصبر .

٥ ـ فقد دخل الحسن بن علي(١) وابن عباس وابن جعفر(٢) رضي الله عنهم على سلمى زوجة أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم وخادمته عليه الصلاة والسلام وطباخته وقالوا لها: "اصنعي لنا طعاما مما كان يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويحسن أكله فقالت: يا بُنيَّ لا تشتهيه اليوم، قال: بلى اصنعيه لنا، قال: فقامت فأخذت شيئا من الشعيرفطحنته، ثم جعلته في قِدر وصبَّت عليه شيئا من زيت، ودقَّت الفلفل والتوابل(٣) فقربته إليهم، فقالت: هذا مما كان يُعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويُحسن أكله"(٤) . وتعني بذلك عند وجوده وتيسره، وإلا فقد تقدم أنه كان يفتقد هذا الطعام وغيره حتى يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء(٥) .

---

(١) ابن أبي طالب سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين، ولد سنة ثلاث من الهجرة، وتربى في عناية النبي صلى الله عليه وسلم، وفضائله كثيرة، ومن أعظمها أن الله تعالى أصلح به بين فئتين من المسلمين، ووحد صفوفهم، بعد أن كانت الحرب قد مزقتهم كل ممزق، وتوفي سنة ٤٩ هـ، انظر الاستيعاب ٣٦٩/١، والإصابة ٣٢٨/١، وأسد الغابة ٩/٢، وتهذيب الأسماء ١٥٨/١ .

(٢) تقدمت ترجمتهما ص ٢٦، ٤٥٥ .

(٣) هي أدوية حارة توضع في الطعام لإصلاحه وتحسينه، وتعرف بأبراز الطعام .

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٦٩ وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٢٨/١٠ إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، غير فايد مولى بن أبي رافع وهو ثقة . وقال عنه المنذري في الترغيب ١٩٨/٤: إسناده جيد .

(٥) كما علمت من حديث ابن عباس المتقدم ص ٤٩٧ .

٦ ـ فقد دخلت عليه فاطمة ابنته(١) رضي ا لله عنها ذات يوم وناولته كِسرة من خبز الشعير فقال: "هذا أول طعام يأكله أبوك منذ ثلاثة أيام"(٢) .

من مظاهر زهده عليه الصلاة والسلام في متاع الدنيا :

كل ما تقدم هو مظهر من مظاهر زهده صلى ا لله عليه وسلم في لذات الدنيا من مطعوم ومشروب، وهناك مظاهر أخرى كثيرة تبين ما كان عليه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من الزهادة في الدنيا في كل متاع الحياة الدنيا، من سكن وأثاث ومدخَّرات التي غالبا ما يتباهى فيها أهل الدنيا،ويتسابقون إلى تحصيلها وتحسينها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، والطيب منهم من حصل على ذلك من الحلال والوجوه الشرعية المتاحة المباحة .

غير أن كثيرا من الناس يبذل في الحصول على ذلك قصارى جهده، ويوفر ذلك من حله أو غير حله، لأن ذلك هو مظهر حياته، ومكانته بين أفراد جنسه .

هذا هو حال كثير من الناس اليوم وقبل اليوم أيضا، إلا من رحم ربك وقليل ما هم، لكن النبي صلى ا لله عليه وسلم كان في معزل عن ذلك، وكان إعراضه عن ذلك يمثل كمال زهده وعظمته، حيث كان إعراضه عن ذلك رغبة عنها، وطمعا في الدار الآخرة، لكمال معرفته بحال الدنيا وحال الآخرة، فاتخذ لنفسه من ذلك المتاع في المسكن والأثاث والمدخرات .. ما لا يرضى به غيره، مع إمامته وعظمته .

---

(١) الملقبة بفاطمة الزهراء، صغرى بنات النبي صلى ا لله عليه وسلم وأحبهن إليه وسيدة نساء العالمين بعد مريم بنت عمران، ولدت قبل البعثة بقليل، وأسرعهن لحوقا به، حيث توفيت بعده صلى ا لله عليه وسلم بستة أشهر كما بشرها بذلك فسرت به، وزوجها من ابن عمها علي بن أبي طالب وعمرها خمس عشرة سنة، سنة اثنتين من الهجرة، وانقطع نسل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلا منها، فرضي ا لله عنها. انظر الاستيعاب ٣٧٣/٤، والإصابة ٤/ ٣٧٧، وأسد الغابة ٥١٩/٥، وتهذيب الأسماء ٣٥٢/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢١٣/٣ من حديث أنس رضي ا لله عنه، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣١٥/١٠ إليه وإلى الطبراني قال: ورجالهما ثقات .

مسكنه صلى ا لله عليه وسلم:

أما مسكنه فإنه لم يكن قصرا فسيحا ذا أجنحة،متعدد الطبقات والغُرفات، وإنما كان حُجُرات من لِبْن وطين وخسف النخل .

١ ـ كما أخرج ابن سعد(١) من حديث عطاء الخراساني(٢) يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: "أدركت حجر أزواج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من جريد النخل، على أبوابها المسوح(٣) من شعر أسود، قال: فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك(٤) يُقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج النبي صلى ا لله عليه وسلم في مسجد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، قال: فما رأيت أكثر باكيا من ذلك اليوم ، قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: وا لله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشيء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر"(٥) .

٢ ـ وقال الحسن البصري رحمه ا لله تعالى: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى ا لله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه فأتناول سُقُفها بيدي"(٦) .

---

(١) وهو محمد بن سعد بن منيع البصري الحافظ، كاتب الواقدي، قال فيه الخطيب البغدادي: كان من أهل العلم والفضل، وقال الحافظ في التقريب: صدوق فاضل، توفي سنة ٢٣٠ هـ، انظر تذكرة الحفاظ ٤٧٣/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ١٨٦، والتقريب رقم ٥٩٠٣ .

(٢) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني أحد الأعلام، وكان من خيار عباد ا لله غير أنه كان رديء الحفظ، كثير الوهم، توفي سنة ١٣٥ هـ، انظر طبقات الحفاظ ص ٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٤٠/٦ .

(٣) جمع مسح وهو الجلد ونحوه من متاع الأعراب .

(٤) ابن مروان بن الحكم، الخليفة الأموي السادس، ولي الخلافة سنة ٨٦ هـ، واستمر فيها عشر سنوات، وكان نِهماً في البناء، ومات سنة ٩٦ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٤٧/٤، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٣ .

(٥) طبقات ابن سعد ٤٩٩/١ .

(٦) طبقات ابن سعد ٥٠١/١ .

كان بهذه الحجر المتواضعة، راضيا لا يريد أكثر من ذلك، بل إن رأى ما يغير صورتها ووضعها ذلك لم يرض به .

٣ ـ فقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فأخذت نمطًا(١)، قالت: فلما قدم فرأى النمط عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه وقال: "إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين"(٢) .

فانظر كيف كره تغيير صورة البيت بكسوة جدرانها وتزيينها، لما في ذلك من داع إلى الرغبة فيها، وما ذلك إلا لكمال زهده فيها، وإعراضه عن زخارفها وفتنتها .

تزهيده صلى الله عليه وسلم ابنته في الدنيا :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون آل بيته من بناته ونسوته،لا بل أمته كلها على ما كان عليه من خلق الزهد لما يراه لهم ويوده لهم من الخير .

١ ـ فقد جاء ذات مرة إلى بيت ابنته فاطمة رضي الله عنها فوجد على بابها سترا، فلم يدخل، وقلّما كان يدخل(٣) إلا بدأ بها، فجاء علي رضي الله عنه فرآها مهتمة فقال مالك ؟ قالت: جاء النبي صلى الله عليه وسلم إليّ فلم يدخل، فأتاه علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن فاطمة اشتد عليها أنك جئتها فلم تدخل عليها فقال: "وما أنا والدنيا ، وما أنا والرقم"(٤) .

فذهب إلى فاطمة فأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأمرني به ؟ قال: "قل لها ترسل به إلى بني فلان"(٥) .

---

(١) هو ضرب من البسط له خمل رقيق. النهاية ١١٩/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما وطىء في التصاوير ٢١٥/٧، ومسلم في اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة برقم ٢١٠٧ واللفظ له .

(٣) أي المدينة بعد عودته من الغزو .

(٤) يريد النقش والوشي، يعني الزينة، والأصل فيه الكتابة. النهاية ٢٥٣/٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في اللباس، باب اتخاذ الستور برقم ٤١٤٩، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٥٥٥ .

٢ ـ وجاءته مرة تشتكي عناءها في خدمة البيت، وتطلب منه خادما من السبي، فقال لها: "ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم ؟ تسبحين الله ثلاثا وثلاثين، وتحمدين ثلاثا وثلاثين، وتكبرين أربعا وثلاثين، حين تأخذين مضجعك"(١) .

فهكذا كان زهده صلى الله عليه وسلم في الدنيا، فهو لم يقتصر به على نفسه، بل أحبه وأراده أيضا من أحب الناس إليه، لا بل من أمته كلها، وذلك لما يعلمه من قيمة الدنيا وقيمة الآخرة من أنهما ضرتان، فمن أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، وقد قال له ربه: ﴿ وَلَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ﴾[سورة الضحى:٤]، ولكمال رأفته بابنته وبأمته أراد لها ما هو الخير الذي يريده لنفسه، وهذا عكس ما عليه حكام الدنيا الذين لا يعرفون هذه الحقيقة فتراهم مع أهليهم وخاصتهم يغدقون عليهم متاع الدنيا وأثاثها وزينتها سواء كان من حله أو من غير حله .

زهده صلى الله عليه وسلم في الأثاث :

أما زهده عليه الصلاة والسلام في الأثاث فهو من أعظم صور زهده في هذه الحياة، حيث رضي أن يفترش الحصير، ويلبس الصوف بالصورة التي كان عليها الصوف آنذاك، ويأكل ويشرب في آنية الفخار والخشب.. مما كان يحز في نفوس أصحابه الكرام الذين عرفوا أحوال العظماء في الدنيا، وهو صلى الله عليه وسلم قد كان أعظم عظماء الدنيا والآخرة، ومع ذلك لم يرغب فيما يرغبون فيه، وإنما آثر الزهد فيها ورضي بما يرضى به أقل الناس شأنا في الدنيا .

١ ـ فقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم مَشرُبة(٢) كان معتزلا فيها، فرأى منظرا هاله في حال النبي صلى الله عليه وسلم في أثاثه ومتاعه،

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المشربة: بضم الراء وفتحها: الغرفة .

أخبر عنه بقوله :

"دخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكىء على وسادة حشوها ليف، قال: فسلمت عليه ... إلى أن قال: فرفعت بصري في بيته فو الله ما رأيت في بيته شيئا يرد البصر غير أُهبة[1] ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسِّع عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، قال: وكان متكئا فقال: "أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، قال: فقلت: يا رسول الله استغفر لي ..."[2] .

٢ ـ وفي رواية قال عمر: فبكيت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وما يبكيك ؟ قال: فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله ..."[3] .

٣ ـ وفي أخرى قال: "فابتدرت عيناي فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال: فقلت: وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الأنهار والثمار، وأنت رسول الله وصفوته ..."[4] .

فانظر إلى مبلغ رضى النبي صلى الله عليه وسلم بالحال الذي هو عليه لعلمه بقدر الدنيا، وما يدخره الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة، ولذلك عاتب عمر رضي الله عنه على مقارنة حال المؤمنين بحال الكفرة الذين عبر عنهم بقوله عليه الصلاة والسلام: "أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم" أي في الحياة الدنيا، أما الآخرة فليس لهم فيها نصيب من نعيمها المقيم، وإنما هو خالص لعباد الله المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ مَن كان يريد

---

(١) جمع إهاب وهو الجلد .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب الغرفة والعلية والمشرفة ... ٣/١٧٥-١٧٦، وفي النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٧/٣٦-٣٨ وهو جزء من حديث طويل، وأخرجه مسلم في الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء برقم ١٤٧٩ .

(٣) هذه رواية عبيد بن حنين .

(٤) هذه رواية سماك، ذكرهما الحافظ في الفتح ١٩/٣٤٤ .

الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالَهم فِيها وهم فيها لا يُبخسُون * أولئِك الّذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النّارُ وحَبِط ما صَنعُوا فيها وباطِلٌ ما كانوا يعملون ﴾[سورة هود:١٥،١٦]، فالنعيم والترف في الدنيا هو حظ الكافرين لأن جنتهم الدنيا التي لا تزن عند الله جناح بعوضة، "ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" كما في الحديث(١) .

لذلك يوالي الله تعالى عليهم النعيم في الدنيا، ولولا رأفته ورحمته بعباده ألا يختاروا الكفر على الإيمان لما جبلوا عليه من حب العاجلة، وتطلعهم إلى النعيم في الدنيا والآخرة لبسط على الكفار من الدنيا أكثر مما هم عليه كما قال الله تعالى: ﴿ ولولا أن يكونَ النّاسُ أمّةً واحدةً(٢) لجعلنا لِمن يكفُر بالرّحمنِ لبيوتهم سُقُفًا من فضّةٍ ومعارجَ(٣) عليها يَظهَرُون * ولبُيوتِهم أبوابًا وسُرُرًا عليها يَتّكِئون * وزُخرُفا وإن كُلُّ ذلك لمّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عندَ ربِّك لِلمُتّقين ﴾[سورة الزخرف:٣٣-٣٥] .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان أعرف الخلق بهذا، فلذلك لم يبال بالدنيا ولم يلتفت إليها بل زهد فيها كزهد أحد منا بأخس الأمتعة كما هو معلوم، فلم يرض بأثاثها الفخم ولا متاعها الفاخر،

٤ ـ وقد أراد ابن مسعود رضي الله عنه ذات يوم أن يتخذ له وِطاء يجعله بينه وبين الحصير لمّا رآه قد أثر في جنبه الشريف، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك وقال له: "ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"(٤) وهذا تمثيل بليغ لحال الدنيا وسرعة زوال المرء منها، والذي يعرف سرعة تصرمه وانقضاء أيامه كيف يتعنى في المتاع والأثاث؟! .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل برقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١١٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وهو حديث حسن .

(٢) أي في الكفر حيث يرغبون فيه إذا رأوا الكفار في سعة من الدنيا. انظر تفسير البيضاوي ص ٦٥٠ .

(٣) أي من فضة .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب رقم ٤٤ برقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١٠٩، والإمام أحمد في المسند ٣٩١/١، والحاكم في الرقاق ٣١٠/٤، وصححه ووافقه الذهبي وذكر له شاهدا، وله شاهد آخر أخرجه البخاري في الهبة ٢١٣/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

٥ ـ والنبي صلى ا لله عليه وسلم لما كان أعرف الخلق بذلك "كان فراشه الذي ينام عليه أَدَما(١) حشوه ليف"(٢) كما قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي ا لله عنها .

٦ ـ وقالت أيضا: "كان وسادة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم التي يتكىء عليها من أدمٍ حشوها ليف"(٣) .

وأما مدخراته : فإنه صلى ا لله عليه وسلم لم يدخر شيئا لغد كما تقدم في حديث أنس رضي ا لله عنه .

١ ـ ويكفي في الاستدلال على ذلك أيضا أنه صلى ا لله عليه وسلم لما مات "ما ترك دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضا جعلها صدقة"(٤) .

أو درعا مات وهي مرهونة عند رجل من اليهود بثلاثين صاعا من شعير أخذها رزقا لعياله كما تقدم بيان ذلك (٥) .

قال حماد بن إسحاق(٦) في "تركة النبي صلى ا لله عليه وسلم(٧): "كان رسول ا لله

---

(١) أي من جلد .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا ١٢١/٧، ومسلم في اللباس، الباب السابق برقم ٢٠٨٢ .

(٤) كما جاء في حديث عمرو بن الحارث الخزاعي عند البخاري في الوصايا ٣/٤، وفي الجهاد، باب بغلة النبي صلى ا لله عليه وسلم ٣٩/٤ .

(٥) كما جاء في حديث عائشة رضي ا لله عنها عند البخاري في الرهن ١٨٦/٣ .

(٦) ابن إسماعيل الجهضمي الأزدي، فقيه عراقي، كانت له مكانة عند بني العباس في بغداد وسامراء توفي سنة ٢٦٧ هـ، انظر ترجمته في مقدمة كتابه تركة النبي صلى ا لله عليه وسلم ص ٦ـ٩، وشذرات الذهب ١٥٢/٢، والأعلام ٢٧١/٢ .

(٧) ص ٧٨ .

صلى ا لله عليه وسلم على هذه الحال صابرا على عبادة ا لله تعالى واتباع طاعته على الضر والجوع والزهد في الدنيا، ثم فتح ا لله الفتوح في آخر عمره فصارت له أموال، منها أموال مخيريق اليهودي(١)، كان أوصى بها للنبي صلى ا لله عليه وسلم لمعرفته بأنه رسول ا لله و لم يسلم(٢)، وهي صدقات رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بالمدينة، ومنها ما فتح ا لله عليه مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب(٣) ... إلى أن قال(٤) :

"و لم يستأثر رسول ا لله عليه وسلم بشيء من الأموال، ولا اعتقد ذلك لنفسه، ولا لابنته عليها السلام، بل كان قصده لأمر الآخرة والزهد في الدنيا، ورفضها والإعراض عنها" .

وكذلك كان اختياره لفاطمة عليها السلام، ترك الدنيا، والزهد فيها حتى لم يعطها خادما من السبي الذي أتاه مع ما شكت هي وعلي عليهما السلام من شدة الحاجة إلى

---

(١) النضري الإسرائيلي كان من أحبار اليهود قال لليهود لما خرج النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى أحد: ألا تنصرون محمدا ؟ وا لله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم ، فقالوا: اليوم يوم سبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه، ومضى إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فلما حضره الموت قال: أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، وكانت سبعة بساتين، انظر الإصابة ٣٩٣/٣ .

(٢) كذا قال، وذكر الواقدي أنه أسلم واستشهد بأحد، وقد نص على إسلامه ابن إسحاق، وجاء عن الزهري مرسلا وعده الحافظ في الإصابه، انظر تاريخ المدينة لعمر بن شبة ص ٥١١، والإصابة ٣٩٣/٣، وسيرة ابن هشام ١٦٨/٣، والروض الأنف ١٨٠/٣ .

(٣) يعني من أموال بني النضير وخيبر وأرض فدك التي أنزل ا لله تعالى فيها: ﴿ ما أفاء ا لله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن ا لله يسلط رُسله على من يشاء وا لله على كل شيء قدير * ما أفاء ا لله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...﴾[سورة الحشر:٧،٨] فجعل ا لله تعالى لرسوله صلى ا لله عليه وسلم في ذلك ما لم يجعله لأحد سواه، ومع ذلك فلم يدخر لنفسه منها شيئا ذا بال .

(٤) ص ٩٠ .

ذلك بل وكلهم إلى التسبيح والتحميد ..."(١) .

وقال الماوردي رحمه الله: "هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق، ومن أقصى اليمن إلى بحر عُمان، وهو أزهد الناس فيما يقتني ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر، لم يخلف عينا، ولا دينارا، ولا حفر نهرا، ولا شيَّد قصرا، ولم يورث لولده وأهله متاعا ولا مالا، ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها، فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها" (٢) .

نعم قد كان صلى الله عليه وسلم يدخر لأهله قوت سنتهم كما دل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم"(٣) .

ولكن هذا الادخار لم يكن لشخصه الكريم، وإنما كان لمن تلزمه نفقته من نسائه وخدمه ومواليه .

قال الحافظ ابن حجر: "ولو كان له في ذلك مشاركة لكن المعنى أنهم المقصودون بالادخار دونه حتى لو لم يوجدوا لم يدخر" قال: "ومع كونه صلى الله عليه وسلم كان يحتبس قوت سنته لعياله فكان طول السنة ربما استجرَّه منهم لمن يرد عليه ويعوضهم عنه قال: ولذلك مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة على شعير اقترضه قوتا لأهله"(٤).

قلت: ويؤيد ذلك ما تقدم من أخبار عائشة رضي الله عنها وغيرها في بيان ما كانوا عليه من عدم ما يكفيهم من خبز الشعير ونحوه .

---

(١) تقدم بيان ذلك ص٣٧٢

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨٥ .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله ٨١/٧، ومسلم في الجهاد، باب حكم الفيء برقم ١٧٥٧ .

(٤) فتح الباري ٢٠/١٩٠-١٩٢، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ٢١١/١٣ .

فهكذا كان زهد النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا حيث رضي منها بزاد الراكب، اختيارا منه لذلك الحال، كما تقدم، وهذا هو الزهد حقا، فعاش النبي صلى الله عليه وسلم سعيدا حميدا غير عابه بالدنيا ولا ملتفت إلى زهرتها ومتاعها الفاني، لزهده فيها ورغبته في الآخرة. فصل اللهم وسلم وبارك عليه، وارزقنا كمال متابعته والتأسي به .